

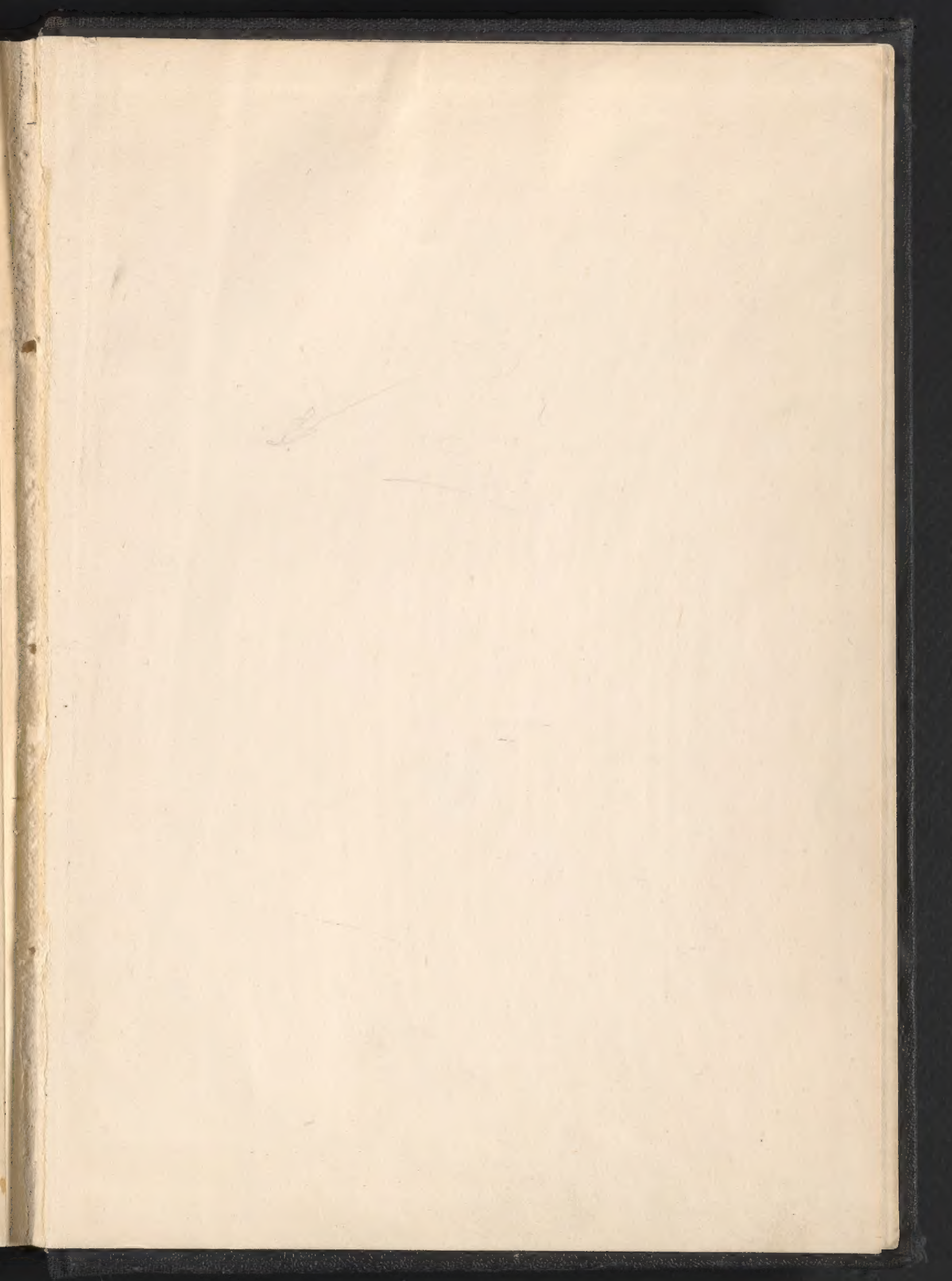
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00969 4385

38
50
Z
18

03-R2432

PJ 21-5-03





DS
51
K7
229
1945

تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي

« وهو تعريب المجلد الثاني من « خلاصة تاريخ الكرد وكردستان »

ألفه باللغة الكردية

معالي محمد أمين زكي

الوزير العراقي السابق سنة ١٩٣٧

عربه وراجعاه الأستاذ

محمد علي عوني

المترجم بديوان جلالة ملك مصر المعظم

سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

B 1201347X

I 13318123

تكملة المطبوعات
للسنة ١٩٤٨

الكتاب رقم ١٣٣١٨١٢٣

[حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمترجم]

طبع سنة ١٣٦٧ - ١٩٤٨

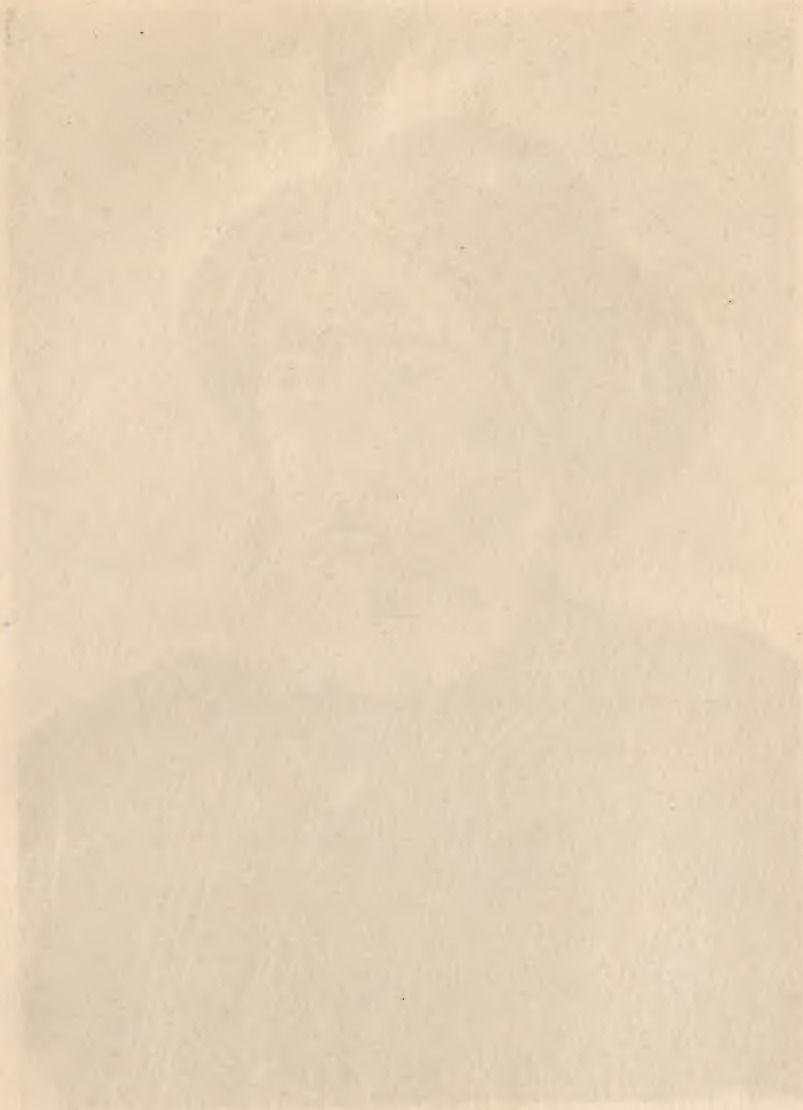
مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر



السلطان صلاح الدين بطل الاسلام والكرد

هذه الصورة وصورة « كريم خان » مأخوذتان من (روث كورد) المجلة الكردية الشهرية الصادرة في استانبول سنة ١١٣١ (١٩١٣ م) . وقد دل البحث على أن الأصل في صور صلاح الدين المنشورة في أرجاء العالم حتى الآن هو ما نقل من كتاب روسي مأخوذ من دير قديم بمصر . ويدل البيتان الاتيان لحكيم الزمان عبد المنعم الأندلسي الذي هبط مصر في عهد صلاح الدين فنظم القصائد في مدحه ، على أن المسيحيين في ذلك العهد رسموه ووضعوا رسمه في الكنائس ؟

فحطوا بأرجاء الكنائس صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقاليم
يدين لها قس ويرقى بوصفها ويكتبه يشق به في التمام
(راجع ص ٢٣٣ من هذا الكتاب ص ٢٠ من كتاب حياة صلاح الدين)



مجلس العلماء والادباء والفقهاء

في يوم الاثنين الثاني من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٨٠ هـ
عقد المجلس في دار الخديوية في الساعة العاشرة صباحاً
حضره من العلماء وادباء وفقهاء ورجال الدولة
والعلماء من بلاد الشام والعراق والهند
والعلماء من بلاد الهند وبلاد فارس
والعلماء من بلاد الهند وبلاد فارس
والعلماء من بلاد الهند وبلاد فارس

في يوم الثلاثاء الثالث من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٨٠ هـ
عقد المجلس في دار الخديوية في الساعة العاشرة صباحاً
حضره من العلماء وادباء وفقهاء ورجال الدولة
والعلماء من بلاد الشام والعراق والهند
والعلماء من بلاد الهند وبلاد فارس
والعلماء من بلاد الهند وبلاد فارس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هب الناس أحرارا ومعلمهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا،
فيتآزروا في سبيل تحقيق المثل الأعلى من الحرية والاستقلال للجميع؛ حتى يتسنى لهم
الوصول إلى السعادة التي ينشدونها في معاشهم ومعادهم . والصلاة والسلام على
سيدنا (محمد) المرسل إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، والقائل ﴿ لا يؤمن أحدكم
حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ﴾ رافعا بذلك ألوية الإخاء بينهم ومذكرا أنهم
سواسية في جميع الحقوق والواجبات ، وأن لا تفاضل بين شعوبهم المختلفة
وأقوامهم العديدة إلا بالتسابق إلى الغايات الحميدة والأغراض النبيلة .

﴿ أما بعد ﴾ فإني حينما انتهيت من ترجمة المجلد الأول من كتاب (خلاصة
تاريخ الكرد وكرديستان) لمؤلفه المفضل معالي محمد أمين زكي الوزير العراقي
السابق ، وأصدرته بعد مراجعة علمية دقيقة في حلة عربية قشبية في أواخر
سنة ١٩٣٩ ، اشتعل أوار الحرب العالمية الثانية . فحالت ظروفها بيني وبين
مواصلة الجهود لتعريب المجلد الثاني من هذا الكتاب القيم ، لكي تتم بذلك
ترجمة سلسلة التاريخ القومي للامة الكردية في مختلف العصور كما أراده المؤلف .
ولما رأيت أن أيام هذه الحرب الضروس قد طالت لا يعرف لها مدى ولا آخر ،
عاودتني الرغبة وجذبتني الشوق إلى استئناف العمل الشاق الذي أخذت نفسي
به ، فواصلته حتى أتممت الترجمة واتخذتها أساسا للبحث والتنقيب ، لإصدار
المجلد الآخر الذي يتضمن تفاصيل وقائع وحوادث (الدول والحكومات
الكردية) التي قامت . بأنحاء كردستان في مختلف الأدوار في العهد الاسلامي .

ولقد شرعت في ذلك مستعينا بالله من سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٤٥. حيث عكفت على العمل في تلك الايام والليالي الرهيبة التي كانت تشن فيها الغارات الجوية على مصرنا المحبوبة — وقاها الله شر ذلك اليوم — فتمطرها بوابل من القنابل والطرايد. فكان لي في ذلك العمل المضني أعظم سلوى وأكبر لذة تصرفني عن الاحساس بوطأة تلك الايام العصيبة وأثرها الفعال في النفوس والأعصاب. إذ لم أدرك كيف مضت وانقضت تلك الأعوام الأربعة من عمري البالغ الآن واحدا وخمسين ربيعا. وما ذلك إلا لأنني كنت غارقا في لجة البحث وخضم التنقيب عن النصوص والنقول، للتأكد من الوقائع والحوادث واستخراجها من بطون مصادر التاريخ الاسلامي من عربية وفارسية وتركية وكردية، سالكا في ذلك، المنهج الذي اتبعته في ترجمة المجلد الأول ومراجعته، كما هو مفصل في كلمتي المصدر بها ذلك الكتاب، فلا أعيد شرح ذلك هنا مرة اخرى. بل أكتفي بأن أعرض على النابهين من القراء المشغوفين بالبحث والتمحيص، أني قد تصرفت كثيرا في اسلوب الاصل وطريقة سرده للحوادث حذفًا وإضافة، وفي ترتيبه للحكومات والامارات، حيث لم يكن مرتبا ترتيبا تاريخيا. واني ما أقدمت على ذلك إلا ليظهر تسلسل الحوادث والوقائع واضحا، ويعرف مدى نشاط هذه الامة التي عاشت القرون والدهور محتفظة بقواها الذاتية وسجاياها القومية، تتمتع بسيادتها الداخلية بين تلك الامبراطوريات الجبارة، والاغارات المدمرة التي كانت توزع يمينا وشمالا. وان كان تتمتع بذلك على شكل حكومات ودول عديدة، وامارات وادارات متنوعة، من غير أن تتاح لها الفرصة لانشاء وحدة وطنية سياسية تشمل جميع أجزاء كردستان المقسم والممزق بين الامبراطوريات في مختلف العصور.

هذا وقد قسمت الكتاب مثل الاصل إلى قسمين، ومقدمة في الحكومات القديمة الوثيقة الصلة بشعوب وأقوام الامة الكردية الحالية. فسميت القسم الأول (الباب الأول في الحكومات الكردية في العهد الاسلامي). وهو

في أربعة عشر فصلاً ، حيث عقدت لكل حكومة فصلاً . وسميت القسم الثاني (الباب الثاني في الامارات الكردية في العهد الاسلامي) وهو في سبع مجموعات . يحتوي كلها على خمس وثلاثين إمارة وشبه إمارة . قام معظم هذه الحكومات والامارات في أنحاء كردستان نفسه ، وقليل منها قد ظهر في خارجه من البلاد المجاورة التي نقل إليها الكرد أو انتقلوا بأنفسهم ، في مناسبات أليمة مختلفة ، كشرقي إيران وجبل لبنان وبلوچستان وفارس . . .

وكل من ألقى نظرة اعمان وتدبر بعيداً عن التعصب والهوى ، إلى نشوء هذه الحكومات الوطنية والامارات القومية المحلية وتطورها ، يرى أن الأمة الكردية المنبثقة ، بشعوبها الأصلية والأساسية من اللر والكهر والكروانج والكرمانج والكرمان ، في البلاد الممتدة من جبال القوقاس إلى الخليج الفارسي . ومن جبال زاغروس وألوند إلى جبال توروس وخليج اسكندرونة . لم تحافظ فقط من فجر التاريخ على كيائها الطبيعي وأثرها الساحقة وبميراثها القومية من لغة وعادات وتقاليد وطباع وسجايا ووحدة شعور وأزياء - بل أبدت نشاطاً سياسياً كبيراً بمساهماتها في أغلب الحوادث التاريخية الكبرى التي اجتاحت بلاد الشرقين الأدنى والأوسط في مختلف العصور والأدوار . حيث وفقت إلى إقامة دول وحكومات وإنشاء إمارات محلية ، وإدارات وطنية ، آلت أخيراً بغد الزمان إلى منظمات محلية ومؤسسات قومية متواضعة ، كالعشيرة والقبيلة والمشيخة - ولو أن هذه التقسيمات الاجتماعية تخالف مثيلتها في الأمم الأخرى - في جميع أنحاء تلك البلاد التي أطلق عليها لفظ « كردستان » منذ العصور الوسطى ، للإسلام للدلالة على أنها مسكن ومأوى الشعوب الكردية من القديم بأكثريتها القاهرة . وبالرغم من أن استيلاء الامبراطوريات على هذه البلاد العسة كان للعهد القريب أسماً ، فقد أنتج ذلك وغيره من الأسباب عدم سnoch الفرصة لها ، لكي تتمكن من إيجاد وحدة سياسية تشمل جميع الاقسام من كردستان . أو أن تنشئ لها إدارة محلية موحدة تنظم جميع الشعوب

والشيوع التي إنقسمت إليها الأمة الكردية ، لعوامل وأسباب عديدة خارجة عن طوقها من طبيعية وجغرافية وسياسية ودينية ثقافية ، وغيرها من الاسباب التي ولدت على مدى الأيام ، فقدان الشعور بالوحدة اللغوية والثقافية والعمل على توحيدها وتعميمها في جميع الجهات والأقسام من كردستان .

ومن أشد الأسف أن هذه الحال قد حفزت بعض المغرضين إلى الانزلاق في ميدان المين والافتراء ، وجعلتهم يتخيلون خيالات باطلة . حتى زعموا - لا عن عقيدة وإيمان بل عن تمويه وبهتان - أن ليس هنالك أمة كردية وشعب كردي ينطق بلغة واحدة ، له ميول واحدة وهو ذو شعور قومي واحد ، وأن هذه الكتلة البشرية ما هي إلا مجموعات متنافرة من القبائل والجماعات . فأباحوا بذلك لأنفسهم القول بأن الأجدد بالكردية والأحرى به ، أن يتنازل عن قوميته ويهمل مشخصاته فيندمج في بقايا الأمم ممن تساكنها اليوم وتحكمها في بلادها .

وهكذا خلقوا بادعائهم الجريء وزعمهم الغادر ، المتاعب والصعاب لأنفسهم وللشعب الكردي الآمن في بلاده منذ أيام (نوح) عليه وعلى نبيينا السلام . فنشأ من ذلك سوء تفاهم وحزازات لا يزول أثرها مدى الدهر ، بسبب ما أريق من الدماء وانتهب من الأموال والثروات ، وما دمر من القرى والبلاد . وما مبعث ذلك - على ما أظن - إلا الجهل بأحوال البلاد وتاريخها وجغرافيتها وخصائص الشعب الكردي من النخوة والشهامة والتمسك بلغته وبلاد آبائه وأجداده من فجر التاريخ . بل والتجاهل والاستهتار بحقيقة مطلب الأمة الكردية وأمانيتها الشعبية التي هي في الوقت نفسه ضرورة من ضرورات حياة الأمم ، وما هي إلا إطلاق الحرية للثقافة العامة باللغة القومية ، حتى يقبل الشعب على التعليم المدني بكل شغف وإخلاص ، فبذلك فقط يحل الوئام والسلام محل النزاع والخصام ، وكفى الله المؤمنين القتال .

القاهرة ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣٦٧

٧ مارس سنة ١٩٤٨

محمد علي عوني

مقدمة

في

(حكومات الشعوب القديمة الوثيقة الصلة بأصل الأمة الكردية)

ذكرنا في «المجلد الأول» من تاريخنا (خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان) أن المؤرخين وعلماء الآثار قد استدلوا بعد دراستهم للآثار والوثائق المكتشفة حتى الآن ، على أن هنا لك صلة وثيقة متصلة الحلقات بين بعض شعوب منطقة جبال « زاغروس » وأصل الأمة الكردية ، وأن هذه الصلة لو أمعن النظر في دراستها دراسة علمية منزهة عن الهوى والتعصب ، لاتضح أنها ليست بأقل من صلة كل من شعبي الأكاد والعموري بالعرب ، ولا من الصلة بين شعب الهون والأمة التركية .

ولا أظن أن هنا لك معترضا علينا ، إذا ما اقتفينا أثر رجال هاتين الأمتين واتجهنا قبلتهم ، فسرنا على نهجهم في بعث تاريخنا القديم . لا سيما أننا في هذا المجال لا نهدف إلى إحياء تاريخ عريق في القدم بشق الوسائل ، وإنما الغرض هو مجرد عرض بعض آراء المؤرخين وعلماء الآثار على أنظار القراء .

ومع ذلك يجب أن نعترف بأن منابع التاريخ القديم للشعوب الكردية لا يزال يخيم عليها حجب كثيفة من ظلام دامس ، كما هو الحال بالنسبة للأمم الأخرى ، ولذلك فهي تتطلب منا جهداً متواصلاً ، وسعيًا حثيثاً ، وعملاً دائماً حتى تبرز بزوغ الشمس للعيان .

وكما أن هذه الحالة لم تصرف الآخرين عن البحث في أصول تاريخهم القديم لتعرف الاحوال وتبين المناسبات ، وجلاء حقيقة الصلات والروابط بين الأقوام القديمة وأصول أمهم الحالية — فكذلك يجب ألا تمنعنا نحن الآخرين

أو تقف حجر عثرة في سبيل اقتدائنا بهؤلاء الرجال في التنقيب والبحث في أصول التاريخ القديم ؛ بل ينبغي أن نجعل من هذه البحوث الخاصة بتاريخ تلك الأقوام القديمة — وقد أثبتت الوثائق إثباتا قاطعا بأنها وثيقة الصلة بالامة الكردية — مقدمة لهذا الكتاب .

ولقد أتينا في « المجلد الأول » بمجمل عن الشعوب القديمة الوثيقة الصلة بالامة الكردية ، والآن نتحدث هنا في « المجلد الثاني » على ضوء ما لدينا وتحت أيدينا من الوثائق والآثار المكتشفة ، عن التشكيلات السياسية وأعنى بها الحكومات التي أقامت هذه الشعوب ، وعمرت طويلا في مختلف عصور التاريخ القديم ...

١ — « حكومة لولو = لولاي »

مما يؤسف له أن التاريخ لا يحمل بين طياته حتى الآن شيئا شافيا ، يستحق الذكر عن هذه الحكومة ومدى نفوذها وحدودها الجغرافية ، وإن كانت دراسة الوثائق التي يرجع تاريخها إلى عهدي « سرجون » و « نرام سن » الأكاديين تلقي شعاعا على هذا الغموض ، إذ تدل على أن حدود هذه الحكومة كانت متاخمة لبلاد « أررافا = كركوك الحالية » وبلاد « الكاسيين » . وعلى هذا الأساس تكون منطقة لواء السليمانية الحالية ونواحي « هورين - شيخان » و « خوراتو » ومنطقة « زهاو = هالمان » من بلاد ال « لولو » القديمة .

هذا وكان الشعب اللولوى يؤلف مع قسم من الشعب الجوتى حكومة مستقلة ، يرى بعض المؤرخين أن مركزها كان (زيمرى) ، ولكن الأستاذ « سبايزر » يقول إن مركزها كان (آراكدى) وأن الملك اللولوى المسمى « آنبوباني » قد استولى على بلاد (هالمان = آرمان) في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ، وذكر المستر « هول » في كتابه (تاريخ الشرق

الأدنى القديم) أن ملكاً يدعى (لاسيراب) قد خلف «آنوبانيئي» على عرش بلاد «للولو»، فيظهر أن الملك (سرجون) ^(١) الأكادي قد اجتاحت بلاد «للولو» في عهد هذا الملك، وقد ظلت حكومة اللولو قائمة مستقرة حتى عهد (شلمنصر) الثالث الآشوري حيث اجتاحتها أخيراً الجيش الآشوري عام (٨٢٨ ق. م) تقريباً.

٢ - حكومة الجوتي (الكوتي = الجودي)

إن تاريخ هذه الحكومة تفصيلاً مجهول لنا تماماً، والظاهر أن هذا الشعب كان يستوطن أطراف نهر (زني كويه = الزاب الصغير) ثم أخذ يزحف رويداً رويداً نحو الجنوب إلى أسفل حتى غزا بلاد «آكاد» و«سومر» بعد وفاة (شاركالي شارري) خلف (نرام سن) في أواسط القرن السادس والعشرين تقريباً قبل الميلاد. وذلك بعد قتال عنيف ونضال مرير، مع الأكاديين والسومريين، حتى أخضعهم لحكمه تمام الاختضاع.

وقد دون في جدول ملكي كشف في مدينة (نيبور) القديمة أن واحداً وعشرين ملكاً جوتياً حكموا ١٢٥ سنة وأربعين يوماً في (بابل)، وأن أحدهم المدعو (آنري دابيرز - Enridapirzi) كان بنوع خاص، عظيم الشأن، عريض النفوذ، حيث استطاع أن يبسط سلطانه على بلدان ليست بأقل اتساعاً من المناطق والبقاع التي كانت خاضعة لنفوذ «نارام سن»... ولسكن ضعف آخر وملوكهم أطمع الأعداء فيهم، وحرك الغزاة على ديارهم. إذ انتهز ملك «ته ريخ» = أرك = الوركاء، الشهير المدعو «أتوخيجال» = Utukhegal،

(١) أول ملك من ملوك السلالة الأكادية (٢٥٥٠ — ٢٣٣٢ ق. م) دام حكمه ٥٥ سنة. (دليل المتحف العراقي ص ٤٨) بغداد سنة ١٩٤٣. المترجم

السمري هذه الفرصة الذهبية ودحر آخر ملك جوتي في بابل وقضى عليه ،
وأخرج الجوتين من آكاد ، وأسس حكومة بابلية جديدة (١) على أنقاض
حكومة الجوتين عام (٢٢٨٢ ق م) .
بعد ذلك عاد الشعب الجوتي إلى موطنه الأصلي في منطقة الزاب الصغير
و (كر كوك = آرابخا) حيث لم تقم لهم بعد ذلك قائمة ولم تشرق لهم نهضة
سياسية ظاهرة (٢) .

٣ - حكومة الكاسيين (كسو = كشو) (٣)

لما أخذ الضعف والانحلال ينخران في عظام حكومة الساميين

(١) ولعلها سلالة الوركاء الخامسة التي أسسها اتوخيجال سنة ٢٢٨٢ ق م .

(٢) ورد في دليل المتحف العراقي ص ٤٨ ما يأتي : (سلالة الكوتين)

(حوالي سنة ٢٣٧٠ - سنة ٢٢٨٢ ق م)

(١) - أمبيا ٣ سنوات (٢) - أن-كيشو ٦ سنوات . (٣) - نكل لجاب ٦ سنوات

٤ - شلمى ٦ » ٥ - ألومش ٦ » ٦ - أنى مابكش ٥ »

٧ - أجيشوشى ٦ » ٨ - إيارلب ١٥ » ٩ - أمباته ٣ »

١٠ - أيارلجش ٣ » ١١ - كورم ١ » ١٢ - .. ٣ »

١٣ - ... ٢ » ١٤ - إرارم ٢ » ١٥ - ابرانم ١ »

١٦ - خابلم ٢ » ١٧ - بوزرسن (ابن) ٧ » ١٨ - إيارلجندا ٧ »

١٩ - لاسراب ٧ » ٢٠ - تريكان ٤٠ يوما

المترجم

(٣) تطلق المؤلفات التاريخية القديمة اسم الأسرة الثالثة في بابل على

حكومة الكاسيين ، واسم الأسرة الأولى التي حكمت بابل من عام ٢٢٢٥ حتى

عام ١٩٢٦ ق م على حكومة العموريين ، وأن الملك «حمورابى» الشهير هو

سادس ملوك هذه الأسرة الأولى ، وأن عدة حكومات مستقلة كانت تقوم

بمدن «سومر» في هذا العهد ، وقد اعتبرت في مجموعها أسرة ثانية من الأسر

الملكية . المؤلف

(العموريين) في بابل ودب ديبه في عهد الملك الحادى عشر السامى المدعو «سموديتانا» آخر ملوك هذه الأسرة ، تحرك الشعب الخاتى (Khatty) أى الحيثى ، وشن هجوما عنيفا على مملكة بابل ، أسفر عن قضاء مبرم على الأسرة الأولى التى حكمت بابل ، ألا وهى الحكومة العمورية (عام ١٩٢٦ ق.م.) وفى رواية لبعض المؤرخين أن الحيثيين لم يحطوا رحالهم فى بابل ، بل

وورد عن الكاسيين فى نفس المصدر ص ٥١ :

(الكاشيون ١٧٤٦ - ١٦٦٩ أو ١٧٥٠ - ١١٧٠)

(١) - جنداش (٢) - أجم الأول (٣) - كاشتلياش الأول

أوشى .. أبى رتاش .. كاشتلياش الثانى .. تازيمجرماش .. خربا - شباك
أجم الثانى (١٥٩٨ - ١٥٧٩) كوريجالزو الأول (١٥٧٨ - ١٥٦٠)
مليشباك الأول (١٥٥٩ - ١٥٤١) نازيمرتاش (١٥٤٠ - ١٥٢٢)
برنابرياش الأول (١٥٢١ - ١٥٠٣) كاشتلياش الثالث (١٤٨٤ - ١٤٠٢)
أجم الثالث (١٤٨٣ - ١٤٦٥) كره أنداش الأول (١٤٤٥ - ١٤٢٧)
كدشمان حربى الأول (١٤٢٦ - ١٤٠٨) كوريجالزو الثانى (١٤٠٧ - ١٣٨٩)
كدشمان - انليل الأول (١٣٨٨ - ١٣٧٠) برنابرياش الثانى (١٣٦٩ - ١٣٦٨)
كره انداش الثانى (١٣٦٧ - ١٣٥٥) كدشمان حربى (١٣٥٥ - ١٣٤٥)
كوريجالزو الثالث (١٣٤٤ - ١٣٢٠) نازيمرتاش الثانى (١٣١٩ - ١٢٩٤)
كدشمان ترجو (١٢٩٣ - ١٢٧٧) كدشمان انليل الثانى (١٢٧٦ - ١٢٧١)
كودر - انليل (١٢٧٠ - ١٢٦٣) شجركتى شرياش (١٢٦٢ - ١٢٥٠)
كاشتلياش الرابع (١٢٤٩ - ١٢٤٢) انليل - نادن - شومى (١٢٤١ - ١٢٤٠)
كدشمان حربى الثانى (١٢٤٠ - ١٢٣٩) أداد - شم - إدن (١٢٣٨ - ١٢٣٣)
إداد - شم - ناصر (١٢٣٢ - ١٢٠٣) مليشباك الثانى (١٢٠٢ - ١١٨٨)
مردخ أبال أدن الأول (١١٨٧ - ١١٧٥) زبابا - شم - إدن (١١٧٤)
انليل نادن - أخى (١١٧٣ - ١١٧١) . اه

المترجم

جلوا عنها ، وعادروها بعد تدميرها ، وقفلوا راجعين أدراجهم إلى بلادهم بغربي الفرات ، فأعقب ذلك قيام حكومة وطنية في بابل عمرت قرنا ونصف قرن من الزمن ، حيث أغار الكاسيون على بابل ، وما لبثوا أن اجتاحتها واستولوا عليها في عام (١٧٦٠ ق . م) ، وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل شنوا غارة أخرى على البلاد الساحلية (القطر البحري) من مملكة « سومر » في (عام ١٧١٠ ق . م). وانتزعوها من بين برائن آخر ملوكها المدعو « نى غاميل = Ea - Gamil » ، ثم وحدوا بين (سومر) و(آ كاد) فأصبحت مملكة واحدة تحمل اسم (كار - دونياش Kar - Duniash)^(١) وهو الاسم الذى أطلق على الحكومة الجديدة .

ونحن لسوء الحظ نفتقر إلى معلومات شافية عن عهد مؤسس هذه الحكومة وهو الملك (غانديش - Gandish) أو « غادداش » اللهم إلا كونه حكم ستة عشر عاما . ويقول المستر « هول » في كتابه « تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ١٩٩ ، إن (أولام بوريش - Ulam Buriash) الكاسى الذى انتزع البلاد الساحلية من « نى غاميل » السومرى في عام (١٧١٠ ق . م) ، هو ابن ملك بابل المدعو (بورنا بوراريارش - Burnaburariash) وأن (آ كوم الثالث

(١) يقول المستشرق سر كينج في كتابه « تاريخ بابل ، ص ٢٤٤ » أن لفظ « كاردونياش » يشمل القطرين المتحدين سومر وآ كاد ، على الرغم من أنهما احتفظا بتقسيمهما الإدارى والجغرافى ... أما « سر سدننى سمى » فيقول إن هذا اللفظ مشتق من : « دونياش » وهو اسم معبود من معبودات الكاسيين ، و « كار » أى الأرض أو البلاد ، فيكون المعنى كاملا « مملكة الاله دونياش » ويكون الغرض من هذا الاطلاق التبرك والتقديس . بينما يذكر كتاب « شعوب ميسوپوتامى » ص ٩٨ « أن كلمة « كاردونيا » إن هى إلا لفظة كاسية تطلق على مدينة « بابل » .

المؤلف

Agum -) الذى استولى على مدينة « دور - نى = Dur-ea » التى كانت آخر مدينة محصنة فى سومر ، هو حفيد « أولام بورياش » .

ويقول أيضاً فى ص ٢٠٠ : انه على الرغم من قلة ما لدينا من معلومات وحقائق عن الكاسيين فمن المسلم به أن الملوك الذين خلفوا الملك «غانديش» هم كما يلي على التعاقب :-

(« أوششى - Ushshi » و « أبى راناش - Aby Ratash » و « تاششى - كورماش - Tashshigurmarsh » و « آ كوم الثانى - Agum fi » - أو « آ كوم كا كريم » .

وجاء فى الجزء الأول من كتاب « التاريخ العام للتورخين » ص ٣٢٨ ، أن الملك « آ كوم كا كريم » قد اعتلى العرش عام (١٧٠٠ ق . م) . فبدل هذا على أن ملوك آخرين قد سبقوه على عرش بابل من بعد الملك «غانديش» حتى هذا العام (١٧٠٠ ق . م) ، كما يؤيد مستر هول هذا رأى . هذا وفى عهد هذا الملك (آ كوم كا كريم) اشتبك الكاسيون مع الحيثيين فى حرب ضروس ، حامية الوطيس ، إنعقد فيها لواء النصر للكاسيين ومنى فيها الحيثيون بهزيمة شنيعة ، استرد خلالها الكاسيون منهم التماثيل وأصنام آلهة بلاد « مردوك - Marduk » و « سار پانيتوم - Sarpanitum » التى كان الحيثيون قد أخذوها ضمن الغنائم عندما استولوا على بابل فى أواخر عهد الأسرة الأولى وبمعنى آخر فى عهد آخر خلف للملك « حمورابى » .

وقد اتسعت رقعة أملاك الحكومة الكاسية فى هذا العهد ، حيث استطاع (آ كوم كا كريم - Agumkakrim) أن ييسط سلطانه على جميع بلاد سومر ، وضمها إلى بلاد آ كاد ، فصارتا مملكة واحدة أطلق عليها اسم مملكة « كاردونياش » .

ولم تقف آمال هذا الملك عند هذا الحد ، بل توالت فتوحاته ، واستأنف

غزواته الموقعة فشن حرباً عواناً على الحيثيين فدحرهم ، واستولى على شمالى « سورية » وظل محتفظاً بالسيطرة على الشعب العمورى حتى عهد الفتوحات المصرية لهذه الديار فى القرن السادس عشر قبل الميلاد (١) .

وتروى لنا الوقائع التاريخية أنه بعد أن أسدل الستار على حكم هذا الملك الذى دام ٢٢ سنة ، مضت فترة طويلة تقدر بقرنين وثمانية وعشرين عاماً يكتنف تاريخها الغموض والابهام وليس لدينا عنها معلومات البتة ، اللهم إلا أسماء لبعض ملوك يقال إنهم قد خلفوا (آ كوم كا كريم) .

وهم حسماً يقال (بورنا بورايش) (الظاهر أنه الثانى) : و (كاشتيلياش الثانى - Kashtiliash II) - و (آ كوم الثالث) ثم تعقبها فترة أخرى تذكر فيها أسماء (كاداشمن حربى الأول - Kadashmen Kharabe) - و (كوريكالزو الأول - Knriqalzn I) و (مولى شيبك الأول - Moly Shipak) وظل هذا الغموض سائداً وعجلة التاريخ معطلة حتى بدأ عهد الملك (كارا اينداش - Kara indash) (٢) فى عام ١٤٥٠ ق . م كذا ذكر فى التاريخ العام للمؤرخين . ونستطيع أن نقول أنه منذ هذا العهد ، أضحى تاريخ الكاسيين معلوماً ومعروفاً إلى حد ما ، وهاك خلاصة وجيزة عنه (٣) :

- ١ - « كارا اينداش الأول عام ١٤٥٠ ق . م ، وفق هذا الملك لعقد معاهدة خاصة بالحدود مع ملك آشور المدعو (آشور - بل - نيش - آشو) وبذلك بدأت العلاقات السياسية بين حكومتيهما ، وقد أنشأ معبداً للاله « نى - اننا E anua »

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٢٠١ .

(٢) كان هذا الملك معاصراً لفرعون مصر « تحتمس الرابع »

(٣) التاريخ العام للمؤرخين The history of The World

المؤلف

(جزء ١ ص ٣٢٨ - ٣٢٩)

- ٢- (كدشمان - أنليل الأول) أو (كاداشمن - بل Kadashmou Bel عام ١٤٣٠ ق. م) وكان معاصراً لفرعون مصر (أمنحتب) الثالث .
- ٣- (بورنا بورياش الأول Burnaburiash 1 عام ١٤٢٠ ق. م) أنشأ هذا الملك معبداً باسم (رب الشمس) ببلدة لارسا ، وحارب الملك الآشورى (پوزور آشور الرابع) بسبب نزاع قام بينهما بخصوص مسألة الحدود .
- ٤- (كوريكالزو الثانى Kuripalzu II عام ١٤١٠ ق. م) أطلق اسم هذا الملك خلال حكمه على إحدى المدن ، ويغلب على الظن أنه غير اسمها السابق بعد أن جددوها . (وهى مدينة عقر قوف الاثرية) .
- ٥- (بورنا بورياش الثانى ١٤٠٠ ق. م) خلف الملك « كورى كالزو » على العرش ، وعاش سعيداً طيلة مدة حكمه .
- ٦- (خارا خارداش - Kharakharqash ١٣٧٠ ق. م) (١) . تزوج من ابنة الملك الآشورى المدعو (آشور او بالبط) . وقد شن ابنه (كدشمان حربى) الأول حرباً على (السوتين Sotu) فانتصر عليهم وفرض عليهم إسكان بعض رعاياه بينهم .
- ٧- وحدث فى عام (١٣٦٠ ق . م) أن انفجر الكاسيون ثائرين فى وجه حكومتهم لما رأوا من ازدياد وتغلغل نفوذ الآشوريين فى بلادهم ، وامتد لهيب الثورة فى أنحاء البلاد ، وتمسكن الثائرون من قتل الملك ونصبوا على العرش مكانه الملك ، (نازى بورغاش Nazi purgash) ولكن هذا الملك بدوره لم يعمر طويلاً حيث أخطأه التوفيق إبان الحرب التى نشبت بينه وبين الملك الآشورى « آشور أوبالت » ولقى فيها حتفه .

(١) يظهر أنه الثانى كما فى الدليل . المترجم

٨ - نصب (كورى كالزو الثالث) فى عام (١٣٥٠ ق. م) ملكا على البلاد من قبل الآشوريين وبموافقتهم ، وقد استولى هذا الملك على بلاد « عيلام » ، ودخل مدينة السوس (سوسا = شوشان) ثم اشتبك فى حرب مع الملك الآشورى (بل نرارى - Bel Nirari) .

٩-١٣ (نازى مروتاش Nazy Maruttash ١٣٤٠ ق. م) و (كدشمان ترجو Kadashmen - Turgu ١٣٣٠ ق. م) ، و (كدشمان انليل الثانى أو ، بورياش ١٣٣٠ ق. م) و (كودر - انليل Kudur enlil ١٣٠٤ ق. م) ، و (شجرا كتي بوريا - Shagarakti Buriash ١٢٩٨ ق. م) .

واندلعت فى عهد هؤلاء الملوك الخمسة نيران حروب طاحنة ، فاشتد أوارها و طال أمدها بين بابل وآشور . وهذا هو كل ما لدينا من معلومات عن حكمهم .
١٤ - ثم أعقب ذلك فترة (١٢٨٥ - ١٢٧٠) اشتد فيها الهجوم على « بابل » وأخذ العدو اللدود ألا وهو الملك الآشورى الأول (توكولتى - نينيب = Takulty - Ninib) يجردها عليها الحملة تلو الحملة ، ويشن عليها غارة إثر أخرى منذ فجر عام (١٢٨٥ ق. م) حتى أحرز انتصارا باهرا ، وطرق أبواب المدينة ، ودخلها فاتحا غازيا ، واستولى على خزائن معابدها ، ونقلها مع المعبود (مردوك) إلى آشور . . . ويلوح أن هذه الحوادث قد وقعت ودار رحاها فى عهد الملك الكاسى (بيبى ياشو - Bibe iasho) الذى خلفه على العرش كل من (بيل شوم ئيدن) و (كاداشمن حاربى) الثانى (١٢٧٧ - ١٢٧٥ ق. م) و (أدادشوم - ئيدن) (١٢٧٤ - ١٢٦٩) . أولئك الذين كانوا خاضعين للملك الآشورى (١) الذى حكم (بابل) سبع سنوات حكما حقيقيا .

(١) وهو كما فى الدليل (نكلتى ننورتا) الاول . المترجم

١٥- لكن أهل (بابل) لم يطل خنوعهم للاستعمار الآشورى بل كانوا على أحر من الجمر يتربصون ساعة لتحرير بلادهم ، فثارت ثائرتهم وتحركت فيهم حمية الجاهلية الأولى بعد أن نظموا صفوفهم ، وما أن أهل عام (١٢٧٠ ق.م) حتى قاموا قومة رجل واحد في وجه العدو الغاصب ، ونجحوا في طرد الآشوريين من بلادهم ، ونصبوا على عرش بلادهم ملكا يدعى (دادشوم - اوسور) الذى كان عهده فى بابل عهد رخاء وطمأنينة ، وتمكن من قتل (بل - كودور - اوسور) ملك آشور ، وضم بعض بلاده إلى مملكته .

١٦ - (ملشيباك الثانى Meli- Shipak ١٢٣٨ - ١٢٢٤ ق.م)

أدار هذا الملك دفعة رحي الحرب ضد الملك الآشورى المدعو (نيب - آبال - ايشاررا) فانتصر عليه واستطاع أن يظفر به مما أدى إلى تحفز ملك آشور الجديد (آشوردان) الأول إلى تهديد بابل وشن الهجوم عليها فى عهد الملك الكاسى (ماردوك - آبال - تيددين) أو (مردخ - ابال - ادن الأول) الذى امتد حكمه (١٢٢٣ - ١٢١١ ق.م) ثم أخذت عوامل الفساد والانحلال تنخر فى عظام دولة الكاسيين وما أن أتى عام (١٢٠٧ ق.م) إلا وكانت دولتهم قد دالت بسبب ثورة الساميين فيها ، وأسدل الستار على مدة حكمها البالغة ٥٧٦ عاما وتسعة أشهر (١) .

(١) يقول مستر « كينجج » : إن اسم آخر ملك كاسى على ما يظهر هو (ئى نادين - Ea Nadin) بينما يقول سرسدى سميت فى كتابه « تاريخ آشور القديم » ص ٩٤ أن اسمه « انليل - نادن - أخى Enlil nadin akhe » ، وأن الملك العيلامى « شتروك - ناخوتى » قد هاجم الكاسيين وأسر آخر ملوكهم واستولى على بلادهم حيث قامت فيها حكومة محلية جديدة بعد ذهاب العلاميين وبذلك ، انقرضت حكومة الكاسيين التى بلغ عدد ملوكها (٢٦) ملكا . على ماورد فى جدول هذا المصدر . أما صاحب كتاب التاريخ القديم للشرق الأدنى =

٤ - حكومة الميتاني (١) :

قامت هذه الحكومة في شمالي الجزيرة ، واتخذت مدينة « واششو غاني » مركزا لها ، ويلوح أنها تفرعت من حكومة الكاسيين ومن منظومة السوبارتين

= فيقول في (ص ٣١٨) : إن آخر ملك كاسي كان يدعى (بل نادين آخي - Bel Nadi akhi) ابن « زامما - شم - أدينا » وأنه مات أو قتل في عام ١٨١٠ ق.م (لعله ١١٨٠) بعد أن دام حكمه ثلاث سنوات تقريبا ، وبعد ذلك أقيمت في بابل حكومة (السلالة الرابعة Pashe) وحسب هذه الرواية يرجع السبب في انقراض الحكومة الكاسية لا إلى الهجوم الذي شنّه عليها العيلاميون بل إلى ثورة « بابل » على أثر انتصار « آشوردان » الآشوري على « زامماما » الكاسي اه المؤلف

(١) « ورد في دليل المتحف العراقي ما ملخصه : تقع مملكة « ميتاني » بين بلاد الحثيين من الغرب وبلاد آشور من الشرق وتمتد من حدود الفرات جنوبا حتى الجبال شمالا . وقد ازدهرت هذه المملكة حوالى سنة (١٤٥٠ ق.م) وكان أشهر ملوكها (سوشتار) وهو رأس الأسرة و (أرتاتاما) - ابن - سنة (١٤٣٠) و (شتارنا) - ابن - سنة ١٤١٠ و (ارتاشومارا) . و (تشاراتا) أخ . سنة ١٣٩٩ و (أرتاتاما) الثاني . و (ماتيوازا) ١٣٥٩ وغيرهم . . . والميتانيون فرع من الأمم الآرية (الهندية الأوروبية) وكان من بين آلهتهم (أندرا) و (ورونا) من الآلهة الآرية الأولى اه .

وقال المسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ في (التنبيه والاشراف) ص ٧٨ عند ذكر مواطن الشعوب والقبائل الكردية وأسمائها (منهم البازنجان ، الشوهجان الشاذنجان ، النشاورة ، البوذيكان ، اللرية ، الجوزقان ، الجاوانية ، البارسيان = البارث ، الجلالية ، المستكان) (أعني المتيكان - المتينان الموجودين بحوالى (ماردين) حتى الآن فلا أشك أن لفظه المستكان تصحيف المتيكان . المترجم) والجا بارقه ، الجروغان ، السكيكان ، الماجردان ، الهذبانية وغيرهم من بزمام فارس وكرمان وسجستان وخراسان واصبهان وأرض الجبال من الماهات : ماه الكوفة وماه =

وقد أخذت تنمو وتترعرع حتى علا شأنها وأضحت إحدى الدول الأربع العظمى وقتذاك وهي (مصر ، حيث ، كاساي ، ميتاني)

ولسكن (تحتمس الأول) Tehulines فرعون مصر مالبت أن حطم عظمته، في حرب من حروبه في آسيا عام (١٥٨٠ ق . م) في معركة على الحدود منى فيها الميتانيون لأول مرة بالانكسار أمام جيوش فرعون مصر، ومنذ ذلك بدأت سلسلة العلاقات بين الحكومتين المصرية والميتانية ، وما أن جاء عام (١٥٢٢ ق . م) حتى كانت حكومة الميتاني خاضعة لمصر .

ولسكن الميتانيين لم يطل بهم الصبر على الأذعان والتبعية لمصر، بل أخذوا في وضع الخطط التي تسكفل لهم التخلص من براثن هذه التبعية ، فعقدوا في خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد اتفاقا مع الحثيين قوى شوكتهم ، وجعل لهم شأنا كبيرا ونصيبا لا بأس به في فتوحات الحثيين فيما بعد .

وفي أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان أمرهم قد اشتد ، فشمروا عن ساعد الجد ، وشنوها حربا عوانا على المصريين حتى تمكنوا من طردهم من بلاد (العموريين) ، واستولى ملكهم المدعو « كوشان ريش آثايم » على القسم الشمالى من « سورية » ، كما أخضع لحكمه لإسرائيليين مدة ثمانى سنوات هذا إلى أن الشطر الأكبر من كردستان ، وبلاد آشور وآررافا، كانت هى الأخرى في قبضة الميتانيين .

==البصرة وماه سبذان والايفارين وهما البرج وكرج أبى دلف، وهذان وشهر زور ودرآباد والصامغان واذربيجان وأرمينية وأران والبيلقان والباب والأبواب - ومن بالجزيرة والشام والشغور .

وليس أوضح من هذا في باب تحديد الوطن الكردي التاريخي وبيان العناصر والشعوب الهندية الأوربية التي تتألف منها الأمة الكردية وهى لاتزال تحتفظ بتقاليدها وأساطيرها القديمة حتى الآن . المترجم

ولكن هذا السلطان العريض مالبث أن تضاعف وانكمش إذ أخذ الضعف يسرى ويدب في جسم الحكومة الميتانية رويدا رويدا وانهز الحثيون هذه الفرصة التي لا تعوض فاستولوا على غربي الفرات الأعلى ... من بلاد الميتانيين واستعاد المصريون منها شمالي « سورية » ، كما استولى الملك الآشوري « تيجلات بلسر » الأول على البلاد الشرقية منها . . . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل فقدوا ما تبقى في حوزتهم من بلدان في عهد « آشور نصر بال » الثالث ، وهكذا اسدل الستار على هذه الحكومة في القرن الثامن قبل الميلاد .

٥ — الحكومة الخلدية (أورارتو) ^(١)

نكتفي عن هذه الحكومة بما ذكر في المجلد الأول .

٦ — الحكومات السوبرية

أسس السوبريون بضع حكومات صغيرة ، ويلوح أنهم لم يتمكنوا من تأليف حكومة قوية متحدة .

٧ — الحكومات النارية = النهرية

لم يستطع الناريون (النهريون) وهم أحفاد السوباريين تأسيس حكومة مركزية قوية ، بل كانت حكوماتهم على شكل اتحاد أو تحالف Confederation بين عدة حكومات صغيرة . والثابت تاريخيا أن الملك الآشوري « تيجلات بلسر » الأول قد اشتبك في حرب مع ثلاث وعشرين ملكا من ملوك الناري ، وكان مسرح تلك الحروب سهل « ملاذجرد » بكرستان الشمالي . (سرسدي سميت تاريخ آشور)

(١) ولا تزال إحدى العشائر الكردية العريقة في القدم تحمل اسم هذا الشعب القديم وهي عشيرة (الخلدي = الخلطي) اليزيدية المنتشرة في أطراف سعرد والجزيرة والموصل كما في (شرفنامه) .
المترجم .

٨ - « الحكومة الميدية » ^(١)

يقول أبو التاريخ (هروdot^(٢)) المؤرخ اليوناني في صدد تشكيل الحكومة الميدية ما ملخصه: (بعد أن عمرت حكومة الآشوريين (٥٢٠) عاماً في آسيا الشمالية (لعلها الغربية) ، ثار الميديون - وكانوا خاضعين للآشوريين - في وجه حكومتهم فكان لهم السبق على كل من عداهم من الشعوب الخاضعة الأخرى في الاستقلال النهائي التام ، إثر معركة حامية الوطيس دارت رحاها بينهم وبين الآشوريين . وقد حفزت هذه الحركة الناجحة جميع الشعوب الخاضعة للآشوريين فقاموا عن بكرة أبيهم وعلى دم الحماس في عروقهم واقتفوا أثر الميديين حتى تخلصوا من ربة الخضوع عن آشور فاستقلوا استقلالاً تاماً لا تشوبه شائبة .

ويروى أنه في أحد العهود ، ظهر بين ظهراني الشعب الميدي رجل يدعى (ديوسس - ديوكس^(٣) Deioces) وهو ابن (فراثورث - فرا آرثس) ، يقال إنه قد تولى منصب العمدة في قرية ميدية ، وأنه كان يتصف برجاحة العقل والرزانة مما حدا بزرافات من الشعب وزعمائه أن يهرعوا إليه في الملمات يلتمسون النصيحة ، ويستنيرون برأيه إذا حزبهم أمر من جلائل الأمور ، فطبقت شهرته الديار ، وعرف بين قومه بأصالة الرأي ، وحسن التصرف ، وذات يوم قال لقومه : (إذا لم تنشئوا لي مقراً للحكم وحاشية تقوم على

(١) هذا البحث عن الميديين ملخص من كتاب (تاريخ آشور) لمؤلفه
T. Otmstead ٩٢٣ (ق . م) المؤلف

(٢) ولد في هاليكارناس إحدى المستعمرات اليونانية بغربي الانضول وعاش (٤٨٤ - ٤٢٥ ق . م) المترجم

(٣) دام حكمه من (٧٠٨ أو ٧٠١ - ٦٥٥) ويظن أنه كيقباد الذي تذكره الروايات الشرقية من عربية وفارسية .
المترجم

تصريف شئونه فاني سأتخلي عن أعباء الرياسة وإبداء المشورة وتصريف الأمور (فصدع القوم ولبوا النداء ، وأخذوا في بناء مدينة أطلق عليها فيما بعد (آقباتان = همدان (١)) حيث اتخذت عاصمة للحكم ، وبعد أن عمر في الحكم (٥٣) عاما خلفه في الحكم ابنه المدعو (فرائورت) الذي بعد أن وضع أساس الحكومة الميذية) .

والواقع أن هذه الرواية لا يطمئن إليها الباحث لقليل ولا كثيرا ، لأن الموطن الأصلي للشعب الميذي هو هضبة إيران ، ويلوح أنه كان يمت بصلة النسب إلى الشعوب الآرية الوافدة أخيرا فضلا عن أن لغتهم من المحتمل جدا أن تكون إحدى اللهجات الآرية الإيرانية ، وكانوا أصلا قبائل رحل ، ثم حطوا رحالهم حيث استقروا في الوديان والجبال ، وأنشأوا القرى والدساكر متخذين عادات المدن وأحوالها ، وبانين مدنهم على سفوح الجبال في أمكنة مشرفة على الوهاد . ومطالة على الوديان ، وكانت حياتهم ساذجة تكاد تكون بدوية ، ولا تخضع منهم جماعة لأخرى .

ويستدل من الجدول الذي سجل أسماء عظماء هذا الشعب أن رؤساء القبائل المشهورة كانوا متساوين في الحقوق والواجبات لاسلطان لواحد منهم على الآخر ، وكانت أسماءهم لغويا تشبه الأسماء الإيرانية وأما لغتهم من حيث الأداء والأسلوب فكانت كالغة العشائر الكاسية . . . ، ولم ترد إشارة عن (آهورا مزدا) بين أسمائهم مما يحملنا على الاعتقاد بأن الديانة (الزرادشتية) لم يكن لها وجود بين هذا الشعب حينذاك بل ظهرت أخيرا .

(١) في الروايات الاشورية (امدانا) وفي الروايات الهياطمية (هنك متان) بمعنى محل الاجتماع وهو (همدان) الحالية في الكردستان الايراني . المترجم

هذا ، وأن أول ملك جمع شمل الأمة الميديّة هو (ديوسيس = كيقباد) ابن (دايوكو = دياكو)^(١) الذي كان واليا على (ماناي = ماندا) وكان (دياكو) هذا قد وضع ابنه رهينة لدى (روساش - Rusash) حاكم « أورارتو » فوقع هذا الابن أسيرا في يد الآشوريين أثناء حروبهم مع الأورارتيين ، فنفوه إلى (حماه) في سورية عام (٧١٥ ق . م) ، ويستدل من قرينة الاسم والمكان أن هذا الأمير الصغير هو نفس « ديوسيس = كيقباد » مؤسس الدولة الميديّة^(٢) وقد ظلت أسرته باقية طويلا ، وكان أحفاده ملوكا للدولة الميديّة التي اتخذت مكانها على صفحات التاريخ كدولة من أقوى دول العالم في عصرها .

وقصارى القول أن (ديوسس - deioses) بعد أن اتخذ مدينة (آقباتان = همذان) عاصمة لحكمته انصرف إلى تجميلها وتحصينها حتى أضحت آية في الجمال منيعة الحصون ، هذا فضلا عن أن عهده الزاهر قد خلا من نار الحروب والتطاحن والقتال ، وقد بذل جهودا جبارة في توحيد القبائل الميديّة المتناحرة المتنازعة إلى أن كملت مجهوداته هذه بعلائم التوفيق وساعده على ذلك انشغال (سناخريب) ملك آشور في حروب وقتال مع البابليين والعيلاميين فلم تتح له الفرصة لعرقلة هذه الجهود ، والوقوف في سبيل اتحاد هذه القبائل .

ويقول « هرودوت » أن (ديوسس) قد توفي بعد أن حكم ٥٣ عاما ، بينما تذكر رواية أخرى أنه لحق بالرفيق الأعلى بعد حكم دام ٤٦ عاما (٧٠١ —

(١) رواية مشير الدولة في (تاريخ ايران) نقلا عن هرودوت تخالف هذا إذ تقول أن (ديوسس) هو ابن (فرائثورت) وأنه و (دياكو) شخص واحد فعلى هذا يكون هو نفسه وقع أسيرا في يد الآشوريين لابنه . المترجم .
(٢) يظهر أن هذا الأمير قد نجما من الأسر على أيدي ميدي سورية وعاد إلى (ميديا) وفي الواقع أن (تيجلات بلسر الثالث) ذكر بعض العشائر الميديّة الضاربة في سوريا اه . تاريخ آشور لاولمستيد ص ٥١٦ . المؤلف

(٦٥٥ ق . م) ، وقد خلفه على العرش ابنه (فراوريتش Fravartish)
أو (فراوريتس) الذى اتبع فى بدء حكمه سياسة المجاراة والمهادنة مع الحكومة
الآشورية حتى ألغى نفوذه قد امتد وعظم بين الشعوب الآرية ، إذ كانت
بعض شعوب آرية قد قدمت من الشرق وانضمت إلى أقربائهم الميديين ، هذا إلى
جانب خضوع الشعب الفارسى الذى كان ينظر إليه حينذاك نظرة استخفاف ،
إلى السلطان الميدى ، كل هذه الوسائل مجتمعة جعلت الميديين يتحرشون
بالآشوريين ، فامتنعوا عن دفع الجزية (الأتاوة) التى كانوا يدفعونها منذ
القدم مضطرين للآشوريين ، ولسكن الآشوريين قد تملكتهم ثورة الغضب
على الميديين فركبوا رؤوسهم ، ومالبث أن اندلعت نيران الحرب بين
« فراوريتس » والآشوريين فأسفرت عن انكسار جيشه ومصرعه هو وجل
من كان يصحبه من الأمراء عام (٦٣٣ ق . م) بعد أن حكم ٢٢ عاما .

وقد خلفه على العرش أخوه الصغير (١) (هو وخشتر - hovakhshatara
= كى اكسار = كيكاس) وكان قائدا محنكا وملكاً حازماً ، إذ وجه أول
همه إلى الجيش فأعاد تنظيمه حتى أضحت من أحسن جيوش العالم ، لأنه رأى
بثاقب فكره أن الانتصار على الجيش الآشورى المنظم لا يكون على يد
جيش من أفراد القبائل والعشائر المتباينة العادات والمختلفة الطبائع ، ولهذا
أدخل إصلاحات هامة على أنظمته وفصل بين الخيالة والمشاة ، وسلاح الأخيرين
بالقوس والنشاب والسيوف ، وأحدث خيالة سريعة العدو استطاعت أن تقهر
فيما بعد الفرسان الآشوريين الذى انعقد عليهم لواء الشهرة فى التاريخ :

(١) التاريخ العام للمؤرخين جزء (٢) . المؤلف . لكن هذا يخالف
ماورد فى (هرودت) من أن (كيا زارس = كى اكسار) هو ابن (فراوريتس)
لا أخوه (المترجم)

أعمال كى أخسار الحربية:

بمجرد أن فرغ « كى أخسار » من إعداد جيشه وتسليحه على أحدث النظم ، وبعد أن نجح في عقد محالفة مع ملك بابل (نبوبولسر - nebopolassar) ليحققا جهة متراصة متحدة ضد العدو المشترك وهو ملك آشور ، بدأت جحافل جيشه تبدأ زحفها في أوائل ديسمبر عام (٦١٥ ق . م) متجهة صوب آشور ومرت ببلاد (نامرى) و (مازاموآ) حيث استولت في هجوم خاطف على بلاد « آرافا = arrapha » ومدينتها ذات الأهمية البالغة بالنسبة لمملكة آشور ، والتي كان انتزاعها من جسم مملكة آشور خسارة جسيمة لا تعوض . ويلوح أن كى أخسار قد اتخذ هذه المدينة قاعدة لأعماله الحربية .

ثم استأنف الجيش الميذى زحفه في العام التالى (٦١٤ ق . م) متجها صوب « نينوى » (١) العاصمة الاشورية ، وفي طريقه اليها استولى على مدينة

(١) يقول مستر (هول) في كتابه (تاريخ الشرق الاذنى القديم) (ص ٥١١) انه حدث في أواخر عهد الملك (آشور بانيمال) أن احتشدت جيوش (كى أخسار) مع العشائر المتحدة المسماة (أومان - ماندا) المؤلفة من الجنود السبتيين والمائى وكيممى أرمينية والعشائر الكردية بجبال الجودى وزحفوا على (نينوى) عام ٦٢٦ ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها . ويقول (هرودوت) أن (فرائورت) الميذى زحف على بلاد آشور عام (٦٣٤ ق . م) ولكنه عاد منها منهزما . وفي عام (٦٣٠ ق . م) حاصر مدينة (نينوى) ولكنها امتنعت عليه فعاد إلى بلاده بسبب هجوم السيت عليها بقيادة (مادايس) . فهاتان الروايتان ليستا بعيدتين عن العقل فالظاهر أن الميدين والسبيين لم يكونوا دائما على وفاق بدليل مقتل مادايس الذى وقع صريعا في ميدان القتال على يدي كى أخسار وجيشه .

(المؤلف)

(تاريبي) ثم يمشي شطر الجنوب حسب خطة موضوعة ليتصل بالجيش البابلي وفي طريقه استولى أيضا على مدينة (آشور = الشرقات الحالية) عاصمة آشور القديمة، وقد دمرها تدميرا . . وما أن تم الاستيلاء عليها، وفرغ الجيش الميدي من تدميرها حتى كان ملك بابل قد وصل، حيث عقد مع «كي أخسار» معاهدة جديدة عينت فيها الحدود المستقبلية بين دولتيهما، وتوثيقا للروابط السياسية بين الدولتين، رؤى تعزيزها وتوكيدها بمصاهرة كريمة تمت بين الأسرتين المالكتين فتزوجت حفيدة (كي أخسار) وهي (أميتيس) بنت أستيغ من (نبوخذ نصر = Nebuchadnezzar) نجل ملك بابل .

وتلت ذلك فترة امتدت إلى نهاية عام (٦١٣ ق م) نفتقر إلى معلومات قاطعة عن تحركات ونشاط الجيش الميدي خلالها، وإن كان «هرودوت» المؤرخ اليوناني يقول: إن (كي أكسار) لما نفي إليه، أثناء هجومه الأول على «نينوى» نبأ اجتياح «السيت = سك - Scythian» لبلاد (ميدية) قفل راجعا إلى بلاده على جناح السرعة ليتولى بنفسه الدفاع عنها ضد المغيرين عليها، ولكنه غلب على أمره أمام عدوقى الشكيمة، بارع الحيلة، فخضعت (ميدية) ثمانية وعشرين عاما للقبائل السيثية. وكان (كي أخسار) يعمل طيلة هذه المدة على تخليص بلاده من بين براثن هذه القبائل، حتى هداه تفكيره أخيرا وبعد طول انتظار وفارغ صبر، إلى حيلة رائعة بل وبارعة أنقذ بها عرشه ومجد بلاده، فقد نجح في القبض على زعماء هذه القبائل، فأفناهم عن آخرهم، فخلا له الجو، وأخذ يطارد المحتلين حتى طهر البلاد من شرهم واستعمارهم. وبعد أن أعاد (كي أخسار) إلى ميدية استقلالها المسلوب، استأنف زحفه شطر (نينوى) وحاصرها من جديد .

ولكن رواية (هرودوت) هذه لا تؤيدها الآثار المكتشفة ، فضلا عن أنها لا تطابق الواقع المحسوس ، إذ الثابت الذى لا يتطرق إليه أدنى شك أن المدة بين أول زحف على (نينوى) وبين سقوطها كانت ثلاث سنوات على الأكثر ، فإذا كانت رواية خضوع (ميديه) للبيت صحيحة ، فكيف يمكن التصور أن زحف ملك (ميديه) على (نينوى) حدث خلال هذه المدة؟ والمنطق يقول ان هذا الزحف لا بد أن يكون قد حدث بعد (٢٨) عاما أى فى سنة (٥٨٦ ق . م) . إن كان لهذه الرواية نصيب من الصحة ؟؟

وقصارى القول ان (كى اخسار) لم يعتوره وهن ، ولم يتطرق اليه اليأس فى الاستيلاء على (نينوى) مهما كلفه الأمر ، ورغم أنها امتنعت عليه فى هجومه الأول عليها ، فأعاد الكرة ، وشن عليها هجوما عاتيا ، ثم ألقي عليها حصارا منيعا ، ولما رأى يبعد نظره وثاقب فكره أن المدينة مازال الاستيلاء عليها صعب المنال ، أخذ فى تكوين جبهة قوية تستطيع بها قهرها ، فبدأ يساوم بعض القبائل السيثية ^(١) التى كانت تشد أرز الآشوريين وتقف إلى جانبهم ، وقد نجح فى إغرائهم بنهب وسلب بلاد آشور الغنية وما سيعود عليهم من هذه الأسلاب والغنائم فتألبوا على الآشوريين وهرعوا اليه معلنين انضمامهم إلى جانبه .

(١) هذا الشعب قوقازى [لعله يقصد أنه من الشعوب التى لم تعرف جنسيتها بعد ، كما هو المصطلح بين متأخرى العلماء . المترجم] وكان يستوطن شمال (أورارتو) جنوبى البحر الأسود خلال القرن السابع قبل الميلاد، ويظهر أنهم هجروا موطنهم الأول فى جنوبى روسيا تحت ضغط العشار الكيممريه (غومر)، وفى عهد الملك الآشورى (آسرحدون ٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) أغاروا على الحدود الشمالية لآشور ، وأخيرا لجأ أحد زعمائهم المدعو (بارتاتوا) إلى (الماناي) خوفا من الكيممريين حيث اتفق ضد (سباكا = أشباكا) وضد (كاستاريت) أغنى ملكى السيت وكاسكاشى ... ويقول (هرودوت) أن بارتاتوا هذا إن هو إلا =

كما انضم اليه جيش بابل تنفيذا للاتفاقية التي أبرمت بينها ، وبهذا وفق (كى أخسار) فى تكوين جبهة متحدة يدحر بها المدينة العاتية ، وكانت الخطوة التالية لتكوين هذه الجبهة أن أعلن (كى أخسار) نفسه ملكا على (أومان - ماندا) ^(١) الذى صار لقباً له .

ومأن أهل شهر (سيوان = مايو) حتى بدأت (نينوى) تتعرض لأعنف هجوم شنه عليها الحلفاء ، ورغم أنها امتنعت على هذا الجيش العرمم فى هجومين متتالين إلا أنها لم تستطيع أن تحافظ على صمودها وتظل على امتناعها أمام الضربات المتكررة والهجمات المتعاقبة واضطرت مرغمة إلى التسليم ، وبهذا سقطت فى أيدي الحلفاء فى شهر (آب = يوليو) من نفس العام وقد هزتهم نشوة الفرح لاستيلائهم على هذه المدينة العظمى ذات الشهرة الخالدة والمجد التليد .

ولم يطق (سن - شار - ايشكوم ^(٢) = Sin-Char-ishkum) الملك الآشورى صبرا على فقدان قلب مملكته النابض ، فأحرق نفسه ومن معه من خدم وحشم بالنار .

(پروتوتيوس) والد (مادايس) ، وهو الذى استولى بعد فتره من الزمن على جميع بلاد سورية حتى حدود مصر وخرّبها فمينة الملك الآشورى بدلا عن (سبكا = سبا كاي) المغلوب على أمره . ملكا وقائدا على جيوش السيت بأرمينية والمائى . اه (مستر هول . ص ٤٩٧)

(١) هذا لقب عام أطلق على اتحاد العشائر الشمالية التى كانت تضم الميديين والسيت والمائى وبعض الكيممريين . . . ويقول مستر هول فى كتابه (ص ٥٥١) : أن لفظ ماندا كان لقباً مشتركاً بين الميديين والسيت وأن البابليين كانوا يطلقونه على مجموعة العشائر الشمالية المتوحشة . المؤلف
(٢) ضبطه تاريخ إيران هكذا (سارا كس) . المترجم

وبعد أن فرغ جيش الحلفاء من نهب المدينة ومن تدميرها ، أخذ الجيش البابلي يطارد قسما من الآشوريين الهاربين من المدينة ، ويتعقب آثارهم ، حتى لجأ جماعة منهم بقيادة (آشور أوباليت) إلى (حران) حيث وضعوا هنالك أساس حكومة جديدة . . .

ولسكن (كى اخسار) ابن عليهم الاستقرار في أى مكان وآلى على نفسه إلا أن يشئت شملهم ، ويقض مضاجعهم ، وقد واثته الفرصة فعلا لتحقيق هذا الهدف ، إذ بعد أن استجم في (ميديه) التي عاد إليها مع السيت في شهر سبتمبر بعد استيلائه على (نينوى) عاما وبعض عام ، استنجد به (نبويلاसार) ليلحق به ويمد إليه النجدة في (حران) فخف إليه على عجل ، وانضم إليه الجيش البابلي فاستطاع بمهارته الفائقة وخططه الحربية السديدة الاستيلاء على (حران) آخر حصون الآشوريين ، وبذلك تحققت آماله ، ثم قفل راجعا إلى بلاده مكللا بأكاليل النصر والغار .

ثم أخذ الحلفاء بعد ذلك في تقسيم الغنائم والأسلاب وتوزيع الميراث بينهم ، وقد جاء في كتاب تاريخ إيران القديم (١) أن المستعمرة الآشورية في آسيا الصغرى أضحت من نصيب الحكومة الميدية ، وكان خط الحدود بين (ميديه) و (بابل) ممتدا على طول نهر دجلة من الجنوب حتى مدينة (ديار بكر) كما أن خطا آخر كان يفصل بينهما ممتدا من (ديار بكر) حتى نهر

(١) كتاب فارسى لمشير الدولة (بيرنيا) . طبع بطهران سنة ١٣٠٨ ف ، ورد فيه ايضا ما يأتى : ولم تنقسم عرى الاتحاد بين ميديه وبابل بالقضاء على اشور بل زاد توثقا بعد ان زوج ملك (ماد = ميد) اخته لولى عهد بابل (بنجت النصر) الذى لما صار ملك بابل ، بنى الحدائق المعلقة التى تعد من عجائب الدنيا السبع تكريما لزوجته هذه اخت ملك ماد . وعلى هذا تكون نسبة بناء هذه الحدائق إلى (سميراسيس) ملكة اشور خطأ مشهورا . المترجم

الفرات ، أما حدود (كليسيا) فكانت تبدأ عند الضفة اليمنى لنهر الفرات وتنتهى عند (ملطيه) . ويلوح أن الحد الفاصل بين حكومتى (ميديه) و(ليديه) كان يخترق سهل (اوزن يا يلا = الهضبة الطويلة) حتى نهر هالياس (قزيل ايرمق) ثم يأخذ في الامتداد حتى ساحل البحر الاسود .

ولم يدم السلم طويلا بعد رسم الحدود ، إذ يظهر أن القدر قد شاء أن يمضى (كى اخسار) كل عهده فى ميادين القتال ، وبين صليل السيوف . إذ ما كان يخرج من حرب إلا ليخوض غمار حرب أخرى ، وكانت الحرب التالية بينه وبين الليديين التى تباينت الروايات فى استقصاء أسبابها وعوامل اشتعال هليها ، فتقول رواية مصدرها كتاب (إيران قديم) ان بعض المجرمين السيت قد لجأوا الى الحكومة الليدية واعتصموا بحماها ، ولما طالبت الحكومة الميدية بردهم اليها لم تجب إلى طلبتها . إذ رفضت الحكومة الليدية تسليمهم لها ، فكانت هذه هى الشرارة التى أوقدت نيران الحرب بين الحكومتين .

بينما نجد رواية أخرى تعزو أسباب الحرب إلى أن الحكومة الليدية وقد تملكها الطمع فى المستعمرات الآشورية التى كانت من نصيب الحكومة الميدية بعد الاستيلاء على (نينوى) مما أدى إلى اندلاع نيران الحرب بين الدولتين ، والتحم الجيشان على شاطئ نهر (هالياس) ودارت رحى معركة حامية الوطيس وطويلة المدى فى مطلع عام (٩١ ق . م) ولم تقف رحاها إلا يوم (٢٨ مايو من عام ٥٨٥ ق . م) . بمعجزة ، فقد حدث خسوف كلى للشمس طيلة هذا اليوم ، فأيقن كلا الطرفين أن هذه الظاهرة العجيبة إن هى إلا علامة من علامات الغضب الإلهى عليهما ، فرغب كل منهما بينه وبين نفسه فى وضع حد لسفك الدماء دون طائل . وما أن عرض (نبوخذنسر = بختنصر) ملك بابل و(سينسديس) ملك كليسيا وساطتهما لإنهاء القتال وعقد الصلح حتى قبله الطرفان بارتياح ، وتوقفت العمليات الحربية ، واتفقا على أن يكون نهر (هالياس = هالياس) حدا

فاصلا بينهما، ثم عز هذا الصلح وتوج بمصاهرة ملكية بين الأسرتين المالكتين، فتزوج (آستيغ (١) نجل (كى أخسار) من (آرينيس - Aryenis) كريمة ملك (ليديه) فى سنة (٥٨٥ ق. م).

ولم يعمر (كى أخسار) طويلا بعد إبرام هذا الصلح، بل عاجلته المنية بعده بعام واحد، فخلفه على العرش ابنه (آستيغ) الذى عزف وأحجم طوال عهده عن الاشتباك فى حروب، مما أدى إلى ظهور دولة الفرس وعلو شأنهم، وتحفزهم للاستقلال.

وأحس رجالات ميدي بقوة فارس، وهى ولاية ميدي تزداد شأنها يوما بعد يوم وأن سياسة ملكهم السلمية، وعزوفه عن شن الحروب سيفضى حتما إلى إنكماش دولتهم وربما إلى تقويض دعائمها وهى التى أقاموها بدماء أبنائهم، فأعلنوا سخطهم على سياسته وكرهيتهم لحكومته.

ولكن ماذا ينفعهم سخطهم، وقد اشتد ساعد الفرس، وعلا سلطانهم على حساب ميدي، وحكومتها السادة الالهية؟؟

وكان يحكم فارس وقتذاك أمراء اسرة (أخمينى - Achaimenes) (٢)

(١) أو (آستيغ — آستاك) باللغة اليونانية واما باللغة البابلية فاسمه (ايتخو ويكو) وفى المصادر الشرقية من فارسية وعربية (كيكاوس) الذى يظن انه (نمروذ) ابراهيم الخليل عليه السلام. (المترجم)

(٢) هذه الاسرة الملكية الأخمينية من اقليم (انشان = أنزان) ويظهر أن هذا الاقليم يقع فى الجنوب الشرقى من ولاية (لورستان) الحالية على مقربة من اقليم (عيلام) القديم، وكانت هذه الاسرة تحكم (فارس = بارس) فقط منذ القدم، ومن المحتمل أنها اكتسبت لقب (الملك) أثناء انقراض الدولة الاشورية، وربما كان ذلك بعد وفاة الملك (آشوربانيبال) وأثناء الاستيلاء على عيلام، ثم أخذ سلطانها يمتد إلى بلاد (پارث = فرث) و (هرقان = خراسان) حيث تم لهم الاستيلاء عليها. ويؤخذ من نقوش (بهستون) =

الذين انتهزوا فرصة إخلاد الملك إلى الراحة ، وبذلوا جهودا جبارة لينفضوا عن جباههم ذل الخضوع للغير ، فشمروا عن ساعد الجد ، وشرعوا في تكوين جبهة قوية متحدة للوقوف بها في وجه (ميديه) وقد نجحوا فعلا في ضم أقوام آخرين إلى جانبهم (كالبارث والهيركان) من الشعوب الخاضعة لـ (ميديه) والتي شقت عليها عصا الطاعة وأعلنت العصيان ، وكان بطل هذه المؤامرة التي أثارت هذه الشعوب على (ميديه) حاكم (پارس = فارس) المدعو (سيروس = كيروس Cyrus) الثاني أو (كوروش - Kurush) الكبير أى (كينخسرو الكبير) . وكان هذا الحاكم نفسه هو الذى حمل لواء الحرب ضد (ميديه) ، فزحف على رأس جيش جرار هاجم به ميديه حيث التقى بجيش (أستياغ) واشتبكا في معركة حامية الوطيس ، دافع فيها أستياغ دفاع المستميت وأبلى فيها بلاء آ حسنا يحدوه الأمل في المحافظة على عرشه وعلى شرف أسرته ، واستمرت المعركة سجالا بين الفريقين ، وكان النصر يتأرجح بين الكفتين إلى أن لعبت الخيانة دورها على يد زعيم أحد البيوتات الميديه

= ودراسات مستر (هول) أن هذه الأسرة المالكة قد تأسست في اواسط القرن السابع قبل الميلاد وكان على رأسها (هيخامنيش = أخيمين) ولكنها انقسمت إلى فرعين بعد انتهاء عهد ثاني ملوكها المدعو (جيش = بيش) ويقول تاريخ إيران القديم ، أن أحد هذين الفرعين كان (پارسيا) والآخر (انزانيا) .

ويقول مستر هول ، ان الفرع الانزاني نشأ منه أربعة ملوك بينما نبت من الفرع الثاني ثلاثة ، وأن (سيروس الثاني) الذى يطلق عليه أيضا اسم (كوروش) ويلقب بالكبير هو الملك السابع من ملوك هذه الأسرة وأنه حارب (أستياغ) واستولى على (بابل) ونال شهرة عالمية في الغزو والفتح أما (داريوش) الأول فهو تاسع ملك في هذه الأسرة . المؤلف

الكبيرة وكان يدعى (هارباغوس - Harpagos) الذي قرر مصير الحرب بعد أن باع شرفه ، وأجرم في حق وطنه ، فتقدم إلى العدو طائعا مختارا ، وانضم ومن معه من الجنود إلى (كيخسرو) عدو وطنه اللدود ، وبانضمامه إلى جانب العدو وجه طعنة نجلاء إلى صدر آستياغ وجيشه ، حيث ضعفت روح الجيش المعنوية وأخذت تنتابه الهزائم متلاحقة لم يستطع أمامها صمودا ، مما أدى إلى اندلاع نيران ثورة جاححة في ميديه ، تمخضت عن خلع (آستياغ) عن العرش عام (٥٥٠ ق . م) .

وهكذا كسب (كيخسرو) المعركة ، وبطبيعة الحال أحسن معاملة (هارباغوس) بل وسائر رجال البيوتات الميدية ، ولم يكن هنالك كبير فرق في الحقوق والامتيازات بين هذه البيوتات والبيوتات الفارسية بل كان الحال كمثل ما هو عليه الآن بين الانجليز والاسكتلنديين وكما كان عليه بين البروسيين والبافاريين في عهد الامبراطورية الألمانية الأخيرة .^(١)

ولم تقم بعد ذلك قائمة للحكومة الميدية بل أخذت تسير بخطى سريعة واسعة نحو الانحلال والاضمحلال ، وما لبثت أن أسدل عليها الستار ، وانقرضت إثر انقلاب خطير هز أركانها المتداعية وقضى عليها بالزوال بعد أن حكمت خمسين عاما بعد المائة . وقامت على أنقاضها حكومة الآخمينيين الإيرانية .

وجاء في (تاريخ ايران قديم — مشير الدولة) أن الشعب الميدي كان قد توطن أصلا في آذربيجان وكرديستان والعراق العجمي^(١) ، ثم أخذ يسعى

(١) (التاريخ القديم للشرق الاذنى ص ٥٥٥) للمستر هول

(٢) يقول (تاريخ ايران القديم ص ٥٦) أن العراق العجمي كان يضم المقاطعات الحالية (كروس وهمدان وكرمنشاه وقزوین وعراق وأصفهان ونهاوند والري) حتى دربند بحر قزوین الذي كان حدا فاصلا بين الميديين والبارث . (المؤلف)

جاهدا لنشر نفوذه حتى اتسع سلطانه ابتداء من نهر (هاليس) حتى (باختر)
أى (أفغانستان) ، ومن بحر قزوين حتى فارس وخوزستان ، بينما يذهب
العلماء الجغرافيون القدامى إلى أن مديّة كانت منقسمة إلى قسمين :
(١) مديّة الكبرى أى العراق العجمى (٢) و مديّة الصغرى أى
آذربيجان .

الباب الأول

فى الحكومات الكردية فى العهد الاسلامى

وهى فى أربعة عشر فصلا (١) الحكومة الروادية (٢٣٠ - ٦١٨ هـ)
(٢) الحكومة السالارية بآذربيجان ، (٣٠٠ - ٤٢٠ هـ) (٣) الحكومة الحسنية
البرزكانية (٣٣٠ - ٤٠٥ هـ) بهمدان (٤) الحكومة الشدادية بأران (٣٤٠ - ٤٦٥ هـ)
(٥) الحكومة الدوستكية المروانية بدياربكر (٣٥٠ - ٣٨٠ - ٤٧٦ هـ)
(٦) الحكومة العنازية بخلوان (٣٨٠ - ٤٤٦ هـ) (٧) الحكومة الشبانكارية
بفارس (٤١٢ - ٦٥٨) (٨) الحكومة اللرية الكبرى (٥٥٠ - ٨٢٧)
(٩) الحكومة اللرية الصغرى (٥٧٠ - ١٢٥٠) بلرستان (١٠) الحكومات
الايوبية بمصر والشام (٥٦٧ - ٦٨٥ - ٩٥٠) (١١) الحكومة الاردلانية
بايران (٦١٧ - ١٢٨٤) (١٢) الحكومة الملكية الكردية بخراسان (٦٤٣ -
٧٨٥) (١٣) الحكومة الزندية بايران (١١٦٧ - ١٢٠٢) (١٤) الحكومة
البراخوتية ببلوجستان (١١٧٢ - ١٣٠٠) .

الفصل الاول

١ - الحكومة الروادية^(١): (٢٣٠ - ٥٦١٨ هـ)

تقول دائرة المعارف الإسلامية (ان هذه الحكومة هي أقدم الحكومات الكردية ، بدليل أن (ابن خرداذبه) الرحالة الذائع الصيت ، قد رأى بعيني رأسه حكومة (محمد الروادى) قائمة في (تبريز) ، حين زارها وجاس خلالها عام (٢٣٢) من الهجرة . وان إقليم (آذربيجان) قد انضوى تحت لواء أبى الساج محمد أفشين بن ديوداد عام ٢٨٠ للهجرة ، وظل يتوارثه الخلف عن السلف من أحفاده حتى عام (٣١٧) من الهجرة حيث قضى على حكم بنى الساج بالزوال وأسدل على هذه الحكومة الستار . فخصعت منطقة (المراغة) بعدهم لسلطان الأمير (المظفر) وهو من أكراد الديلم أعنى أحفاد الرواديين القدماء) ثم ذكر المصدر نفسه أن (مرزبان) وأخاه (وهسوذان) هما من هذه الأسرة الروادية نفسها . والواقع أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن هذه الأسرة الكردية حتى عهد (المرزبان) الذى بدأت المصادر العربية والإسلامية منذ عهده تعج بالمعلومات الوافية ، والحقائق المفصلة عن هذه الأسرة .

وسنرى عند حديثنا عن (ديسم) فى مبحث الحكومة السالارية أن (مرزبان) ابن (مامه لان = محمد) كيف تمكن من الاستيلاء على (آذربيجان) بفضل الدسائس التى حاكها (على بن جعفر) وزير (ديسم) ضد سيده ، وأنه كان لمرزبان كاتب خاص يدعى (عيسكويه) ما فتى يدس لدى سيده ، ويوغر صدره ضده هذا الوزير الجديد طمعا فى المال حتى شارفت الدسائس أن تأتى

(١) هذه الحكومة فى الحقيقة أصل الحكومة السالارية فضلا عن ان حوادثهما متداخلة بل واحدة . وغاية ما هنالك ان فترة فصلت بينهما فنشأ خلالها تغلب بنى الساج فى آذربيجان ، فلهذا كان الاجدر اعتبارها حكومة واحدة . المترجم

بشارها المرجوة ، لولا أن نبأها قد طير إلى (علي بن جعفر) فنبئت عنده فكرة الغدر بسيدته الثاني والتسكّر له ، وبيت في نفسه أمرا ، ثم أخذ ينفذ مكيدته في السر ، وبدأ يغري سيده محاولا إقناعه بالاستيلاء على مدينة (تبريز) للحصول على مالها الوفير وثروتها الطائلة ، فوقع (مرزبان) في حباله ، وأعد له جيشا وأمره بالزحف على (تبريز) لتنفيذ الخطة الموضوعة .

وسنفصل القول في مجرى حديثنا عن (ديسم) أيضا الدور الذي لعبه (علي بن جعفر) واتصاله بأهالي تبريز واتفاقه معهم على أن يستنجدوا به (ديسم) ويفتكوا بديالة المدينة ... كما سنشير أيضا إلى مجيء (مرزبان) على رأس جيشه إلى تبريز وإخاقه الهزيمة بالعدو وتضييقه الخناق عليه حتى استسلم (ديسم) عقب سقوط أردبيل بخيانة ابن النعمي وزير (ديسم) الثاني له وانحيازه إلى (مرزبان) ، وأقام في قلعة (طارم) هو وأسرته .

والآن نقول ، بعد أن تحقق لمرزبان ما تمنى ونجح فيما أراد من الاستيلاء على جميع آذربيجان ، وجه همه نحو الإصلاحات الداخلية في بلاده .

وبينما كان (مرزبان) متوفرا على تنفيذ برامجه الإصلاحية ورعاية شئون بلاده ، فوجيء بغارة شنها الروس على بلاده عام (٣٣٢) من الهجرة بعد أن عبروا بحر الخزر على ظهور السفن وغادروها إلى الشاطئ عند مصب (نهر السكر) ميممين شطر (آذربيجان) .

وما أن قاربت طلائع الجيش الروسي قلعة (بردعة) على الحدود الشمالية لآذربيجان حتى انبرى لهم حاكمها وتصدى لهم هو ورجاله ، وبذل محاولة يائسة لردهم على أعقابهم ، ولكن أنى له ذلك أمام قوتهم العاتية ، فدارت عليه الدائرة وانسحب من الميدان مخذولا ، فتعقبه الروس وحاصروا القلعة نفسها وسرعان ما سقطت في أيديهم ، فانطلقوا منتشرين في أحيائها يحصرون أهلها حصرا ويسفكون دماءهم ، ويرتكبون فيها من الفظائع ما تقشعر له الأبدان وتشيب من هوله الولدان .

ولما طيرت هذه الأنباء إلى مسامع (مرزبان) ثارت ثائثرته ، وغلى الدم في عروقه ، فأعد جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً من المحاربين ، وقاده بنفسه ، وسار للقاء الروس الذين لم يستطيعوا الصمود أمام ضرباته وبسالة رجاله واستماتتهم في القتال ، فلاذوا بالفرار ولكن فريقاً منهم تسرب حتى بلدة (المراغة) وهناك تفشى واستشرى بينهم داء عضال قضى على الكثيرين منهم ، نتيجة إسرافهم في تناول الفواكه الفجة .

ولكن مناوشات الروس لم تنته عند هذا الحد ، بل أخذت قوات أخرى تتقاطر وتثير القلاقل من جديد ، فصمم مرزبان على قطع دابرهم بحيلة بارعة ، حيث بعث بقوة من جيشه لتعد كميناً في طريق القوات الروسية ، واشتبك هو ومن تبقى معه من قوات مع الجيش الروسي في معركة حامية الوطيس واضطروهم إلى التقهقر والجلأء عن المواقع التي احتلوها ، وانقلبوا على أعقابهم لا يلوون على شيء ظانين أنهم قد تخلصوا من نيران الحرب ومادروا أن كميناً قد أعد في طريق عودتهم لاصطيادهم وإيقاعهم في الشرك ، وقد تولتهم الدهشة وتملكهم الرعب حين فوجئوا بأنهم أضحووا بين نارين ، فالكمين أمامهم والعدو وراءهم ، ووقع الكثيرون منهم صرعى وعلى رأسهم قائدهم في حين اعتصمت الفئة القليلة التي نجت من المذبحة بقلعة (شهرستان) التي كان الروس اتخذوها مستودعاً للأسرى المسلمين والغنائم التي سلبوها منهم ، فأسرع إليهم مرزبان وحاصرهم في القلعة ، وبينما هو قائم على حصارهم ، وتضييق الخناق عليهم ، جاءته الأنباء تترى بأن (أبا عبدالله الحمداني) قد زحف ليشن هجوماً عنيفاً على آذربيجان ، فاضطر إلى العودة فوراً للدفاع عنها بعد أن ترك قوة من جنده لتقوم على حصار القلعة . وحين وصوله كان (الحمداني) قد طرق أبواب مدينة (ساماس) ، وعقد اتفاقاً مع (جعفر بن شكويه) رئيس العشيرة الهذليانية الكردية الحاكمة في تلك الانحاء .

وما أن التقى الجمعان ، وحى وطيس القتال ، حتى بدأت روح القرد تدب وتستشرى بين صفوف الحمدانيين ، كما أبت الطبيعة إلا أن تلعب دورها فيكثر تساقط الثلوج ، ويشتد الزمهرير فيزداد الحمدانيون - وجلهم من العرب - نفورا من الحرب ، وقفلوا راجعين إلى الموصل يحرون أذيال الهزيمة والفشل .

أما عن الروس الذين كانوا محاصرين في قلعة (شيرستان) فقد قاموا بمحاولات يائسة للدفاع ولكن ذهبت كلها أدراج الرياح وأخيرا انتهزوا فرصة سنحت فاغتنموها وتسلموا من القلعة خفية وتحت جنح الظلام إلى ساحل البحر حيث حملتهم السفن إلى بلادهم بخفى حنين .

ثم استأنف مرزبان تنفيذ برامجه الإصلاحية . وتنظيم شئون مملكته ، ولكن سرعان ما جدت عوامل وظهرت في الأفق مطامع دفعته إلى التفكير في الاستيلاء على أملاك جيرانه ، وكان أهم هذه العوامل عاملين :

أولهما : هجوم حكومة خراسان على (ركن الدولة) حاكم الرى .

وثانيهما : إهانة (معز الدولة) لسفير (مرزبان) .

يضاف إلى هذا أن بعض قواد (ركن الدولة) كانوا لا يخفون استعدادهم لشدأزره ، ومدته بكل مساعدة ممكنة ، وجاءه أحدهم المدعو (على بن جوانقوله) وأنبأه بأنه سيجد الأمور مذلة ، والطريق ممهدا أمامه لفتح (الرى) وأن هنالك قوادا آخرين غيره على أتم استعداد لمساعدته والانضمام إلى جانبه فى الوقت المناسب .

وبدأت المخابرات بين (مرزبان) و (ناصر الدولة) حاكم الموصل لاقتناع الأخير وتشجيعه على الزحف إلى (بغداد) ، ولكن (ناصر الدولة) رفض هذا العرض ، ولم يجذ هذا الرأى ، بل أشار بوجود الأستيلاء أولا وقبل كل شئ على (الرى) وبعدها يصبح الاستيلاء على (بغداد) من السهولة بمكان

وعلى أثر ذلك عقد (مرزبان) مجلسا استشاريا مؤلفا من والده وإخوته. وعرض عليهم خطته ، فنهاه والده عن إثارة الحرب ، ولكن مرزبان ركب رأسه ، ولم تجد هذه النصيحة منه آذانا صاغية ولا قلبا واعيا ، فانفجر والده باكيا ينعى حظ ابنه قائلا . يا ترى أين سأشاهد ابني بعد هذا العمر الطويل ؟ فأجابه مرزبان بعزم وطيد وجنان ثابت .

(ستراني إما متربعا في قصر الرى أو صريعا بين قتلى هذه الحرب)
وأخذ بعد ذلك يستعد للقتال على قدم وساق ، ولما ترامت أنباء استعدادة إلى مسامع (ركن الدولة) بعث يطلب النجدة من أخويه (عماد الدولة) (ومعز الدولة) ، وفى الوقت نفسه دخل فى مفاوضات مع (مرزبان) وعرض عليه أن يسلمه (زنجان وأبهر وقزوین) إذا أعرض عن إثارة الحرب بينهما ، وكان يقصد من وراء ذلك كسب الوقت حتى يصل إليه المدد من أخويه .

وأرسل (عماد الدين) قوة لمساعدة أخيه مؤلفة من ألفى فارس بقيادة (باش حاجب) . كما أرسل (معز الدولة) بقوة مماثلة تحت قيادة (سبكتكين) وتدفقت المساعدات على (ركن الدولة) ووافاه المدد من كل صوب وفج ، فجاءه (محمد بن الرزاق) على رأس قوة عاتية ، كما أتته نجدة أخرى من قبل (حسن فيروزان) تحت قيادة (محمد بن ماكان)

وهكذا أضحي تحت امرته قوات هائلة ، وجيش عرمرم ، فجمع الشمل ووحّد القيادة ، وأجرى حركة تطهير واسعة النطاق بين صفوف جيشه فتخلص من العناصر الشريرة وألقى القبض على من شك فى إخلاصهم من قواد وألقى بهم فى غياهب السجون ، وبعد أن قبض الزمام ، وفرغ من الاستعدادات ، تحرك زاحفا على رأس الجيش جاعلا قبلته وهدفه (قزوین) وما أن ألقى (مرزبان) نظرة على جحافل هذا الجيش الضخمة حتى

أسقط في يده ، وأيقن ألا قبل له بمثل هذه الجموع الزاخرة والقوات المتدفقة ، ولكنه سرعان ما رجع إلى نفسه ، ورأى عليه عارا وشنارا أن يتراجع أو يتقهقر ، فجمع شتات جيشه المنظم المؤلف من الكرد والديلم وكان لا يعدو الخمسة آلاف رجل ، وخاض به غمار الحرب ، وتعرض جناحاه الأيمن والأيسر لهجوم عنيف من قوات ركن الدولة ؛ ورغم ما أبداه هو في الجناح الأيمن من ضروب الشجاعة والبسالة واستماتة جيشه عامة في الدفاع ، تمزقت أوصال جيشه شرمزق ، ولبس الهزيمة صاغرا ، ووقع هو نفسه والكثيرون من رجاله أسرى ، فسله (ركن الدولة) إلى وزيره المدعو (أبو الفضل) الذي اصطحبه مخفورا بقوة إلى قلعة (سميرم) (١) .

(١) روى الوزير (أبو الفضل ابن العميد) تفاصيل خدعة حدثت خلال هذا السفر فقال : إن القواد الديلمة الذين كانوا في رفقتي قد اتفقوا فيما بينهم على إطلاق سراح (مرزبان) قوة واقتدارا وتآمروا على قتلي ، فلما علمت سرا بنبا هذه المؤامرة توجهت إلى (مرزبان) وأظهرت له أنني أنا الآخر على استعداد لخدمته ، فأطرق هنيهة ثم قال : إذا كنت صادقا فيما تقول فأقسم لي بالله العظيم ، وأنا مستعد للقيام بكل ما تريد وترغب ، فقلت له : إنني لا أضمن صداقة رفاقي من القواد الذين معنا . فقال : إذن أنت لا تعرف أصدقاءك لمن أعدائك ، فأولئك القواد الذين يرغبون في إطلاق سراحهم أنفسهم الذين يريدون قتلك . فقلت له : لقد علمت الخبر اليقين ، وثق أنني على استعداد لتقديم الخدمات أكثر من غيري .

وعلى أثر هذه المحادثة اتصلت بهؤلاء القواد جميعا كل منهم على انفراد وتظاهرت أمام كل منهم بأنني متضامن معهم وعلى استعداد لتنفيذ ما يريدون ، فأبدوا سرورهم ، واستقر الرأي بيني وبينهم على التنفيذ في أول منزل نزل إليه ، فلما وصلنا أول منزل دطاني مرزبان إليه وطالبني بالتنفيذ =

أسر السالار (مرزبان) ونجاته

ولما بلغ «مرزبان» القلعة، وألقى به في غياهبها أسيراً، أضرب عن تناول الطعام، اللهم إلا حفنة من البر يتبلغ بها سحابة يومه، فلما طير هذا النبأ إلى مسامع (ركن الدولة) بعث إليه بطاهيه الخاص ليقوم على إعداد طعامه ويظل تحت إمرته. فخيل إلى (مرزبان) أن هذا الطاهي قد يشد أزره ويعينه على التخلص من ذل الإسار فاتفق معه على أن يهيء له طريق الخلاص، ويمهد له سبيل الفرار، ولكن الطاهي كان متسرعاً وطائشاً فقد أذاع الخبر وأفشى السر في الوقت المناسب، وعلم به «شيراسفار» محافظ القلعة الذي قام على عجل وسارع إلى القلعة وألقى القبض على الطاهي وقذف به من فوق الأسوار فلقي حتفه لساعته، ثم أخذ على أثر ذلك يضيق الخناق على السالار وكانت والدته «مرزبان» المدعوة (خراسويه) - ابنة جستان بن واهسوذان الملك - تتحرق شوقاً لابنها وتترقب ساعة خلاصه بفارغ الصبر، فأخذت

== فقلت له: بما أن بيت (ركن الدولة) في (أصفهان) وبها خزائن ملكه، وجميع مقتنياته فالأفضل أن نواصل السير إليها حيث نستولى على ما فيها من الأموال والمتاع، ثم ننفذ ما اتفقنا عليه. أما إذا أخذتنا العجلة وشرعنا في العمل منذ الآن فلن نأمن قيام المخالفين من القواد والجند علينا نائرين وقد يفسدون علينا ما دبرنا. وقد خدع (مرزبان) بهذا الكلام المنطقي وأعجب بالفكرة وأبدى رضاه عنها.

وقصارى القول اننا ما كدنا نخط الرحال على أرض (أصفهان) حتى قمت لفورى بالقاء القبض على هؤلاء القواد الخونة وأفسدت عليهم مؤامرتهم. أما (مرزبان) فقد أرسلته مخفورا تحت حراسة أحد القواد المخلصين الذين لم يشتركوا في هذه المؤامرة، إلى قلعة (سميرم). (المؤلف)

تسعى سعيًا حثيثًا متواصلًا عليها تجد له مخرجًا ، وبسطت يدها كل البسط
لكي تتنسم أخباره وتفك أساره . فنقدت (ابن الضاباني) - الذي كان أسيرًا
مع (مرزبان) - ثم نجا من الأسر - مبلغًا كبيراً من المال على أمل تخليص ابنها
من الأسر ، كما فعلت مثل ذلك مع بطل مغامر بل مقامر من أبطال المراغة
يدعى (ثوبان) اغتراراً منها بقوته وذكائه . بعد أن أعطاها على نفسه العهود
والمواثيق بأنه لا بد منقذه ومخلصه لها من ذل الإسر . ثم أخذ (ثوبان)
« وابن الضاباني » بعدان العدة لتنفيذهما وكل إليهما أمر تنفيذه ، فتشكرا في زى تجار ،
وحملوا من الأمتعة والبضائع ما يحمله التجار ، وسارا حتى بلغ بهما المسير
قلعة (سميرم) حيث ضالتهما المنشودة ، فبعثا إلى محافظها (شيراسفار)
بكتاب قالا فيه : « نحن تجار نحترف التجارة من قديم ، وإن على (مرزبان)
ديننا لنا ، حيث أخذ منا بضائع منذ حين ، ولم يسدد حتى الآن ثمنها ، فترجو
أن تسمحوا لنا بمقابلته لتذكيره بديننا الذي في عنقه » . وما أن قرأ المحافظ
كتابهما حتى أرسل في طلبهما ، فلما مثلا بين يديه ، بسطا له شكواهما المزعومة ،
ثم تطرق الحديث إلى التعريض بسمعة (مرزبان) وعما ارتكبه من مظالم
وأثام ، وعن غدره بمن كانوا به على صلة من الجمهور والتجار ، ثم اختما
حديثهما معه قائلين « الحمد لله الذي أنقذ العالم من شروره ، وقد وقع المحافظ
في حبالهما ، وخدع بقولهما ، وغلب عليه التأثير ، فرق لهما وأبدى عطفًا
عليهما . وسهل لكل منهما مقابلة (مرزبان) على انفراد

ولم يفطن (مرزبان) بادیء الأمر لما دبراه من حيلة وما بيته من خديعة
للعمل على تخليصه وفك أساره فأنكر أنه مدين لهما أو لغيرهما ، فبادر إلى شتمهما
وتوبيخهما . وإن هي إلا إشارة حازمة خفية من عيني أحدهما ، حتى فطن للأمر
وتنبه إلى أن ساعة الخلاص قد حانت أو أوشكت ، فغير أقواله وقال إنه

بعد أن فكر قد تذكر أن في عنقه لهما حسابا قديما غير أنه لا يعرف القيمة على التحديد ولا بد من إحضار دفاترهما للاطلاع عليهما ، وهكذا بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الاتصالات بينهما وبينه واستمرت فترة من الزمن دون أن يتسرب نبا مكيدتهما البارة .

وكان لـ (خراسويه) غلام ديلبي قد تربى في كنفها وشرب من منهل نعيمها منذ نعومة أظفاره ، وكان بارعا في الضرب على الموسيقى والأنغام ، فدخل في زمرة هؤلاء التجار الذين يترددون على القلعة بين حين وآخر . ولا شك أن هؤلاء التجار قد أمطروا محافظ القلعة وموظفيها بوابل من الهدايا حتى تسنى لهم سهولة الاتصال بمرزبان كلما أرادوا ذلك .

وكان لـ « شيرأسفار » محافظ القلعة غلام شاب يتزى بزى الديلمة من حملة العمود والترس ، فعمد إليه (مرزبان) وقربه إليه وغمره بفيض من عطفه وأسبغ عليه كريم عنايته وأمطره بوابل من الهدايا ورائع التحف حتى توثقت بينهما عرى الصداقة والمحبة وأضحى (مرزبان) يوليه كامل ثقته ويطمئن إليه ، فعهد إليه بإحضار آلات لفك القيود وتحطيم السلاسل والأغلال ، فأحضرها وهكذا أخذ « مرزبان » في فك القيود وتحطيم الأغلال التي كانت تحيط بيديه إحاطة السوار بالمعصم ، وذلك بفضل هذا الغلام الديلبى الزى . وكان (شيرأسفار) قد تعود أن يحضر إلى القلعة يوم الجمعة من كل أسبوع لمشاهدة القيود والسلاسل عن كשב ثم يعود أدراجه ، وقد حدث في يوم الجمعة أن جلس (ثوبان) في القلعة إلى جانب (مرزبان) بينما وقف التجار الآخرون في انتظاره على باب القلعة ، وكان الغلام الديلبى الزى يجالس « مرزبان » أيضا ، فدخل عليهم « شيرأسفار » وجلس إلى جانب « مرزبان » ، وشرعا يتناقشان في مواضيع عامة . وفي أثناء الحديث بادره « مرزبان » قائلا : « إذا أطلقت سراحى وأخليت سبيلي فلك منى ماتريد وأكثر »

فأجابه « شيراسفار » على الفور قائلا : اتى لن أخون « ركن الدولة » ما حيت ، وهنا نهض (مرزبان) متحلا من القيود والاغلال متجها شطر الباب وفي الوقت نفسه قفز « ثوبان » لفوره وهجم على (شيراسفار) وألقاه على الأرض وطعنه بالخنجر طعنة نجلاء أردته قتيلا يتخبط في دمائه ، كما انقض من الباب من التجار على الحراس وأوسعوهم طعنا وتقتيلا حتى فنوا عن آخرهم .

ولما أنهى هذا الخبر المشوم إلى حفاظ الأمن وحماته الذين كانوا موزعين عند اجتماع مرزبان برجاله هرعوا إلى داخل القلعة يستقصون حقيقة الخبر ، فلما وقعت أنظارهم على رئيسهم ملقى على الأرض جثة هامة لا حراك فيها ، لم يروا مندوحة من التسليم صاغرين إلى رجال « مرزبان » وأنصاره الذين هرعوا إليه من كل حذب ، وتدفعوا عليه من كل صوب ، فالتفوا حول رايته وقدموا له فروض الطاعة والولاء . [عام ٣٤٢ هـ]

وعلى أثر ذلك كتب إلى أمه وأخيه ومريديه يطلعهم على آخر أخباره ثم مالبث أن نهض وتوجه إلى أذربيجان . [تجارب الأمم ج (٢) - السكامل - ٩] ونعود الآن لنعرف ماذا حدث بعد أسر « مرزبان » ؟

بعد اندحار قوات (مرزبان) ووقوعه في الأسر ، عاد من تبقى ونجا من رجاله بقيادة كل من « جستبان بن شرمزبان » و « على بن فضل » و « شهر فيروز بن كردويه » وبعض قواد آخرين مع جيش قوامه ألف رجل من المقاتلة إلى « أذربيجان » والتفوا جميعا حول (محمد بن مسافر) والد (مرزبان) ثم توجهوا شطر « أردبيل » وتمكنوا من دخولها ، ونصبوه حاكما عليها ، ولكن هذا الحاكم أساء معاملة الأهالي واستبد بهم ، فهجر ابنه (واهسودان) المدينة خشية ما توقع حدوثه من انفجار الأهاليين ضد أبيه ولجأ إلى قلعة (طارم) ، وقد حدث فعلا ما توقعه إذ لم يمض زمن طويل حتى

ضج الناس وانفجروا ثأرين ينادون بسقوط حاكمهم الجائر، وعزم الديامة على سفك دمه، فخشى (محمد بن مسافر) سوء العاقبة ومغبة الأمر فغادر «أردبيل» وتوجه إلى ابنه (واهسوذان) في قلعة طارم ملتصقا بالأمان في كنفه والحماية في حوزته، ولكن لأشد ما كانت دهشته حين ألقى ابنه القبض عليه وزج به حبيسا في قلعة (السيستان) وظل يعاني فيها آلام السجن جزاء ما قدمت يدها، حتى لحق بالرفيق الأعلى.

ومن الحوادث البارزة أيضا بعد أسر «مرزبان» أن «ركن الدولة» كان قد أقطع «آذربيجان» لمحمد بن عبد الرزاق وأرسله على رأس جيش إليها، فوقع (واهسوذان) في حيص بيص وأسقط في يده، واضطر لاطلاق سراح (ديسم) وأسبغ عليه جميل عطفه وأنعم عليه بخلع سنية، ثم بعث به لمحاربة محمد عبد الرزاق. [تجارب الأمم] ويرجع في حوادث ونتائج هذه الحرب ومآل ديسم إلى البحث الخاص به الذي سيأتي الكلام عنه في الحكومة السلارية،

ولم يعمر السالار «مرزبان» طويلا بعد عودته من (سميرم) وقضائه على حركة (ديسم) التي سيأتي الحديث عنها، بل أصابه مرض مميت عام (٣٤٥) هجرية وأوصى وهو طريح الفراش بحكمداية الروادية من بعده لأخيه (واهسوذان) وبولاية العهد لابنه (جستان)، ثم ألح عليه المرض، وما لبث أن لقي ربه.

وبعد وفاته بعث أخوه (واهسوذان) بخاتم الملك وبعض شارات حكم (مرزبان) إلى حكام المدن والقلاع طالبا اليهم تقديم فروض الطاعة والولاء لذاته المملكية ولكن أحدا منهم لم ينفذ له أمرا، لأنهم سمعوا مرزبان يقول قبل وصيته الأخيرة بوجوب الخضوع بعد مماته لابنه (جستان) أولا، ثم يرجع ملك (الروادية) إلى ابنه (ابراهيم)، ثم لابنه (الناصر) من بعدهما، وإذا

لم يوجد كل هؤلاء ، وجبت الطاعة ، وحق الولاء لأخيه (واهسودان) .
وقد أصر جميع القواد والزعماء على تنفيذ هذه الوصية التي سمعوها بآذانهم
مما أثار الحنق وحرك مكانم الغضب بين جوانح (واهسودان) ، وحمل هذا
على غفلة السالار .

وفي هذه الأثناء قام ابن أخيه الأمير ابراهيم الذي كان صهر لـ (ولكين
ابن خورشيد) زعيم الديالمة ، دون اذن من عمه ، باطلاق سراح ولكين هذا
وكان معتقلا بأمر من مرزبان في (أردبيل) وذلك تحت تأثير من امرأته ،
فاستشاط (واهسودان) غضبا على ابن أخيه ، وسرى الرعب في قلبه من
جرا هذه الحركة وما تلاها من حركات أخرى ، فما كان منه إلا أن اختصر
الطريق وغادر (أردبيل) سرا قاصدا قلعة (طارم) .

وبهذا خلا الجو لـ « جستان » فاستقل بأمور الحكم وقبض على زمام الحالة
وبسط نفوذه على شئون الادارة في البلاد وحده دون منافس ، وخضع له
جميع أخواته ، وقدم له القواد والزعماء فروض الطاعة والولاء ما عدا والى
أرمينية المدعو (جستان بن شرمزن) الذي أخذ يناوئه ويعمل جاهدا على
الاستقلال بالحكم .

ولما استقر (واهسودان) في طارم لم يخلد إلى السكينة بل شرع يثير الفتن
والبغضاء بين أبناء أخيه على قاعدة (فرق تسد) ويؤلبهم ضد بعضهم البعض
فما لبثت هذه الأعمال أن أحدثت أثرها المرجو ، لدرجة أن أبناء أخيه أضحي
كل منهم يضمم العداء والكراهية للآخر ، ولما تيقن واهسودان من أن العداء
قد استحكمت حلقاته بين الأخوة ، وجه الدعوة إلى ابن أخيه الأمير ابراهيم
واستقبله بحفاوة بالغة ، وفي نفس الوقت دارت المخابرات بينه وبين الناصر
وتمكن بدهائه ومكره من تأليب عليه « جستان » ، فشق عصا الطاعة عليه ،

وتوجه نحو « موقان » مكریان ، (١) ، فانسل فريق من جيش « جستان » وانضموا إلى صفوف الناصر جريا وراء المال ، ثم سار الناصر بعد ذلك لمحاربة أخيه (جستان) (٢) فتقدم نحو (أردبيل) وبسهولة تم له الاستيلاء

(١) هكذا في الأصل وظاهر أنه خطأ إذ (الموقان ، أو الموكان) غير (مكریان) فالاول يقع فيما بين أردبيل ونهرى الكر والرس بعد اتصالهما ، أما الثانى فهو اسم لولاية كردية أخرى تقع بشمال ولاية أردلان وجنوب بحيرة أرمية (المترجم)

(٢) كان أول عمل قام به (جستان بن مرزبان) بعد أن استقرت في يده الامور أن قتل (ديسم) عام ٣٤٦ هـ . وكان هذا الحاكم الذى خلف أباه في الحكم مستمترا ومنغمسا في اللذات ومنهمكا فأهمل شئون الدولة والجيش ، وبعد حين ألقى القبض على الوزير (ابن النعمي) وسجنه ، فخامر الريب وزير (جستان بن شرمزن) الذى كان يكنى بأبى الحسن والذى كان يمت بصلة القربى إلى (أبى عبد الله النعمي) فحمل أبو الحسن سيده (جستان) هذا على الاتصال براهيم وتشجيعه على المطالبة بالملك لنفسه ، ولم يمتد طویل حتى قام ابراهيم وابن شرمزن بالهجوم على (المراغة) واستوليا عليها ، ولما أنبئ (جستان بن مرزبان) بذلك تفاوض مع ابن شرمزن ووزيره ، وأطلق سراح (ابن النعمي) إرضاء له وحل بينه وبينهما الوثام وكف ابن شرمزن عن مساعدة ابراهيم ، ولكن الاخوين قد كشفوا حقيقة ابن شرمزن وخيائنه لكليهما فدخلا في مفاوضات أعادت المياه إلى مجاريها بينهما .

وأما (ابن النعمي) الذى أطلق سراحه فقد توجه إلى (موقان) ومن هناك اتصل « باسحاق بن عيسى بن المكتفى بالله » العباسي في شأن التماس الخلافة له ، وشجعه على ذلك وأعطاه عهدا على نفسه بأن يمدده بالجيش اللازم ، وأن يستولى على « آذربيجان » باسمه وفعلا قدم لأسحق ثلاثمائة فارس ووضع نفسه تحت امرته ، وحضر « ابن شرمزن » كذلك وبايعه =

عليها فاضطر اخوه (جستان) إلى اللجوء والاعتصام بقلعة (نيز) .
حدث بعد ذلك أن ثار جند (الناصر) عليه وأوغلوا في مضايقته مطالبين
بأعطياتهم المتأخرة ، وكان الناصر على يقين بأن عمه هو المحرك لهم لأنه يكيد
له كيذا ويريد به السوء ، فأخذ يعرض بنان الندم على ما فرط منه ضد أخيه
(جستان) ، فرجع إلى نفسه ، وبعث إلى أخيه طالبا عقد الصلح بينهما ، فلبى
(جستان) النداء وعادت بينهما الأمور إلى مجاريها فاتصل بينهما حبل المودة
والوئام بعد الحرب والخصام ، واعترف الناصر بملكية أخيه (جستان) .
ولكن الحالة في البلاد ظلت متوترة وكانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ،
فقد اشتدت حاجة الجند إلى المال فألحوا في طلبها من أولى الأمر الذين أصموا
آذانهم حتى بلغ السيل الزبى لدرجة أن الأخوين يتسا من إعادة الأمور في
البلاد إلى وضعها الطبيعي فما كان منها إلا أن كتبوا إلى عمهما (واهسوذان)
يعرضان الذهاب إليه فأعطاهما الأمان ورحب بعرضهما ، فاصطحبا والديهما
وهرعا إليه ، ولكنه أبى إلا أن تظل الخيانة شيمته فألقى القبض عليهما
بمجرد وصولهما دون مبالاة لما أعطاه على نفسه من عهود ومواثيق ، وألقى
بهما في السجن . وبذلك خلاه الجو فديست سلطانه ونفوذه على جميع البلاد
وأخضعها لإدارته ، ثم نصب ابنه (اسماعيل) وليا للعهد وأقطعها أكثر البلاد ،
كما إنه أعطى مبالغ كبيرة من الأموال لرجال الجيش وقواده وبذلك ضمن
ولاءهم له .

وفي خلال هذه الفترة كان (ابراهيم السالار) قد ذهب إلى أرمينية حيث
اتخذها له مستقرا ومقاما ، فلما جاءه نبأ إلقاء القبض على أخويه الناصر

= بالخلافه . واتفق الملك (جستان) مع الأمير ابراهيم وحاربا مدعى
الخلافه هذا الذي سمي نفسه (المستجير) فقبضا عليه ، وأرغما (ابن شرمزن)
على الفرار والالتجاء إلى قلعة (أرميه) اهـ [الكامل ج - ٨] المؤلف

وجستان ، عمد إلى شن الحرب على ابن عمه (اسماعيل) أملا في إنقاذ أخويه ولما علم (وهسوذان) بهذا النبأ المروع ، تملكه الفزع واشتد به القلق ، ولا سيما أن جماعة من الجمهور وبعض رجال الجيش من الديالة كانت روح التمرد والثورة قد بدأت تجدد إلى أنفسهم سبيلا في نفس الوقت الذي أعلن فيه ابراهيم الحرب على ابن عمه اسماعيل ، فبادر (وهسوذان) إلى قتل كل من (جستان) وأخيه (الناصر) وأمهما . وجهاز حملة عسكرية بعث بها مع مبلغ من المال إلى (جستان بن شرمزن) وطلب إليه أن يقاتل بها (ابراهيم السالار) وكان ذلك (عام ٣٤٩ من الهجرة)

ولما فوجيء (ابراهيم) بهذه الحملة لم يستطع الصمود أمامها فاقتصر الطريق وقفل راجعا إلى (أرمينية) ، ولكن (جستان بن شرمزن) قد شن هجوما عنيفا على بقية رجاله وسدد إليهم ضربات قاتلة وألحق بهم هزيمة شنعاء ، وتمكن من الاستيلاء على (المراغة) التي كانت مركز إمارة (ابراهيم) واستولى كذلك على (أرمية) . اهـ من (الكامل ج - ٨ ص ٢٠٩) .

ولما عاد الأمير (ابراهيم السالار) إلى (أرمينية) لم يستسلم للهزيمة ، ولم يخلد إلى الراحة والسكينة ؛ بل أخذ يعد العدة لإعادة الكرة ، فقامت الاستعدادات على قدم وساق حتى تمكن في عام (٣٥٥) من الهجرة إلى حشد جيش كبير ليغزو به (آذربيجان) ، ولكي يضمن لغزوته النجاح والظفر اتصل بجستان بن شرمزن واتفق معه على أن يقف إلى جانبه ويشد أزره وتم بينهما التفاهم على خطة العمل ، وساعدت الظروف (ابراهيم) حيث مات ابن عمه (اسماعيل) وقتئذاك ، فانهز (ابراهيم) الفرصة وزحف إلى « أردبيل » وتمكن بسهولة من الاستيلاء عليها « وصمم على الانتقام لأخويه من عمه ، ولكن « وهسوذان » قد اشتهر رائحة الخبر وخشى سوء العاقبة ففر هاربا مع « ابن مشكي » إلى بلاد الديلم ، وبذلك خلا الجو للأمير « ابراهيم » وتمكن من الاستيلاء على جميع بلاد « آذربيجان » وصادر جميع أملاك عمه وأمواله .

أما « وهسودان » فنذ أن فر هاربا الى بلاد الديالة وهو يعمل جاهداً لتعكير صفو الامير ابراهيم ومناوآته وقد حقق له الديلم أمنيته فأمدوه بجيش كبير زحف به على « آذربيجان » وتمكن من اقتحام قلعة « طارم » كما أنه أرسل أبا القاسم ابن ميشكى على رأس جيش آخر لمحاربة « ابراهيم » ودارت بين الجيشين رحى معركة حامية الوطيس أسفرت عن اندحار جيش « ابراهيم » وسفك دم رجاله الذين وقعوا صرعى في الميدان ولم ينج ابراهيم نفسه الا بأعجوبة ففر إلى الري ملتجئاً الى « ركن الدولة » زوج أخته الذي قابله بالحفاوة والتكريم وأكرم وفادته .

« ابراهيم السالار »

في نفس السنة وفي عاصمة (ركن الدولة) أدى ابراهيم السالار خدمات جليلة خلال ثورة الديالة وشقهم عصا الطاعة على ركن الدولة لدرجة أنه أصيب بجراح خطيرة ، وبعد حين بعث ركن الدولة بوزيره (أبى الفضل ابن العميد) على رأس جيش في صحبة ابراهيم السالار للاستيلاء على آذربيجان وتمكن الجيش البويهى فعلاً من الاستيلاء عليها وتوسط في الصلح بين (جستان بن شمرن) و (ابراهيم) وتم الصلح بينهما على يديه ، وما أن رأى هذا الوزير العاقل (أبو الفضل) ما عليه إقليم آذربيجان من الغنى والثروة الطائلة والخصب حتى أعجب بها أيما إعجاب وكتب سرا إلى (ركن الدولة) قائلاً أنها لخسارة كبرى أن يعهد بإدارة مثل هذا الإقليم إلى مثل (السالار ابراهيم) المنغمس في الملذات والشهوات ، والمنصرف عن شئون الادارة والحكم ، ثم طلب إليه أن يباشر هو بنفسه شئون هذا الإقليم على أن يسند إلى ابراهيم شئون إقليم آخر في الدرجة الثانية من الأهمية ، ولكن هذه المشورة كان

مصيورها الرفض البات . وزيادة على ذلك فقد أمر (ركن الدولة) وزيره هذا بالعودة فورا من آذربيجان الى عاصمة ملكه .

هذا ، وما يؤسف له أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن نهاية عهد إمارة (ابراهيم) وإن كنا نأخذ من رواية (بيشكوتن - نشریات - ٦) أنه يلوح أن ابراهيم قد استمر يحكم حتى عام ٣٨٠ من الهجرة ، ثم خلفه ابنه (راويدى) ثم خلف هذا الأخير ابنه (كلاس) ثم تلاهما فى الحكم (واهسودان) بن (كلاس) (١) فى عام ٤١٥ من الهجرة .

« واهسودان الثانى »

اجتاح (الغز) (٢) بلاد (آذربيجان) عام (٤٢٠) من الهجرة فى عهد هذا الحاكم ، وقد بذل محاولات يائسة فى مبدأ الأمر ليقى البلاد شر هؤلاء الغزاة المتوحشين . فلا ينهم وقدم لهم كل مساعدة ممكنة ولكن ذهبت كل هذه المحاولات أدراج الرياح ، وازدادوا تعنتا وأوغلوا فى التدمير والتخريب واسترسلوا فى السلب والنهب .

وفى عام ٤٢٩ من الهجرة شن الغز غارة شعواء على مدينة (المراغة) وانتشروا فى شرايين المدينة يسفكون الدماء ويذبجون الأبرياء حتى هلك

(١) يطلق عليه منجم العمران فى ص ١٨٩ اسم (غلاك)

(٢) كانت (الغز) عشيرة تركمانية من عشائر أطراف بخارى ، جبلوا على الوحشية والقسوة وحب السلب والنهب مما حملهم على الانقضاض على البلاد والتسلط على العباد ، وكان قسم منهم قد تقدم تجاه (أصفهان) وبقي قسم آخر فى (خوارزم) بينما توجه القسم الثالث نحو « آذربيجان » و « كردستان » بقيادة كل من توقا وكوكتاش ومنصور ودانا .
المؤلف

الاهلون عن بكرة أبيهم ، كما أشعلوا النار في المساجد وأحرقوا المعابد ، ونهبوا الأموال واغتصبوا المقتنيات . واستهانوا بأقدس الحقوق الانسانية ولم يراعوها مما لا يقره دين من الأديان أو يستريح ضمير أحط فرد من بنى الانسان . ولم تقف أعمال السلب والنهب عند حد سكان المدن والقرى فحسب بل أكتوت القبائل الكردية الضاربة في أطراف المدينة ، بنارهم ، وتعرضت لويلاتهم . وإزاء هذه النكبة الطامة والاضطهادات المريرة التف كثير من العشائر الكردية حول (أبى الهيجاء بن ربيب الدولة) رئيس عشيرة الهذبانة وتكاتفوا جميعهم مع (وهسودان) ليقفوا جبهة متراصة في وجه هؤلاء المغيرين المدمرين من الغز ، وقد نجم عن تكوين هذه الجبهة القوية أن خاف الغز سوء العاقبة ومغبة الأمر فزحفوا إلى (الرى) أشتاتاً ، إلا أن الكرد قد طاردوهم وأعملوا السيف في رقابهم وقتلوا الكثيرين منهم .

وكانت قوة منهم قد دخلت (أرمينية) وأخذ رجال هذه القوة يجوسون خلالها وتوغلوا فيها ، وما أن جاءهم نبأ هذه المذبحة التى حاقت باخوانهم حتى عادوا على جناح السرعة إلى (أرميه) وهى منطقة أبى الهيجاء الهذبانى واشتبكوا فى القتال مع الأكراد ودارت بين الجيشين معركة حامية الوطيس أسفرت عن خسائر فادحة لكلا الطرفين ، وعجز أبو الهيجاء عن استئصال شأقتهم وقطع دابرهم .

وفى عام ٤٣٢ من الهجرة دبر (وهسودان ماملان) (١) مكيدة للتخلص

(١) حين أغار الغز على (آذربيجان) كان يحكمها (واهسودان) وهو من الأسرة الروادية وكان مشهوراً باسم (واهسودان بن ماملان) على رأى دائرة (المعارف الاسلامية ج — ٤ ص ٥٨٤) أما رأى « منجم العمران ج — ٩ ص ١٨٩ » فهو أنه كان مشهوراً باسم (واهسودان بن غلان) .
المؤلف

من الغز ، فأقام في (تبريز) حفلة عامة دعا إليها رؤساءهم وزعماءهم المبرزين وما دار بخلدهم أنه قد دبر لهم في نفسه أمرا ، وفي أثناء الحفلة فوجئوا بإلقاء القبض عليهم جميعا ، ثم أصدر (واهسودان) أوامره لرجال جيشه بالانقضاض على جند الغز ، فشنوا عليهم هجوما عنيفا ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وفر الناجون منهم ، من (آذربيجان) كما سيأتى .

وليس لدينا معلومات أخرى عن عهد هذا الحاكم ولا عن أحوال وحوادث هذا الأقليم إلى حين أن قدم إليه (طغرل بك السلجوقي) واستقر فيه سنة (٤٤٦) كما سيأتى قريبا .

وتروى لنا (دائرة المعارف الإسلامية ج - ٤) أن عام ٤٣٤ للهجرة قد شهد زلزالا مروعا في مدينة (تبريز) جعل عاليها سافلها ، ونشر الدمار وأنزل الولايات في شتى أنحاء ما اضطرب ملكها (واهسودان) إلى تشييد قلعة جديدة ونقل قاعدة ملكه إليها . خشية إغارة الغز وسطوهم على المدينة خلال محنتها القاسية ، ورزئها الجسيم .

وكان يحكم مدينة (تبريز) عام ٤٣٨ للهجرة حاكم يدعى (ناصر خسرو)^(١) متخذاً لنفسه لقب سيف الدولة وشرف الملة أبو منصور واهسودان بن ماملان) كما يدعى بمولى أمير المؤمنين .

وفي عام ٤٤٦ للهجرة غادر السلطان (طغرل) مدينة (أصفهان) وتوجه صوب (آذربيجان) فنخف الأمير أبو منصور واهسودان بن محمد الروادى

(١) هكذا في الأصل ، والصحيح أن الرحالة الفارسي الشهير (ناصر خسرو) يقول انه حينما مر بمدينة (تبريز) كان على رأسها الملك المدعو (ابو منصور واهسودان بن محمد = ماملان) وكان يلقب بسيف الدولة وشرف الملة . راجع رحلة (ناصر خسرو) ص ١٣ طبع الهند . (المترجم)

لمقابلته ، وبادر إلى لقائه في طريقه إلى (آذربيجان) قبل أن يصل إليها مقدما له فروض الطاعة وعلامات الولاء . وهكذا أضحت حكومة آذربيجان الروادية حكومة تابعة تدين بالخضوع للسلطان وأسدل الستار عليها كحكومة روادية مستقلة ، منذ هذا التاريخ .

وإنه ليتعذر علينا - لجهلنا بميلاد تأسيس هذه الحكومة - تحديد عهد استقلالها على التحقيق ، ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن قسما من إقليم الجبال كان يخضع أيضا لحكام آذربيجان الرواديين على أن المعلومات التي في متناول أيدينا عن الفترة الأخيرة عن عهد هذه الحكومة من القلة بمكان ، حيث أن المصادر لم تتعرض إلا للأعمال والحوادث التي وقعت في عهد (أحمديل) فقط . وإن كان (السيد حسين المكرياني) يقول إن (واهسوذان) الثاني قد لحق بالرفيق الأعلى عام ٤٥٨ من الهجرة وأن ابنه (ابراهيم) قد حكم بعده واستطال حكمه وعمر حتى عام ٤٩٠ من الهجرة .

والظاهر أن مدينة (تبريز) سقطت في أيدي الترك في عهد ابراهيم وبذلك انتزعت من أيدي الرواديين ، وخرجت من حوزتهم ثم ظل حكمهم بعد ذلك قائما في (المراغة) فقط حينما من الدهر . (الكامل ج — ١٠ ص ٢٠٥) .

« الأمير أحمديل »

تقول « دائرة المعارف الإسلامية » أن الأمير « أحمديل » هو « ابن ابراهيم بن واهسوذان الروادي الكردي ، ويلوح أنه نجح في إحياء حكومة « المراغة » ، التي عمرت حتى عام (٦٢٤ هـ) .

وفي عام ٥٠٥ للهجرة حينما اشتعلت نيران حرب ضروس بين جيوش السلطان « محمد بن ملكشاه » وامبراطور الروم ، اشترك فيها الأمير « أحمديل » بجيشه إلى جانب الجيوش السلطانية مع كل من (سقمان القطبي) أمير تبريز

و(مودود) أمير الموصل و(ابن الهيجاء) حاكم أربل وأمرأه آخرين في المعارك التي دارت رحاها في أرض سورية وأبلى فيها بلاءاً حسناً ، حيث تصدى لقائد جيش ملك القدس الشهير (جوسلين - jасlin) اه . من (تاريخ حلب) ولكن الأمير (أحمدل) ما لبث أن انسحب من الميدان متظاهراً بأنه مضطر إلى مغادرة سورية والعودة على عجل ، إلى (آذربيجان) بسبب وفاة «سكمان القطبي» حاكم (ديار بكر) و (تبريز) . ولكنه في الحقيقة كان يخفي في نفسه أمراً جليلاً وهو العمل على استرجاع ملك آبائه وأجداده .

وكان تحت إمرته وطوع بنائه - كما يقول ابن الجوزي (١) - جيش خاص قوامه خمسة آلاف من الفرسان ، ودخل سنوى يقدر بأربعمائة ألف دينار . وكان طموحاً عالي الهمة واسع الآمال . ولكن ما درى أن قدر له غير ما يهوى وخلاف ما ينبغي فقد حدث في عام (٥١٠) من الهجرة أن كان الأتابك (طغتكين) حاكم دمشق في ضيافة السلطان (محمد) في بغداد ، وبهذه المناسبة كان قد وفد إلى بغداد الكثيرون من الأمراء والحكام ومن بينهم الأمير (أحمدل) الروادى

وذات يوم بينما كان (أحمدل) جالساً إلى جانب (طغتكين) في حفل زاهر تقدم رجل ينهمر الدمع من عينيه مدراراً وفي يده ورقة يلتمس السماح له برفعها إلى السلطان ، فنهض الأمير (أحمدل) وخف صوب الرجل وقد رق له قلبه ليتناول من يديه الورقة فما كان من هذا الرجل الذي بدا في ثوب البأس العانى - إلا أن شهر خنجرا كان يخفيه وطعن به الأمير طعنة نجلاء ، ولكن الأمير أمسك بتلابيبه وطرحه أرضاً ، فتقدم آخر وهجم على الأمير وطعنه طعنة ثانية . وظهر ثالث فطعنه طعنة قاضية أردته قتيلاً على مرأى

(١) حيث يقول في (مرآة الزمان) ان الامير احمدل كان قد حضر الى بغداد وبعيته خمسة آلاف فارس . (ج - ٣ ص ٣٢)

المؤلف

ومسمع من هذا الجمع الحاشد وهكذا قضى عليه ودفن ، ودفنت معه أماله
في استعادة ملك آباءه وأجداده .

وقد ظن (طغتكين) لأول وهلة أن هذه الجريمة الشنعاء لا بد من
أن دبرها السلطان ورجاله ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الظن حيث ظهر
الحق ، وبأن هؤلاء الجناة من الباطنية (١)

« آق سنقر الاحمديلي »

خلف هذا الأمير والده الأمير (أحمديل) على إمارة (المراغة) بعد وفاته .
وفي عام (٥١٤) للهجرة حينما شق الملك (المسعود) حاكم الموصل
وآذربيجان عصا الطاعة على أخيه السلطان (محمود) وقلب له ظهر المجن ،
أرسل أتابكه السابق (قاسم الدولة بزرگ) ليستولى على إمارة المراغة ويتسلمها
منتزها الفرصة ، ولكن ثورته هذه قد بادت بالفشل وعادت الأمور سيرتها
الأولى وبذلك تمهد السبيل لعودة (ابن احمديل) من بغداد الى مقر إمارته
عام (٥١٥) للهجرة . حيث اتخذها مستقرا له ومقاما دون منازع ، ولكن الطمع
قلبا جمع أسباب الهناء والراحة ، إذ لحق بالرفيق الأعلى في هذا العام ، الأمير
(كون طوغدى) حاكم (أران) من قبل السلطان (طغرل) ، وهنابداً (ابن
احمديل) يسعى سعياً حثيثاً لدى السلطان طغرل لتعيينه حاكماً على (أران)
خلفاً لحاكمها الراحل فارس السلطان في طلبه ، على أن يصطحب معه عشرة آلاف
من المقاتلة ، ويقدم المساعدة الممكنة لجيوشه أثناء قيامها بفتح (أردبيل) .
ولكن تنفيذ هذا الأمر ، ومغادرة (ابن احمديل) لامارته (المراغة)
صار وبالاً ، وجر عليه خسائر فادحة ، إذ انتهز السلطان (محمود) فرصة تغيبه

(١) من (دائرة المعارف الإسلامية ومعجم البلدان) . المؤلف

عن إمارته وانشغاله في حروب السلطان طغرل ، واستولى عليها بوساطة (حيوش بك) ولكن سير الوقائع تدل على أن (ابن أحمديل) لم يقف جامدا ازاء الحالة الجديدة بل أخذ يسعى للتقرب من السلطان (محمود) ، حتى نجح مسعاه أخيرا فتم التفاهم والوثام بينهما ، وعينه السلطان أتابكا (مريا) لابنه وولى عهده الأمير (داود)

وفي عام (٥٢٣) من الهجرة اشترك الأمير (آق سنقر بن أحمديل) في الحملة المرسلّة على (ديس بن مزيد) ، وبعد عام من اشتراكه في هذه الحملة أبدى نشاطا محسوسا ليتولى الأمير (داود) السلطة والملك .

وفي عام (٥٢٦) من الهجرة اشتبك جيشا السلطان (طغرل) والأمير (داود) على مقربة من (همدان) وحاقت الهزيمة بجيش الأمير لتألب الجنود عليه وخيانتهم له ، وهكذا لبست الهزيمة الأميرين (داود) و (آق سنقر) مما أدى إلى استيلاء السلطان (طغرل) على (المراغة) و (تبريز) .

وبعد حين لجأ كل من الأمير داود وعمه الملك المسعود وأتابكه آق سنقر إلى بغداد حيث مد الخليفة اليهم يد المساعدة وزودهم بجيوش وعتاد وأموال طائلة ، مما قوى ساعدتهم وحفزهم إلى التوجه صوب (المراغة) وسرعان ما وقعت في أيديهم وأضحت في قبضتهم وفيها ازداد نفوذهم وقويت شوكتهم بفضل ما يكتنه أهلها للأمير (آق سنقر) من عميق الولاء ، وصادق الحب ، مما أدى إلى تحرير جميع بلدان آذربيجان وتخليصها من بين براثن غاصبها ، ولكن أنى لهم الوقوف عند هذا الحد ، بل يمموا شطر (همدان) وهنالك شتتوا شمل قوات السلطان (طغرل) ومزقوا صفوفها شرمزق ، وسقطت (همدان) في قبضة جنود الملك المسعود . ولكن الأمير (آق سنقر) مثل والده قد اغتالته يد أثيمة في أثناء دخول القوات الظافرة همدان عام (٥٢٧) من الهجرة ، إذ كان هذا القتال باطنيا موفدا من قبل وزير السلطان (طغرل) لارتكاب هذه الجريمة الوحشية .

« آق سنقر الثانى »

هو ابن آق سنقر الاول ابن احمديل . ولم يتفق جميع المؤرخين على هذه التسمية بل اختلف بعضهم وذكروه بأسماء متباينة .
وكان يتحدى هذا الأمير ويناصبه العداء والبغضاء ، أمير آخر يدعى (أزبك بن بالنيكارى) الذى كان يلح باذلا قصارى جهده أملا فى الاستيلاء على (أران) و (آذربيجان) وكان فى هذا الوقت (تبريز) خاضعة لحكم آق سنقر امير المراغة .

وما ان أهل عام (٥٤١هـ) للهجرة حتى ضرب هذا الأمير (أزبك) حصارا منيعا حول مدينة (المراغة) ولكنها امتنعت عليه واستطال حصارها حتى عام (٥٤٥ هـ) . حيث خف إليه السلطان مسعود بنفسه على رأس جيوش جرارة مالبثت أن اقتحمت المدينة وتم للسلطان الاستيلاء عليها وأمر بهدم قلعتها الحصينة . وبعد ذلك بقليل زالت الجفوة بين (أزبك) والأمير (آق سنقر) وتم بينهما الصلح وحل الوفاق والوثام أمام قلعة (روين دز) (١)
ولكن (أزبك) لم يعمر طويلا بعد هذا الصلح حيث لقي حتفه مقتولا على يد السلطان (محمد) إثر غصبة جامحة ، مما أفضى إلى استياء الأميرين « أيلدكز » و « آق سنقر » من السلطان محمد و اقدامهما على تنصيب الملك (سليمان) على عرش « همذان » عوضا عنه .

ولكن السلطان « محمد » استطاع بعد حين استخلاص « همذان » واستعادة سلطانه عليها ، ثم رأى من الحكمة أن يعقد صلحا مع أميرى آذربيجان « ايلدكز » و « آق سنقر » فأوفد اليهما رسلا من قبله لمفاوضتهما فى عقد الصلح ،

(١) اى قلعة (روين) كانت قلعة حصينة جدا على نهر الصوفى على مسافة ١٥ كيلو مترا فى شمال المراغة .
المؤلف

فلبيا دعوته وحققا رغبته وعقد الصلح في عام (٥٤٩) للهجرة ، وهكذا قسم إقليم آذربيجان بين الأميرين السكييرين .

وقبل أن يلحق السلطان (محمود) بالرفيق الأعلى وتصدق روحه إلى بارئها وضع ابنه الصغير (داود) تحت وصاية الأمير (آق سنقر) لأن السلطان (أرسلان) كان في حماية الأمير (ايلدكز) وتحت وصايته .

ثم حدث بعد ذلك أن قام (بهلوان بن ايلدكز) على رأس حملة عسكرية وهاجم الأمير (آق سنقر) أملا في تنصيب هذا الأمير المحمي وهو السلطان (أرسلان) بدل والده غير أن أمير (المراغة) الشجاع قد دحر الجيش المهاجم بقيادة بهلوان على ضفاف نهر (سفيدروذ) واضطره إلى التقهقر وذلك بتعصيد (شاه أرمن = لقب ملوك خلاط من السكرد والتركمان) له في عام ٥٥٧ من الهجرة .

ولما تم لأمر المراغة استئصال شأفة هذه الحملة وتشيت شملها ، بعث بخمسة آلاف من الجنود لنجدة (إينانج) حاكم الري الذي كان مشتبكا حينذاك في القتال مع (ايلدكز) وجنوده . إلا أن (ايلدكز) قد استطاع تشيت شمل هذه النجدة وألحق بها هزيمة شنعاء . ويلوح أن (آق سنقر) و (ايلدكز) قد زالت بينهما الجفوة بعد ذلك وحل بينهما الوثام والوفاق وتبدد الخصام ، بدليل مساعدة (آق سنقر) للأمير (ايلدكز) في حملته على بلاد السكرج .

وفي عام (٥٦٢) للهجرة قام الأمير (آق سنقر) بزيارة ، إلى بغداد حيث استقبل من الأهلين استقبالا منقطع النظير وقدم الملك (داود) لآتابكه وحاميه من ضروب الخفاوة والتسكريم ما لم يسبق له مثيل .

وفي نفس هذا العام أعاد (بهلوان بن ايلدكز) الكرة واستأنف إلقاء الحصار على (آق سنقر) في (المراغة) ، ولكنه سرعان ما رفع الحصار وتم عقد الصلح بينهما .

ومما يؤسف له أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن الحلقة الأخيرة من عهد هذا الأمير، اللهم ما يرويه لنا ابن الأثير من أن أمير الري (اينانج) قد قتل في عام (٥٦٤) للهجرة، ثم ثار (قتلغ) أخو (آق سنقر). إلا أن الأتابك (بهلوان بن ايلدكز) قد عاقبه وسلم حكومة (المراغة) لأخوى (قتلغ) وهما (علاء الدين) و (ركن الدين).

يتضح من هذا جليا أن الأمير (آق سنقر) الثاني قد توفي عن أربعة أبناء، وأن حروبا دامية قد اشتعلت نيرانها بين (آق سنقر الثالث) وأخيه (قتلغ) لسبب واضح وواحد. ألا وهو التكالب على الدنيا والتنافس على الحكم. وظلت نيران الحرب تزداد بينهما اشتعالا، مما أدى إلى تدخل (بهلوان ابن ايلدكز) لوضع حد لهذه المعارك الدموية وتمكن فعلا من حسم النزاع باعطاء الحكومة إلى الابن الصغيرين للأمير (آق سنقر الثاني) الراحل وهما (علاء الدين) و (ركن الدين) وبذلك حرم الأخوان المتنازعان من الحكم.

كما يحدثنا ابن الأثير أيضا عن حاكم كان قائما على المراغة عام (٥٧٠) للهجرة يدعى (فلك الدين) وكان حفيد (آق سنقر الثاني) وأن والده تنازل له عن الحكم، وأن (بهلوان بن ايلدكز) قد أعاد الكرة في أيام حكم هذا الأمير وهاجم (المراغة) وقلعة (روين دز) ولكن سرعان ما توقفت رجلي المعركة وعقد بينهما صلح كان ضمن شروطه التخلي عن (تبريز) والتنازل عنها لأسرة (ايلدكز).

ومعنى ذلك - كما يتبادر إلى أذهاننا - أن مدينة (تبريز) قد ظلت حتى عام (٥٧٠) للهجرة في حوزة حكام المراغة وضمن دائرة نفوذهم، وأن منطقة حوالى جبل (صهند = سهند) بأكملها كانت تدين بالخضوع والتبعية لأسرة (أحمد يلى). وتلت ذلك فترة قاربت الثلاثين عاما لا نعرف من أخبارها ولا عن حوادثها سوى خبر عن عقد اتفاقية بين «علاء الدين» أمير المراغة و«مظفر

الدين (كوكبرى) أمير (أربيل) عام ٦٠٢ للهجرة ، وكان (علاء الدين) يرمى من وراء ذلك إلى الحصول على مساعدة (مظفر الدين) له ، وشدد أزره في العمل على انتزاع «آذربيجان» من يد حاكمها (أبو بكر أيلدكز) ، وتنفيذا للاتفاقية (١) قام جيشا الحليفين بالزحف تجاه (تبريز) ، فما كان من حاكمها (أبو بكر أيلدكز) إلا أن بادر بطلب النجدة من (آي طوغميش) مملوك أسرة أيلدكز القديم الذي لبى النداء واستجاب لطلبته ، ولكن ما كادت الحرب تنشب أظفارها ، ويشتد أوارها حتى انسحب (مظفر الدين كوكبرى) من الميدان عائدا إلى (أربيل) في حين تعقب (آي طوغميش) أثر (علاء الدين) وأخذ يطارده حتى قرع أبواب (المراغة) فاضطر (علاء الدين) إزاء ذلك إلى التنازل عن القلعة التي كانت مشار النزاع لخصمه ، مقابل استرداد مدينتي (أرمية) و (أشنه = إشنو) .

ولم يعمر (علاء الدين بك) طويلا بعد ذلك . فقد لقي ربه في عام (٦٠٤) للهجرة ويطلق عليه ابن الأثير اسم (قره سنقر) (٢) ، وقد خلف بعد وفاته طفلا صغيرا كفله من بعده أحد رجاله المخلصين الأحرار . ولكن شاءت الأقدار أن تصعد روح هذا الأمير الصغير إلى بارئها في عام (٦٠٥) للهجرة أي بعد والده بعام واحد .

وبعد ذلك أتت فرصة ذهبية لأبي بكر أيلدكز فاستولى على شتى أملاك وممتلكات الأسرة الأحمديلية الكرديّة عدا القلعة (روين دز) التي كان يحكمها

(١) تقول (دائرة المعارف الإسلامية) في مادة (تبريز) ان هذه الاتفاقية عقدت بين الأمير (علاء الدين قره سنقر أحمدبلي) .

(٢) ولا يخفى أن هذا الأمير هو غير (قره سنقر) التركي الذي كان حاكما على المراغة في عهد (اولجايتو خان) وتوفي عام ٧٢٨ للهجرة . المؤلف

ذلك الرجل الصادق من رجال (علاء الدين بك) والذي كان يكفل الأمير الصغير كما ذكرناه .

والظاهر أن (علاء الدين بك) الذي أثنى عليه الشاعر (نظامي) في ديوانه (هفت بيكر) - ثناء مستطابا فأطنب في مديحه - هو بالذات (علاء الدين بك) حاكم (المراغة) ، ثم يكشف لنا هذا الشاعر في ديوانه أيضا عن اسمي ولدين لعلاء الدين بك يدعى أحدهما (نصرة الدين محمد) والآخر (أحمد) ، وإذا طبقنا هذا الذي يقوله الشاعر (نظامي) على قول ابن الأثير لوجدنا أن هذين الأميرين قد أدركهما الموت وعاجلتهما المنية قبل (علاء الدين بك) نفسه . ومما هو جدير بالذكر أنه قد ظهر في أسيرة (أحمدبلي) نساء تولين مقاليد الأمور وزمام الحكم . وحينما اجتاحت قوات (المغل) ، (المراغة) في شهر صفر من عام (٦١٨) للهجرة واستولت عليها وهدمت قلعتها ودمرت المدينة وأشعلت فيها النيران بعد أن سلبت ونهبت مافيها ، وقتلت أهلها - نجت ملكتها التي كانت وقتذاك قابضة بين جدران قلعة (روين دز) - من هذه الولايات والمصائب . وكانت هذه الملكة تدعى (من هواداد) وهي آخر ملوك الأسرة الروادية ، وحفيدة (علاء الدين بك) ،

وقد تزوجت مرتين أولاها بابن لايلدكر يدعى (أزبك) كان أصم وأبكم ثم عادت وعقدت قرانها على (جلال الدين شاه) حين عاد من العراق وقد تم له الاستيلاء على قلعة (روين دز) أيضا . (دائرة المعارف الإسلامية ج - ٣ - ص ٢٧٩ ، ٢٨٠)

وهكذا انقرضت الحكومة الروادية الكردية وأسدل عليها الستار بعد أن عمرت أربعمئة سنة كاملة .

الفصل الثاني

٢ - الحكومة السالارية^(١) بأذربيجان (٣٠٠ - ٤٢٠ هـ)

كانت آذربيجان - كما أشرنا في المجلد الأول - يطلق عليها اسم (ميدية) الصغرى. ففي عام (٣٣٠ ق. م). استولى عليها الملك الأشكاني (فرهاد) الرابع (٢) وهكذا سلبت الحكومة الاشكانية استقلال ميدية الصغرى ، وانتزعته اغتصابا ، وإن كانت قد فشلت فشلا ذريعا في قمع حرية أهلها وإضعاف الروح المعنوية بينهم ، بل ظلوا يتمتعون باستقلال داخلي ، في ظل حكومات صغيرة ، تسوس شئونهم وترعى مصالحهم .

ومما يحز في النفس ويوجب الأسف. أننا نفتقر إلى معلومات مفصلة وافية عن تاريخ هذا الأقليم الكردي خلال بضعة قرون قبل الإسلام وإبانه ، لدرجة أن المؤرخين والرحالة العرب والمسلمين أنفسهم ، قد وقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الفترة ، وما استطاعوا لها تأريخا لإعطائنا فكرة واضحة وامدادنا بمعلومات شافية ضافية عن أحوال هذا الأقليم في فجر الفتوحات الإسلامية ،

(١) يطلق (الصدقي) في (تاريخ الدول) اسم (الدولة السالارية) أو (الدولة المسافرية) على هذه الحكومة ، وواضح ان التسمية الاولى اصح وانسب لأن مؤسس هذه الدولة كان يدعى (سالارمرزبان) ، ويقول ايضا إن هذه الدولة كانت ديلمية ، في حين ان (دائرة المعارف الاسلامية) ليس لديها ادنى شك في انها كانت كردية ، وعلى هذا تكون الديالة بمقاطعتي (كيلان وطبرستان) فرعا من الامة الكردية كما يقول به (اسكندر منشي) في تاريخه (عالم آراي عباسي ص ٧٦٢) وكما ورد في كتاب (حمزة الاصفهاني) ان الايرانيين كانوا يطلقون لفظ الديلم على اكراد طبرستان - (٢) تاريخ ايران القديم ص ١٥٦ المؤلف

الأمر الذي يتعذر علينا معه محاولة الربط بين مجريات الحوادث والوقائع التاريخية لهذا الإقليم في العهد الإسلامي وبين تلك الوقائع القديمة التي كانت أذربيجان مسرحا لها .

ومع هذا نستطيع أن نستدل من مجرى الحوادث والوقائع التاريخية على أن هذا الإقليم قد شاهد حكومة مستقلة كبرى قامت على تصريف شؤنه . وأنه على الدوام كان مرتعا لنزاع دائم ، وقاتل مستمر بين الحكومات الإيرانية والدولة الرومانية (الشرقية والغربية) .

نعم : هنالك عالمان عريان على التحديد ، قد اهتمتا دون غيرهما ، يبحث حالة أذربيجان وهما (ابن خرداذبه) (١) الذي زار (تبريز) عام ٢٣٢ هجرية في عهد إمارة (محمد الروادي) أما ثانيهما فهو (الأصبخري) (٢) الذي قام بسياحة في إقليم أذربيجان في غضون القرن الثالث الهجري ، حيث رأى بعينى رأسه بلاد (تبريز وجبردان = دىخواركان واشنو) تحت حكم العشائر (الردينية) المعاصرة لحكومة (بنى الساج) التي كانت قصبها قديما مدينة (المراغة) ثم أضحت فيما بعد مدينة (أردبيل = أردويل) .

ويقول (ياقوت الحموى) في معجم البلدان ، ان إقليم أذربيجان قد ظل فترة في قبضة الترك إلى أن تغلب « كيخسرو » ملك إيران على حاكمهم المدعو « أفراسياب » وقتله ، وبذلك دالت دولتهم عن هذا الإقليم .
وعما يدل على أن رواية « ياقوت » هذه غير صحيحة البتة ، وأنها محض

(١) هو ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه الفارسي الذي طبع كتابه بليدن سنة ١٣٠٩ هـ ، وقد ألفه بين ٢٣٢ هـ و ٢٧٢ هـ ويظن انه توفي حوالى سنة ٣٠٠ هـ . كما حققه في دائرة المعارف الاسلامية

(٢) المتوفى سنة ٣٤٠ هـ - سنة ٩٥١ م المترجم

خرافة أننا نعلم علم اليقين أن « أفراسياب » هذا كان ملكا على تركستان أى ماوراء النهر ، لاحاكما على إقليم آذربيجان ، كما يدعى (ياقوت) .
بالرغم عن هذا ، فالمعروف أن بلاد « مدينة الصغرى » كانت بأكملها فى قبضة الأكراد أحفاد الميديين الأوائل منذ عهد الميديين إلى أن تحركت الإغارات التركية نحو الغرب ، وظهر الغز ثم السلجوق عام (٤٢٠) .

ثم دخل هذا الإقليم فى حوزة « يوسف بن أبى الساج » عام (٢٨٨) كما ورد فى ياقوت وظل فى قبضته إلى أن استطاع « مؤنس الخادم » أن يستخلصه ، وينزعه منه إبان خلافة « المقتدر بالله » . ولكن يوسف بن أبى الساج لم يهدأ له بال ، ولم يطق صبرا على انتزاع هذا الإقليم منه ، فأخذ يعمل جاهدا آناء الليل ، وأطراف النهار ، حتى أعاده ثانية إلى حوزته .

وما أن أهل عام (٣٢٦ هـ) حتى تهيأ حاكم « الرى » المدعو « وشمكير » للاستيلاء على هذا الإقليم ، وتحركت جحافل جيشه بقيادة أحد قواده « لشكرى بن مردى » حاكم الجبال ، وولت وجهها شطر (آذربيجان) التى كان يحكمها إذذاك قائد من قبل « يوسف بن أبى الساج » يدعى « ديسم بن ابراهيم الكردى » الذى قام على رأس جيش جرار ، قطع به الطريق على جيش « لشكرى » ، واشتبك الجيشان فى القتال ، وانعقد لواء النصر فى نهايته لجيش « لشكرى » وهاقت الهزيمة بجيش « ديسم » فى بادىء الامر ، ولكنه لم يقبض ، ولم يسكت على الهزيمة ، بل أعاد الكرة بعد حين ، واستأنف القتال ، غير أن الهزيمة عادت فلاحقته للمرة الثانية ، فاضطر مرغما إلى التقهقر تاركا وراءه لخصمه جميع بلدان الإقليم ، عدا مدينة « آرده ويل = أردبيل » التى استمات أهلوها فى الدفاع عنها ، ولم تخدعهم أقوال ووعود « لشكرى » المعسولة ، كما بلغهم عن ظلم الديلم وغدرهم ، لهذا وقفوا رجلا واحدا ، وطلبوا النجدة من « ديسم » فاتفق معهم على القيام بهجومين فى يوم معين على جيش « لشكرى » .

وحسب الخطة الموضوعة ، وفي اليوم الموعد ؛ خرج الأردبليون من قلعتهم وانقضوا كالصاعقة على جيش « لشكري » ودارت في نفس الوقت الذي هاجمه فيه جيش « ديسم » رحي معركة حامية الوطيس ؛ كثرت فيها المذابح وسفك الدماء ؛ ولم ينج منها إلا « لشكري » بأعجوبة ، وبعد نجاته لجأ إلى « موقان » حيث زوده أصفهدها « ابن دلولة » بقوة عسكرية ، عاد بها لمنازلة خصمه « ديسم » الذي عزف عن الاشتباك في حرب جديدة ، بل فضل الانسحاب إلى نهر الرس وتمكن من اجتيازه هو ورجاله بالرموث والاطواف (١) وقد احتجزها في جوار الشاطئ الذي نزل إليه ولم يعد لها إلى الشاطئ الثاني ولما وصل « لشكري » من وراءه مطاردا فلول جيشه تعذر عليه اجتياز النهر في بادئ الأمر لعدم وجود « الرموث » ، ولكن اليأس لم يجد إلى قلبه وقلوب رجاله سيلا ، فأخذوا يبذلون المحاولات حتى تمكن بعضهم من عبور النهر من الجهة الشمالية ، وبهذا تكشفت أمام أعينهم بارقة أمل في اجتيازه وفعلا استطاعوا بأكملهم عبور النهر في ليلة ليلاء وانقضوا انقضاض الصاعقة على « ديسم » ورجاله بعد أن أيقنوا أنهم أضحوا في حرز مكين ومكان أمين . توجه (ديسم) بعد هذه الهزائم المتوالية إلى الري وقابل حاكمها (وشمكير) وقدم له فروض الطاعة والولاء وأظهر له علائم الخضوع ، وقبل طائعا مختارا الشروط التي أملاها عليه « وشمكير » وأهمها أن يدفع له جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار ، وأن يذكر اسمه في الخطبة ، على أن يمده نظير ذلك بقوة عسكرية يسترد بها إقليم آذربيجان من بين برائن (لشكري) . ولما فوجئ (لشكري) بهذه القوة تنقض عليه وتسدد إليه ضربات ، لم يقو على الصمود أمام ضرباتها ، وغادر البلاد حقنا للدماء ، قاصدا بلاد

(١) هي قرب تنفخ وتوضع في الانهر ليجتاز الناس المياه عليها (المترجم)

الزوزان (١) ويعتصم بالجبال بعد أن دمر كل ما صادفه في طريقه من البلاد والقرى ولكن الأرمن اعترضوا سبيله فلقى حتفه هنالك حيث أوقعوه في الكمين . وقد استطاع ابنه أن يصل إلى الموصل سالما على رأس قوة صغيرة من جيشه ، انضم بها إلى حاكمها المدعو (أبو عبد الله الحسين بن سعيد الحمداني) . وتم الاتفاق بينهما على إعداد جيش مشترك لاسترداد آذربيجان ، وبعد أن فرغا من إعداد هذا الجيش توجهوا على رأسه صوب آذربيجان لمنازلة (ديسم) الذي استطاع أن يشنت شمل جيشهما وألحق بهما هزيمة منكرة وهكذا عادت آذربيجان مرة أخرى وأضحت خاضعة لحكم (ديسم) .

ومما لا شك فيه أن الأغلبية الساحقة من قوات (ديسم) كانت كردية ، كما كان بعضها الآخر من جنود (وشمكير) الديليين ، وقد تنبه (ديسم) إلى هذه الظاهرة ، ولفت نظره أن القوة الكردية تسيطر على أكثر مناصب الجيش ، وتتحكم في شؤنه ، وتحتل الكثير من القلاع والمدن الهامة ، وأنه أضحى مغلوبا على أمره لا يرجع إليه في أي شأن ، فأخذ يفكر ويدبر في وسيلة يسترد بها نفوذه المسلوب . وسلطانه المهوب ، حتى هداه تفكيره إلى أن أنجع وسيلة هي تعزيز قوة الديلم حتى توازي قوة الكرد وبذلك يتحقق التوازن بين القوتين ، وتحقيقا لهذه الفكرة أخذ يقرب إليه بعض الزعماء الديليين مثل « صعلوك » و « علي بن فضل » وأخذ يغدق عليهم بعض الانعامات واختارهم ندماء له ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أخذ ينتزع المناصب ويخلص المدن والقرى من الكرد ، رويدا رويدا ، ويسندها إلى رجالات الديلم المقربين ثم اتبع ذلك بمكيدة دبرها للتخلص نهائيا من بعض زعماء الكرد بأن ألقى القبض عليهم وزج بهم في غياهب السجون ، وبذلك أمن شرهم .

(١) وهو اسم لاقليم جبلي من بلاد الكرد في شرق شمالي الموصل ذكره ياقوت في المعجم . ومعناه ، بالكردية مصايف جبلية المترجم

وكان (ديسم) نفسه خارجيا ، وأما وزيره أبو القاسم علي بن جعفر فكان باطنيا ومن أهالي آذربيجان ، فأوغر أعداء الوزير وحساده صدر (ديسم) عليه فحقد عليه ، وبدأ الوزير يشعر بنجاح المؤامرة التي حاكها له أعداؤه فأخذ الرعب يسرى بين جنبيه ، وتوجه سرا إلى الطرم ليحتسئ « بمحمد بن مسافر » (١) ، وقد لازمه سوء الحظ في حله وترحاله إذ ما كاد يحط رحاله على أبواب « ابن مسافر » حتى ألفاه على اختلاف مع عظماء شعبه ، تسود بينهم الفرقة ، ويشتمد بينهم الجفاء ، مما ترتب عليه قيام كل من « محمد بن مسافر » المدعويين « المرزبان » وهسوذان « بانتزاع ممتلكات والدهما ، ثم ألقيا به سجيناً في القلعة ، فاضطر (علي بن جعفر) أمام هذه الظروف أن يسعى جاهداً للتقرب من (المرزبان) حتى تحقق أمله ونال أمنيته ، فأخذ يزين للمرزبان الاستيلاء على آذربيجان فوجد منه قلباً واعياً ، وآذانا صاغية لما أوحى به إليه ، وما لبث أن اتخذ المرزبان له وزيراً لا يبرم أمراً دونه ولا يقرر شيئاً دون أخذ رأيه والحصول على مشورته. فكان واسع النفوذ ، مسيطراً على زمام الأمور ، إذ كان علي بن جعفر باطنياً ، أما مرزبان فقد كان شيعياً فقد سمح له أخيراً بنشر مذهب الباطنية جهاراً .

وبعد أن فاز (علي بن جعفر) بموافقة المرزبان على فتح آذربيجان ، أخذ في إغراء الديلميين الذين كانوا يحاربون في صفوف (ديسم) حتى تمكن من أن يستميل إليه زعماءهم ، فأعلنوا انضمامهم إلى جانبه ، والعمل تحت قيادته ، وكانت هذه الخطوة الموفقة حافزاً قوياً وعاملاً مشجعاً لكل من «علي بن جعفر» و «مرزبان» على الإقدام والتحفز للزحف على (آذربيجان) على رأس

(١) جاء في (دائرة المعارف الإسلامية) أن محمداً هذا كان يلقب باسم (مائه لان) وفي مصادر أخرى أنه مشهور بصعلوك المؤلف

جيش عرمرم ، تقابل بجيش (ديسم) واشتبكا في القتال ، وهنا لعبت الخيانة دوراً حاسماً في تقرير مصير المعركة ، فقد تسلل الدياسيون وفريق من الأكراد خفية من جيش (ديسم) وتآزروا مع «مرزبان» وحاربوا إلى جانبه ، أصدقاءهم بل وحلفاءهم بالأمس ، فخارت عزيمة (ديسم) ، وأسقط في يده ، ووقع في حيص بيص ، فترك ميدان القتال حقناً للدماء ، وانسحب مع بعض رجاله إلى جبال (کردستان = أرمينية) حيث نزل ضيفاً على صديقه (خاجيك بن الديراني) حاكم تلك البلاد . فأكرم وفادته ، وأنزله منزلاً حسناً ، ولكن أنى لديسم أن تفعل عزمته أو يستسلم للهزيمة فأخذ جاهداً في تجنيد أكراد تلك الجهات ، استعداداً لإعادة الكرة ومحاولة استرداد آذربيجان . إذ بينما اطمأن «مرزبان» ورجاله إلى تخليص بلاد آذربيجان كلها ، عدا مدينة (تبريز) وضمها إلى حوزتهم ، نرى الخيانة تبرز على المسرح من جديد متمثلة في شخص (علي بن جعفر) وزير (مرزبان) الآن وموضع ثقته ، والذي سبق أن مثل هذا الدور مع (ديسم) ، فقد حدث بعد حين من تخليص آذربيجان أن أوفده (مرزبان) إلى مدينة تبريز للاستيلاء عليها ، فما كان منه إلا أن كاتب أهلها بأن (مرزبان) قد تولاه الجشع ، وتملكه الطمع في ثروتهم وأموالهم وأنه موفد إليهم من قبله لا بتراز هذه الأموال ، وأشار عليهم بطلب النجدة من (ديسم) ، وأن يقوموا بمجرد أن تصل إليهم النجدة قومة رجل واحد وينقضوا على ديلم (تبريز) لتشتيت شملهم وقطع دابرهم ، ورحب أعيان (تبريز) بهذه الفكرة ، وأبوا إلا أن يشاطروه الخيانة ، وقاموا فعلاً بتنفيذها ، وما أن وصل (ديسم) على رأس قواته إلى (تبريز) ملبياً النجدة ، وما أن ترمى إلى أسماع قوات مرزبان هذا الخبر ، حتى تسربت مجموعة كبيرة من الكرد المستائين من مرزبان خفية من بينها وانضمت إلى جيش (ديسم) ، وكانت هذه الحوادث تتري ، وتجري من وراء ستار دون

علم مرزبان ، فلما نعى اليه خبرها وجاءه نبأ هذه المكيدة ، قام على عجل ، وقاد جيشا كبيرا واتجه به صوب (تبريز) ، والتحم مع جيش (ديسم) في معركة حامية الوطيس على مقربة من المدينة ، وقد أبلى جيش (مرزبان) بلاءاً حسناً وأظهر مهارة حربية فائقة مما ضمن له النصر على العدو .

تقهقر (ديسم) بعد أن اصطلى بنيران الحرب ، وشرب كأس الهزيمة حتى ثملتها ، واعتصم بقلاع المدينة ملتصقا بحمايتها له ، ولكن (مرزبان) قد تعقبه وضرب حصاراً منيعاً حول القلاع ، فضيق بذلك عليه الخناق ، ورغم ذلك تمكن (ديسم) هو وبعض من تبقى لديه من قوات من الهروب ليلاً تحت جناح الظلام والإفلات من الحصار الذى طوقوا به ، قاصدين صوب مدينة (أردبيل) ، فلحق بهم (مرزبان) ، بعد أن ترك قوة كافية على حصار (تبريز) ، وظل يطاردهم حتى تمكن من محاصرتهم فى (أردبيل) . ولما طال الحصار ، وامتنعت المدينة على (مرزبان) ، أخذ يفكر فى تدبير مكيدة تذلل له الصعاب ، وتسكفيه مؤنة القتال ، وأخيراً حصل على ضالته المنشودة ، اذوفق إلى مثل بارع لتمثيل أهم أدوار تلك المكيدة . وهى تتلخص فى أن « أبا عبد الله محمد بن أحمد النعمى » الذى اتخذته (ديسم) له وزيراً بعد (على ابن جعفر) قد اتصل به سرا (مرزبان) وتبودلت بينهما المخبرات ، وكتب ابن النعمى إلى مرزبان يقول له : إتنى سأبذل قصارى جهدى فأقنع (ديسم) بضرورة طلب الصلح ، وسيصلك بعض زعماء المدينة وكبرائها موفدين من قبله يطلبون عقد هذا الصلح ، فتنى وصلوك فمر بالقبض عليهم ، وزج بهم فى غياهب السجون ، ولا تمكنهم من العودة حتى يستسلم (ديسم) . هذه هى رسالة وزير (ديسم) إلى (مرزبان) وهى رسالة يتمثل فى كل حرف من حروفها الخيانة والغدر .

نفذ (مرزبان) ما جاء فى هذه الرسالة حرفياً ، وبهذا نجحت المكيدة ،

حيث أرغم أهالي المدينة (ديسم) واضطروه إلى قبول الاستسلام حفظا على حياة المعتقلين ، وضمانا لإطلاق سراحهم . ولم يقدم (مرزبان) على أية إساءة إلى (ديسم) بل عامله معاملة كريمة ، ولما طلب إليه (ديسم) تخصيص قلعة (طارم = الطرم) لإقامته هو وأسرته أجاب طلبته .

وهكذا خضعت بلاد (آذربيجان) بما لها الوفير وكنوزها الهائلة، وثروتها الطائلة لمرزبان دون أن ينافسه منافس أو يوجد عليه رقيب في بلاد آذربيجان كلها . وأقام (ديسم) ردحامن الزمن في (طارم) في جو يسوده الهدوء وتخيم عليه السكينة ، ولكنه وهو ربيب حرب إذا أخلد إلى راحة لا تلبث أن تسعى إليه ، إذ حدث أن أغار الجيش البويهى على (آذربيجان) ووقع (مرزبان) أسيرا ، فقام أخوه (واهسوذان) باستدعاء (ديسم) ليضمن وقوف الكرد إلى جانبه ، وأكرم وفادته ، ووكل إليه أمر الدفاع عن (آذربيجان) ضد المغيرين من (آل بويه) .

شمر (ديسم) عن ساعد الجد وتمكن من حشد قوة كبيرة من الكرد وتملك ناصية الأمور في (آذربيجان) ووقف على تمام الاستعداد وكامل الأبهة للقاء الجيش البويهى الذى كان يقوده (محمد بن عبد الرزاق) أما عن حوادث هذه الحرب ووقائعها فقد تعرض لها (ابن مسكويه) في المجلد الثانى من كتابه (تجارب الأمم) وذكرها كما رواها (ديسم) نفسه ، حيث قال :

إنه كانا (محمد بن عبد الرزاق) القائد على الجيش البويهى كاتب خراسانى يدعى (ابن محمود) وكان موضع ثقته وتقديره فاتخذته وزيرا له ، وحدث أن أوفده إلى (آذربيجان) لتحصيل الأموال الأميرية ، وهنالك لعب الشيطان برأسه ، وأبى الشيطان إلا أن يزين له خيانة سيده ، فأسرع منضيا إلى (ديسم)

بمن معه من القوات العسكرية وما يحمله من أموال أميرية ، فلما علم (محمد بن عبد الرزاق) بهذا النبأ المشؤم ، وقع في حيص ويص ، وتزعزع مركزه ، فلم يطل الإقامة في (آذربيجان) بل عاد أدراجه إلى (الري) عام (٣٤٢) من الهجرة يجر أذيال الفشل .

وألقي (ديسم) تصريح شئون الوزارة وتدير مهام الحكم على عاتق (أبي عبد الله النعيمي) و (ابن الصقر ^(١) المسيحي) وتفرغ هو لتجيش عدد كبير من الكرد والديلم استعان بهم على استرداد سلطانه واستعادة نفوذه في بلاد (آذربيجان) بأكملها . ولكنه ما كان يعلم أن سلطانه في هذه المرة أيضا سلطان موقوت إلى حين . إذ بعد فترة قصيرة نجح (مرزبان) من ذل الأسر ، وأطاق سراح (علي بن ميشكي) هو الآخر من فير سجن (ركن الدلة) فاتفقا مع (واهسودان) على إخراج (ديسم) من البلاد . وكان (ديسم) يجهل كل شيء عن نجاة (مرزبان) من الأسر ، وكان وزيره

(١) يذكر (ابن مسكويه) هذا البحث في المجلد الثاني من كتابه (تجارب الأمم) ص ١٣٦ بنوع آخر فيقول : ان (ابن الصقر) كان عاملا على مال جهتي (خوى وسلماس) من قبل (مرزبان) ، ولما بلغه نبأ (ديسم) هرع اليه وسلمه جميع ماتحت عهده من الأموال ، وأظهر له علائم الطاعة وآيات الولاء ، فسر منه (ديسم) واتخذ له أمينا ، ولما توجه (ديسم) لمحاربة (محمد بن عبد الرزاق) أرسل جميع مقتنياته من النقود والأموال مع (ابن محمود) إلى جبال (مرقان) ، فخانته (ابن محمود) وأنبأ (محمد بن عبد الرزاق) ، وما أن وصل هذا النبأ إلى مسامع (ديسم) وهو يخوض غمار المعركة حتى بدا عليه التأثر وتغلب عليه الحزن مما أدى إلى اندحاره في المعركة وفشله .

المؤلف

(أبو عبد الله النعمي) يتلمس الفرص بل يتحسسها لخيانة سيده تخلصا من جشعه فأخذ يوغر صدر ابن أخته المدعو (غانم) ضده ويحرضه عليه حتى ثار في وجهه وكتب إليه ملوحا له بقوته وقوة الديلم ، واغتنم (أبو عبد الله النعمي) هذه الفرصة التي هيأها لنفسه بايقاع الخلف بين (غانم) الذي جاء من أردبيل إلى خاله (ديسم) وطالبه بأموال أبي عبد الله وكتبه، ملوحا له بقوته وبقوة الديلم فقتل الكاتب (علي بن عيسى) واستولى على جميع أموال (ديسم) وفر هاربا إلى (ابن ميشكى) ، وكان (ديسم) إذ ذاك خارج أردبيل ، فما أن بلغه هذا النبأ ، حتى أسرع عائدا إليها ، وحشد جيشا كبيرا سار على رأسه لمنازلة (علي بن ميشكى) .

وما أن دارت رحى المعركة حتى انسحبت الفرقة الديلمية من الجيش (ديسم) وتسلمت إلى صفوف العدو فقررت هذه الخيانة مصير المعركة ، وحاقت الهزيمة بجيش (ديسم) الذي آثر هو والفريق الكردي من جيشه اللجوء والانسحاب إلى (أرمينية) حيث علم هنالك فقط ولأول مرة، بنجاة (مرزبان) من الأسر، ووصوله إلى (أذربيجان) وإرساله (علي بن ميشكى) ليحل محله .

إزاء ذلك اضطر (ديسم) إلى التوجه صوب الموصل ومنها يم نحو بغداد ولجأ إلى (معز الدولة) الذي أكرم وفادته ، وأجرى عليه راتبا سنويا مقداره خمسون ألف دينار ، فأخذ يرفل في حلال من الرفاهة والعيش الرغيد ، وأحبه (معز الدولة) حبا جما ، لدرجة أن أصبح يناديه باسم (أخي أبا سالم ديسم) ولكنه ما لبث أن هجر هذه الحياة الرغيدة غير آسف عليها ، إذ بعث إليه أصدقاؤه وخلصاؤه والأقربون في أذربيجان بكتب تنم عن علائم الولاء وصادق التشجيع ، ويطلبون إليه العودة للجهاد في سبيل استرداد أذربيجان ، فلبى النداء ، وترك بغداد على الفور ، بعد أن وثق من أن (معز الدولة) لن يمد

إليه يد المساعدة مرضاة لأخيه (ركن الدولة) الذي كان على وفاق مع (مرزبان) وبينهما مصاهرة ، وبعد أن غادر بغداد ، قصد الموصل عام (٣٤٣) من الهجرة مؤملا العون عند (ناصر الدولة الحمداني) ، وبذل محاولات جبارة للحصول على هذا العون ولكن ذهبت كلها أدراج الرياح ، وباءت بالفشل ، ولكن اليأس لم يجد إلى نفسه سيلا ، فيمم شطر « حلب » ملتسما العون عند حاكمها (سيف الدولة) ولكن أيضا بدون جدوى .

وأخيرا انتهى به المطاف إلى « أرمينية » حيث قابل « خاجيك بن الديрани » لنفس الغرض ، وما أن بلغ « مرزبان » نبأ وجوده لدى « خاجيك » حتى كتب إليه على الفور يطلب منه إلقاء القبض على « ديسم (١) » فتردد (خاجيك) بآدى الأمر في تنفيذ طلبته ولكن عاد فنقد الأمر مضطرا وسلبه مقبوضا عليه إلى « مرزبان » الذي (سمل) فقأ عينيه وزج به في أعماق السجون . وبعد وفاة « مرزبان » قتلوه في سجنه عام ٣٤٥ من الهجرة .

(١) هو (ابوسالم ديسم بن ابراهيم الكردي) . قال ابن مسكويه ان ديسما كان يرى رأى الشرارة وكذلك كان أبوه . إذ كان من اصحاب « هرون الشاري » الذي خرج بالموصل وقتل بها سنة ٢٨٣ هـ فهرب أبوه ابراهيم هذا الى آذربيجان وتزوج الى رئيس من اكرادها فولد (ديسم) فاصطنعه ابن ابى الساج وارتقى معه الى ما ارتقى اليه . حيث تغلب على آذربيجان بعد (يوسف بن ابى الساج) سنة ٣١٤ ودام حكمه لها حتى سنة ٣٣٠ هـ . المترجم

الفصل الثالث

٣ - الحكومة الحسنيئية^(١) بهمذان (٣٣٠ - ٥٤٠٥)

وضع أساس هذه الحكومة عام (٣٣٠) للهجرة في الدينور وشهرزور الأمير (حسين) زعيم العشيرة البرزيكانية ، وكان أخواه^(٢) (ونداد) و(غانم) يتزعمان العشائر العيشانية وهكذا كانت كافة أرجاء الدينور ، وهمذان ، ونهاوند، والصمغان، وبضعة بلدان من إقليم آذربيجان تدين لهم بالخضوع والطاعة . وقد عاجلت المنية (ونداد) عام ٣٤٩ للهجرة وما أن أهل العام التالي أى عام ٣٥٠ حتى لحق به (غانم) وكانهما كانا على ميعاد ، وبموتهما انتقل حكم هذه البلاد جميعها إلى (حسنويه) ابن الأمير حسين الكردي .

« حسنويه »

اعتلى أريكة الحكم بعد وفاة والده ، وفي الحق إنه هو المؤسس الحقيقي لهذه الحكومة ، لأن مركز الحكومة على عهد والده لم يكن قد دعم أو استقر كما أنه لم يكن قد اتخذ شكلا نهائيا أو صبغة رسمية . على أن معلوماتنا

(١) يطلق الصدفى صاحب دول الاسلام (ج - ١ ص ٤٢٩) على هذه الحكومة اسم (الدولة الحسينية) المؤلف

(٢) في ابن الأثير ٨ - ١٥٥ أن وندادا وغانما ابني احمد كانا خلا حسنويه وكانا أميرين على صنف آخر من الكرد يسمون العيشانية المترجم

عن عهد « حسنويه » من القلة بمكان ، والمعروف أنه قد قام بتقديم مساعدة جدية لركن الدولة البويهى فى حرب خراسان .

وقد أسعفنا السيد حسين المسكرىانى فوافانا بموجز عن أحوال (حسنويه) حيث يقول :

وجه (معز الدولة) جيشا بقيادة (ينال كوش) من الموصل إلى «شهرزور» فقطع « حسنويه » الطريق على هذا الجيش فى غربى (أربل) وألحق به هزيمة منكرة ، فأعاد معز الدولة الكرة وبعث بجيش آخر هاجم (الدينور) وأنزل بها الكثير من أعمال النهب والتدمير ، وفى هذه الأثناء هوجم (ركن الدولة) أخو (معز الدولة) فى ناحية جرجان من قبل خصومه ، فطلب النجدة من أخيه . وهنا اضطر (معز الدولة) إلى عقد صلح مع (حسنويه) اشترط فيه أن يخطب باسم معز الدولة على المنابر . وهكذا تحسنت العلاقات بين الحكومة البرزىكانية الكردية هذه وبين الدولة البويهية وساد بينهما الصفاء والوفاء وتبدد الجفاء .

وفى عام ٣٥٦ للهجرة نشب الخلاف بين (عز الدولة) بختيار بن معز الدولة (وبين (حسنويه) واشتعلت بينهما نيران حروب طاحنة أسفرت عن اندحار (بختيار) فى حين أن (حسنويه) ازداد قوة ونفوذ . وما أن أهل عام (٣٥٧) للهجرة حتى انقضت غيوم الجفاء وعادت بينهما المياه إلى مجاريها فتم بينهما الصلح ، واتفقا سويا على أن يقفا جهة واحدة ضد (أبى تغلب الحمدانى) ووافق (بختيار) على شد أزر (حسنويه) ومساعدته لتتسع حدود مملكته حتى « الزاب الكبير » وبفضل اتفاقهما وتآزرهما ألحقا الهزيمة بأبى تغلب الحمدانى ، ثم عاد (حسنويه) عن طريق أربيل ، وشهرزور إلى الدينور .

وقد استشاط (ركن الدولة) غضبا وأبدى استياءه من اتفاق (حسنويه)

مع ابن أخيه (بختيار) ولهذا جرد جيشا بقيادة وزيره أبي الفضل ابن العميد على (حسنويه) في سنة ٣٥٩ هـ . حيث يقول الكامل (ج - ٨ ص ٢١٧) إن سبب تجريد هذا الجيش إنما يرجع إلى سوء معاملة (حسنويه) لسهلان ابن مسافر .

ويقول ابن مسكويه (ج - ٢ ص ٢٧٠) : ان (حسنويه) قد وسع حدود مملكته بأحراره عدة انتصارات متوالية بفصل ما اكتسب من قوة نفوذ وسطوة في البلاد ، وبفضل رضا (ركن الدولة) عنه وعظيم إعجابه به ، على أثر المعونة الكبيرة التي قدمها له (حسنويه) في حروبه بخراسان . غير أن (حسنويه) كان طموحا رغم ما أحرزه من فتوحات وانتصارات ، فكان لا يفتأ يهاجم بلدانا وجهات أخرى طمعاً في بسط سلطانه عليها وإخضاعها لحكمه . وكان يجبي الأموال من القوافل المارة في الطرق والمعابر العامة ، كما كان لا يألو جهداً في تضيق الخناق على الأغنياء ، ورغم هذا كان (ركن الدولة) يغض الطرف عنه ، ولا يعترض سبيله .

ثم حدث أن نشب الخلاف فجأة وعلى حين غرة ، بين (حسنويه) و (سهلان ابن مسافر (١) الديلمي) فأعد (سهلان) جيشاً سار على رأسه للأجهاز على (حسنويه) والفتك به ، غير أن هذا الجيش قد حاقت به هزيمة منكرة على يد (حسنويه) الذي أحاط بمعسكر العدو إحاطة السوار بالمعصم وألقى عليه

(١) اختلفت المصادر القديمة كابن الأثير وابن مسكويه في ضبط اسم (ابن مسافر) هل (محمد) أو (أحمد) وهل لقبه الكردي (ماملان ، مهلان سهلان) ؟ وعلى كل فهو شخص واحد مشهور باسم (محمد الروادي الكردي) تارة وباسم (محمد بن مسافر الديلمي) تارة أخرى وموصوف دائماً بصاحب الطرم وشميران وأذربيجان . وهو جد (بنی مسافر) مؤسس الدولة الكردية المسماة السالارية والروادية اللتان قامتتا بأذربيجان .
المترجم

حصارا منيعا وحال دون إيصال الزاد والذخيرة للعدو ، ولم يكتف (حسنويه) بذلك بل أمر بجمع الحطب حول المعسكر المحاصر وأشعل النار فيه فاندلعت النيران واشتد لهيبها حول العدو ، وهكذا أضحي الديالملة بين نارين : النار الموقدة من جهة ، وحرارة الصيف المحرقة من جهة أخرى ، فاضطروا إلى الكف عن القتال والمبادرة إلى التسليم .

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع (ركن الدولة) حتى بادر على الفور بارسال وزيره (أبي الفصل بن العميد) على رأس جيش عرمرم للتعرف على جلية الأمر ، غير أن المنية قد عاجلت (أبا الفضل) عندما وطشت قدماه مدينة (همدان) ، وقد خلفه على قيادة الجيش ابنه (أبو الفتح) الذي رأى في صالحه العودة إلى (الري) لتوطيد مركزه والمحافظة عليه هنالك ، ولهذا بادر إلى عقد الصلح مع (حسنويه) ، وقد صادف ذلك هوى في نفس (حسنويه) وكان لهذا الموقف النبيل من جانب أبي الفتح أبلغ أثر في نفسه مما جعله يبادر بارسال خمسين ألف دينار ، وهدايا متنوعة من الخيول وغيرها تقدر بمثل هذا المبلغ إلى (أبي الفتح) ، وهكذا قطع دابر الأعمال العدائية وتبددت الخصومة . أما (ابن الأثير) فقد بالغ في الثناء على (حسنويه) ثناء عاطرا ، فيمتدح حسن أخلاقه ، وعلو همته ، وحزمه في الأمور ، كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية : وإنه قد تمكن من الحكم ، وازداد سلطانه على البلاد ازديادا كبيرا بعد وفاة أخويه (١)

(١) في هذه العبارة اضطراب شديد في مقتضى ما سبق في أول البحث من أن الأمير حسين الكردي كان له أخوان (ونداد) و (غانم) ، ينبغي أن تكون العبارة هنا هكذا (بعد وفاة عميه ونداد وغانم) . وعلى كل فالنقل السابق من دول الاسلام والنقل هنا من دائرة المعارف لا يتفقان مع ما ذكره ابن الأثير من أن ونداد وغانم كانا خالا (حسنويه) لا عماء . حيث ذكر اسم والدهما فقال هما ابنا أحمد .. الخ اه من (ص ٢٥٥ - ٨ ج) المترجم

(ونداد وأبي الغنائم) ، حيث شمل سلطانه معظم بلاد كردستان ، فكانت الدينور ، وهمدان ونهاوند من المدن الشهيرة في هذه المملكة ، وكانت مدينة (سرماج) عاصمتها ،

وقد انحاز (حسنويه) في الحروب التي نشبت بين عضد الدولة وبختيار إلى جانب الأخير ويلوح أن سبب ذلك يرجع إلى خصومته الأخيرة مع ركن الدولة والد عضد الدولة ، وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يمكن القول بأنه سلك هذا المسلك خوفاً من طمع (عضد الدولة) في بلاده ، وقد حدث في النهاية اتفاق بين (حسنويه) و (نخر الدولة) أخى (عضد الدولة) وانضم (حسنويه) إلى جانبه .

ويحدثنا صاحب كتاب (تجارب الأمم) عن هذا التحول في خطة (حسنويه) فيقول : « دخل (حسنويه) في مفاوضات مع (بختيار) عام سنة (٣٦٦) للهجرة واستعد لمساعدته . نعم ! إن (حسنويه) لم يتمكن من تقديم النجدة لبختيار في موقعة (رامهرمز) إلا أنه أرسل ابنه (عبد الرزاق وبدر) مع ألف فارس إلى بختيار أثناء عودته إلى (واسط) واعداء إياه بحضوره بنفسه إليه ، وقد أشار ابننا حسنويه على بختيار بالزحف على بغداد ومقاتلة عضد الدولة بها ، لكي يتمكن من الاستفادة من جيش الحمدانيين المرابط في الموصل ، ولكن بختياراً لم يكن في وعيه من جراء شدة تعلقه بغلام تركي كان يلزمه دائماً ولهذا لم يعر نصيحتهما آذانا صاغية ولا قلباً واعياً ، فلم يخف عبد الرزاق استيائه منه وبادر بالعودة إلى أبيه على الفور تاركاً أخاه (بدر) مع بختيار تفادياً للوم ، ولم يمض طويل وقت على ذلك حتى تنازل (بختيار) عن حقوقه خوفاً من عضد الدولة ، فاضطر (بدر) إلى تركه هو الآخر والعودة إلى والده . اهـ

وقد توفي حسنويه إلى رحمة الله في الثالث من ربيع الأول عام (٣٦٩)

للهجرة في مدينة (سرماج) (١) .

« أبو النجم ناصر الدولة بدر »

اعتلى أريكة الحكم بعد وفاة والده في البلاد البرزكانية . وفي نفس العام الذي تولى فيه الحكم استولى على بعض القلاع الواقعة في غربي (اربيل) وضمها إلى رقعة بلاده .

وكانت وفاة (حسنويه) فرصة ثمينة اغتنمها عضد الدولة البويهى ، إذ أن أخاء (نخر الدولة) وابن عمه (بختيار) كانا يعتزان بصداقتهما لحسنويه ، ويستعينان به عليه ، مما استثار غضبه وأثار حفيظته وسخطه على حسنويه ، فلا عجب إذن أن زى عضد الدولة راغبا كل الرغبة في إزالة حكم الحسنويين وقطع دابرهم بعد وفاة عاهلهم الكبير ، وقد بدأ يمهّد لتنفيذ هذه الرغبة فبعث خازنه (أبا نصر خورشيد يزديار) برسالة إلى كل من نخر الدولة ، ومؤيد الدولة ، وقابوس بن وشمكير ، أملا في التفاهم والاتفاق معهم ، في حين كان أبناء حسنويه وهم (أبو العلاء ، وعبد الرزاق ، وأبو النجم بدر ، وعاصم ، وأبو عدنان ، وبختيار ، وعبد الملك) - منذ وفاة أبيهم في شقاق دائم ونزاع مستمر وكان بعضهم يميل إلى الوقوف في جانب نخر الدولة ضد عضد الدولة بينما وقف البعض الآخر ضد هذا الاتجاه . وكان (بختيار) وحده يقيم دون إخوته في قلعة « سرماج » فنافرهم وبدأ في مخابرة (عضد الدولة) مظهرا استعدادة لتسليم القلعة له ، فانتهر عضد الدولة الفرصة الذهبية وعرف كيف

(١) أنشأها الأمير (حسنويه بن الحسين الكردي) وهى من أجل آثاره الشهيرة . (ياقوت)
المؤلف

يستغل هذه الفرقة بين الاخوة ، فجهز جيشا ضخما وأغار به على إقليم الجبال مملكة آل حسنويه وتحرك هذا الجيش ودخل همدان بسهولة ، ثم انحاز إليه الكثيرون من أمراء وقواد نجر الدولة والبرزكانية ؛ مما أدى أخيرا إلى تسليم (نهاد) وقلعة (سرماج) إلى عضد الدولة الذي اغتتم من وراء هذه الفتوحات ، الاموال الطائلة والغنائم الكثيرة

وعلى أثر ذلك عرض أبناء (حسنويه) على عضد الدولة عن طريق القائد (أبي النصر خواشاذه) أن يقدموا له فروض الطاعة ، وما لبثوا أن جاءوا إلى معسكر عضد الدولة بكامل هيئتهم وبعد أن قرر عضد الدولة وضعهم جميعا تحت المراقبة عاد فاعتقل كلا من عبد الرزاق ، وأبي العلاء ، وأبي عدنان وبختيار ، وعلى (١) ، وكذا بعض زعماء الاكراد .

أما (بدر) فقد استدعاه عضد الدولة وأنعم عليه بخلع سنية ، وهي سيف من ذهب ، وجواد بسرج مذهب ثم عينه أميرا على الاكراد البرزكانية ومن يجرى مجراهم ثم أنعم على كل من (عاصم) و (عبد الملك) بما يتناسب مقامهما أما الباقيون من أبناء حسنويه والزعماء الاكراد المعتقلين فقد عمد إلى قتلهم عن آخرهم ، وصادر أموالهم وممتلكاتهم .

ثم أرسل (أبا الوفاء طاهر بن محمد) على رأس جيش استولى به على قلعة (سرماج) ونهب كل ما للحسنويين فيها من خزائن وأموال . وكان ذلك في ذي الحجة من عام (٣٦٩) وبعد عودة عضد الدولة إلى بغداد ، شق (عاصم) ومن معه من الزعماء الاكراد عصا الطاعة على أخيه (بدر) ، فاضطر (بدر) إلى الزحف والهجوم على (عاصم) هو ومن معه من إخوته وتمكن من

(١) كذا في الاصل . ويظهر انه مقحم إذ لم يسبق له ذكر ولم يذكره ابن مسكويه . انظر (ج - ٢ ص ٤١٤ والذيل ٣ ص ٩) المترجم

القضاء عليهم وبذلك خلاله الجو ودانت له البلاد واستطاب له حكم الكرد دون رقيب وبلا منازع .

وبعد ذلك بدأ يصلح من شئون البلاد كما أخذ في توسيع حدوده ، ولبت مخلصا لعضد الدولة وفيأ له حتى مماته ، وقد اشترك في حروب « فخر الدولة » اشتراكا فعليا مرضاة لعضد الدولة . وقد تم الصلح بين الأمير « بدر » وبين (فخر الدولة) بعد وفاة (عضد الدولة) . فأدى هذا الصلح إلى نشوب الخلاف بين (بدر) وبين (شرف الدولة بن عضد الدولة) وبعد أن استقرت الأمور لشرف الدولة في بغداد أعد جيشا كامل العتاد والعدد وأسند قيادته إلى (قره تكين الجوهشيارى) وأمره في سنة (٥٣٧٧هـ) بالزحف للأجهاز على الأمير (بدر بن حسنويه) والتحم الجيشان على مقربة من (قرمسين = كرمشاه) وبعد قتال يسير تظاهر الأمير (بدر) بالهزيمة وأخذ يتراجع تاركا وراءه أثقاله ، فلم يفتن (قره تكين) لهذه الخدعة البارعة ، وظن أنه دحر عدوه وغلب خصمه ، وأوغل هو ورجاله في نهب معسكر الأمير (بدر) وسلبه ، وانشغلوا في اقتسام الغنائم والأموال وبيناهم كذلك وإذا بالأمير (بدر) يعود بجيشه وينقض عليهم انقضاض من الصاعقة فقتل الكثيرين منهم ، واسترد جميع الغنائم والأموال المسلوقة ، واستولى على كل ما يهتملون من عتاد وأثقال ، ولم ينج من هذه المعركة الطاحنة إلا نفر قليلون ومن بينهم (قره تكين) فقد نجوا بأعجوبة حيث أطلقوا خيولهم العنان لا يلوون على شيء حتى وصلوا (جسر النهران) بعد يومين ، وظلوا هنالك بضعة أيام حتى تجمعت لديهم فلول جيشهم الممزق المبعثر ، ثم عادوا أدراجهم إلى بغداد عام ٣٧٧ للهجرة يحرون أذيال الهزيمة . وفي الواقع كان هذا النصر المبين بداية موفقة بل ومقدمة لازدياد نفوذ الحكام البركانيين وآل حسنويه واستقلالهم ، إذ تمكن الأمير (بدر بن حسنويه) من استغلال هذا الانتصار الباهر استغلالا واسع المدى ، فد نفوذه وبسط سلطانه على إقليم الجبال كله .

وفي عام (٣٧٩ هـ) سار الأمير (بدر) بأربعة آلاف من الفرسان لمساعدة فخر الدولة حين زحفه من العراق الى الأهواز للقاء عسكر بهاء الدولة الزاحف عليه ، فهزم (١) .

وفي الحق ، أبدى الحكام البرزكانيون وآل حسنويه نشاطا ملحوظا . وتعقلا وروية أثناء الحروب التي دارت رحاها بين الأمراء البويهيين حيث استفادوا على حساب هذا التناحر والتنابد بين البويهيين واستغلوا هذا التدهور السياسي فأخذوا يوسعون في رقعة مملكتهم حتى أوصلوا حدودها إلى نهر (كرخا) فأصبح في حوزتهم مدينة (شابرخواست = خرم آباد) ، وكذا إقليم الجبال الذي هو بلاد كرمنشاه الحالية ، وشهرزور .

كان الضعف قد خيم على الأمراء البويهيين نتيجة التناحر والقتال ، وفسدت أمورهم ، واضطربت أحوال بلادهم مما كان يضطرهم إلى طلب مساعدة البرزيكانيين الفنية بعد الفنية لكي يحولوا دون توسعهم ؛ في حين أن قوة الأمير (بدر) كانت في نمو وازدياد وأسهمه في ارتفاع ، مما حمل الخليفة العباسي إلى الانعام عليه بلقب (ناصر الدين والدولة) في عام ٣٨٨ للهجرة (٢) .

والذي لا شك فيه هو أن الأمير (بدر) كان نسيج وحده ، فكان رجلا عاليا الهمة ، عادلا مطبوعا على حب الخير ، ولم تكن شهرته قاصرة على الأمور العسكرية والحربية فحسب ، بل ترك أثارا تدل عليه في الناحية العمرانية ، فمن إصلاح في شئون الإدارة إلى تقدم في ميدان الزراعة إلى نشر التعليم وازهاره .

(١) في الاصل خلاف هذا والتصحيح من ذيل التجارب (ص ١٦٩) . المترجم

(٢) في الاصل (٣٣٨ هـ) ولا شك أنه خطأ مطبعي والتصحيح من ابن

الاثير (ج — ٩ ص ٥٤) حيث قال : وفي سنة ٣٨٨ هـ عظم أمر بدر بن حسنويه وعلا شأنه ولقب من ديوان الخليفة (ناصر الدين والدولة) وكان كثير الصدقات

المترجم

بالحرمين ... الخ

وكانت له أياد بيضاء على العلم وأهله . ويثنى عليه صاحب ذيل كتاب (تجارب الأمم) ثناءً عاطراً ، ويشيد بفضله وخصاله الحميدة .

ظل (ناصر الدين بدر) معتلياً أريكة الحكم دون منازع حتى عام (٤٠٠) للهجرة والبلاد مستقلة استقلالاً تاماً ، فانقضت معظم أيام حكمه من غير حرب ولا قتال ، مما عاد على البلاد باليمن والخيرات ، وبات الناس في رغد من العيش والرفاهة ، آمنين على أنفسهم وأموالهم . غير أنه ابتداء من هذا العام (٤٠٠ هـ) اضطرب جبل الأمن واختل زمام الأمور بسبب ثورة دبرها ابنه (هلال) ضد أبيه . وقد تعرض (ابن الأثير) لذكر هذه الحرب التي نشبت بين « هلال » وأبيه « بدر » حيث قال : كانت والدته هلال من قبيلة « الشاذنجان » الكردية وكان « بدر » قد جانبها بعد مولد (هلال) مجانبة أفضت إلى عدم التفات « بدر » إلى ولده ، والعطف عليه ، ثم تفضيل ابنه الآخر « أبي عيسى » عليه . ولما كبر « هلال » وترعرع واشتد عوده خرج مع والده في بعض الأيام إلى الصيد والقنص . . . وكان من عادة « ناصر الدين بدر » إذا صادف أسداً يقتله بيده ولا يرغب عن ذلك ، وحدث ذات مرة أن « هلالاً » لم يدع الفرصة لأبيه وصال هو على الأسد فقتله ؛ إلا أن هذه الجراءة النادرة من الشاب لم تعجب الأب ! فقال له : أظنك تعتقد أنك قد أوتيت نصراً ميبناً !! فما الفرق بين الأسد والكلب ؟ . وهكذا لم يخف استيائه من ولده ! وأخذ يفكر في إبعاده عنه حتى هداه تفكيره إلى أن يقطعه إقليم « الصمغان » فأرسله إليه ، وقد صادف ذلك هوى في نفس « هلال » وامتلاً سروراً لبعده عن أبيه .

ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى اختلف « هلال » مع « ابن الماضي » حاكم « شهرزور » من قبل والده « بدر » الذي كتب لابنه هلال — بمجرد أن بلغه نبأ اختلافهما — يحذره من قتال « ابن الماضي » ، غير أن « هلالاً » لم يصغ لأمر والده ، وأخذ يتجرش بابن الماضي ، فكتب « ناصر الدين بدر » مرتين إلى هلال يحذره ثانية من التعرض لابن الماضي قائلاً له : « ان كل عمل

سئء يصدر منك في حق ابن الماضي ثق أنه يعتبر موجهاً لي .

فما كان من (هلال) بعد هذا التحذير أيضاً إلا العمل على عكس ما طلب أبوه منه وعمد إلى حشد جيش كبير زحف به على «شهرزور» وبعد حصار لم يدم طويلاً تمكن من الاستيلاء عليها ، ولم يكتف بذلك بل قتل ابن الماضي وأبناءه وصادر أموالهم جميعاً . وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (ناصر الدين بدر) حتى استشاط غضباً على (هلال) وآلى على نفسه أن يقسو عليه ، فأخذ (هلال) إزاء هذه المعاملة الجافة يدس لوالده لدى رجاله من قواد وزعماء ويستولى على ضمائرهم بالرشوة والهدايا ، وهكذا ازداد نفوذ الشاب وقويت شوكته ، وكان لسخائه وكرمه الخاتمي أكبر الأثر في علو قدره وسمو شأنه لاسيما وأن والده كان ممسكاً في أغلب المناسبات التي كانت تتطلب البذل والسخاء ، مما أدى إلى انفضاض الناس من حوله .

ثم تطور الخلاف بين الأب وابنه إلى اشتعال نيران الحرب بينهما وتقابل جيشاهما على باب (الدينور) ، وكانت مفاجأة غير سارة لناصر الدين ، أن ينضم الفريق الأكبر من جيشه وهم الأكراد إلى صفوف ابنه (هلال) ثم ما لبث أن وقع هو نفسه أسيراً في قبضة ابنه ، ومما زاد الطين بلة أن بعض القواد قد ألحوا في إغراء (هلال) بضرورة قتل أبيه ، ولكن (هلال) قد أبى عليهم ذلك ، وأبدى كثيراً من النبل وكريم العاطفة نحو أبيه ، ثم تقدم إلى والده قائلاً : « أنت لا زلت أميراً ، وما أنا إلا قائد جيشك ! »

فخادعه والده على الفور فأجابه : (حذار أن يسمع أحد هذا الكلام ، لأنه يؤدي إلى مقتلنا كلياً !! وهذه القلعة لك ، وهاك إشارة تسليمها إليك ، وكل ما فيها من الخزائن والأموال ملك لك ، لحافظ عليها ، وما دام الناس يريدونك عليهم أميراً فسكن أنت أميرهم ، وأعطني قلعة آوى إليها وأمضى فيها

بقية عمرى فى العبادۃ وطاعة الله) وما أن سمع (هلال) ذلك من أبيه حتى سارع إلى تلبية رجائه وتنفيذ طلبته فأعطاه القلعة ، ونقده حفنة من المال (١) .

غير أن (ناصر الدين بدر) قد أثبت فيما بعد أنه كان يضمّر ويبطن لابنه (هلال) خلاف ما أظهر . وما كان فى مكنته أن يتناسى أو يزيل ما علق فى نفسه من سوء الأثر نتيجة ما ارتكبت يدا ابنه ، فما أن استقر به المقام فى القلعة حتى كتب إلى (أبى الفتح بن عراز) وإلى (أبى عيسى شاذى بن محمد) فى (أسد آباد) يستشيرهما ويحفزهما للمنزلة (هلال) . وقد زحف أبو الفتح فعلا واستولى على (قرمىسين) كما زحف أبو عيسى ونهب (سابورخواست) إلا أنه ما أن سمع بقدوم (هلال) حتى غادرها وعاد أدراجه صوب (نهاوند) التى كانت فى قبضة (أبى بكر بن رافع) وهنالك أدركه (هلال) ، وانقض عليه كالصاعقة ، وقتل من الديلمة أربعمائة نفس منهم تسعون من الأمراء وألقى (ابن رافع) القبض على ضيفه أبى عيسى وأسله إلى هلال ، ولكن هلالا قد أبى عليه نبه إلا أن يعفو عنه ، ويصطحبه فى ركابه .

وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (ناصر الدين بدر) حتى بادر إلى طلب النجدة من الملك (بهاء الدولة) الديلى الذى نفذ طلبته على الفور وبعث إليه بجيش يقوده (فخر الملك أبو غالب) وحينما وصل هذا الجيش إلى (سابورخواست) ، خاطب الأمير هلال

(١) ورد فى ذيل ابن مسكويه، أنه كان لأبى سعد ابن الفضل وزير مملكة الرى ، يد فعالة فى التفرقة بين بدر وابنه . (المؤلف) ولا ندرى أى ذيل يقصده المؤلف ؟ فإن الذيل المطبوع ينتهى فى سنة (٣٨٩ هـ) والخلف حصل بينهما فى سنة (٤٠٠) . فليحذر .
المترجم

أبا عيسى شاذى قائلا ؟ ها هوذا جيش بهاء الدولة قادم ! فإذا ترى ؟ فأجابه أبو عيسى : يجب أن تسارع إلى لقاء هذا الجيش وتقدم فروض الطاعة لبهاء الدولة محاولا إغراءه بالمال ! فإذا لم تجد هذه المحاولة نفعا ، فلا محيص إذن عن مضايقته هو ورجاله ، ثم تعيد الكرة ثانية ، لأن هذا الجيش ليس في مكنتك منازلته إذ هو غير ذلك الجيش الذى ألحقت به الهزيمة أمام الدينور ^(٢) ، مع العلم بأنه زاحف عليك كطلب والدك .

ولكن (هالالا) قد خامره الشك وأخذته الريبة فى أن هذه النصيحة بريئة ، بل خيل إليه أنها مجرد خدعة ، فما كان منه إلا أن قتل أبا عيسى هذا . ثم عزم على الانقضاض على خصمه (فخر الملك) ليلا وفى جنج الظلام مباغتة ، ولكن (فخر الملك) علم بما يدبره له خصمه اللدود فى الخفاء فبادر على الفور إلى حشد جيشه وترك قوة صغيرة وراءه للحفاظ على العتاد والمهمات فى المعسكر ثم تقدم بخطى سريعة لمنازلة العدو ، هنا . وهنا فقط !! استيقظ (هلال) فقد أيقن عندما وقعت عيناه على هذا الجيش الحافل ، أن نصيحة أبي عيسى بن شاذى لم تكن كما نخل ، بل كانت بريئة وسديدة ، فعرض بنان الندم ولات حين مندم . وأرسل إلى (فخر الملك) يقول له . « إننى لم أحضر للحرب ، فإذا لم تحاربنى ، فأنا مستعد لتقديم فروض الطاعة » فوافق فخر الملك على هذا العرض ، وبعث بالرسول إلى (ناصر الدين بدر) ليطلعه على جليلة الأمر ، غير أن بدرا قد أساء معاملة الرسول الموفد إليه وقابله بجفاء بل طرده شر طردة ، ثم بعث هو رسولا من قبله إلى فخر الملك يقول له : « إن هذا الذى يعرضه عليك (هلال) إن هو إلا حيلة ماكرة وخدعة

(٢) هذا هو الظاهر واسكن ابن الاثير يقول باب نهاوند (ج ٩ ص ٨٠)

المترجم

بارعة ، لأنه واثق من عدم قدرته على الحرب ، فلذلك لا يجوز أن نترك له الفرصة ! وعلى ضوء هذه الرسالة أيقن (فخر الملك) أن بدرا يضرر لابنه عداا مستحكما ، فأصدر أمره بإشعال نيران الحرب . وبعد اشتعالها بقليل ألقى القبض على (هلال) وسلم لفخر الدولة ، وقد ألح هلال في رجائه كيلا يسلمه إلى والده ، فلبى (فخر الدولة) رجاءه وحققه ، ثم طلب إليه اطلاعه على الرمز الذي تسلم القلعة بموجبه ، فنفذ (هلال) طلبه وأطلعه عليه . ولكن والده (هلال) والحامية التي كانت قائمة على حراسة القلعة رفضوا تسليم القلعة ، وطلبوا الأمان من فخر الملك فأمنهم . ثم دخل القلعة وسلمها لبدر بعد أن صادر جميع ما حوت من خزائن وأموال وعنائم لا تحصى وأكدا من الذهب والفضة والمجوهرات والملابس والأسلحة وغير ذلك . (ج ٩ ص ٧٩ ، ٨٠ من الكامل) هذا وما أن استعاد (ناصر الدين) مجده وبلاده من بين برائن ابنه (هلال) بفضل مساعدة بهاء الدولة الجديدة ، حتى بادر باعطاء بلاد (شهرزور) إلى عميد الجيوش وزير بهاء الدولة ، ومنذ هذا التاريخ أصبح يتعاقب على حكم نلاد (شهرزور) نواب من قبل عميد الجيوش وزال سلطان البرزكانيين عليها وخرجت من حوزتهم .

أما (هلال) فقد ألقى به في غياهب السجن ولبث سجيناً طيلة عهد كل من (بهاء الدولة) وخلفه (سلطان الدولة) في العراق إلى أن ظهر فجأة (طاهر بن هلال) في الميدان وتمكن من تخليص « شهرزور » وانتزاعها من يد نائب عميد الجيوش عام (٤٠٤) .

هذا وفي عام (٤٠٣ هـ) أعد ناصر الدين بدر جيشاً زحف على رأسه وألقى حصاراً منيعاً على (حسين بن مسعود الكردي) في قلعة (كوسجد) ، وكان البرد وقتذاك قارساً فلاقى رجاله الأهوال وقاسوا مرارة البرد ولكن العدو قد استمات في الدفاع عن القلعة فطالت مدة الحصار دون جدوى ولهذا تملك

اليأس رجال (بدر) فقرروا فيما بينهم اغتيال أميرهم (ناصر الدين بدر) ، وعلى الرغم من أن رجاله المخلصين قد أحاطوه علما بأسرار هذه المؤامرة فلم يعرفها أية أهمية وقال لهم : « كيف يتسنى لهؤلاء الكلاب الاقدام على عمل كهذا ؟ » ولكن رجاله وأنصاره قد عادوا وأندروه بأن اغتياله قد تقرر ! فلم يأبه لهم وأصم أذنيه عن سماع أقوالهم .

وبينما كان يجلس ذات يوم على باب معسكره القائم على ربوة ، انقض عليه بضعة رجال من عشيرة (الجوزكان = الجوزقان) وأردوه قتيلا يتخبط في دمايته ونهبوا معسكره وتركوه وعادوا أدراجهم . ولما خرج الأمير حسين ابن مسعود من القلعة ووقع نظره على الجثة الهامدة ، أمر بتجهيزها وتسكينها ثم شيعها إلى مشهد (على رضى الله عنه) حيث دفنت به . وهكذا قضى ناصر الدين والدولة نجبته بعد عمر طويل وحكم دام ثلاثين عاما ، وقد تمتعت البلاد في ظل حكمه باستقلال تام وعدالة مطلقة لا تشوبها شائبة وحسن تدبير للامور وحزم وعزم في إدارة دفة شئونها مدة ثمانية وعشرين عاما أى منذ وفاة عضد الدولة عام (٣٧٢) للهجرة إلى أن أنشب الخلاف أظفاره بينه وبين ابنه هلال عام (٤٠٠) (١) .

ويذكر لنا مؤلف ذيل تجارب الأمم - وهو الوزير أبو الشجاع - الكثير عن صفات هذا الملك ومميزاته الفريدة النادرة ومحاسنه :

كان الملوك البزركانيون قد خصصوا خمسة آلاف دينار لمحافظة الحجاج تصرف سنويا لرؤساء القافلة التى تصحب الحجاج على شريطة ألا يأخذوا شيئا من الحجاج . كما كانوا قد خصصوا عشرين ألف دينار أخرى لتطهير

الآبار وتعمير المنازل الواقعة في طريق الحاج ، وتوزيع جزء منه على الفقراء من المهاجرين والأنصار في الحجاز . وقد ظلت هذه القاعدة متبعة ، وهذه المخصصات تبذل طيلة عهد هذا الملك ثم أوقف صرفها إثر وفاته .

سياسته المالية :

كان (بدر) يوجه كل عنايته نحو المسائل المالية وكان له بصدها آراء سديدة وتدابير صائبة وتوجيهات حكيمة جعلت خزائنه تفيض دائما بالمال ولولا استيلاء نحر الملك - كما أسلفنا - على خزائنه المكسدة وعلى أمواله الطائلة في « سابور خواست » لكانت خزائنه تحوى ما لا يحصى من أموال ونفائس . ومن مفاخره التي سجلها له التاريخ من الناحية المالية منعه الاحتكار منعا باتا ومجازاة كل من يقدم على ارتكابه ، ولا غرو فقد كان يعده خيانة كبرى . وكان في حالة ظهور عجز في الإيراد العام نتيجة كوارث حقيقية - لا بفعل الملتزمين لمرافق الدولة - يعوض الملتزم عن الأضرار التي لحقت به من أموال الصدقة أو يؤجل بدل الالتزام مع تقسيطه عليه ، ولهذا كان كل فرد يسارع إلى توريد ما تعهده من المال ولا يمكنه الامتناع عن التوريد أو التسكسل في تحصيل الأموال . وكان يبذل سنويا مبلغا كبيرا من المال على الأعمال الخيرية ووجوه البر في داخلية المدن . وما كان يألو جهدا في إنشاء المعامل وإقامة المصانع وإنشاء الطرق التجارية وتمهيدها وإصلاح القائم منها . وكم بذل وأنفق عن سعة في هذا المضمار ، مما أدى إلى نهضة بلاده نهضة شاملة ، وإلى تقدم تجارتها تقدما محسوسا ورواجها ، وكان - من رائع تديره - إذا أراد إقامة طريق مهم على سبيل المثال ، جلب جميع ما يلزم من معدات ، وموئن ثم يفتتح سوقا مؤقتة يباع فيها ويشترى كل ما في المدن من سلع ، فيؤمها العمال والصناع العاملون في إنشاء الطريق لشراء ما يحتاجونه بأثمان معتدلة تعود على الطرفين بالخير الوفير .

مميزاته الشخصية :

كان (بدر) من دهاء السياسة في زمنه ، وكان نافذاً الكلمة بين بني قومه ، قوى السلطة على جيشه ، كما كان في نفس الوقت عادلاً . رحباً ومحبالاً بعبيته ، وكانت له في الشؤون المالية آراء سديدة ، وكان ثاقب الفكر في جمع الإيرادات وأوجه صرفها . وكان خيراً يميل بطبعه إلى فعل الخير ، وكان صائب الرأي مدبراً ، حازماً ، لا يفهم معنى التردد ولا سيما في وقت الحروب وحال المللات ، وكان حاسماً وحاداً قديراً . إذ استطاع حكم العشائر البرزكانية بكل حزم وعزم فققضى على روح الفساد ، وحب الغارات والرغبة في الغزو التي كانت تسيطر على هذه العشائر ، فساد الأمن وعم الإصلاح كل المرافق ، وأقبل الشعب على تعلم القراءة والكتابة ، وتنهت الأذهان إلى الاستزادة من مناهل العلوم والفنون كما أنه أمن الزراع والفلاحين وحماهم من الأشرار والمستبدين ووقاهم شرهم كما أمكنه القضاء على تلك العادة السيئة القديمة التي كانت منتشرة بين الفلاحين ألا وهي إحراقهم ييادر بعضهم البعض .

ويؤخذ من رواية صاحب « ذيل تجارب الأمم » أن هذا الملك وقد رأى الفساد والخراب قد أخذاً ينشبان أظفارهما في البلاد ، صمم في دخيلة نفسه على استئصال تلك الروح الشريرة بالسياسة والكياسة ، فأولم وليمة كبرى تزخر بكافة الأصناف من مأكل ومشرب ولكنها خلت من الخبز ! فتوقف المدعوون وهم رؤساء العشائر عن تناول الطعام حتى تزود الموائد بالخبز . وبينما هم في انتظار الخبز وإذا بناصر الدين يخاطبهم قائلاً : يظهر أنكم لا يمكنكم الطعام دون الخبز ! فإذا كان الأمر كذلك فلماذا تستيحيون لأنفسكم الاغارة على زرع الناس وضرعهم وتقضون على معاشهم ! سود الله وجوهكم وقبح أفعالكم !!! وأنى لأشهد الله على أنى سأهدر دم كل من تسول له نفسه من الآن فصاعداً التعدي على مزروعات الغير ، وظلم أخيه من بني الإنسان .

والثابت المحقق أنه قد نفذ قسمه وبر يمينه حيث سفك دماء الكثيرين من المعتدين بغير حق ، وكان هذا عبرة لكل معتبر ودرسا قاسيا لكل مزدجر بل ولجميع العشائر . حيث لم يكن أحد يجسر بعد ذلك على إلحاق الضرر بالمزروعات أو الزراع . وبذلك سادت الطمأنينة وانصرف الفلاحون إلى مزارعهم يعملون ويكدون في أمان وسلام .

وهاك أنموذجا آخر من آيات عدله :

وخرج ذات يوم بصحبة بضعة من رجال جيشه متفقدا أحوال الرعية !! فصادف فلاحا يحمل حطبا ، وكان فارس من فرسان الجيش قد اغتصب رغيفين من هذا الفلاح ، فلما أن أبصر (ناصر الدين بدر) صاح به قائلا : أيها الملك أنا حطاب فقير كان معي رغيفان أسد بهما رمقى ، وأستعين بثمر الحطب على إطعام أولادى وعيالى ، فاعترضنى فى الطريق فرسان جيشك وسلبنى أحدهم خبزى . فسأله ناصر الدين : أتعرف ذلك الفارس ؟ فأجاب الرجل : نعم أعرفه إذا وقع نظرى عليه !!

وعلى أثر هذه المناقشة بين الملك والحطاب ، وقف فى أحد مضائق الجبال وأمر برجال الجيش أن يمروا أمامه واحدا واحدا وإلى جانبه الحطاب ، ولم يمض طويل وقت على مرور الجند حتى تعرف الحطاب على الفارس المقصود وأرشد الأمير اليه ، فأمر (ناصر الدين) بالفارس فأنزل عن فرسه ، وقال له مشيرا إلى الحطب : إحمل هذا الحطب ، واذهب به إلى المدينة وبعه ، ثم اعط ثمنه لهذا الرجل الحطاب الذى سلبت رغيفه اغتصابا ، وكان هذا الفارس رجلا معروفا وذا مال وثراء ، فأراد أن يتفادى العقوبة بتقديم مبلغ من المال يزن الحطب المراد بيعه ، ولكن ناصر الدين قد رفض ملتزمه ، وحمله الحطب وأبى إلا أن ينفذ أمره وكان له ما أراد . وما كان ينبغى من وراء ذلك إلا أن يتخذ العدل مجراه ويشعر الجميع بأنه لا يراعى فى إقامة صرح

العدل كبيرا وصغيرا ، وكان لهذا أوضح الأثر في تقويم الأخلاق .

ويقال إن ملكة الري كانت عظيمة الثقة برجاحة عقل الأمير (بدر) وحسن تدبيره وكانت لا تفتأ تستشيريه في الملأ وتستعين برأيه الصائب في تصريف شئون الدولة .

وحدث أن أوفد الأمير (نوح بن محمود بن سبكتكين^(١)) حاكم خراسان رسولا إلى الملكة يتهددها ويتوعدها بل ويتحرش بها ، فما كان منها إلا أن أسرعت بمكاتبة (ناصر الدين) تسأله رأيه ، فأجابها على الفور طالبا إليها أن توفد إليه هذا الرسول الذي يتحرش بها ... ، وما أن وصل هذا الرسول حتى كان (ناصر الدين) قد حشد جيشا كامل العدد والدرجة أن صفوفه قد امتدت من باب الري إلى (سابورخواست) ، وما أن وقع نظر الرسول على هذا الجيش الحافل ، وما أن رأى ما عليه الملك من مظاهر القوة والمنعة والثراء حتى اعترته الدهشة وأخذته الحيرة ، ولكن ناصر الدين قد هدأ من روعه وأكرم وفادته واحتفى به ، ثم زوده بالنصيحة التالية : « انه ينبغي للأمير نوح ابن محمود أن يسلك مع الملكة مسلك الوئام والتفاهم » ثم ودعه بمثل ما قبل به من الحفاوة والتكريم .

ولما عاد الرسول وألقى بهذه النصيحة الغالية على مسامع الأمير نوح ابن محمود وجد لديه قبولا حسنا واقتناعا بوجاهتها ، وأبدى استعدادا للصلح وتجنب إثارة الحرب . هذا ، وكانت الخدعة الحربية التي مثلها مع (قره تكين الجهمشيارى) تعد أبرع مثال يدل على مقدرته الحربية .

وما أن لحق « ناصر الدين بدر » بالرفيق الأعلى ، وانقضت أيامه حتى بدأ الضعف ينخر في كيان الحكومة البرزكانية ، فنيت بالتدهور والانحلال

(١) في ذيل التجارب ، يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين . المترجم

وساءت أمورها ، وفقدت سطوتها كحكومة منظمة ، وأضحت إمارة يخيم عليها الضعف ، ويضطرب حبل الأمن ويختل في جميع أرجائها .
ويقول ابن الاثير في (١) الكامل : حدث بعدمقتل الأمير بدر ، أن انحازت العشيرة الجوزكانية إلى جانب « شمس الدولة أبي طاهر بن فخر الدولة البويهى » ثم قام « طاهر بن هلال » حفيد « ناصر الدين بدر » مطالبا لنفسه بالملك ، ومن أجل هذا اشتبك مع شمس الدولة في حروب طاحنة . غير أن الحظ قد تنكر له ، فوقع في يد خصمه أسيرا ، ونهبت كل أمواله ، وألقي به في غياهب سجن « همدان » مما أدى إلى انضمام العشائر اللورية والشاذنجان إلى « أبي الشوك ابن أبي الفتح محمد بن عناز » ، كما استولى شمس الدولة على البقية الباقية من الممتلكات البرزكانية .

وفي هذه الأثناء كان « هلال بن بدر » يعانى آلام السجن لدى « سلطان الدولة » فأطلق سراحه على أثر استيلاء شمس الدولة على البلاد ، وما أن غادر السجن حتى عمد إلى إعداد جيش ضخم حافل ، عزم على أن يسترد به ملك والده ، فتقدم على رأسه واشتبك مع شمس الدولة في عدة معارك ، ولكن هذا الجيش لم يخلص له إذ لم يكن راغبا في القتال مما أدى إلى خذلانه وقتله في ذى القعدة عام (٤٠٥) .

وفي عام (٤٠٦) للهجرة قطع « طاهر بن هلال بن بدر » على نفسه اليهود والمواثيق بالولاء والطاعة لشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه ، وتم التفاهم بينهما ، وعلى أثر ذلك زوده شمس الدولة بجيش توجه على رأسه شطر البلاد البرزكانية حيث اجتمع معه طوائف ، وما لبث أن اشتبك مع « أبي الشوك »

(١) انظر ابن الاثير (٩ ص ٩٢) حيث ورد: كانت مملكة بدر، سا بورخواست والدينور وبروجرد ونهاوند واسد اباد وقطعة من أعمال الاهواز وما بين ذلك من القلاع والولايات.
المترجم

في حرب طاحنة أسفرت عن اندحار أبي الشوك وقواته ، وقتل (سعدى) أخى
أبي الشوك في المعركة ، ورغم ذلك تم الصلح بينهما ، وتمكيننا لأواصر هذا
الصلح عقد ظاهر على أخت أبي الشوك ، « الكامل ٩ ص ٩٧ » .
ولكن أبا الشوك ظل يضم له السوء ويتحين الفرصة للأخذ بثأر أخيه
حتى تم له ما أراد بفضل مكيدة دبرها له فقضت على حياته ، وبموته دالت
دولة أسرة (حسنويه) وانقضت أيامهم ، وانقضت حكومتهم ، وخضع
شطر كبير من البلدان التي كانت في حوزتهم وخاضعة لسلطانهم ، وكذا جزء
من منطقة « شهرزور » لامارة « بنى عناز (١) » الأكراد .

وكان آخر أمراء أسرة (حسنويه) هو الأمير « أبوسالم ديسم بن أبي الغنائم »
أخى حسنويه الذي كان قد أقام حكومة في قلعة « كسان » في منطقة (زهاو
== زهاب) على مقربة من « بابا يادكار » ، وهي آخر حصن أوى إليه ، ولكن
أيام هذا الأمير لم تعمر طويلا ، فانهارت بعد وفاة ظاهر بمدة قليلة .

(١) هكذا ورد في ابن الاثير بالزاي (عناز) ويذكرها شرفنامه (عيار)
بالياء والراء في الآخر . وقد خالفهما المرحوم سعيد باشا الديار بكري في
كتابه مرآة العبر بالتركية فذكرها (عنان) بالنون في الأول والآخر . وتبعه
المؤلف كما سيأتي في مبحث الحكومة العنانية أو العنازية . المترجم

الفصل الرابع

٤ - «الحكومة الشدادية» بأران (٣٤٠ - ٤٦٨ هـ)

إن التاريخ يفتقر إلى معلومات مسهبة شافية عن (بنى شداد) الذين أسسوا حكومتهم في (أران) في عام (٢٤٠) (١) للهجرة، تلك الحكومة التي عمرت حتى عام (٤٦٨) للهجرة حيث استولى ملكشاه السلجوقي على معظم أملاك هذه الدولة، وضمها إلى رقعة إمبراطوريته المترامية الأطراف... ورغم ذلك ظل بعض أبناء تلك الأسرة الحاكمة محتفظين بالسيادة في بعض الجهات مثل (كنجة - جنزه) و (آني) تحت الحماية السلجوقية.

فمن المرجح جدا أن تكون هذه الأسرة كردية (٢) ولقد كانت مدن نخجوان، كنجه، تفليس، دميرو، قره باغ - من المدن الشهيرة التي كانت داخلة في نطاق هذه الحكومة الأرامية التي كان معظم أهلها ورعاياها من (اللسكز - لوكي). وفي عام ٢٣٧ للهجرة (٦٤٨ م) حينما وقع فيه (السالار مرزبان بن محمد) حاكم أذربيجان أسيرا في مضيق الري، انفرط عقد حكومته ونادى كل أمراء الأطراف في المدن والقلاع بالاستقلال والانفراد بالحكم

-
- (١) كذا في الأصل. والظاهر أنه تصحيف من (٣٤٠) هجرية كما في جميع المصادر الأخرى (مثل منجم باشي) و (دول اسلاميه).
- (٢) تنص اغلب المصادر على كردية هذه الأسرة مثل (الدول الاسلاميه) ل. (إستبلي لين پول) و (دائرة المعارف الاسلاميه). المترجم.

وكان من بين هؤلاء الأمراء أمير يدعى (محمد بن شداد بن كارعو) قد بادر قبل غيره من الأمراء إلى إعلان استقلاله في (ديبل) ثم ما لبث أن سطع نجمه ، وعلا شأنه حتى وازى نفوذه وضاهى ، نفوذ حاكم آذربيجان . وظل يرفل وينعم بالسطوة والسلطان ، حتى عام ٣٤٤ للهجرة (٩٥٥ م) دون منافس أو منازع وبعد ذلك أخذ نفوذه يتضاءل ويضمحل كما أخذ نجمه في الأفول حتى تقلص سلطان الدولة ولم يعد يعدو في عهد ابنه منطقة (آران) .

كان يحكم (كنجة) وقتذاك أمير يدعى (فضلون) يلوح أنه كان أخا لمحمد بن شداد . وكان لمحمد بن شداد هذا ، ولد يدعى (أبو الحسن علي بن جعفر لشكري) (١) ظل يحكم البلاد ثمانى سنوات ، ثم خلفه في الحكم أخوه (مرزبان) الذي لبث في الحكم سبع سنين ، (٣٦٨ - ٣٧٥) ثم قتله أخ له آخر يدعى (فضل بن محمد) أثناء الطراد والقنص ، واعتلى أريكة الحكم مكانه وقد قرب الناس اليه واكتسب محبة الجميع وحاز ثقتهم بفضل إدارته الحازمة لدفة شئون البلاد ، وعمله المتواصل لرفع مستوى البلاد ورفقها ، من نشر العلوم والمعارف إلى تنفيذ سلسلة من المشروعات العمرانية التي كان من بينها إقامة جسر كبير على نهر (الرس - آراكس) الشهير إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة النافعة . وظل هذا الأمير متربعا على أريكة الحكم ، وقابضا على زمام الأمور سبعة وأربعين عاما إلى أن توفاه الله إلى رحمته في عام ٤٤٢ للهجرة

وقد خلفه في الحكم ابنه (أبو الفتح موسى) الذي لم يلبث في الحكم سوى ثلاث سنوات ، ثم خلفه بعده على أريكة الحكم ابنه (أبو الحسن

(١) كذا . وهذا ولا شك تصحيف . فالظاهر المعقول هو ماورد في الدول الإسلامية هكذا « لشكري أبو الحسن علي بن محمد . حكم ٢٤ سنة » المترجم

على بن موسى الشهير بالشكري) الذي امتد حكمه حتى عام ٤٤٠ للهجرة. وقد أطنب الشاعر الشهير (قطران) في مديح هذا الأمير الذي قام بحمايته في مدينة (كنجه) وجاء بعده في الحكم ابنه (نوشيروان) الذي لم يلبث في الحكم سوى ثلاثة أشهر لحق بعدها إلى الرفيق الأعلى. وتولى الحكم من بعده (أبو الأسوار شاور بن فضل) الذي تزخر الروايات وكتب التاريخ بتفاصيل مسهبة عن أيام حكمه تفوق كثيرا ما أثر وكتب عن أسلافه من الأمراء، ولقد أسهب (قطران) الشاعر صاحب كتاب (قابوسنامه) في سرد أعماله ومشروعاته وذكره كثيرا بالخير كما تحدث عنه ابن الأثير المؤرخ حيث يقول: إن أرطغرل بك حينما قدم (كنجه) بعد غزوه لتبريز (١) في عام ٤٤٦ للهجرة، تقدم إليه الأمير (أبو الأسوار) صاحب كنجه وقدم له فروض الطاعة والولاء (٢).

وفي عام (٤٥٦) للهجرة لحق (أبو الأسوار) بالرفيق الأعلى، وخلفه في الحكم ابنه (منوجهر) الشهير بالفضل الثاني. وحيث أن كتاب (قابوسنامه) الذي كتب في عام ٤٦٨ كان باسم (فضلون بن أبي الأسوار) فالظاهر أن استقلال بني شداد قد ألقى عليه الستار بوفاة فضلون هذا، وضمت مملكة (أران) إلى الامبراطورية السلجوقية في عهد ملكشاه.

وإنه لمن العسير بل ومن المتعذر جدا تتبع أخبار هذه الأسرة بعد ذلك. وقصارى القول، نستطيع أن نقول أن (فضلون) إن هو إلا هو إلا صاحب هذا الاسم الرسمي (الفضل الثاني منوجهر) الذي كاتب به مادحه وحميه الشاعر (قطران) ثم انه بطل جميع الروايات والقصص والأمثال التي ضمنها

(١) وكان أميرها حينذاك الأمير منصور وهسودان بن محمد الروادي. المترجم
(٢) قد ذكر « منجم العمران » خبر تقديم هذه الطاعة (ج ٩ ص ١٩٠) المؤلف

الشاعر كتابه الشهير (كابوسنامه - قابوسنامه) . ويظهر أن حكم هذا الأمير
البطل كان سائدا في منطقة (كنجة) و (آنى) و (وتوين - دوين) . ويؤخذ
من بحوث (خانيكوف) أن (الفضل منوچهر) كان له ابنان ، وأنه كان
حاكما على (كنجه) حين استولى عليها ملكشاه في عام ٤٨١ للهجرة . كما كان
(أبو الأسوار الثاني شاور) حاكما على (آنى) حينما استولى عليها
الملك (داويد - داوود) في عام ٥١٨ للهجرة . وكان لأبي الأسوار هذا ولد
يدعى (محمود) وكان لمحمود هذا ولد يدعى (قاي سلطان) . وتتضمن لوحة
أثرية كشفت أخيرا في (آنى) معلومات هامة عن هذا الشخص إذ وجد منقوشا
عليها عام ٤٩٥ للهجرة إلى جانب عبارة (قاي سلطان بن محمود بن شاور بن
منوچهر الشدادى) .

وعلى ضوء ماورد في هذه اللوحة الأثرية من المعلومات يتسنى لنا ترتيب
أسماء وسنى حكام بنى شداد كالتالى :

- ١ — محمد بن شداد بن كارعو (قرطق = قرطو) : تولى الحكم في كنجه سنة
٣٤٠ هجرية باسم (فضلون الأول) .
- ٢ — أبو الحسن على بن جعفر لشكرى (٣٦٠ - ٣٦٨ هجرية)
- ٣ — مرزبان ٣٦٨ هجرية .
- ٤ — الفضل بن محمد (٣٧٥ - ٤٢٢ هجرية)
- ٥ — أبو الفتح موسى بن فضل (٤٢٢ - ٤٢٥ هجرية) .
- ٦ — أبو الحسن على بن موسى لشكرى (٤٢٥ هجرية) .
- ٧ — نوشيروان بن على بن موسى (٤٤٠ هجرية) .

(١) استولى الكرج ويقودهم (داويد الثانى) على (آنى) سنة ١١٢٤ م
(٥١٨ هـ) ومنذ هذ التاريخ أضحت المدينة كرجية بحتة .
المؤلف

- ٨ — أبو الأساور شاور بن الفضل بن محمد (٢٤٠ - ٤٥٦ هجرية .)
 - ٩ — الفضل منوجهر بن شاور (فضلون الثاني) في (كنجه)
 - ١٠ — أبو المظفر فضلون الثالث في (كنجه) .
 - ١١ — أبو الأسوار شاور بن منوجهر في (آني) .
 - ١٢ — أبو الفتح جعفر بن علي بن موسى (آلان ؟ ٤٧٠ هجرية .)
 - ١٣ — محمد بن شاور بن منوجهر بن شاور بن الفضل في (آني) .
 - ١٤ — قاني سلطان بن محمود بن شاور (آني - ٤٩٥ هجرية .)
-

الفصل الخامس

٥- « الحكومة الدستورية والمروانية » بديار بكر (٣٥٠ - ٣٧٠ - ٤٧٦)

(أ) والدستورية

إن مؤسس هذه الحكومة هو (باز) أبو شجاع ابن دوستك . ويقول صاحب تاريخ الموصل : إن (باز) الكردي أبا عبد الله حسين هو ابن دوستك الذي كان أميراً للعشيرة الحميدية ، وكانت كنيته (أبا شجاع) في حين يرى (ابن خلدون) أن أبا عبد الله حسين هو أخوه ، وليس هو نفسه . هذا وكان (باز) أو (باز) في أول أمره يرعى غنما ، وكان على جانب عظيم من رجاحة العقل وحرية الفكر ، تبدو عليه مخايل الفطنة وعلام الذكاء والدهاء ، كما كان كريم الطبع جوادا ، يجود بكل مملكت يدها على الفقراء واليتامى والمساكين ، حتى ذاع أمر كرمه الحاتمي وانتشر بين الناس . وكان يقوم بين الفينة والفينة بشن غارات على بلدان الثغور حيث يعود منها محملا بالكثير الوافر من الغنائم التي كان يقسمها قسمة عادلة بين رجاله ورفاقه ، مما حجب فيه الكثيرين وأدى إلى التفافهم حوله فقوى نفوذه وعلا شأنه وأخذ نجمه يتلأل .

وهذه الرواية — على ما اعتقد — مخلقة لا نصيب لها من الصحة ، لأن العقل لا يمكن أن يستسيغ أن سليل أمير عشيرة كبيرة يقوم برعى الغنم وقطع الطرق وهي أعمال لا يلجأ إليها إلا أفراد عظمهم الدهر بنابه فأتابهم بفقر مدقع أو دفعتهم إلى ارتكابها حاجة ملحة ، والطبع الذي يتمشى مع المنطق أن ابن سيد العشيرة لامندوحة في أن يكون أبعد الناس عن الفقر والعوز . والحقيقة التي لا مراء فيها أن (أبا شجاع) قد قويت شوكته وأخذت

دائرة نفوذه تتسع رويدا رويدا حتى تمكن من تعبئة جيش فرض به سلطانه على من حوله من أمراء البلدان .

وما مضى على ذلك طويل وقت حتى واصل الزحف على إقليم « أرمينية » ونجح في الاستيلاء على « أرجيش » وكانت هذه أول مدينة دانت لسلطانه ، وكما يقولون : أول الغيث قطر ثم ينهمر ، إذ كان لاستيلائه على هذه المدينة أثر واضح في تقوية الروح المعنوية بين رجاله ، فازداد بذلك قوة على قوة ، وأغرته نشوة النصر على مواصلة الزحف حتى طرق أبواب « ديار بكر » واستولى على مدينتها « آمد » ثم على مدينة « ميفارقين » وما حوالها من القرى والدساكر (١) .

وكان (باذ) على الهمة طموحا ، لا يألو جهدا في سبيل الرفعة والمجد والوصول إلى الذروة . ومن المحتمل — كما يقول السيد حسين المسكرياني — أنه تمشيا مع التقاليد المتوارثة المرعية وقتذاك ، قد أقدم على تكوين علاقات ودية مع عضد الدولة ، وأنه — توكيدا لهذه العلاقات — قدم مساعدة جدية للجيش البويهى لكسر شوكة الأمير (أبى تغلب) الحمدانى .

وما أن استولى البويهيون على الموصل ، وما أن دخل (عضد الدولة) المدينة حتى خف (باذ أبو شجاع) للقائه ، وأسرع لمقابلته ، ولكنه ما كاد يغادر مجلسه حتى بادر (عضد الدولة) الحاضرين وفاجأهم بقوله : إن هذا الأمير ممتلئ شجاعة ومهابة ، وإنه لمن الخطورة بمكان على الدولة أن يبقى حيا بين الأحياء ويظل على قيد الحياة ، فأصدر أمرا بإلقاء القبض عليه لولا أن (باذ) كان قد فطن إلى ما يبت له من شر وما نصب له من شباك فغادر المدينة سرا وعلى الفور ، حيث لحق بجيشه . (ذيل تجارب الأمم ج ٣٠ ص ٨٤ — ٨٧) . وما أن لقي عضد الدولة ربه عام ٣٧٣ للهجرة حتى استطاع (أبو شجاع)

ضم نصيبين ، إلى رقعة ممتلكاته ، فامتد سلطانه إلى أطراف الموصل ، الأمر الذى شغل بال (صمصام الدولة) وأدى إلى استيائه وإشاعة القلق فى نفسه فبادر إلى إعداد حملة عسكرية بقيادة (أبى سعيد بهرام بن أردشير) وأعلن الحرب على الأمير (باذ) الذى عبأ جيشه للدفاع ، ثم تلاقى الجمعان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، أسفرت عن هزيمة (أبى سعد بهرام) هزيمة منكرة ، ووقع الكثيرون من قواد الجيش البويهى وزعمائه أسرى حرب .

وفى نفس العام عبأ (صمصام الدولة) جيشا عرمرما بقيادة (أبى القاسم سعد بن محمد الحاحب) وبعث به لمحاربة (أبو شجاع) واشتبك الجيشان فى مكان يدعى (باجلايا) على وادى خابور الحسينية^(١) على مقربة من بلدة كواشى وأسفر القتال عن اندحار البويهيين وتمزيق صفوفهم شرممق ، وأسر وقتل من رجالهم الكثيرون ، أما من نجا منهم وهم قليلون فقد عادوا إلى الموصل وقد تملكهم النصب وأخذ منهم الاعياء كل مأخذ لما صادفهم من صعاب وما حف بهم من متاعب .

وبعد أن بعث أبو شجاع بالأسرى إلى المؤخرة ، واصل التقدم بجيشه متعقبا ومطاردا الذين لبستهم الهزيمة من الديلمة حتى بلغ أطراف الموصل وطرق أبوابها ، فما كان من أهلها إلا أن انفجروا ثائرين فى وجه حكمهم الديلمة ، لما لاقوا على أيديهم وفى أيام حكمهم من ظلم فادح وعسف بالغ وجور فاضح ، وسلبوا المدينة لأبى شجاع .

وبعد أن استقر بأبى شجاع المقام فى الموصل ، وبعد أن أصلح شئونها ودبر أمورها ، أخذ يعي الجيوش ويعد العدة لانتفاذ (بغداد) مركز الخلافة

(١) أى نهر الخابور الذى يصب فى دجله

من بين برائن الديالمة وتخليصها من تحت نيرهم . وما أن بلغت (صمصام الدولة) أنباء هذه الاستعدادات التي كانت قائمة على قدم وساق حتى بادر إلى حشد جيش ضخم أسلم قيادته إلى (زيار بن شهرا كويه) أكبر القواد الديالمة ، فزحف (زيار) على رأس جيشه إلى «الموصل» فانبرى له (أبو شجاع) بجيشه والتحم الجيشان ودارت بينهما معركة دامية أسفرت عن خذلان أبي شجاع وانزاعه هزيمة شنعاء ومنى جيشه بخسائر فادحة ووقع الكثيرون من رجاله أسرى حرب ، ثم قفل راجعا إلى (ديار بكر) يجر أذيال الهزيمة . وشرع في حشد الرجال والمقاتلة . أما (زيار) فكان مزهوا بما أحرزه من نصر مؤزر ، وقد شطر جيشه إلى فريقين بعث بأحدهما تحت قيادة «سعد الحاحب» على بلدة الجزيرة ، وزحف الآخر صوب «نصيبين» . والذي يبعث على الدهش أن كليهما قد شق عليه عصا الطاعة ، وما نفذ له ما أمرهما به . بل عزفا عن قتال «أبي شجاع» وتفاديا الاصطدام به .

وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (صمصام الدولة) حتى دخل على الفور في مفاوضات مع (سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان) وتم الاتفاق بينهما على أن يزحف (سعد الدولة) بجيش يستأصل به شأفة (أبي شجاع) وتعطى له (ديار بكر) نظير قيامه بهذه المهمة . ولكن قد جانب النصر جيش «سعد الدولة» فباء بفشل ذريع ، وعاد أدراجه إلى حلب يجر ذيل الفشل . ولما علم (سعد الدولة) بنبا هذا الاخفاق حتى صمم على التخلص من (أبي شجاع) بسفك دمه ، وأوفد من يقوم على تنفيذ هذه المسكدة ، وتمكن الموفد من اقتحام معسكر (أبي شجاع) واندس بين جنوده ، وفي ليلة حالكة السواد وتحت جناح الظلام تسرب خفية إلى فسطاط (باز) — الذي كان راقدا في فراشه — وطعنه بسيفه طعنة لم تكن القاضية وإن كانت قد سببت له بعض جراح ثخينة ، ثم ولى النذل الغادر أذاره .

وبعد ربح من الزمن اندملت هذه الجراح وعوفي من آثارها ، وسرعان ما دخل في مفاوضات مع (زيار) و (سعد) وعقد بينهم صلح أشرط فيه أن يبقى (باذ) حاكما على (ديار بكر) كلها ونصف منطقة (طور عابدين) الجبلية ، ثم عاد (زيار) على أثر ذلك إلى « بغداد » تاركا شطرا من جيشه « في الموصل »^(١) ، بقيادة سعد الحاجب . وفي عام ٣٧٧ هـ (٩٨٨ م) ، حشد (باذ) جيشا كبيرا زحف به على الموصل ، - وكان (شرف الدولة) ملك بغداد قد أقام « أبا نصر خواساذه » حاكما عليها ، خلفا لسعد الحاجب الذي كان قد توفي ، ، وما كاد (أبو نصر) يحيط رحاله في الموصل ويقف على حقيقة ما عليه جيش « باذ » من قوة وسطوة وبسالة ، حتى بادر إلى طلب النجدة من « شرف الدولة » ، ، ولكن « باذ » لم يعط له فرصة ، بل أخذه على غرة ، وضيق عليه الخناق بما اضطره إلى طلب معاونة عاجلة من لدن عرب قبيلتي « بني عقيل » و « بني نمير » ، اللتين شارك الكثيرون من رجالهما وفرسانهما - الديلمة القتال . ، فانهبرى لهم « أبو شجاع » بقوة مختارة من صفوة رجاله تحت قيادة أخيه الذي لقي حتفه صريعا في هذه المعركة وفاق بقوته فشل ذريع وخسران مبین . (راجع ابن الأثير - المترجم) وفي (٣٧٩ هـ) وفدائنان من أبناء ناصر الدولة بن حمدان

(١) لم يتعرض تاريخ الموصل لبحث مساعدة سعد الدولة ، ويقول إن فدائيا كان قد ارسل من قبل (زيار) لاغتيال (باذ) . المؤلف

(٢) يذكر كتاب تجارب الأمم (ج - ٣ ص ١٤٥) ان (باذ) قد دبر حيلة بارعة في هذه الموقعة قد بهرت الأعين وبعثت الرهبة في المحيطين به ، وهي انه كان يضع البقر على رؤوس الجبال وبينها رجال يدهم سيوف تبرق وحراب تتلألأ فأذا شوهدوا عن بعد ظنوا رجالا فلا يتجاسر الجنود على الصعود إليهم .. ولكن حدث ان نزل اخ لباذ وقاتل قوما من العرب فقتل وبلغ قتله من باذ كل مبلغ الخ (المؤلف)

من بغداد وهما (ابو طاهر ابراهيم) و (ابو عبدالله الحسين) واستطاعا تعبئة جيش من بين عرب بني عقيل وبني نمير استعدادا للزحف به على الموصل ولكنهما لم يتجسرا على تنفيذ خطة الزحف هذه ، ولجئا إلى « محمد بن المسيب » أمير بني عقيل ، وكان أهل الموصل قد عقدوا — وقتذاك — اتفاقا سريا مع أبي طاهر ابراهيم الحمداني ، في حين نص في الاتفاق الذي تم بين « ابن المسيب » و « أبناء الحمداني » على أن تكون الموصل وأطرافها للحمداني ، ومدينتا « نصيبين » و « الجزيرة » لابن المسيب . بعد ذلك زحف جيش الحمدانيين من الشرق ، وعرب بني عقيل من الغرب على أن يطبقا سويا وفي وقت واحد على « الموصل » التي كانت نيران ثورة قام بها الأهليون مشتعلة بين جنباتها — فسارع جيش « باذ » للقاء الحمدانيين الزاحفين من الشرق فالتقى الجمعان ودارت بينهما معركة دامية سفك فيها دماء الكثيرين ، ثم تقدم جيشه وتصدى للزاحفين من الغرب وبينما هو وجيشه مستميتان في القتال ومطاردة العدو ، وإذا بأهل الموصل يعمدون إلى فتح أبواب المدينة على مصاريحها لحنود ابن المسيب ، ويطعنون الجيش الكردي من الخلف طعنة قاصمة ، فانعكس تيار المعركة ، وتحطمت الروح المعنوية بين رجال « باذ » وجرح هو نفسه جرحا بليغا ثم مال بث أن فاضت روحه وصعدت إلى بارئها في اليوم الثاني من شهر جماد الثاني عام (٣٨٠) للهجرة متأثرا بجراحه ، وبموته أضحي جيشه أعزل دون قائد فعاد الفهقري إلى « ديار بكر » يجرر أذيال الهزيمة ^(١) .

(١) يذكر صاحب كتاب الكامل (ج - ٩ ص ٢٦) سنة ٣٨٠ وكذا (ذيل تجارب الأمم) حوادث هذه الموقعة الأخيرة على منوال آخر وهالك ملخصها :- كانت الموصل قد وقعت في أيدي الحمدانيين ، وأراد (باذ) أن ينتهز هذه الفرصة ويستولي عليها فحشد جيشا عرمرما من الأكراد ، وكان يشد أزره =

في مهمته هذا الا كراد البشنوية اصحاب قلعة (فنك) وكانوا كثيرا . ففي ذلك يقول
الحسين البشنوي الشاعر لبني مروان ويعتمد عليهم بنجدتهم خالهم باذا من قصيدة
البشنوية أنصار أنصار لدولتكم وليس في ذاخفا في المعجم والعرب
أنصار (باذ) بأرجيش وشيعته بظاهر الموصل الحدباء في العطب
ببا جلايا جلونا عنه غمغمة ونحن في الروع جلاؤن في الكرب
فتوجه باذ بهذا الجيش الضخم تجاه الموصل من الجهة الشرقية ، فانبرى له فريق
من جيش الحمدانيين و(أبي الذواد محمد بن المسيب) بداخل المدينة بعد أن
عبروا دجلة ، بينما زحف الفريق الآخر وقوامه (٢٠٠٠) من فرسان من عرب
بني عقيل واجتازوا النهر أيضا من شمال المدينة لمناهضة العدو والاجهاز عليه
ولما علم (ابو شجاع) بهذه الأنباء أراد أن يحسن موقفه الحربى ويقرب من
الجبال ولكن الوقت لم يسعفه ، فاضطر ان يطلق لجواده العنان فكبا
الجواد وسقط ابو شجاع على الارض طريقا يتقاطر الدم من جرح بليغ قد
أصابه ، وتقدم إليه ابن اخته (ابو على الحسن بن مروان) وطلب إليه ان يمتطي
صهوة جواده ويلحق بالجيش ، فرفض وقال له : اذهبوا انتم ودعوني وحالى
فأنى قد انتهيت ، فاضطر (ابو على) ان يتركه مرغما واعتصم مع خمسمائة من
رجال الجيش بالجبال .

بعد ذلك عثر رجل من بني عقيل على (باذ) ملقى على الارض بين القتلى
والجرحى ولم يكن قد فارق الحياة فقطع رقبتة وقضى عليه وحمل رأسه إلى
الحمدانيين الذين لم يكتفوا برقبتة بل قطعوا يديه وبتروا رجله وجاءوا
بها إلى بغداد وعلقوا ما تبقى من الجثة على باب الامارة في الموصل .

وقد استثار هذا العمل الشنيع اهل الموصل واثار مكانهم فضجوا بالشكوى
وابدوا عظيم استيائهم من هذا الظلم الصارخ والوحشية المتناهية قائلين : كيف
يجوز ارتكاب مثل هذه الاعمال مع من له الايادى البيض فى الدفاع والذود
عن الاسلام والجهاد فى سبيله ، ثم عمدوا إلى جثته المعلقة فأخذوها واحتفلوا
بدفنها احتفالا يليق بها من تجلة وإكرام وهذا دليل ساطع على ما كان
يكنه الشعب من محبة وتقدير لصاحب الجثة .
المؤلف

ب - « الحكومة المروانية »

ان « أبا علي حسن » الذي هو ابن مروان بن دوستك كما في الجزء الثاني من وفيات الأعيان^(١)، قد تخلى عن عمه^(٢) (باز أبي شجاع) حين جاءه نبأ إصابة خاله (كذا) واندحار جيشه في المعركة، ويم شطر « حصن كيف » القلعة المنيعه على ضفاف دجلة معتصما بها ومستهدفا بسط سلطانته على البلاد من غير إثارة فتنة. وكانت زوج عمه الديلية تقيم في هذه القلعة، فالتمس مقابلتها بحجة أنه يحمل من لدن عمه بعض وصايا يريد الإفضاء بها إليها، فصدقت زعمه وسمحت له بمقابلتها، وأمرت بأن تفتح له أبواب القلعة على مصاريعها، فلما مثل بين يديها، أسر لها بحقيقة أمره وألقى على سمعها بما دبره في نفسه، فلما وجد قلبها قد تفتح أمامه كاشفها برغبته في الزواج بها فقبلت عرضه راضية مرضية، وهكذا ضمن الاستيلاء على القلعة دون سفك دماء وبغير قتال.

ولكن مطامعه ما كانت لتقف به عند هذا الحد، بل أخذ يحنّد الجند ويعدّ العدة ويجمع شتات جيش عمه حتى عبأ قوة خارقة يخشى بأسها ويحسب حسابها وقد بعثت فيه هذه القوة روحا وثابة، فأخذ بها يناضل ويكافح حتى أسس الدولة دوستكية من جديد وانعقد لدواء زعامتها. وعلى أثر ذلك سارع زعماء

(١) اختلفت المصادر في هل (باز) خال (أبي علي) فقط، كما هو المتبادر من الشائع في ابن مسكويه وابن الأثير. أم أنه عمه أيضا، كما يؤخذ من مصادر أخرى، بدليل كون اسم والد (باز) هو دوستك واسم والد (مروان) والد (أبي علي) أيضا (دوستك) وغاية ما هنالك يجب فرض أن بازا ومروانا كانا أخوين لأب وأن مروانا تزوج بأخت بازا من أم فاولد أبا علي الحسن الذي صار (باز) خاله وعمه في آن واحد. وبهذا زال الخلاف بين المصادر وصارت تسمية هذه الدولة كلها دوستكية أصح من التسمية بالدوستكية والمروانية. المترجم

کردستان وقدموا له فروض الطاعة دون قتال ، فازداد بذلك قوة على قوة ، واضحى واسع النفوذ ، عريض السلطان .

وحدث أن رغب أبو طاهر وأبو عبد الله الحمدانيان - بعد أن تم لهما الاستيلاء على الموصل - في مد سلطانهما على ما تبقى من البلدان التي كانت تدين بالخضوع للحكومة الدوستكية فعبنا جيشا كبيرا زحف به - ومعهما رأس « باذ » - صوب « ديار بكر » ظانين أن البلاد خاوية على عروشها تفتقر إلى من يدفع عنها غائلة العدو أو يرد عنها كيد الكائدين ، ولكن ثبت قصر نظرهما ، بل طاش سهمهما وخاب ظنهما ، لأن (أبا علي) كان قد جمع شتاته ، وسما مركزه وعلا ، فتمكن من إعداد قوة حربية ضخمة ومنظمة يضاف إلى ذلك انفجار الأهالي ثائرين على مظالم الحمدانيين ، وسوء إدارتهم وتعسفهم ، مما قوى ساعد (أبي علي) وحفزه على العمل ... فزحف بجيشه والتحم مع جيش الحمدانيين في معركة دامية أريقَت فيها دماء الكثيرين من الحمدانيين وسقطوا صرعى يتخبطون في دمائهم وانعقد لواء النصر « لأبي علي » ووقع « أبو عبد الله » الحمداني في يده أسيرا ولكنه أحسن له المعاملة ، ولم ينظر إليه كأسير حرب وما جعله يحس ذل الإسار بل بالغ في إكرامه ثم مالبث أن أطلق سراحه ، فتوجه على الفور للقاء أخيه « طاهر الحمداني » الذي كان قائما على حصار قلعة آمد (ديار بكر) وقتذاك ، فأنبأه بما حدث له وأظهره على جليلة الأمر ، ونصح له أن يعقد صلحا مع المروانيين وأن يكف عن الاشتباك بهم ، وألا يلج في خصامهم . . . ولكن أبا طاهر لم يعره آذانا صاغية بل أبدى تصميمه على مواصلة القتال ، واستطاع حشد قوة هائلة من أبناء عرب بني عقيل وبني نمير ، كما اضطر أبو عبد الله مرغما أن يقف إلى جانب أخيه ويمد له يد المعونة رغم أنه لم يطع له أمرا وما قبل له نصيحة . وفي اليوم الحادي عشر من صفر من عام ٣٨١ للهجرة سار (أبو علي) على رأس جيشه الضخم لمنازلة خصومه الحمدانيين ودارت بين الجيشين رحى

معركة حامية الوطيس انعقد فيها لواء النصر لجيش أبي علي ، وباء الحمدانيون بفشل ذريع وخسران مبین ، ووقع أبو عبد الله - لسوء الحظ - أسيرا للمرة الثانية ولسكنه عومل في أسره هذه المرة معاملة كلها قسوة وغلظة ، وعوقب عقابا صارما جزاء ما قدمت يداه ، وزج به في أعماق السجون في (آمد = ديار بكر) حيث انه لم يرع ضميرا ولا ذمة ، ولم يحفظ عهدا ، وأبى إلا الغدر والسكران جزاء ما لقي من عفو وإحسان .

ولما اشتدت الخصومة بين المروانيين والحمدانيين واستطال بينهما القتال رأى خليفة مصر أن يبذل وساطته بينهما لحسم النزاع وحققا للدماء ، فأوفد من قبله جماعة من العلماء يطلبون إلى (أبي علي) الإفراج عن أبي عبد الله ، فنفذ طلبتهم وحقق رجاءهم ، وقبل الإفراج عنه وفك إيساره على شريطة أن يغادر على الفور أراضى السكرد والعراق ، فتسلبه العلماء واصطحبوه معهم إلى حلب (١) .

أما (أبو طاهر) الحمداني فقد يم شطر نصيبين بعد اندحاره وفشله الذريع وهنالك رآه صديقه القديم (أبو الذواد محمد بن المسيب) أمير بني عقيل ورأى ما آل إليه أمره من ضعف وخذلان ، ومأمنى به الحمدانيون من سوء المآل ، فاغتنم هذه الفرصة الذهبية ، فانقض عليه وعلى ابنه (علي) وعلى (الزعفر) (٢) أمير بني نمير واغتلهم جميعا ، وبذلك قضى على حلفائه بالأمس . . . ثم خلا له الجو فزحف على الموصل واحتلها ثم كتب إلى (بهاء الدولة) سلطان بغداد طالبا إليه تعيين حاكم على الموصل ، فعين عليها (أبا الحسن عبد الله) وكان هذا الحاكم مسلوب السلطة ، مشلول النفوذ في كل ناحية اللهم إلا جمع

(١) هكذا في الأصل . والصحيح كما في (ابن الأثير) مضى إلى مصر ومنها تقلد ولاية حلب وأقام في تلك الديار إلى أن توفي . (٢) وكذا في ابن الأثير . ولكن في ذيل تجارب الأمم - والزعفر أمير بني نمير (المترجم)

الضرائب وجباية الأموال ، حيث كان (ابن المسيب) قابضا على زمام الأمور ومهيمننا على كافة الشئون .

هذا وكان الملك (أبو علي) كريم الأخلاق سمحها وقد اشتهر بين الناس بالبشاشة واللفظ وإقامة العدل بينهم بالقسطاس المستقيم ، فأجبتة الرعية ؛ ومنحته ثقتها وأحاطت به إحاطة السوار بالمعصم . ما عدا أهالي (ميفارقين) الذين انفجروا ثأرين في وجهه وشقوا عليه وعلى رجاله عصا الطاعة ، فأطبق عليهم بجيشه صبيحة يوم العيد ، وكانوا مجتمعين خارج المدينة في (المصلى) فانتهم فرصة خلو المدينة منهم واقتحمها من أحد أبوابها بينما كان (أبو الصقر) أحد قواده قد اقتحم المدينة من الداخل ١٠هـ (الكامل ج — ٩ ص ٢٧)

وتقول دائرة المعارف الإسلامية ان (أبا علي) قد بسط حكمه ومد سلطانه حتى بلاد (أخلاط) و (ملازكرد) و (أرجيش) وحتى المناطق الضاربة في الشمال الشرقي لبحيرة (وان) ، كما امتد هذا السلطان غربا في وقت ما ، حتى (الرها) التي انتزعها في عام ٣٨١ للهجرة من بين برائن (باسيل الثاني) امبراطور الروم أثناء حروبه في بلاد الشام ، وظلت هذه المدينة خاضعة لحكمه ردحا من الزمن .

وفي عام ٣٨٧ (١) للهجرة عقد قران الملك أبي علي حسن علي ابنة سعد الدولة ابن سيف الدولة الحمداني حاكم حلب وكانت تدعى (ست الناس) وسار موكب زفافها من « حلب » إلى « ديار بكر » حيث تقام الأفراح والحفلات ، فأوجس أهالي « ديار بكر » خيفة من وراء هذه الزيجة ، وخشى زعيمهم « عبدالبر » طغيان المروانيين على نفوذه إذ ربما يفعلون بها مثلما فعلوا في ميفارقين فعمد

(١) ذكر (ابن الأثير) هذا البحث، ضمن وقائع عام ٣٨٠ في حين تذكره (دائرة المعارف الإسلامية) ضمن وقائع عام ٣٨٧ وتجعل وفاته أيضا في حوادث هذا العام . (المؤلف)

إلى تدبير مكيدة لاغتيال الملك المرواني حالما تطأ قدماه المدينة ، وعهد بذلك إلى شرير يدعى « ابن دمنة » الذى أودى بحياة الملك ، فساد الهرج والمرج (١) وأخذت جموع غفيرة من أتباع الملك والمرافقين له يتدفقون كالسيل الجارف شطر (ميفارقين) ، وكان بعض من دبروا هذه المؤامرة يبتغون من ورائها الوصول إلى الحكم واعتلاء الملك ، لولا أن محافظ المدينة قد فطن لما يضمرون فى أنفسهم فأفسد عليهم تدبيرهم ، فقد اتصل بالمسؤولين من رجال الدولة ، فقالوا له : إن كان الملك لا زال على قيد الحياة فليصعد إلى القلعة وإن كان قد لحق بالرفيق الأعلى فليخلفه من هو أحق بالملك وهو أخوه « ممهـد الدولة أبو منصور » الذى وصل إلى مقر الحكم على عجل ، واعتلى عرش أخيه

« أبو سعيد المنصور ممهـد الدولة »

كان أبو سعيد المنصور قد عاد إلى ميفارقين بعد وفاة الشاه « باذ » وظل حاكما عليها حتى لحق « أبو على » بالرفيق الأعلى : وعلى أثر اغتيال « ابن على الحسن » بميفارقين سارع إليها حيث نودى به ملكا على المملكة المروانية ... ويرى (أبو الفداء) أن حكمه قد امتد إلى عام ٤٠٢ للهجرة . وعلى كل فنحن نفتقر إلى معلومات شافية عن عهد هذا الملك ، اللهم إذا استثنينا ما أسعفنا به « الكامل » من نتف مبعثرة وموجزة عن آخر سنة من عهده . وكيف دالت دولته وتقوض عرشه إذ يقول :

(١) جاء فى الكامل أن (عبد البر) هذا - بعد ارتكاب هذه الجناية الشنيعة - عقد قران ابن دمنة على ابنته مكافأة له على ما ارتكبه من جرم ، غير أن هذا الصهر القاتل قد عمد بعد مدة إلى نسيبه المنحوس الذى كان يعمل ليله ونهاره للوصول إلى الحكم فاغتاله ، وصفا له الجو ردحا من الزمن فى (ديار بكر) حيث بنى بها لنفسه قصرا ، وحسن علاقاته مع (ممهـد الدولة) وسائر الحكومات المجاورة ، ودام حكمه فيها حتى عهد نصر الدولة . المؤلف

« كانت النقود تسك باسم أبي منصور محمد الدولة ، وتلقى الخطب على المنابر باسمه ، وكان له صديق يدعى « شروه بن مامه » حاكم البلدة . وكان لهذا الصديق غلام يتولى منصب رئيس الشرطة ، وكان محمد الدولة ينفر منه ويزدرية وهو غير راغب في بقائه بل كان يسعى جاهدا لاغتياله ، لولا أنه عاد فعدل عن سفك دمه إرضاء لسيده ومراعاة لحاطره . ولكن الغلام كان قد فطن لما دبر له ، وتبين ما يكنه الملك له من السخط والازدراء فأخذ يسعى ويبذر بذور الفساد بين الملك وسيده حتى عكر صفو العلاقات بينهما وأزال ما بينهما من ود وصفاء ، وظل يوغر صدر سيده ويستثير مكانه ضد الملك حتى صمم سيده على التخلص من الملك وكان أن أقام وليمة في قلعة (هتاغ = أتاغ (١) ، للملك أبي منصور ، وكانت هذه القلعة ضمن إقطاعاته .

وما كاد الملك أبو منصور تظاً قدماه أرض القلعة حتى فوجيء بجنود من السكرج من حامية القلعة ينطلقون من مكمنهم ويغتالونه في عام (٤٠٢) للهجرة وما أن تأكد (شروه) من نجاح مؤامراته الاجرامية حتى غادر القلعة على الفور ميمما شطر أبناء عم (محمد الدولة) وألقى القبض عليهم مدعياً بأن هذا الاجراء تنفيذ لأمر (محمد الدولة) ثم توجه إلى (ميا فارقين) وتقدم نحو أبوابها حسب الأصول المرعية والمتبعة في المواكب الملكية ويده المشاعل مما أدخل في روع حفاظ الأمن وحراس المدينة أن الملك قادم من رحلته ويقصد الصعود إلى القلعة ، ففتحت أمام موكبه الأبواب على مصاريعها ودخلها آمناً مطمئناً . ولما دانت له الأمور على هذه الصورة وتوطد مركزه كتب إلى

(١) هي قلعة الهتاخ التي يطلق عليها الآن (ايجه) بولاية (دياربكر) كما نص على ذلك المرحوم سعيد باشا الديار بكرى في كتابه مرآة العبر . باللغة التركية . المترجم .

محافظى القلاع الأخرى يدعوهم إلى طاعته ، وأوفد رجلا من رجاله إلى قلعة « أرزن = غرزان الحالية » طالبا إلى محافظها الأستاذ أبى القاسم المبادرة بالتسليم إلا أن أبى القاسم قد رفض التسليم باباء وشمم فنهض متوجها إلى (ميافارقين) ، وما أن بلغ به المسير منتصف الطريق حتى علم بخبر مقتل ممهد الدولة فعدل عن مواصلة السير ، وعاد أدراجه إلى (أرزن) حيث بعث على جناح السرعة بمن ينهب (أبى النصر بن مروان) أخا ممهد الدولة وحاكم قلعة (سعرد) بالخبر وكان أبو النصر هذا مبعدا بأمر أخيه لأنه كان يكنى له البغضاء ولا يوده (١) .

« الملك العادل نصر الدولة أحمد »

امتد حكم هذا الملك من عام ٤٠٢ حتى عام (٤٥٣) للهجرة . . . وقد اتفق المؤرخون على أنه كان ملكا يتحدث بعظمته الركبان وتضرب بعدله وحزمه الأمثال ، وبالاختصار فقد كان ، لا ككل ملوك بنى مروان بل كان أشهرهم بل ونسب وحده بينهم ، ولا غرو فقد اشتهر بلقب العادل .

يقول ابن الأثير ^(٢) : إن الخواجة (الأستاذ) أبى القاسم حاكم (أرزن) حينما أرسل إلى الأمير (أحمد) يعرض عليه الأمر فسأله كاتبه عما إذا كان فى مكتبته القيام بأعباء هذا المركز الخطير فأجاب الأمير بالإيجاب أى بنعم !! وحينذاك كان (شروه) قد جرد حملة على الأمير (أحمد) ، ولكن قبل أن تطرق هذه الحملة أبواب (سعرد) كان الأمير (أحمد) قد غادر إلى (أرزن) ، وهنالك علم (شروه) أن الموقف جد خطير .

(١) يقول الكامل (ج ٩ - ص ٢٨) ان سبب الجفاء بين الأخوين هو أن ممهد الدولة رأى فى المنام أنه يحتضن الشمس وأن أخاه أبى النصر قد هاجمه وانتزعها منه .

المؤلف

المترجم

(٢) أنظر ٥ فى (ص ٢٨ ج ٩) الطبعة المصرية

وتصادف وقتذاك أيضا أن (مروان) والد (محمد الدولة) كان مع إمرأته في (أرزن) وكانا جاثمين أمام قبر (أبي علي) ، فجاء الخواجة أبو القاسم بأبي النصر أحمد إليهما وطلب إليه على مرأى ومسمع من قاضي (أرزن) وآخرين : أن يقسم يمينا بالله العظيم بأنه سيحكم البلاد متوخيا العدل والقسطاس المستقيم ، وعلى أثر تأديته اليمين سلمت إليه مفاتيح قلعة (أرزن) . ثم تلا ذلك خضوع سائر البلدان والقلاع المروانية بديار بكر الواحدة تلو الأخرى وبعد أن دانت الأمور للملك ناصر الدولة داخل الحدود المروانية واستقرت له الأحوال وتوطد سلطانه وعم البلاد موجة من الرخاء وانتشر العدل بين أرجائها^(١) ، سعى إلى تقوية أواصر الروابط وتوثيق العلاقات مع البلدان المجاورة فأوفد عام (٤١٠) للهجرة الرسل والسفراء إلى القسطنطينية وبغداد ومصر .

ثم نادى يابنه الأمير (سليمان) وليا لعهد المملكة المروانية وعينه حاكما على جزيرة بوهتان (جزيرة ابن عمر) واختار مدينة (ميفارقين = سليوان) حاضرة لدولته ، وقد استن سنة حميدة ليشراف بنفسه على شئون رعاياه وهي زيارة المدن بين الفنية والفنية لهذا الغرض ، وكان يقضى في (ديار بكر) قرابة شهر كلما زارها ، كما أنه لم يبخل بزيارته الملكية على مدينتي (وان) و (أرجيش) وبقية مدن كردستان الأخرى .

(١) إلى أن قال ابن الأثير ، فدامت أيامه وأحسن السيرة وكان مقصداً للعلماء من سائر الآفاق وكثروا ببلاده. وممن قصده أبو عبد الله الكازروني وعنه انتشر مذهب الشافعي بديار بكر وقصده الشعراء وأكثروا مدحه وأجزل جوائزهم وبقي كذلك من سنة ٤٠٢ هـ إلى سنة ٤٥٣ هـ فتوفي فيها وكان عمره نيفا وثمانين سنة وكانت الثغور معه آمنة وسيرته في رعيته أحسن سيرة. فلما مات ملك بلاده، ولده. اهـ

المترجم

ولما سمع الخليفة العباسي القادر بالله ، نبأ هذا الملك الذي نشر لواء العدل بين رعيته وساس أمور دولته بحزم وعزم ، أكبر فيه هذه الصفات الفريدة وأنعم عليه بلقب (نصر الدولة) في عام ٤٠٨ للهجرة .

ولكن هذه العلاقات التي قامت على الود والإكبار بين الخليفة العباسي والملك المرواني ما لبثت أن ساءت وتعكر صفوها بسبب التجاء أبي القاسم المغربي إلى الملك (نصر الدولة) عام ٤١٥ للهجرة ووزراته له ، وظلت العلاقات بينهما متوترة حتى لقي أبو القاسم ربه عام ٤١٨ للهجرة عن عمر يناهز ستاً وأربعين بمدينة (ميفارقين) ، حيث عادت بينهما المياه إلى مجاريها ، فاستؤنفت العلاقات الودية وساد بينهما الصفاء والوئام ^(١) .

واستولى (نصر الدولة) على مدينة « الرها » عام (٤١٦) للهجرة ، وكان حاكم هذه المدينة وهو شيخ من نخير يدعى (عطير) وفيه شر وجمل وقد وكل شئون إدارتها إلى نائب عنه يدعى (أحمد بن محمد) فأحسن السيرة وبسط العدل بين ربوعها ، ولكن حدث أن قتل الشيخ (عطير) نائبه هذا بحجة سوء سيرته ، فاستاء الأهالي وأعلنوا سخطهم على الشيخ لاقدامه على ارتكاب هذا الجرم الشنيع ، واتصلوا سرا بالملك (نصر الدولة) طالبين إليه تعيين حاكم للمدينة من قبله ليحكمها بإسمه ، فلبى الملك نداءهم ، وبعث إليهم رجلاً من رجاله - كان نائباً عنه في (ديار بكر) - يدعى (زنك) . وما أن وصل هذا الحاكم الجديد إلى الرها حتى تسلم مقاليد أمورها بإسم الملك .

ولكن الشيخ (عطير) النخيري ما كان لينام ملء جفونه مستسلماً لمشئته أهل المدينة . بل سارع إلى تقديم ملتمس إلى نصر الدولة بوساطة الصالح ابن مرداس ، فقبل ناصر الدولة ملتمسه وأعاد إليه نصف مقاطعة (الرها)

(١) من الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٣ و ١٣٥ . المترجم

فسر الشيخ ويم شطر « ميفارقين » لتأدية واجب الشكر للملك وزيارته ،
وهناك أشار الوزراء على الملك بضرورة المبادرة بقتله والخلاص منه ،
ولكن الملك رفض الاستجابة لمشورتهم وعزف عن اغتياله ، فقال أتق
شره بالوفاء لا بالغدر ، فعاد الشيخ إلى « الرها » وعين فيها وكيلا عنه ، وحدث
أن أولم « زنك » ولمة دعاه إليها ، وفي طريق عودته من الوليمة ، تصدى له
ابن الوكيل السابق المقتول « أحمد بن محمد » وقتله ، مما أدى إلى نشوب حرب
بين بني نمير للاخذ بالثأر ، واضطرار « زنك » وكيل ناصر الدولة إلى الزحف
بجيشه والاشتباك معهم في معركة دامية لقي فيها « زنك » حتفه في أوائل سنة (٤١٨)
ومزقت صفوف قوته شر ممزق . وهكذا فقدت قلعة الرها وانقرض حكم
المروانيين فيها إذ عدل نصر الدولة نهائيا عن استردادها استجابة لرغبة وشفاعة
صالح بن مرداس (١) .

وفي عام (٤١٩) للهجرة زحف « بدران بن مقلد » العقيلي على رأس جيش
ضخم كامل العتاد للاستيلاء على « نصيبين » فانبرت له حاميتها من جنود
« نصر الدولة » ورغم أنها أبلت بلاءا حسنا واستماتت في الدفاع عن المدينة
لكنها لم تستطع الصمود أمام جهافل جيش العدو المغير وسرعان ما حاق
بها فشل ذريع ، فبعث (نصر الدولة) بمدد جديد ولكن دون جدوى إذ كانت
الغلبة لقوات « بدران » الحاشدة ، ولما علم « نصر الدولة » بنبا اندحار المدد
الجديد تملكه الغضب وبعث للمرة الثالثة بنجدة هائلة قوامها ثلاثة آلاف من
الفرسان انضمت إلى صفوف المدافعين عن المدينة وقام الجميع بشن هجوم
عنيف مضاد على قوات « بدران » حتى أخذت تتضاءل وتنكمش أمامهم

(١) - تقول (دائرة المعارف الاسلامية) على خلاف (ابن الاثير) في
الكامل ص ١٣٠ : ان ناصر الدولة استولى على الرها من البيزنطيين . المؤلف

وأخيرا ألحقوا بها هزيمة منكرة . وأخذوا يتعقبون فلولها ويطاردونهم حتى أبعدهم وبذلك حازوا نصرا مبينا وأنقذوا القلعة بعد أن كان وقوعها قد أضحي قاب قوسين أو أدنى في يد العدو .

ولسكن العدو العنيد لم يستسلم لما حاق به من هزيمة وما لحق به من خذلان فقد انتهز فرصة انشغال قوات « نصر الدولة » في السلب والنهب وأعاد الكرة وانقض على القلعة بهجوم عنيف وألحق بقوات (نصر الدولة) هزيمة شنعاء وطاردها حتى أبواب « نصيين » ، وحينذاك بلغه أن أخاه « قرواش » زاحف للاغارة على الموصل ، فاضطر مرغما إلى مغادرة (نصيين) على جناح السرعة لما كان بينه وبين أخيه من جفاء ونفور

ولم يمض طويل وقت حتى تبدد هذا الجفاء وساد الصفاء والوثام بين (بدران) وأخيه (قرواش) حاكم الموصل ، في حين كانت العلاقات قد توترت بل وساءت جدا بين (نصر الدولة) و (قرواش) ، لأن العلاقة الزوجية بين نصر الدولة وزوجته وهي ابنة (قرواش) لم تكن على ما يرام ، مما أدى إلى إعادتها إلى أبيها في الموصل فاتخذ (قرواش) من هذا دعامة يتكئ عليها لمطالبة نصر الدولة بمهر ابنته البالغ عشرين ألف دينار ، وبقلعة (نصيين) لأخيه (بدران) وبقلعة (جزيرة ابن عمر) مقابل نفقة لابنته . ولسكن نصر الدولة لم يعر هذه المطالب التفاتا ، مما أدى إلى استئطاة (قرواش) غضبا وتصميمه الاستيلاء بالقوة على ما فشل في الحصول عليه عن طريق السياسة والملاينة ، ووجه بالفعل جيشا للاستيلاء على الجزيرة ، كما بعث بآخر يقوده أخوه (بدران) إلى نصيين فحاصرها ، ولسكن الفشل كان حليف الجيشين ، والخذلان المبين رائدهما ، مما دفع (بدران) إلى الذهاب إلى (ميفارقين) حيث التمس من نصر الدولة منحه (نصيين) فاستجاب نصر الدولة الرغبة وأجاب طلبته حسما للنزاع وحقنا للدماء ، فأعطاه (نصيين) ، كما بعث بخمسة عشر ألف دينار إلى

(قرواش) مهرا لابتته ، وهكذا زالت أسباب الجفاء وتلاشت العوامل المحركة للقتال وسفك الدماء . وفي عام (٤٢٢) للهجرة كان يحكم مدينة (الرها) كل من (ابن عطير) و (ابن شبل) مناصفة ، فباع (ابن عطير) نصيبه لملك الروم مما أدى إلى زحف الجيش الرومي واحتلاله المدينة بأكملها وقتل الكثيرين من مسلمي المدينة . ولما سمع (نصر الدولة) بهذه الأنباء وجه جيشا إلى (الرها) وضرب عليها حصارا شديدا ، وأخذ يضيق الخناق على الروم ويسدد اليهم ضرباته القاصمة حتى ألبسهم هزيمة منكرة . ودخل المدينة وطهرها من أشلائهم وأنفذاها من وبائهم المستطير . وليكن الروم أبوا السكوت على هذه الهزيمة فعادوا بعد قليل وشنوا هجوما عنيفا على المدينة وتمكنوا من استردادها .

وفي عام (٤٢٦) للهجرة حشد (ابن الوثاب النخعي) جيشا كثيفا من العرب ومن غيرهم مستنجدا بأروام الرها أيضا وزحف به على المملكة المروانية ، ، ، وكان « نصر الدولة » قد استعد للقائه على رأس جيش عرمرم تشد أزره نجادات أخرى تقاطرت عليه من الأطراف ، ، ، وما أن علم « ابن الوثاب » نبأ ما أعده (نصر الدولة) من استعدادات هائلة وقوات عاتية حتى تملكه الرعب وخشى سوء المصير فاقتصر الطريق عائدا القهقري دون قتال . أما نصر الدولة فقد كتب إلى ملك الروم بوجه إليه اللوم ويعتب عليه نقضه لمعاهدة الصلح والصدقة المبرمة بينهما . ثم هددته بمحاصرة الرها ، . ورد عليه ملك الروم معتذرا عما حدث قائلا إنه حدث دون عليه ، وأمطره بوابل من الهدايا لإظهارا وتوكيدا للصدقة التي بينهما ، ، ، فقبل (نصر الدولة) هذا الاعتذار واعتبر ما حدث كأنه لم يكن ، وفي رجب عام (٤٢٧) للهجرة أرسل (نصر الدولة) جيشا على (السويداء (١)) بقياده أحد قواده لمساعدة ابن عطير وابن الوثاب ، فاستولى

(١) الظاهر أن (السويداء) هذه هي قلعة (سورك = سيورك) الحالية بين آمد والرها ، سميت بهذا الاسم باللغة المحلية الكردية لأن لون أراضيها أحمر حمرة تضرب إلى السواد بخلاف الرها التي لون أرضها أبيض المترجم

عليها ، ثم واصل الجيش زحفه وضرب حصارا شديدا حول مدينة ، الرها ، فسارع ملك الروم بارسال نجدة لإنقاذ المدينة والدفاع عنها ولكن الجيش الرومي قد منى بفشل ذريع ، وولى مدحورا مخذولا . ، واقتحم ابن الوثاب والقائد المرواني المدينة وقبضا على زمام الحكم فيها (١) . وفي عام ٤٣٢ هـ (٢) أغار الغز — الذين أغرقوا منذ سنوات بلاد إيران المركزية وبلاد ذريجان في بحار من الدماء وأعملوا فيها السلب والنهب — على البلاد الكردية وأقليم كردستان ؛ فهرعت العشائر الهذبانية عن بكرة أبيها لمقاومة الغز واستنصال شأقتهم ولكن رغم دفاعهم المجيد واستماتتهم في القتال ، أفلح المغيرون في التقدم بخطى واسعة والتوغل في داخلية البلاد والانتشار في شرايينها . وتوجه فريق من الغز — كان في (أرمية) — شطر البلاد الحكارية ، واشتبك رجال هذا الفريق في قتال عنيف مع أكراد تلك الناحية ، وكان هؤلاء الغز مجبولين على الوحشية والغلظة والقسوة فاستحلوا لأنفسهم قتل النساء وسفك دم الأطفال الأبرياء ، مما أفضى إلى اعتصام الكرد بين شعاب جبالهم الشاخنة وبين ثنايا وهادهم السحيقة ، والترصد لعدوهم في المضايق والمعابر حتى تمكنوا منه وقتكوا برجاله فتكا ذريعا وقتلوا منهم ألفا وخمسمائة وقعوا صرعى في حومة الوغى يتخبطون في دماهم وأسرؤا منهم كثيرين من بينهم سبعة من القواد ومائة من الزعماء ، واستولوا على غنائم وأسلاب تجل عن الوصف ولا حصر لها ولا عد ، فضلا عما تركوه من أسلحة ومهمات . أما أولئك الذين تبقوا منهم على قيد الحياة فقد تفرقوا شذر مذر بين الوهاد وحنايا الجبال .

(٢) راجع ابن الاثير (ص ١٦٧ ج ٩) وفيها ذكر غدر السناسنة وأخذ الحاج واعادة ما أخذوه ، بفضل (نصر الدولة) الذي عزم على محاربة الارمن عموما والسناسنة خصوصا . (٢) انظر ص ١٤٤ المترجم

وفي نفس هذا العام زحف (ابراهيم ينال) - أخو السلطان طغرل - صوب (الرى) فأوجس الغز الضاربون في تلك البقاع منه خيفة وتركوا الرى وبلاد الجبل وتوجهوا عام ٤٢٣ للهجرة شطر بلاد (ديار بكر) و (الموصل) وفي الطريق اليهما ارتكبوا الكثير من أعمال العنف والتدمير والتقتيل ، وأخيرا وصلوا عن طريق الزوزان إلى (جزيرة ابن عمر) . وتوجه فريق الغز الذي كان بقيادة (بوقا) و (ناصغلي) وبعض زعمائهم إلى (ديار بكر) ونهبوا (قردى) و (بازبدا) و (الحسينية) و (فيشخابور = فيشاپور) ودمروا هذه البلاد تدميرا ، أما أولئك الغز الذين كانوا في شرق الجزيرة تحت قيادة (منصور بن غزغلي) فقد كتب اليهم (الأمير سليمان أبو الحرب) ابن ناصر الدولة يعرض عليهم الصلح على أن يظلوا في أماكنهم حتى يقبل الربيع على أن يرحلوا بعد ذلك إلى الشام (١) ، فقبل قائدهم (منصور بن غزغلي) هذا العرض وأبدى موافقته على عقد الصلح . وبعد مدة اولى « أبو الحرب » ولىمة دعا إليها هذا القائد ، وما أن حضرها حتى ألقى عليه القبض ، وبذلك تمكن من تشتيت شمل جيش الغز وتمزيق صفوفهم وقطع دابرهم . إذ كان القبض على قائدهم صدمة عنيفة وطعنة نجلاء صوبت إلى نحورهم وقصمت ظهورهم . ثم وجه كل من (قرواش) حاكم الموصل والملك (ناصر الدولة) وكذا الأكراد البشنوبة اصحاب قلعة (فك) قوات عسكرية عاتية طاردت الغز وألحقت في مضايقتهم حتى فروا تاركين وراءهم جميع أثقالهم وما كانوا يمتلكون من الأموال والدواب غنيمة باردة ، وقتل منهم كثيرون . وفي هذه الأثناء عاد فريق من الغز - الذين كانوا قد أغاروا على أطراف (نصيبين) و (سنجار) بغية النهب والسلب - إلى الجزيرة وحاصروها ولكنهم سرعان ما رفعوا عنها الحصار متجهين صوب (ديار بكر) حيث خربوا البلاد وسلبوا العباد .

(١) انظر ص ١٤٥ - ج من ابن الأثير . المترجم

وبعد ذلك أطلق (نصر الدولة) سراح قائد الغز (منصور بن غزغلي) -
الذي كان أسيرا لدى ابنه الأمير (أبي الحرب سليمان) على شريطة أن يجلو
هو وجميع الغز عن البلاد المروانية، وزوده بحفنة من المال،، ولكن رغم
ذلك لم يحجم هؤلاء القوم المخربون عن السلب والنهب وتدمير البلاد حين
جلوا عنها، فدمروا أطراف (سنجار) و (نصيبين) تدميرا. وكان فريق
آخر من الغز قد أغار على (الموصل) واحتلها واكثر فيها القتل والفساد.
وقد كتب الملك (ناصر الدولة احمد) كتابا بعث به إلى السلطان (طغرل)
يضع فيه بالشكوى (١)، ويندد بما ارتكبه الغز في البلاد من فظائع وأعمال
وحشية وبربرية. وفي عام (٤٣٩) للهجرة ظهر «الأصفر التغلي» في أطراف
(رأس عين) وادعى أنه من المذكورين في الكتب واستغوى قوما بمخاريق
وضعها وجمع جموعا زاخرة، وبدأ يشن الغارات على أطراف بلاد الروم
بغية السلب والنهب والتدمير، ولكن «ناصر الدولة» لم يمهله بل سارع بالقاء
القبض عليه وزج به في أعماق السجن... (٢) وفي عام (٤٤٠) للهجرة ساءت
العلاقات بين عشيرتي الحميدية والهذبانية الكرديتين من جهة وبين (قرواش)
واخيه من جهة أخرى واشتد بينهما النضال، وأوغلا في الخصام، الذي يروى
لنا «الكامل» (٣) سببه فيما يلي :- «كان على مقربة من الموصل عدة قلاع
للاكراد الهموذية (الحميدية) مثل (عقره = اكر)، وكان زعيمهم يدعى
(أبو الحسن بن العيسكاني الهموذي)، وكان زعيم العشيرة الهذبانية يدعى
(أبو الحسن بن موسك) صاحب قلعة هولير «اريل» وأطرافها، وكان لحاكم

(١) ابن الأثير (ص ١٤٦) وفيها ان الغز هم التركمان عبيد وأتباع السلاجوق

(٢) انظر ابن الأثير ص ٢٠١ ج ٩ -

(٣) ص ٢٠٤ ج ٩ -

« ارييل » هذا ، أخ يدعى « أبو علي بن موسك » يناوىء أخاه ، فساعده أبو الحسن العيسكاني على أخيه لانتزاع « ارييل » منه ، واستولى عليها فعلا ، وقبض على أخيه « أبي الحسن » .. ثم جاء « قرواش » حاكم الموصل وطلب إلى كل من أبي الحسن العيسكاني وأبي علي الهذباني أن يعاوناه في الزحف على « ناصر الدولة » فلبى « أبو الحسن بن عيسكان » الحميدى الدعوة بنفسه في حين أوفد (أبو علي الهذباني) أخاه وقد صادف ذلك وقت تحسن العلاقات بين ناصر الدولة وقرواش وعودة المياه إلى مجاريها .

وفي عام (٤٤١) للهجرة نشبت الخصومة بين (معتمد الدولة أبي المنيع قرواش بن المقلد العقيلي المتوفى سنة ٤٤٤ بالموصل) وبين أخيه (زعيم الدولة أبي كامل بركة بن المقلد المتوفى سنة ٤٤٣ بتكريت) فأوعز قرواش إلى ابن أخيهما (قریش بن بدران بن المقلد) أن يشن هجوما عنيفا على أبي كامل ، فأطبق عليه وقهره ، مما أدى إلى التجاء « أبي كامل » إلى رحاب (أبي الحرب سليمان) ابن نصر الدولة ، المرواني ، فأصدر (نصر الدولة) أوامره إلى ابنه (أبي الحرب) أن يشنها حربا عوانا لاهوادة فيها على (قرواش) انتقاما منه ، كما كتب في هذا المعنى إلى الأمير أبي الحسن العيسكاني ، وسرعان ما زحف الجيشان صوب (الموصل) ، فتصدى لهما (قرواش) على رأس جيشه على مقربة من المدينة ، واشتبك الفريقان في معركة دامية أسفرت عن اندحار ذريع وخذلان مبين لجيش (قرواش) ووقوع قرواش نفسه أسيرا في قبضة (أبي الحرب) الذي سلمه بدوره لأخيه (زعيم الدولة أبي كامل)

ولكن (أبا كامل) الذي استفز الجيوش وحركها ضد أخيه عاد وتملكه الخوف وسرى في أوصاله الرعب من تفاقم قوة السكرد ، وازدياد نفوذهم ، وخشى ضياع (الموصل) من أسرته ، فأطلق سراح أخيه (قرواش) وبعث إلى (الموصل) . وكان لهذا التصرف أسوأ الأثر في نفس (أبي الحرب) فعاد

إلى بلده ناثرا غاضبا (١)، وفي نفس هذا العام (٤٤١هـ) طلب السلطان (طغرل) إلى الملك (ناصر الدولة) أن يأمر بذكر اسمه في الخطب التي تليق على المنابر في أنحاء مملكته فاستجاب لطلبته وأمر بتنفيذ رغبته (٢).

وفي نفس هذا العام أيضا طلب ملك الروم إلى الملك ناصر الدولة أن يبذل وساطته لدى السلطان (طغرل) ليطلق سراح ملك (انجاس)، فعهد ناصر الدولة بهذه المهمة إلى شيخ الإسلام أبي عبد الله بن المرواني وأوفده إلى السلطان طغرل لهذا الغرض، ليعمل على تحقيق رجاء ملك الروم... فما كان من السلطان طغرل إلا أن أطلق سراح هذا الملك الأسير على الفور ومن غير فدية مرضاة لناصر الدولة ومراعاة لحاظه، فارتفع بذلك قدر ناصر الدولة، وعلا شأنه وأمطره ملك الروم بفيض من الهدايا القيمة..

(١) يقول الكامل في هذا الصدد ما خلاصته: نشب خصام بين (قرواش) وأخيه (أبي كامل) فجرد كل منهما جيشا على الآخر، وفي هذه الأثناء جاء كل من الأمير سليمان بن نصر الدولة وأبي الحسن العيسكاني الحميدي وبعض عشائر كردية أخرى نجدة لقرواش وساروا إلى بلدة «معلثايا» ودمروها، ثم واصلوا الزحف إلى «المغيثة» ونزلوا بها، وزحف أبو كامل بحمسه العربي مع ابن المسيب إلى مرج «باننيا» - له باب نينوى - وبعديومين من بدء القتال بين الجيشين انضم الأمير سليمان وغيره من قواد الكرد بجيوشهم وكذلك انحاز فريق من العرب في جيش قرواش إلى صفوف أبي كامل مما أدى إلى ضعف قرواش فكاد يستسلم لولا أن أمراء الجيش العربي قد تآمروا إلى أبي كامل بطلبات تعذر عليه الاستجابة لها، فأسرع بنفسه إلى أخيه - خوفا من أن يغدروا به لاستحاله تنفيذ مطالبهم وينضموا إلى صفوف قرواش وقدم لأخيه المعذرة وطلب منه العفو عما بدر منه... وهكذا تبدد الخصام وساد بين الأخوين الصفاء والوئام. (ج ٩ ص ٢٠٦) المؤلف (٢) هذه الفقرة وما بعدها من طلب الوساطة غير موجدة في ابن الأثير. المترجم

وليبلغ في أرضائه أمر بفتح جامع القسطنطينية على مصر اعيه كما أمر بتجديده .
وفي عام (٤٤٦) للهجرة زحف السلطان طغرل على رأس جيش عرمرم
صوب (ملاذ كرد = ملاذ جرد) وكانت خاضعة لسلطان الروم . وضرب
عليها الحصار ، وبهذه المناسبة بعث إليه نصر الدولة بجيش يشدد أزره ،
وبفيض من الهدايا القيمة (١)

وأثناء اشتباك السلطان طغرل مع الروم ، ساءت العلاقات وتوترت بين
الأمير (أبو حرب سليمان بن نصر الدولة) الذي كان حاكما من قبل والده على
الجزيرة ، وبين الأمير (موسك بن المجلى) زعيم الأكراد البختية وصاحب
بعض القلاع المنيعه الواقعة شرقي الجزيرة ، واستحكم بينهما الخلاف وأوغلا
في العداء ، إلا أن (أبا حرب) رغم أصراره بينه وبين نفسه على الخلاص منه
قد تظاهر برغبته في إزالة الجفاء وتصفية ما بينهما من عداو وخلاف ، فوقع
الأمير (موسك) في حباله وعقد معه صلحا ، ولكي يبعث أبو الحرب
الطمأنينة في قلبه سعى في زواجه من ابنة الأمير (أبي طاهر البشنوى) صاحب
قلعة (فنك) وابن أخت (نصر الدولة) ، فوافق أبو طاهر على هذه الزيجة
مراضاة لابن خاله ، وزفت العروس إلى الأمير (موسك) في حفل رائع مهيب
وهكذا ظن الأمير أنه قد أمن جانب عدوه (أبي حرب) وأقبل عليه ، غير
أن أبا حرب قد أبى إلا إظهار ما أبطن وأضمر ، فألقى القبض على (موسك)
وزج به في أعماق السجن ..

(١) ورد في ابن الأثير (٩ — ج ص ٢٢٣) في هذه السنة سار (طغرل بك)
إلى آذربيجان فقصده تبريز وصاحبها الأمير (أبو منصور) وهو ذو النور محمد
الروادى (فأطاعه وخطب له وحمل إليه ما أرضاه وأعطاه ولده رهينة فسار
طغرل بك عنه إلى الأمير (أبي الأسوار صاحب جنزة) فأطاعه أيضا وكذا غيرها
فأبقى بلادهم عليهم وسار إلى أرمينية وقصد ملاز كرد . إلى أن قال فأرسل
إليه نصر الدولة الهدايا والعساكر وقد كان خطب له قبل هذا وأطاعه (المترجم)

وما أن ترمى هذا النبأ إلى مسامع السلطان (طغرل) في ميدان القتال حتى بعث بخطاب إلى (نصر الدولة) يشفع في الأمير (موسك) يرجوه فك إيساره، ولكن السيف قد سبق العذل إذ أظهر نصر الدولة أن الأمير الأسير قد توفي. فشق ذلك على أبي طاهر وطار لبه من هول الفاجعة ، وثارت ثأرته وتملكه الغضب ولم يخف استيائه من ناصر الدولة وولده الأمير أبي حرب سليمان وأرسل إليهما كتابا يقول فيه : « بما أنكما كنتما راغبين في مقتل الأمير (موسك) ! لماذا اتخذتما من كريمي تكاة ووسيلة لتحقيق مأربكما . فألحقنا بالعار والشنار ، ؟؟

وقد أوقع هذا العتب المرير الصارم الأمير أبا حرب سليمان في حيص وبيص بل وأقض مضجعه وأقلق باله . وما هداً روعه ، إلا بعد أن دس لأبي طاهر السم الزعاف ففضى عليه وألحقه بزوج كريمته . وخلف (أبا طاهر) ابنه (عبيد الله) ، فأظهر الأمير سليمان نحو هذا الأمير الشاب الكثير من علائم الود وسابغ العطف ، وأخذ يهد للوفاق والوئام وإعادة المياه إلى مجاريها حتى تقرر عقدا اجتماع بينهما في مكان ما بين قلعتي (فنك) و (الجزيرة) وما أن التأم عقد هذا الاجتماع حتى نهض الأمير عبيد الله وفاجأ الأمير أبا حرب سليمان بضربة قاضية اردته قتيلا .

وعلى أثر تلك الحادثة المفجعة والنسكة القاصمة، عين (نصر الدولة) ابنه الأمير (نصرا) حاكما على الجزيرة وزوده بجيش ضخم كامل العتاد والعدد ليأخذ بثأر أخيه ، وفي هذه الأثناء كان الأمير (قریش بن بدران) حاكم الموصل قد اغتتم الفرصة وزحف على رأس جيشه صوب الجزيرة ، ولكي يضمن الاستيلاء عليها كاتب البختية والبشوية ، وأبرم معهما اتفاقا وبذلك وقف الجميع جبهة متراسة في وجه الأمير (نصر) وقطعوا عليه الطريق إلى الجزيرة مما اضطره إلى أن يخوض معهم غمار حرب طاحنة وقع فيها الكثيرون

من الفريقين صرعى فى ساحة الوغى يتخبطون فى دمائهم، وأسفرت فى النهاية عن نصر مبين ومؤزر للامير نصر المروانى، وهزيمة منكرة لجيش (قريش) وحلفائه، ثم عاد (قريش) مشخن الجراح إلى (الموصل) عام ٤٤٧ للهجرة (١) وهكذا أدت سياسة (أبى الحرب) الخاطئة الخرقاء، وسوء تدبيره، وقصر نظره إلى هذه الحوادث الدامية والأعمال المهينة التى أفضت إلى بذور الشقاق والخصام فى البلاد. وتمزيق أوصالها مما أفضى إلى خروج البشوية والبختية الأكراد عليه ومما ألتهم الطامعين فى البلاد من الأجانب، ولم يعمر (ناصر الدولة أحمد) بعد ذلك طويلا بل وافاه الأجل المحتوم ولحق بالرفيق الأعلى فى عام ٤٥٢ (٢) للهجرة عن أكثر من ثمانين عام حكم منها اثنين وخمسين عاما... وكان يحمل لقب (نصر الدولة) الذى انعم به عليه الخليفة العباسى (القادر بالله).

هذا وكانت المملكة المروانية فى عهده تسودها الطمأنينة وترفل فى حلل من الرخاء وكان العدل مبسوطا بين ربوعها والأمن مستتباً فى أنحائها، وانتشرت العلوم كما ازدهرت الفنون، مما هيا لها مكانا عليا، وشأنا رفيعا بين الممالك الإسلامية، وقد تمتع هذا الملك بأبهى مظاهر الملك ومقتضياته وشرب كأس السعادة حتى ثمالتها إلى غير ذلك مما لم يتسن لملك غيره وقتذاك، وكان قصره يعج بالعدد الوفير من الجوارى الحسان والسرارى، بين مغنيات ومطربات يفوق عددهن الخمسمائة جارية. وكانت الأدوات التى تستخدم فى مجلس طربه تقدر بأكثر من مائة ألف دينار. وكان مطبخه يضم بين جدرانها الكثيرين من مشاهير وأمهـر الطهاة الذين أرسل ببعضهم خصيصا إلى مصر لتعلم فن طهى

المترجم

(١) الكامل (ص ٢٢٦ ج ٩ -)

(٢) فى ابن الأثير سنة ٤٥٣ هـ (ص ٦ ح - ١٠)

بعض أصناف الطعام وإجادة طيها . وكان حرمه الملكي يضم الكثيرات من بنات الملوك والأمراء . وكان يمتلك جوهرة نادرة المثال كانت تسمى (جبل الياقوت) كان قد اشتراها من الملك العزيز أبي منصور جلال الدولة البويهى (١) ثم قدمها أخيراً هدية للسلطان (طغرل) . وكان من وزرائه أبو (القاسم المغربي) و (فخر الدولة) ابن جهير . ويقول الكامل : إن عهده كان عهداً زاهراً شهدت البلاد على يديه نهضة شاملة رائعة عمت جميع المرافق ، وبرز الكثيرون من العلماء والشعراء والفضلاء ، (ج ١٠ ص ٦ و ٧)

ويقول تاريخ الأمم الإسلامية : إن قصر (نصر الدولة) كان كعبة أهل العلم وذوى الفضل فيه يجتمع شملهم ويحجون إليه من كل صوب وحذب ، ومن بين هؤلاء العلماء المشاهير (أبو عبد الله الكازرونى) العالم الشافعى الذائع الصيت والذي انتشر بفضله ومجهوراته المذهب الشافعى فى البلاد السكرية .. وكان ناصر الدولة يبالغ فى إكرام الشعراء والعلماء والأدباء ويغدق عليهم من نعمه ومن فيض كرمه وماله ، وكان دمث الخلق ، عالى الهمة ، كريم النفس سمحها . (ج ٣٠ ص ٤٥٠)

وتقول دائرة المعارف الإسلامية انه كان يدعى بأبى ناصر العادل ، خدم البلاد خدمة عظيمة فأحبته الرعية حبا جما .

وقصارى القول ان لهذا الملك الهمام أياذى بيضاء على البلاد: فمن نشر المعارف والعلوم إلى نهضة عمرانية شاملة ، إلى إنشاء القلاع والمستشفيات

(١) الملك العزيز هذا هو ابن جلال الدولة بن بهاء الدولة البويهى ، نودى به ملكاً على بغداد عام (٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م) وأثناء حربه مع الملك أبى كاليبجار التجأ إلى رحاب (نصر الدولة) وبقي فى (ميفارقين) حتى وفاته حيث دفن بها . (تاريخ الموصل ص ١٢٢) . المؤلف

والحمامات والمساجد والمكاتب في (ميفارقين) إلى توصيل المياه إلى داخل
شرايين المدينة ، إلى إنشاء الحدائق الغناء بين أرجائها يؤمها الأهليون دون
ما تميز أو فارق ، كما خاف في المدن الأخرى آثارا كثيرة تدل عليه ، ومن
آثاره الخالدة كذلك تلك المدينة التي كانت تدعى (الناصرية) على أربعة
فراسخ من ميفارقين .

« قاسم أبو ناصر » (١)

تولى الملك بعد وفاة والده ، بفضل الوزير (فخر الدولة) وتعضيده إياه
واستمر يحكم البلاد من عام (٤٥٣) حتى عام (٤٧٢) للهجرة ، وقد صادفته في أول
عهده عقبة كأداء ولكنه سرعان ما تغلب عليها ، ألا وهي مناوأة أخيه الأمير
سعيد بن نصر الدولة له . وقد توفي سنة (٤٥٥ هـ) - وشقه عليه عصا الطاعة وإعلانه
العصيان مما أدى إلى تأجج نيران حروب داخلية . ففرت عن تغلبه على أخيه
وتحطيم راية عصيانه ، وبهذا دانت له الأمور وذهلت العقبات ، ومرضاة لأخيه
المغلوب أعطاه قلعة (آمد = ديار بكر) .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية انه ضم إلى بلاده في عام ٤٥٧ للهجرة
كلا من بلدتي (حران) و (السويداء = سورك) ، وقد نال من مقام الخلافة
لقب نظام الدولة .

(١) ورد في وفيات الأعيان هكذا (أبو القاسم نظام الدين نصر) ج ١
ص ٥٧ - المؤلف [والصحيح كما في ابن الأثير أيضا (نصر) لا (أبو ناصر)
اه من ابن الأثير ج - ١٩ ص ٧ و ١١ .
المترجم

« منصور »

هو ابن الأمير سعيد (١) ، وقد تولى حكم جميع البلاد المروانية بعد والده وعمه وأخضعها كلها لحكمه المباشر وقد ورد في رواية أنه خطب في بلاده باسمه وباسم الخليفة الفاطمي بمصر على المنابر ، مما أدى إلى استياء الخليفة العباسي وغضبه عليه لأن ذلك قد أثار حفيظته .

وفي عام ٤٧٦ (٢) للهجرة أقطع ملكشاه السلاجوقي بلاد (ديار بكر) (لفخر الدولة ابن جهير) الذي كان وزيراً سابقاً للملك (نصر الدولة أحمد) وزوده بقوة عسكرية كبيرة زحف على رأسها إلى (ديار بكر = آمد) فاضطر « المنصور » إلى طلب النجدة والمعونة من جيرانه الأمراء فلبوا نداءه وخف إلى نجدة (شرف الدولة مسلم بن قريش) حاكم الموصل بجيش لجب ، فلما رأى فخر الدولة التضامن بين خصومه ووقوفهم جهة متحدة للأجهزة عليه وما معه من قوة ، مال إلى الصلح ، لأنه كان كارها للاشتباك في حرب بني قومه ، واسكن الجنود الترك قد فطنوا لما تنطوى عليه سريرته ، فبدأوا القتال ليلاً ، تحت جناح الظلام بعد أن تسكتموا أسرار هجومهم وأخذوا جيش الموصل على غرة فقتلوا من رجاله الكثيرين واغتنموا منه غنائم وأسلاب كثيرة وأموالاً طائلة ، وانسحب (شرف الدولة) من الميدان بعد جهد جهيد ، وبكل صعوبة سار إلى (ديار بكر = آمد) فليحق به فخر الدولة على رأس جيشه وحاصر المدينة ، وتمكن شرف الدولة من انقاذ نفسه بفضل وساطة القائد التركي (أرتق بن أكسب) . وكان ذلك في سنة (٤٧٧ هـ)

(١) ورد في وفيات الأعيان (٢ ص ٦٦) في سيرة (فخر الدولة أبي نصر محمد بن جهير الموصلى التغلبي) أن ناصر الدولة أبا المظفر منصوراً هذا ، هو ابن نظام الدين أبي القاسم نصر . وهذا هو الصحيح

(٢) أنظر ابن الأثير ج ١٠ ص ٤٧ و ص ٥٢ و ٥٣ المترجم

أما فخر الدولة فقد ترك (آمد) محاصرة وتوجه شطر (ميفارقين) وأسعفه (ملكشاه) بنجدة فاستطاع الاستيلاء عليها ، ثم عاد ثانية إلى (آمد) عام (٤٧٨) للهجرة حيث كانت حاميتها قد تملكها اليأس وضعفت روحها المعنوية وسئمت الحرب ودبت روح الثورة والانتفاض بين الأهالي فثاروا في وجه رجال الحكم والادارة ، وكان معظمهم من النصارى ، اذ كان بنو مروان يقربونهم ويساؤون بينهم وبين المسلمين في توزيع المناصب والعدل ، وهكذا وقعت (آمد) في قبضة « فخر الدولة بن جهير » بسهولة حيث أخذها من ناصر الدولة ابى المظفر منصور بن نظام الدين سنة (٤٧٩ هـ) . أما الملك « المنصور » فقد تمكن من الوصول إلى الجزيرة وهناك استقر به المقام ، واستولى على بضعة قلاع بها وبالبلاد البختية . ولكن فخر الدولة بن جهير (١) الذى انغمس في نعيم المرانين وعاش سعيدا في كنفهم قد تنكر لهم وأبى أن يترك الفرصة تسنح والمجد يعود ويتلا لا آخر ملك من ملوكهم ، فجهز جيشا كبيرا هاجم به الجزيرة وحاصرها ، وكان بالمدينة أسرة غنية قديمة وهى أسرة (بنو وهبان) وكان لهذه الأسرة باب خاص فى القلعة يدعى باب (البويه) يسمح بمرور رجل واحد راجلا ، وكانوا يمرّون منه إلى خارج المدينة . فكسر بنو وهبان وحطموه وبذلك استطاع فخر الدولة هو وجنوده اقتحام المدينة والتسلل إليها من هذه الثغرة ، وهكذا تم له فتح المدينة وألقى القبض على الملك المنصور التحس آخر الملوك المروانيين فدالت دولته وأسدل الستار على حكمه .

(ابن الأثير (١٠ ص ٥٣) — أبو الفداء)

(١) كان فخر الدولة بن جهير وزيرا لدى (قريش بن بدران) فأوفده سفيراً من قبله إلى ملك الروم وتصادف أن (ناصر الدولة أحمد المروانى) كان قد أوفد فى هذا الوقت نفسه سفيراً إلى ملك الروم فاجتمع السفيران فى بلاط ملك الروم ، فأراد (ابن جهير) أن يتقدم سفير ناصر الدولة فى مقابلة ملك الروم =

الفصل السادس

٦ - حكومة بني عنان^(١) في حلوان (٣٨٠ - ٥١٠ هـ)

أول من وضع أساس هذه الحكومة الكردية ، ودعم أركانها هو الأمير (أبر الفتح محمد بن عنان) أمير أكراد (الشاذنجان) ، وكان ذلك في عام (٥٣٨١ هـ)

== فرفض سفير ناصر الدولة ، ولما عاد ابن جهير إلى قريش بن بدران هم بالقاء القبض عليه وحبس ، ولكنه نجح وتمكن من الوصول إلى حلب ، ووزر لمعز الدولة أبي ثمال بن صالح ، ثم غادرها إلى ملطية ومنها التجأ إلى (ناصر الدولة) الذي سأله عن السبب فيما أقدم عليه من محاولته التقدم على سفيره لدى ملك الروم فأجابه بأنه قام بذلك تنفيذا لأمر سيده ، فسر (ناصر الدولة) من هذا الجواب السيد واتخذ وزيراً له . وبعد وفاة (ناصر الدولة) كان وزيراً لابنه أيضاً ، ولكنه عاد إلى بغداد بعد مدة ووزر للخليفة . ثم عزل من الوزارة ، فأقطعه ملكشاه اقليم (ديار بكر) وهكذا كان سبباً في انقراض الدولة المروانية ولكن الله سبحانه وتعالى قد عجل بالانتقام منه حيث قبض عليه (آرتق) في (ديار بكر) وأرسله إلى الموصل حيث مات فيها في محرم أو رجب سنة (٤٨٣ هـ) هو حيداً في عزلته التي فرضت عليه . (الكامل ج ١٠ ص ٤٨ و ٥٢ و ٥٣ و ٦٧) المؤلف

(١) هذا ما ذهب إليه المرحوم سعيد باشا الديار بكرى في تاريخه القيم المسمى (مرآت العبر) باللغة التركية ولكن ابن الأثير ومن بعده (منجم باشى) ذكره هكذا « عناز » بالنون والراء بخلاف « شرفنامه » فانه ذكره « عيار » بالياء والراء وأظن أن هذا الأخير أقرب إلى الصواب وأبعد عن التصحيف . المترجم

ولقد ظل متربعا على أريكة الحكم عشرين عاما دون منافس ولا منازع إلى ان توفاه الله إلى رحمته في سنة (٤٠٠ هـ)

وتولى الحكم من بعده ابنه (أبو الشوك = أبو الشوق) واسمه (فارس) ولقبه (حسام الدين) .. وكان بينه وبين (طاهر بن هلال) - ملك الحسنيين - نزاع مستحكم ، وعداء قديم ، فلا غرابة إذن أن يبادر (طاهر) على أثر إطلاق سراحه من السجن ، إلى تجريد حملة عسكرية على (أبي الشوك) دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس أسفرت عن اندحار ذريع وخذلان مبين لأبي الشوك ، وقضى على أخيه قضاء مبرما حيث ذهب ضحية المعركة ... ولبت الأمر وقف عند هذا الحد بل سقطت بضعة من بلدان (بنى عنان) فى أيدي الحسنيين ورغم ميل الطرفين كليهما - على أثر هذه الحرب - إلى التفاهم والصلح وإحلال السلام بينهما ، بدل التناحر والخصام ، ورغم تصاهرهما لتدعيم أركان المحبة وعلائم الود بينهما ، إلا أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى ساءت بينهما العلاقات من جديد ، وعادت سيرتها الأولى .. فعمد أبو الشوك سرا إلى إعداد جيش شن به هجوما عنيفا على بلاد الحسنيين وتمكن من الاستيلاء عليها جميعها ، وفى عام (٤١٤ هـ) توجه (علاء الدولة) كاكويه (١) صوب « الدينور » فاستولى عليها ، ولكنه ما لبث أن عاد فجلا عنها ورجع إلى همدان حين سمع وعلم بسطوة (شرف الدولة) وقوة شكيمته ببغداد. وفى عام (٤٢٠ هـ) شن الغز هجوما عنيفا على ولاية (الدينور) ، ولكن أبا الفتح بن أبي الشوك قد تصدى لمناواتهم ، واستمات فى مقاومتهم ، وقتل

(١) هو مؤسس (حكومة بنى كاكويه الكردية) التى قامت باصفهان

(٣٩٤ - ٤٣٧ هـ) كفى الدول الإسلامية لاستئلى - لن بول . وفى منجم باشى .

(المترجم)

وأسر الكثيرين منهم ، فازداد نفوذه وعلا شأنه . هذا وفي عام (٤٣٠ هـ) تمكن من الاستيلاء على (قرمىسن) ، وعلى كافة بلاد الجبال . وكان أبو الفتح هذا ، يدير دفة شئون ولاية الدينور باسم والده ، فطمع وتطلع في وقت ما إلى غزو قلعة (بكورا) التي كان يحكمها عمه (مهلهل) ، ومالبت أن سار إليها . واشتبك مع عمه في القتال ، ولكن الحظ قد خاناه فوقع أسيراً ، فاضطر والده (أبو الشوك) إلى إعداد جيش زحف به لقتال (مهلهل) الذي سارع إلى طلب النجدة من (علاء الدولة ابن كا كويه) ، فجاء هذا الأمير ، واستولى على ولاية (الدينور) في نفس الوقت الذي زحف فيه (سرخاب) أخو أبي الشوك إلى (الداقوق) واستولى عليها وجرد أكراد تلك البقاع من أسلحتهم وعتادهم . واضطر (أبو الشوك) إزاء هذه الظروف الحرجة إلى الالتجاء إلى (بغداد) لكي يستعين بجلال الدولة على خصومه . ثم مالبت أن عاد إلى (حاوان) مع جيش بغداد .

أما (مهلهل) فكان قد لجأ إلى (علاء الدولة) الذي نصحه بأن يذهب هو الآخر إلى (بغداد) لعرض شكواه على مسامع (جلال الدولة) ، فقبل النصيحة . ولقد أدى تدخل « بغداد » إلى تواد الأخوين وتفاهمهما وعقد الصلح بينهما ، ولكنهما قد افتقدا ولاية الدينور التي خرجت عن أيديهما . وعلى أثر هذا الصلح ، توجه (أبو الشوك) إلى (شهرزور) ، وحاصر قلعة (بيزارشاه) التي وافق صاحبها (أبو القاسم بن عياض) على الصلح مع أبي الشوك على شريطة أن يعمل الأخير على إطلاق سراح (أبي الفتح) من السجن وعاد (أبو الشوك) إلى بلاده ، ورفع الحصار عن القلعة ؛ إلا أن « مهلهل » قد رفض إطلاق سراح أبي الفتح وأبي ؛ مما اضطر « أبا الشوك » إلى السير صوب (الصامغان) والاستيلاء على كافة بلاد « مهلهل » . وسرعان ما عادت المياه إلى مجاريها بين الأخوين ، وتبدد التناحر وزال الخصام وتم التفاهم والصلح .

وفي تلك الأثناء زحف (ابراهيم ينال) - أخو السلطان طغرل السلجوقي - بجيش لجب إلى (الدينور) فاستولى عليها ، كما استولى على مدينة (قرميسن = كرمانشاه) فلم يجد « أبو الشوك » مندوحة من الإنسحاب إلى (حلوان) وهناك أيضا لم يستطع الصمود ولا الثبات أمام جحافل الزاحفين مما اضطره إلى الالتجاء هو ورجاله وأبناء أسرته ، إلى قلعة (سيروان) حيث أخذ من هناك يخبر أخاه (مهلهل) ويستحثه على القيام بدفاع مشترك عن حوزة البلاد .

وعلى الرغم من وفاة أبي الفتح في السجن في هذه الأثناء ، فقد تم الاتفاق بين الأخوين ، وأخذوا سويا في إعداد العدة لدفع خطر العدو عن البلاد ، وقد قام (سرخاب) وقتذاك بغزو (بنديجين) ونهبها .

وفي عام (٤٣٧) توفي أبو الشوك بقلعة (سيروان) فخلفه في الإمارة أخوه (مهلهل) وحرّم منها ابنه (سعد) الذي لجأ إلى (ابراهيم ينال) طالبا إليه إسناد إمارة والده إليه . وكان (ابراهيم ينال) قد عهد بإدارة (قرميسن) إلى (بدر) الحسني ، فزحف (مهلهل) على (بدر) هذا ، عام ٤٣٨ للهجرة وانتزع منه (قرميسن) كما ألحق هزيمة منكرة بجيش (ابراهيم ينال) الذي اضطر أخيرا إلى تجريد حملة أخرى من الغز بقيادة « سعد بن أبي الشوك » على (حلوان) فاستولت عليها . وإن هي إلا فترة وجيزة حتى عاد (مهلهل) فاستولى عليها من جديد وقهر أعداءه وأجلاهم عنها . وهكذا قضى (سعد) حقبة من الزمن في النزال والقتال مع عميه ، حتى وقع أسيرا في يد (سرخاب) وأخيرا شق (أبو العسكر) عصا الطاعة على أبيه (سرخاب) وقلب له ظهر المجن ، وعاوناه أكراد تلك البقاع ومدوا له يد المساعدة ، وبهذا تمكن من أسر والده ، وارساله إلى (ابراهيم ينال) فأقدم هذا الأمير السلجوقي على سمل عيني (سرخاب) ، وأطلق سراح (سعد) الذي اقتنص الفرصة

واستولى على (حلوان) بعد ذلك . وبعد أن استمات (مهمل) في محاربة الغز
قصد إلى بغداد في عام ٤٤٣ هـ لاجئاً إلى السلطان (طغرل) الذي أعطاه الداقوقا
و (شهرزور) و (الصامغان) . كما أعطى قلعة (ماهكى) لسرخاب ،
و (رادندين) لسعد .

ولقد استمرت القلاقل والفتن قائمة بين (سعد) و (مهمل) بعد ذلك
إلى أن وقع (مهمل) في قبضة « سعد » ثم توسط السلطان طغرل في إطلاق
سراح (مهمل) فرفض سعد . وزحف (بدر بن مهمل) إلى سعد بجيش
جرار في عام ٤٤٦ هـ وقضى عليه .

وهكذا انتقلت الحكومة (العنانية - العنازية) هي الأخرى إلى مقبرة التاريخ
اه من (مرآة العبرج - ٧ ص ٣٧٤ - ٣٨٠)



الفصل السابع

٧ - حكومة الشبانكاره (شوانكاره) بفارس (٤١٢ - ٦٥٨ هـ)

كان الأمير (فضلويه بن علي بن حسن بن أيوب) من فرقة الراماني من أكراد الشبانكاره، رئيسا لعشيرته وزعيما لقومه، وقد عين سبها لارا للجيش في عهد صاحب (عادل) الوزير البويهى بفارس، وكان البويهيون قبل هذا التعيين يضيقون ذرعا بغارات الشبانكارين عليهم وغزوهم لبلادهم، ويألمون لذلك أشد الألم.

وقد جاء في تاريخ «كزیده»، الفارسي أن زعيما شبانكاريا يدعى (اسماعيل) كان معاصرا لحاكم فارس المدعو (عماد الدين أبو كاليجار) سنة (٤١٦ - ٤٤٠ هـ) ثم خلف هذا الحاكم ابنه الأكبر الذي توفي عام (٤٤٧) فاحتل مكانه أخوه الأصغر «أبو منصور فلاستون»، وكان صاحب «عادل» وزيرا لهذا الأمير الأخير. وقد أعلن «فضلويه» عصيانه على هذا الأخير بل إنه قد تمكن عن أسر هو ووالدته السيدة «خوراسويه»، واستولى على كل بلاده استيلاء تاما، وسجنه في قلعة على مقربة من (شيراز) ثم قتله في عام (٤٤٨) وخنقت والدته في الحمام بأمر من «فضلويه». وهكذا دان الحكم لامراء (الشبانكاره) في بلاد فارس أيضا، ولكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى اشتبك «فضلويه» في قتال مع السلاجقة بقيادة (قاوورت) أخى «آلب أرسلان»، أسفر عن إرغامه على الاعتراف بسلطان آلب أرسلان عليه مع بقائه حاكما لفارس من قبله.

ومضت أيام على ذلك. ثم عاد (فضلويه) فشق عصا الطاعة على (آلب أرسلان)

واعتصم بقلعة (خورشاه) حيث حاصره فيها (نظام الملك) الوزير الشهير ، واستولى عليها ، ثم أسره بعد أن أبدى مقاومة عنيفة ثم ما لبث أن أعدمه . وكان ذلك في عام ٤٦٤ هـ ^(١) . هذا وقد كانت العشائر الشبانكارية مبعث قلق ومصدر فتن في إقليمي (كرمان) و (فارس) فترة طويلة ، ففي عام ٤٩٢ للهجرة — ١٠٩٩ م) تمكن الشبانكاريون بعضهم « ايرانشاه » بن « قاوورت » حاكم كرمان من هزيمة (أنز) والي فارس الذي كان معينا من قبل السلطان (بركياروق) .

وبعد هذه الحوادث بقليل نشبت الحروب بين الشبانكارية وبين (فخر الدين جاولي) المتوفى عام ٥١٠ للهجرة . وهو الذي كان يحكم فارس من قبل السلطان محمد بن ملكشاه حاكم العراق . وسبب ذلك عدم اعتراف (حسن بن المبارز خسرو) أمير الشبانكارية بسلطان (جاولي) على فارس ، فشن عليه جاولي هجوما عنيفا فتمكن خسرو من صدّه في البداية بمساعدة أخيه (فضلوي) ، ولكن اليأس لم يجد إلى قلب (جاولي) سيلا فعاد بعد فترة وعاود الكرة وحاصر (خسرو) في قلعته ، ولما أيقن خسرو أن الحصار سيشدد وقد يطول أمده اتفق مع (جاولي) ، بل ورافقه في حرب (كرمان) التي نشبت بسبب التجاء (اسماعيل) أحد زعماء الشبانكارية وحاكم (دارايجرد) إلى ملك كرمان ومطالبة (جاولي) بتسليمه له دون جدوى .

ويؤخذ من مجريات الحوادث بعد ذلك أن عشيرة الشبانكارية قد جنحت إلى السلم في عهد السلطان محمد بن ملكشاه ، بيد أنها أوقعت نفسها في خضم من القلاقل والفتن في عهد السلطان محمود ابن السلطان محمد نتيجة لسوء تصرف وزيره (ناصر بن علي الدركزني) تلك القلاقل والاضطرابات التي عرضت

(١) هذا هو مارواه ابن البلخي صاحب (فارسنامه) الذي كان معاصرا لهذه الحوادث .
المؤلف

تلك الجهات لألوان شتى من الولايات بل ودمرتها تدميرا . إذ عمت البلاد
الفتن وسادها الاضطراب ولا سيما خلال حرب (كرمان) . وحدث في تلك
الفترة أيضا حدث تاريخي هام جدير بالذكر ، ألا وهو انتصار (أبي طاهر محمد
السكردي) الذي كان في معية الأتابك (سنقر) السلغري ، والذي صار فيما
بعد حاكما مستقلا للرك الكبير (على الشبانكاره في معركة حاسمة ، وبعد أن
انتصر عليها فرض عليها سلطانه ، وكان ذلك بسبب التجاء (زكي بن تكلا)
إلى حمى تلك العشيرة . ولنستعرض الآن العهد الذهبي لعشيرة الشبانكاره .
ذلك العهد الذي لم يعمر طويلا فنقول :-

استغل (قطب الدين مبارز) رئيس الشبانكاره وأخوه (قطب الدين محمد)
الذي كان أمير (ايغ = إيغ) الموقف الذي نشأ عن حالة الاضطراب والفتن
التي برزت عقب زوال حكومة سلاجقة كرمان وما ترتب على ذلك من انتشار
الفوضى واختلال جبل الأمن في تلك الأنحاء ، حيث استنجد بهما الوزير
(ناصر الدين) ضد الغز فلبيا نجلته واستجابا لندائه ، ولكنهما قد بادرا إلى
احتلال مركز (برده سير) قبل أن يشتبك في قتال مع الغز وكان ذلك تنفيذا
لرغبة الأهالي وإن كان خلافا لرأي الوزير . وباستيلائهما على هذا المركز ، ضمنا
لنفسيهما حكم بلاد كرمان أيضا في سنة (١٢٠٠م - ٥٩٧ هـ) ، ثم اشتبك هذان
الأميران في حرب ضروس مع الغز ، وفي تلك الأثناء ساءت العلاقات بينهما
وبين أتابك فارس ، الأمر الذي اضطرهما إلى العودة سراعا إلى بلادهما تاركين
في كرمان نائبا عنهما من إحدى أسر كرمان القديمة ليدير دفة شئونها نيابة عنهم
فعاد الغز إلى النهب والسلب وتدمير البلاد ، وما زاد الطين بلة أن أحد أمراء
كرمان المدعو (هرمز تاج الدين شهنشاه) قد اتفق مع الغز ، وتواطأ معهم على
تثبيت أقدامهم في البلاد ، فاضطر نظام الدين (١) إلى التحرك من (ايغ) والتوجه

لمقاتلة هذا الأمير وظل يقاتله حتى قضى عليه ؛ ثم أخذ في مطاردة الترك (الغز) حتى شنت شملهم شذر مذر .

ولم يمض على هذا طويل وقت حتى دخل نظام الدين بلدة (برده سير) ثانية وقد تملكه الزهو وداخله التيه والاستخفاف بالأمور ، فما كان من أعدائه إلا أن تربصوا له حتى باغتوه ذات ليلة ، وألقوا القبض عليه وعلى أولاده ، وكان ذلك في عام (٦٠٠) للهجرة . ثم هاجموا أمراء المبارزية جميعهم وضيقوا عليهم الحصار . وفي خلال هذه الحوادث ظهر على مسرح السياسة رجل آخر ، ألا وهو (عجمشاه) ابن الملك (دينار) الذي كان مؤيدا ومحيا من قبل (خوارزمشاه) ، والذي اتفق مع الغز وزحف معهم إلى بلاد كرمان ، وما أن تمكن منها حتى بعث بنظام الدين مقبوضا عليه إلى أتابك فارس ظنا منه أن عمله هذا سيقربه ، ويعجل به إلى القبض على زمام الأمور طواعية وبكل سهولة ، وأنه سيؤدي حتما إلى سقوط كرمان في يده سائغة خالصة له ولسكن (سعد بن زنكي) أتابك فارس قد خيب ظنه ، وأرسل إليه يقول : قد أرسلت لك جيشا يقوده (عز الدين فضلون) قائد جيش فارس كي تسارع حامية كرمان إلى التسليم . وجاء هذا الجيش فعلا واستولى على مدينة (كرمان) وانتزعها من أيدي الشبانكاره . وقد قدم في هذه الأثناء (المبارز) أخو (قطب الدين) للنجدة والانقاذ ولكن دون جدوى ومن غير طائل اللهم إلا إحداث الدمار والخراب في سرايين البلاد وبين أنحائها .

وفي (٦٥٨) للهجرة حينما أغار « هلاكو » على تلك البلاد ، واستولى على « ايغ » ، وقتل أمير الشبانكاره ، خضعت حكومة الشبانكاره ردحا من الزمن لسلطان الايلخانين ثم لآل المظفر الذين قام ملكهم بفارس .

الفصل الثامن

٨ - « حكومة أتابكية اللر الكبير » (٥٥٠ - ٨٢٧ هـ)

أو

الحكومة الفضلوية

قامت هذه الحكومة في جنوب شرقي لرستان بإيران ، وعمرت مائتين وسبعة وسبعين عاما ، أي من عام (٥٥٠) حتى عام (٨٢٧) للهجرة . وكان إقليم (لرستان) يتألف منذ أواخر القرن الثالث الهجري من قسمين : (اللر الكبير ، واللر الصغير) حيث كان هنا لك أخوان يحكمان ذينك القسمين وهما (بدر) و (أبو منصور) وقد خلف بدر في اللر الكبير ، حفيده (نصر الدين) في الوقت الذي كان النصف من هذه البلاد يدين بالخضوع لأسرة من أكراد « الشول » كان زعيمها يدعى « سيف الدين » ، وهي الأسرة التي ترجع الروايات القديمة والأساطير حكمها لهذه البلاد إلى عهد الساسانيين .

هذا وفي أواخر القرن الخامس جاءت مائة أسرة كردية ، من موطنها الأول بجبل السحاق بشمالى سورية إلى لرستان ، وأقامت بجبل (أمعاد ؟) لدى (محمد خورشيد) وزير الملك نصير الدين (١) وكان زعيم هذه العشيرة الكردية يدعى (أبو الحسن فضلوى) .

(١) تقول دائرة المعارف الإسلامية (ج - ٣) ان هذه العشيرة الكردية بزعامة (فضلوى) وصلت أولا إلى (ميافارقين) ثم غادرتها إلى (آذربيجان و كيلان) وهناك اتفقت مع (ديباجى) حاكم (كيلان) واستقر بها المقام إلى أن كان عام (٥٠٠) للهجرة حيث عادت فغادرت تلك البلاد إلى الهضبة الشمالية لـ (شتران كوه) بلرستان .

المؤلف

(١) - « أبو طاهر محمد »

كانت فارس تخضع للحكام السلجوقيين (١) في تلك الاثناء ، فدخل (أبو طاهر محمد) حفيد « أبي الحسن فضلوى » هذا - وهو متصف بالبسالة الفائقة - في خدمة حكام فارس الذين كان بينهم وبين ولاية « الشبانكاره » عدااء مستحکم ونزاع شديد فعمد حاكم فارس الى تجريد حملة عسكرية قوية بقيادة أبي طاهر محمد بن علي بن أبي الحسن فضلوى ، على حكومة الشبانكاره . فانتصر أبو طاهر في حملته انتصارا باهرا ، وعاد ظافرا منصورا ، فأعجب به حاكم فارس « أتابك سنقر » وسر منه أيما سرور ، وأسبغ عليه من فيض عطفه حيث أقطعه - بناء على طلبه - ناحية « كوه كلوى = كوهجيلويه » وأصبحه جيشا لغزو « لرستان » في عام ٥٤٣ هـ وقد أخذ أبو طاهر يعمل بالتدريج على بسط سلطانه على لرستان بالحرب والقتال تارة ، وبالسلم وإتباع أساليب الدهاء والسياسة تارة أخرى ، حتى انتهى به المطاف إلى إعلان استقلاله وانفراذه بالحكم في غير ماخضوع لأحد .

وهكذا تم وضع أساس الحكومه الفضلوية بفضـل مهارة وبسالة « أبي طاهر محمد » الذي عاش حتى عام « ٥٥٥ » حيث وافاه الأجل المحتوم فمات تاركا من ورائه خمسة أولاد ذكور وهم : هزار أسب ، بهمن ، عماد الدين بهلوان ، نصره الدين أيلواكوش ، قزل بچم ؟ . وقد تم الاتفاق بين الابن الأكبر وأخواته على أن يتولى هو الحكم بعد أبيه .

(١) مؤسس هذه الحكومة هو (سنقر) أحد القواد السلجوقيين ، وضع أساس حكومته عام ٥٤٢ للهجرة ، وقد عمرت حتى عام ٦٨٦ للهجرة حيث نالت أخيرا لقب أتابك من السلطنة السلجوقية .

(٢) — « أتابك هزار أسب »

كان حاكما عاقلا وعادلا ، تقدمت البلاد في عهده تقدما محسوسا نحو العمران والرخاء ، وقد وفدت إلى « لرستان » في عهده بضع عشائر كردية من جبل السحاق بشمالى سورية ، وكان من بين هذه العشائر بعض عشائر عربية أيضا . وفيما يلي أسماء هذه العشائر حسبما ذكرت في تاريخ « كزیده » الفارسي : آسوكى ، مما كونه « لعله مما كويه » بختارى (١) ، مراسلى . سداسان ، زاهديان ، علانى = آلانى ، كونوند ، پى وند ، بدائى . بوازكى ، شنويد ، راكى ، جاكى (٢) ، هارمى (٢) ، أسبك (٤) ، كفى (٥) ، شمس (٦) ، نخوفى ، كما كشى (٧) ، مامهسى (٨) ، أوليكى (٩) . ليراوى ، دلىكى ، توانى كيا ، مديحا كورد ، كولارد .. إلخ

ولقد ازداد موقف « هزار أسب » قوة بفضل تأييد هذه العشائر له ، وبهذا تمكن من طرد الأسيرة الشولوية من لرستان نهائيا . واستخلاص البلاد بأسرها لأسرته ، كما اتسعت رقعة بلاده حتى بلغ امتدادها الى مسافة أربعة فراسخ من « أصهبان » ، مما حدا بأتابك تكاه السلغرى إلى تجريد بضع حملات عسكرية عليه للحد من نفوذه والقضاء على قوته ، بيد أنه أخفق في جميع محاولاته فكان الفشل حليف كل ما وجهه من حملات .

وهكذا كان يعلو شأن (هزار أسب) يوما بعد يوم . وقد تقدمت في عهده التجارة والزراعة في البلاد ، واتسعت معالم النهضة العمرانية . فمن إنشاء القرى والمدن والمؤسسات الخيرية إلى تنفيذ مشاريع عامة في طول

(١) بخيارى (٢) خاكى (٣) هارونى (٤) أشكى (٥) كوى (٦) تحسفى
(٧) كما نكش (٨) مماتى (٩) أوملىكى اه من (كتاب كردلر ص ٩٧ ، ٩٨)
المؤلف

البلاد وعرضها ، وأخيرا أوفد (هزارأسب) ابنه إلى بلاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، ملتمسا منه لقب « أتاك » فتكرم الخليفة ومنحه هذا اللقب وبعث اليه بالخلع وبراءة اللقب ، ولم يقتصر عمل (هزارأسب) السياسي على هذا فقط ، بل نجح أيضا في توطيد دعائم الصداقة وصلات المودة مع السلطان محمد الخوارزمي بمصاهرة كريمة حيث زوج ابنته للامير (غياث الدين) ابن السلطان الخوارزمي .

وقد لحق (هزارأسب) بالرفيق الأعلى في عام (٦٥٥) (١) بعد قرن من الزمان قضاه في الجهاد وبث روح العمران ونشر ألوية السلام في كافة شرايين البلاد (ويبدأ هذا القرن من عام (٥٥٥ هـ) حتى عام (٦٥٥ هـ) (٢)) إذا كان تاريخ الوفاة هذا صحيحا

(٣) — « أتاك تيكله »

هو ابن « هزارأسب » وأمه من أسرة « السغريين » حكام فارس . وما أن ترامى نبأ وفاة (هزارأسب) إلى فارس حتى سارع الأتابك (سعد) السغري إلى تجريد حملة عسكرية على (تيكله) قوامها ألفان من الجنود تحت قيادة ابن عم هزارأسب يدعى « جمال الدين عمر » لاسترداد حق الأسرة الشولية المسلوب ، وعلى مقربة من قلعة (يبروته) ، اصطدمت هذه الحملة

-
- (١) في دول اسلامية — أنه توفي سنة ٦٥٠ تقريبا . المترجم
(٢) تذكر (دائرة المعارف الاسلامية) هذا التاريخ مبدءا لجلوس الأتابك (تيكله) وتأريخا لوفاة سلفه (هزارأسب) ، ويظهر أنه غير صحيح لأن (تيكله) كان بعد بضع سنوات من قيام حكومته وخوضه غمار حروب كثيرة ، في معية (هلاكو) حين اقتحامه بغداد في شهر المحرم من عام ٦٥٦ للهجرة .
(١٦ كانون الثاني سنة ١٢٥٨) المؤلف

بقوات (تيكله) التي لم يكن يربو عددها على الخمسمائة فارس ، ودارت بين الفريقين رحى معارك دامية أسفرت عن اندحار (تيكله) في بادىء الأمر ، ولكن القدر ساعده أخيرا فجعل الظفر يتحول في النهاية إلى جانبه ، وقد ساعده على هذا إصابة قائد جيش خصمه ، بسهم في مقتله فخر صربعا يتخبط في دمه ، الأمر الذي أدى إلى اندحار خصمه بعد أن كان النصر حليفه في بداية المعركة . ولقد جرد السلغريون - بعد هذه المعركة - ثلاث حملات عسكرية أخرى على (تيكله) ولكن واحدة منها لم تكلل بالنجاح .

وبعد ذلك استقرت الأمور للاتابك (تيكله) ، فشرع في توسيع حدود بلاده ، وزحف على مقاطعة اللر الصغير ، وانتزع بعض النواحي من أيدي حاكمها (حسام الدين خليل) . ثم حدث بعد ذلك - لأسباب نجهلها - أن بعث خليفة بغداد بحملة عسكرية على « لرستان » تحت قيادة كل من (بهاء الدين كرشاسب) و (عماد الدين يونس) ، فأنزلهما هذا الجيش اللجب الدمار ببعض بلدان هذا الاقليم العامر ، وأسر أخا لتيكله في حومة الوغى وألقى به سجيناً في قلعة (لاهوج) ، وفي تلك الأثناء كان (تيكله) يعيد تنظيم جيشه ويلم شعثه ، حتى إذا فرغ من إعداداته ، سار على رأسه لمقاومة العدو المغير على بلاده ، وقد أسفر القتال الذي نشب بينهما عن اندحار الجيش المغير وخذلانه ومقتل (عماد الدين يونس) وأسر (بهاء الدين كرشاسب) الذي أطلق (تيكله) سراحه أخيراً على شريطة إطلاق سراح أخيه .

وفي عام (٦٥٥هـ) حينما زحف ملك المغول (هلاكو) بسيوله الجارقة وجحافله المدمرة على بغداد عاصمة الدولة العباسية ، كان أتابك (تيكله) يصحب هذه الجيوش الجاراة في معية (هلاكو) حيث أدخله في تومان = فرقة (كيتوقابوس = كيتموقا) ، وذلك كي يضمن (تيكله) حماية أملاكه والمحافظة على كيانه دولته . بيد أن فاجعة (بغداد) قد كان لها أسوأ الأثر في نفسه ولا سيما

قتل الخليفة والاسراف في سفك دماء المسلمين ، وقد أبدى استيائه وبالغ تأثره من ارتكاب تلك المآسى في شتى المناسبات ، فترامى نبأ ذلك إلى مسامع (هلاكو) فغضب أشد الغضب ، وأسره في نفسه ، ولكن أتابك « تيككه » كان على علم بغدر (هلاكو) وشديد بطشه ، وبأنه لا يرعى إلا ولا ذمة فانتهاز الفرصة وفر هاربا إلى (لرستان) مقر ملكه ، ولكن (هلاكو) كان له بالمرصاد فأرسل في أعقابه حملة عسكرية يقودها (كيتوقابوس) لالقاء القبض عليه في عقر داره . وما أن سرى نبأ هذه الحملة إلى لرستان حتى تقدم (شمس الدين آلب أرغون) من أخيه قائلا له « إن المصلحة تقتضى أن ترسلنى إلى هلاكو كي أسعى لديه حتى أوفق بينكما ليعود الجيش المغولى من حيث أتى » فصادف هذا الاقتراح هوى في نفس (تيككه) وتقبله قبولا حسنا ووعد أخاه بالآينبرى لقتال المغول حتى يعود هو إلى لرستان . ولما وصل شمس الدين إلى مرج « فهركه » في حدود لرستان اعترض جيش المغول سبيله ، فحاول أن يفهم قواد الجيش مقصده ولكنهم أصموا آذانهم عن الاستماع إلى كلامه وقبضوا عليه وقيدوه بالسلاسل والأغلال وقتلوا جميع المرافقين له ثم استأنفوا الزحف على لرستان ولقد خشى تيككه مغبة الأمر فأقلع عن مقاومة المغول خشية أن يقتلوا أخاه المعتقل ولجأ إلى قلعة « جاينخششت » رافضا الاستسلام إلى المغول على الرغم من وعودهم وعهودهم المتكررة بالابقاء عليه والمحافظة على حياته حتى جاءه خاتم الأمان من هلاكو نفسه فنزل من القلعة وسلم نفسه لقواد الحملة الذين أرسلوه بدورهم إلى (تبريز) وهناك صلبوه حاشين بوعودهم وبموثيقهم . وقد تمكن رجاله من أخذ جثته سرا وعادوا بها حيث دفنوها في لرستان .

(٤) — « أتابك شمس الدين آلب أرغون »

نصبه (هلاكو) أتابكا وحاكما على لرستان بعد مقتل أخيه (تيككه) ،

وأصدر أمره بعودة الجيش من لرستان ولما جاء الأتابك الجديد إلى البلاد ألغاه خرابا يبابا ، حيث كان المغول قد عاثوا فيها فسادا وعانت البلاد على أيديهم ألوانا من الظلم والبؤس والشقاء ، مما ألجأ الأهالي والسكان إلى الاعتصام بالجبال والوهاد . وقد عاد هؤلاء السكان إلى مواطنهم وأخذوا في تعمير البلاد وزراعتها وإنعاش التجارة ، فانتعشت البلاد في فترة وجيزة انتعاشا قل أن يتيسر مثله في البلاد المجاورة . وكان الأتابك يمضي أيام الشتاء في مدينة (ايدج = ايزاج) و (سوس) وفي أطراف (شستر = تستر) ، في حين كان يقضي أيام الصيف في الجبال الكائنة حوالى منابع نهري (شستر) و (زنده رود) الشهيرة بتدفق مياهها وغزارة غياضها وباسق أشجارها وحدائقها الغناء التي كانت تبدو كقطعة من جنة الخلد ومثلا مجسما للفردوس . وهكذا قضى (شمس الدين آلب أرغون) أيام حكمه في هدوء ودعة وسعادة وهناءة إلى أن توفاه الله إلى رحمته بعد أن تربع على أريكة الحكم خمسة عشر عاما .

(٥) — « أتابك يوسف شاه »

كان في بلاط (أبقاخان) عند ما توفي والده ، وبعد أن مضى شهر على هذه الوفاة أصدر (أبقاخان) مرسوما بتعيينه خلفا لآبيه على حكومة لرستان ولكنه لم يذهب إلى مقر مملكته بل آثر البقاء في عاصمة الأمبراطورية المغولية مع مائتي فارس من رجاله مكثفيا بتعيين وكيل عنه في (لرستان) . وقد اشترك بجيشه اللورى في حروب (أبقاخان) ضد (براق خان) فأبدى فيها شجاعة فائقة وبسالة نادرة ، كما أنه قد اصطحب (أبقاخان) ولزمه في حروبه في كيلان والديلم ، بل كان له الفضل في إنقاذه من ورطة كادت تودي بحياته : خلاصتها أن جماعة من الفدائيين من الديلم قد باغتت (أبقاخان) في إحدى المعارك الحامية الوطيس وأحاطت به من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، فما كان من (يوسف شاه) إلا أن انقض على هؤلاء المغيرين وردهم

على أعقابهم خائبين مدحورين ، مما أثار إعجاب (أبقاخان) وسروره منه وجعله ينعم عليه بمقاطعات خوزستان بأكملها و (كوه كيلويه) ومدينة (فيروزان) و (جرباذقان) الواقعة على مسافة سبعة فراسخ من شمالى أصفهان وذلك مكافأة له على صنيعه وجزاء وفاقا لما قدمت يداه . وقد أغار (يوسف شاه) بعد هذه المعركة بمدة على (كوه كيلويه) وشن هجوما على الشولية القاطنين بجهة « مامه ساني » وتمكن من قتل أخى حاكمها .

وبعد أن انقضت أيام « أبقاخان » وولت ، وخضع شرقى ايران « لأحمد تكودار » ساءت العلاقات بين « يوسف شاه » وبين « أرغون خان » خليفة « أبقاخان » ومع ذلك لم ينتقض عليه ، بل إنه قد اضطر إلى الاشتراك والمساهمة فى حروب « خراسان » ضد « أحمد تكودار » بقوة من ألفى فارس وعشرة آلاف من المشاة ، ولما أسفرت هذه الحروب عن إلحاق الهزيمة بجيش « أحمد تكودار » فى عام (٦٨٣ هـ) ، عاد الجيش اللورى إلى لرستان عن طريق « تاباس » و « نوتانزا » مخترقا الصحارى الشاسعة التى لا ماء فيها ولا أثر للحياة .. عاد هذا الجيش بعد أن مات الكثيرون من رجاله من شدة العطش والأعياء ، كما ذهب « يوسف شاه » إلى لرستان بأمر من « أرغون شاه » ليحل محل الصاحب الخواجه (شمس الدين) وهنالك تزوج بكريمة الصاحب ثم ألقى القبض عليه وأرسله إلى « أرغون شاه » وقد عاد « يوسف شاه » إلى لرستان نهائيا بعد شهادة الخواجه شمس الدين وظل بها مقبلا حتى توفاه الله إلى رحمته .

(٦) — « أتابلک أفراسياب »

وبعد وفاة « يوسف شاه » عين ابنه « أفراسياب » خلفا له ؛ وقد أرسل « أفراسياب » أخاه « أحمد » إلى عاصمة المغول ، وبقى هو فى لرستان يصرف شئون الحكم . وكان ظالما فتاك لا يخاف الله ولا يتقيه فى عمله ، حيث شرع

يصب جام غضبه وينزل المظالم والعقاب على رموس الذين يخالفون أهواءه من رجال « هز أاسب » ، وألقى القبض على الوزراء أمثال « الخواجه نظام الدين وجلال الدين وصدر الدين » ، وصادر أموالهم ، ثم ما لبث أن قتلهم ملتمسا أسباب ومعاذير ما أنزل الله بها من سلطان ؛ ثم نفى رجال هؤلاء المنكوبين وذوى قرباهم إلى « أصفهان » ، ولكنهم لم يحدوا من نشاطهم ضده ، فأرسل من ورائهم من يتعقبهم ويتبع آثارهم . وفي هذه الأثناء هلك (أرغون خان) فثار زعماء بعض البيوتات القديمة بأصفهان وقتلوا الوالى المغولى ، فاتهز « أفراسياب » هذه الفرصة وعين من أقربائه ورجاله ولاية وحكما للمقاطعات الممتدة من همدان وفارس حتى الخليج الفارسى راميا من وراء ذلك إلى القضاء على نفوذ المغول ، وقد أسند إلى جلال ابن الأتابك (تيكله) قيادة حملة عسكرية جردها للمحافظة على « كوه رود » ، وهنالك اشتبكت هذه الحملة في قتال عنيف مع المغول أسفر في بادئ الأمر عن هزيمة المغول ، ولكن انغماس جنود الحملة في أعمال النهب وإمعانهم فى السلب قد أعطى الفرصة للمغول المنهزمين فأعادوا تنظيم صفوفهم وكروا عليهم بغتة فأنزلوا بهم هزيمة منكرة . ولما ترمى نبأ هذه الحوادث إلى مسامع الامبراطور « كيخاتو خان » أرسل قوة عسكرية يقودها الأمير « طولداى ايداجى » ، وتآلف من جيشى المغول واللى الصغير لمناوأة « أفراسياب » وقتله ، فلم يستطع الأتابك الصمود أمام المغيرين ولجأ إلى قلعة « جاينخست » ، وقتل الكثيرون من أهالى « لرستان » خلال هذه المعارك والحادثات ، كما لجأت جموع غفيرة منهم إلى الجبال والوهاد فرارا من مظالم المغول الذين أسرفوا فى القتل والنهب والتدمير إلى أن أحاطوا بالقلعة وأرغموا أفراسياب على التسليم وأرسلوه الى العاصمة حيث تدخل هنالك فى الأمر لصالحه كل من (أروك خان) و (بادشاه خاتون) فعفا عنه الامبراطور وأعيد إلى مقر حكمه بلرستان ، فرجع إلى سابق عهده

من الظلم والجبروت ومصادرة الأموال والحريات والقضاء على كبار رجال الدولة وأبناء البيوتات الكبيرة .

ولما تولى (غازان خان) حكم الإمبراطورية ، عطف على (أفراسياب) في بادئ الأمر ، فأولاه ثقته ، ولكنه عاد أخيراً فسحب هذه الثقة منه وقتله وكان ذلك في عام (٦٩٦) للهجرة على أثر اندحار (هوركوداك) أمير فارس في القتال الذي نشب .

(٧) — « أنابك نصره الدين أحمد »

تولى الحكم سنة (٦٩٦ هـ) بعد أخيه (أفراسياب) وظل متربعا على أريكته حتى عام (٧٣٠) للهجرة في رواية . أو عام (٧٣٣ هـ) في رواية أخرى ؛ وقد أمضى أكثر أيام حياته في بلاط الأيلخانيين ، وكان حاكماً عاقلاً مدبراً ومحباً لرعيته ، وفق في فترة وجيزة إلى خلق نهضة عمرانية في البلاد ، وإلى القضاء على آثار الخراب الذي كان قد أصابها في عهد سلفه ، فاستتب الأمن ، وعم الرخاء وازداد دخل الدولة وتحسنت حالتها المالية ، وقد عين ابنه (عماد الدين بهلوان) نائبا عنه في حكم (لرستان) ، كما أنه نصب (خسرو شاه بن الملك حسام الدين) قائدا للجيش ، وهكذا نظم الأمور وساس البلاد بحكمة وأدار دفة شئونها بحزم ، مما جعل البلاد كلها تشعر بالأمن التام والرفاهية الكاملة ، وكان (نصره الدين) يحب العلم والعلماء ويقربهم إليه دائماً ويشجعهم . ومن آثار ذلك تأليف « ملا فضل الله بن عبد الله القزويني » لسكتابه (تاريخ المعجم في آثار ملوك العجم (١)) باسمه واهدائه إليه . كما أن كتاب

(١) طبع بفارس سنة ١٢٨٠ موجود بدار السكتب المصرية المترجم

(بجمع الأنساب (١) قد لقب هذا الحاكم العادل الحازم بلقب (بير) . ويقول الرحالة ابن بطوطة ان أتابك (نصره الدين) هذا قد أنشأ في عهده مائة وستين مدرسة ، كان أربع وأربعون منها في مدينة (ايزاج) بينما كان البعض منها منتشرا بين العشائر في أماكن مختلفة في الجبال (٢) .

(٨) — « أتابك ركن الدين يوسف شاه الثاني »

دام حكم هذا الاتابك من سنة (٧٣٣) حتى سنة (٧٤٠) وكان حاكما عادلا عاقلا مدبرا حازما . ويقول كتاب (بجمع الأنساب) ان سلطان هذا الاتابك كان يمتد حتى البصرة وخوزستان و(لاموستان = لارستان) وفيروزان

٩ — « مظفر الدين افراسياب الثاني »

كان اسمه أحمد ، وهو ابن يوسف شاه الثاني « أخوه حسب رواية ابن بطوطة » وكانت رحلة ابن بطوطة لهذه البلاد في عهد هذا الحاكم ، ويرى الشيخ محمد الخضرى أن حكمه قد دام حتى عام ٧٥٦ للهجرة (٣) وليس في متناول أيدينا معلومات شافية عن حكم هذه الأسرة المتأخرين

- (١) لمحمد بن علي شبانكاره . (مخطوط)
 المترجم
 (٢) يوجد في تاريخ كزیده تفصيل عن هذه الحكومة حتى آخر عهد الاتابك (نصره الدين) ولكنني استقيت المعلومات عنها بعد هذا التاريخ من دائرة المعارف الاسلامية وترجمة كتاب (كردلر) للدكتور فريج .
 (٣) يقول الدكتور فريج ان هذا الاتابك كان معادرا لتيمورلنك وإنه كان قائدا من قواده ، في حين تفصل بين عهد هذا الاتابك وبين عهد تيمورلنك ، فترة مداها اربعون سنة .
 المؤلف

فقد خلت المصادر من أخبارهم اللهم إلا ما ذكره « ميرزا اسكندر » معتمدا على روايات المؤرخين المعاصرين لذلك العهد وهو كما يلي :

(١٠) — « نور الودود »

لقد خلف هذا العاهل أفراسياب الثانى فى الحكم ، وكان مسرفا متلافا مبددا للاموال لا يقف فى سبيله شىء ، وهكذا قضى على خزينة الأتابكية فى فترة وجيزة ، ويؤخذ من رواية رواها « جهان آرا » أنه اتخذ (محمد مظفر) حاكم فارس ولدا له « ٧١٣ - ٧٦٠ »

(١١) — « شمس الدين بشنك »

المعروف أنه ابن يوسف شاه الثانى (١) وخلف (نور الودود) ، وقد استمر حكمه حتى عام (٧٨٠) للهجرة ، وقد أصيبت البلاد فى عهده بأضرار جسيمة على أيدي « آل المظفر » بشيراز حيث اتخذ الشاه منصور المظفرى « شستر » قاعدة لأعماله الحربية ضد (لرستان) مما أدى الى قيام « الشاه شجاع » بنجدة الأتابك بشنك وشد أزره ، لأنه كان ينافس الشاه منصور فى الحكم وقد عثر فى « إيزاج » على قطع من النقود باسم الشاه شجاع يرجع تاريخها إلى سنتي ٧٦٢ ، ٧٦٤ للهجرة

(١٢) — « بير أحمد »

تولى الحكم فى لرستان بعد وفاة « بشنك » وقد حدث أن نشب قتال بينه وبين أحد أفراد أسرته المدعو « ملك هوشنك » أسفر عن قتله فى المعركة

(١) يقول الشيخ محمد الخضرى فى محاضراته إنه كان يدعى شمس الدين هوشنك ، وإنه ابن ابن أفراسياب الثانى .
المؤلف

ويروى بعضهم أن كلا من بير احمد وهوشنك كانا أخوين وكانا ابنين لنور الودود ، وقد أخرج الشاه منصور المظفرى بير احمد هذا من لرستان وعين أحد زعماء اللور حاكما بدله وبهذا انتهت أيامه ودالت دولته

وفى عام (٧٩٥) للهجرة حين مر « تيمور » بلرستان ، خف اليه (بير احمد) واجتمع به فى مدينة « رامهرمز » ثم فى « شيراز » حيث قدم له فروض الولاء والطاعة فأكرمه تيمور وأضفى عليه سابغ عطفه حيث أبقاه على عرش آبائه وأجداده ، وسمح له باعادة نقل ألفى أسرة لورية - كانت مبعدة بأمر من الشاه منصور - الى لورستان : ثم أخذ تيمور معه الى « سمرقند » كلا من « أفراسياب » أخى « بير احمد » و (الشاه منصور) كرهينة لديه وبعد فترة من الزمن قسم « تيمور » لورستان الكبير بين بير احمد وأخيه أفراسياب وبعد وفاة تيمور أسر الميرزا بير محمد ، بير احمد هذا فى (كوهان دز) وقد تمكن من أن ينتزع مقاليد أمر لرستان لنفسه فى عام (٨١١) للهجرة ، ولكنه ما لبث أن قتل إبان ثورة داخلية اشتعل لهيها فى البلاد بعد ذلك .

(١٣) - « أبو سعيد »

هو ابن (بير احمد) وقد لبث فى شيراز عامين كرهينة ، ثم تولى الحكم بعد وفاة والده ، وقضى نحبه فى عام ٨٢٠ للهجرة .

(١٤) - « الشاه حسين »

كان ابنا لأبى سعيد وخلفا له ، وقد حدث بعد توليه حكم لرستان أن نشب قتال عنيف بينه وبين (غياث الدين كاوس) أحد أفراد أسرته أسفر عن قتله أثناء المعركة ، وكان ذلك فى عام (٨٢٧) للهجرة .

(١٥) - « غياث الدين كاوس »

كان ابنا لهوشنك ، وقد تمكن من انتزاع الحكم لنفسه من (شاه حسين)

ولكن لم يمض على حكمه طويل وقت حتى غزا (سلطان ابراهيم بن شاه رخ ابن تيمولنك) لرستان ، وقضى على الحكومة الفضلوية نهائيا ، فتتبع عن ذلك انتقال الحكم إلى أيدي رجال العشيرة البختيارية .

ملحوظة :

إن كتاب الدكتور (فريج) الألماني الذي ترجمته إدارة المهاجرين العامة بتركيا وطبعته ونشرته باللغة التركية ، إذا كانت ترجمته صحيحة ومطابقة للاصل ، فالذي لا شك فيه أنه يحمل بين طياته أفكارا وآراء مغرضة عن الكرد لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، ويكاد العداء يظهر في ثنايا كل سطر من سطورهِ فهو أبعد ما يكون عن التاريخ الذي يجب أن يكتب كما هو ، دون تحيز وبكل نزاهة ودقة ، لا بتغيير الحقائق فضلا عن تشويهها وقلبها رأسا على عقب ، كما حدث من استغلاله لمجرد مشابهة لفظية عثر عليها بأن جعل فضلوى من أسرة تركية لا كردية مخالفا بذلك روايات ونصوص المعاصرين من المؤرخين التي سجلها كتاب (كزيده) وغيره من الكتّاب التي يعول عليها ، والظاهر أنه تردد في القول بهذه النظرية الغريبة ، فاضطر أخيرا لأن ينسب غلبة (أبي طاهر) وانصاره إلى قائد جيش الترك ، وهكذا استرسل في العداء وطمس معالم الحقيقة بل وأنكر وجود الشعب الكردي وقوميته البارزة في مختلف عصور التاريخ .

ورغم ذلك فإن التاريخ ليعترف ويهتف بأعلى صوته بأن هذه الحكومة المحلية كانت كردية لحما ودما ، وأنها عاشت مستقلة مائة عام أو أكثر ، منذ ظهور (أبي طاهر) على مسرح التاريخ حتى ظهور شبح المغول في العالم الاسلامي . وبعده خضعت للمغول ثم للتموريين شأنها في ذلك شأن سائر الحكومات الشرقية .

الفصل التاسع

٩ - حكومة اللر الصغير (٥٧٠ - ١٢٥٠ هـ)

أو

الأسرة الخورشيدية

كانت العشائر اللورية وغيرها من العشائر بشمال (لرستان) وشماله الغربي تعيش حتى أواسط القرن السادس الهجري عيشة قبلية ، تستقل كل عشيرة وكل أسرة منها بشؤونها الخاصة . وفيما يلي بيان بأسماء عشائر ذلك العهد حسب رواية تاريخ (كزيده) :

داوودي ، عباسي ، محمدكوماري ، كروهي ، جنكروني (هذه العشائر هي أصل اللر الصغير حيث كانت الإمارة فيهم ، وهي من فرع السلغريين) وهناك عشائر أخرى غير تلك التي ذكرناها مثل : كارندي ، جنكردي ، فضلي سنوندي ، آلافي ، كاهكاهي ، رجواركي ، دري ، براوند ، مابكي ، داري آبادكي ، أبو العباس ، علومائي ، كجائي ، سلسكي ، خودكي ، بندوني ، إلى غير ذلك ، أما عشائر (ساهي ، أرسان ، أركي ، بهي) فهي وإن كانت تتكلم اللهجة اللورية إلا أنها لم تكن من اللر ، كما أن سكان القرى هم الآخرون فلم يكونوا يدخلون في عداد اللور .

هذا ولم يكن لهذه العشائر جميعها إدارة خاصة حتى منتصف القرن السادس الهجري بل كانت خاضعة للحكومة المركزية في بغداد مباشرة .

ففي عام (١٢٥٠ هـ) عين تركي أفشاري يدعي (حسام الدين سوهلي) حاكماً للـر الصغير وخوزستان من قبل السلجوقيين ، وكان أجداد الأسرة

الخورشيدية^(١) في معية هذا الحاكم الساجوقي ، وكانوا لورا من عشيرة الجنكروى ، وكان (شجاع الدين خورشيد بن أبى بكر بن محمد بن خورشيد) من آل خورشيد يحتل مع أخيه (نور الدين محمد) مكانة سامية لدى (حسام الدين سوهلى) ، فكان (شجاع الدين خورشيد) محافظا من قبله لقسم من اللرا الصغير .

(١) - « شجاع الدين خورشيد »

تولى حكم اللرا الصغير بأكمله على سبيل الاستقلال به ، بعد وفاة (حسام الدين سوهلى) فى عام (٥٧٠ هـ) وكان يرأس عشيرة (جنكروى) التى تنتمى إليها أسرة (شجاع الدين خورشيد) وقتذاك ، (سرخاب بن عيار) الذى كان منافسا وخصما لشجاع الدين ، ولهذا جرد عليه (شجاع الدين) جيشا حاصره فى (دزى سياه = القلعة السوداء) واضطر أهالى (مانرود) كلها للهجرة والرحيل ، مما أدى إلى تدخل خليفة بغداد فى الأمر ، وبذل وساطته لحسم النزاع فأمر (شجاع الدين) بأن يتنازل عن قلعة (مانكاره) فقط ، وأن يرجع عن خصمه فأطاع (شجاع الدين) أمر الخليفة الذى كافأه على طاعته إياه باسناده حكم ناحية (طرازك — بخوزستان) إليه^(٢)

(١) تقول « دائرة المعارف الاسلامية » انه كان هنالك قبل تشكيل دولة « أتابكية اللرا الكبير » فى هذه البلاد ، حاكم له وزير يدعى « خورشيد » ويظهر أن لخورشيد هذا علاقة بخورشيد رأس الأسرة الخورشيدية .

(٢) يذكر تاريخ « كزیده » هذه الواقعة بشكل آخر فيقول : ان شجاع الدين تمكن من سرخاب حتى سلم له بمحافضة « مانرود » ثم أرسل شجاع الدين =

ويحدثنا تاريخ (كزیده) عن البقية الباقية من أيام (شجاع الدين) فيقول بأن هذا الأمير كان طاعنا في السن ، ولهذا كان يلزمه دائما في غدوه ورواحه كل من ابنه (بدر) وابن أخيه (سيف الدين رستم) ، ويقومان بتنفيذ أوامره وفي هذه الأثناء كانت عشيرة (بيات) مستولية على أجزاء من بلاد لورستان فقام بدر وسيف الدين بمهاجمة هذه العشيرة وأخرجها من لورستان بعد قتال عنيف طال أمده . وكان (شجاع الدين) قد عين ابنه (بدر) وليا لعهدده على أن يكون (سيف الدين رستم) وليا للعهد من بعده ، بيد أن سيف الدين قد افتري فرية على (بدر) وتوسل بها لقتله . وقد علم شجاع الدين أخيرا بخفايا هذه الجناية المروعة ولكن القدر لم يمهله بعدها فتوفي إلى رحمة الله في عام (٦٢١ هـ) عن أكثر من مائة عام . وكان حاكما عادلا أحبه الناس في حياته وبعد مماته حيث أضحي قبره مزارا يحج إليه اللوريون بكل تجلة واحترام وله حرمة وقداسة وشهرة عظيمة . إذ كان رحمه الله يمضي أيامه في رحلات صيفية وشتوية

ابنيه « بدر و حيدرا » بجيش جرار إلى عشيرة جنكروى فنازلاها وحاصرا قلعة « دزسيه » وقتل « حيدر » في المعركة مما أثار نقمة « شجاع الدين » على أفراد هذه العشيرة وجعله يقتل كل من يقع في يده منهم حتى ثار جميع أهالى (مانرود) وأخذوا يجلبون عن أوطانهم . وبعد مد دعائم مركز الخلافة للمثول بين يدي الخليفة فذهب اليه كل من (شجاع الدين) وأخيه (نور الدين) فطلب اليهما إخلاء قلعة مانكاره من رجالهما فرفضا طلبه فزج بهما في غيابة السجن ، ومات نور الدين في السجن بعد أن أوصى أخاه بالأيترك القلعة لأحد قط ، ولكن شجاع الدين لما أيقن بالألأ نجاة له من السجن إلا بترك القلعة عرض على المسؤولين بدار الخلافة أن يتركها على أن يعوض عنها بقلعة « طرازك » ، فقبلوا طلبه . وأطلقوا سراحه ، فعاد إلى « لورستان » في عام (٥٩٠) للهجرة حيث حكم البلاد بعد ذلك مدة ثلاثين عاما أخرى . المؤلف

فكان يقيم صيفا في (كيربت) ، وشتاء في قرية (دهلوران = دهلوران في بشتكوه) ، ولسكن العاصمة كانت مدينة (خرم آباد) .

٢ - « آتابك سيف الدين رستم »

هو ابن (نور الدين محمد) ، وقد نال لقب آتابك ، ونشر لواء العدل ، وحقق المساواة بين الناس . وهناك قصص حية تدل على ما كان يسود البلاد في عهده الزاهر من هناة ورفاهة . وهو الذي أصدر أمرا بمنع الاغارات المشينة التي كانت القبائل دائبة على شنها دون هوادة ، مما أثار عليه نقمة بعض الزعماء وغضبهم ، فالتفوا حول أخيه (شرف الدين أبو بكر) ، وتربصوا له حتى دخل الحمام ذات يوم فانقضوا عليه انقضاض الصاعقة ، ولكنه تمكن من الفرار من بين براثنهم بأعجوبة ، فتعقبوه وطاردوه حتى قتلوه هو وابن أخيه (علي بن بدر) .

٣ - « شرف الدين أبو بكر »

كان عهد هذا الأمير مليئا بالدسائس والنزاع والمنافسة والعداء المستحکم بين أعضاء الأسرة المالكة .

٤ - « عز الدين كرشاسب »

هو أخو (شرف الدين أبو بكر) ، وقد تزوج امرأة أخيه « ملكة خاتون » أخت (سليمان شاد) قائد الخليفة المستعصم . وما أن علم (حسام الدين خليل بن بدر) الذي كان مقيما منذ أمد في بغداد ، بأن (عز الدين كرشاسب) أصبح حاكم لرستان حتى خف سراعا إلى خوزستان ، وهناك حشد جيشا تقدم به نحو (لرستان) ، وكان (عز الدين

على يقين بأن لا قبل له بمقاومة هذا الجيش الجرار . إلا أنه اضطر لذلك اضطرارا تحت تأثير امرأته وأخته ، ولما رأى الجيش اللورى ، ألا طائل من وراء التصدى لهذا الجيش ، انحاز إلى المغيرين ، فاضطر عز الدين للتسليم والتخلي عن الحكم ، فدانت أمور البلاد لحسام الدين وتربع على أريكة الحكم .

٥ - « حسام الدين خليل »

هو ابن (بدر بن شجاع الدين خورشيد) ، كان قد لجأ إلى بغداد بعد مقتل والده . ولما دانت له الأمور واستولى على حكومة اللر الصغير كما يبناه ، عين (عز الدين كرشاسب) وليا لعهد ، ولكنه عاد فدعاه إليه وقتله لأسباب ومعاذير انتحلها ما أنزل الله بها من سلطان : ولما ترامى نبال ذلك إلى مسامع امرأة عز الدين (ملكة خاتون) عمدت سرا إلى إرسال ثلاثة أبناء لعز الدين كانوا ما يزالون أطفالا - إلى أخيها شهاب الدين سليمان نشاه (١) . ومن هنا بدأ العداء ينشب أظفاره بين حسام الدين وسليمان نشاه لدرجة أنه حدث في خلال شهر واحد أن نشب بينهما قتال لعدة مرات لهذا السبب . وفي النهاية حاقت الهزيمة بسليمان نشاه ، وأدى هذا الخذلان إلى دخول قلعة (بهار) وبضعة بلدان أخرى من مقاطعة (كردستان) في حوزة حسام الدين . وأخيرا قام سليمان نشاه على رأس حملة عسكرية كبيرة ، تعضده دار الخلافة لمهاجمة (حسام الدين) ، فالتقى الجمعان بسهل (شاپور خواست) ودارت بينهما رحى معركة طاحنة أسفرت عن مقتل (حسام الدين خليل) وانتصار خصمه ، في عام (١٤٠) للهجرة .

(١) هو سليمان بن برجم الايوأى مقدم الطائفة الايوأية التركمانية كما في ملحق تاريخ العراق للأعزأوى نقلا من نهج البلاغة .
المرجم

٦ — « بدر الدين مسعود »

كان أخا لحسام الدين ، وقد ذهب إلى بلاط (منكوخان) بعد مقتل أخيه ورفع إليه شكايته وعرض عليه أمره ، ثم جاء إلى إيران مع (هلاكو) حين زحفه على بغداد . ولما قتل (سليمانشاه) في حادث استيلاء المغول على بغداد ، عمده (بدر الدين مسعود) إلى نقل أسرة سليمانشاه وذوى قريبه معه إلى لرستان . وبعد أن حكم البلاد ستة عشر عاما توفي إلى رحمة الله عام (٦٥٨ هـ) . وكان أميرا عادلا عاقلا عالما تقيا رحيمًا بارًا بالريعية ، وبارعًا في فقه الشافعية . وبعد وفاته ، دب ديب الخلاف ونشب القتال بين اثنين من أبنائه وبين (تاج الدين شاه) ، وظل القتال محتدما إلى أن جاء (أبقاخان) وتدخل بين الفريقين ، وأصدر أمرا بقتل ابني (بدر الدين مسعود) ، وبأسناد حكم البلاد إلى (تاج الدين) .

٧ — « تاج الدين شاه »

حكم هذا الأمير البلاد سبعة عشر عاما ، وكان حازما في إدارته وعادلا في حكمه يقول صاحب كتاب (عالم آراي عباسي) في المجلد الثاني منه ان هذه الأسرة الخورشيدية كانت تلقب بالعباسية أيضا ، وذلك راجع إلى أن بلادها كانت من أملاك الخلفاء العباسيين خاصة . وأخيرا في عام (٦٧٧) للهجرة قتل (أبقاخان) هذا الأمير أيضا .

٨ — « فلك الدين وعز الدين »

بعد أن قتل (أبقاخان) ، الأمير (تاج الدين شاه) ، عمده إلى تنصيب (فلك الدين) و (عز الدين) ولدى (بدر الدين مسعود) حاكمين على البلاد

وتنفيذا للأرادة الايلخانية المغولية كانت إدارة الشؤون المالية مسندة إلى (فلك الدين) في حين كان يقوم أخوه (عز الدين) بإدارة شئون الأملاك الخاصة بالخاقان (السلطان الأعظم). وقد قام هذان الأخوان بتصرف شئون «لرستان» خمسة عشر عاما بكل حكمة وجدارة، حتى أصبح للبلاد قوة عسكرية يعتد بها، قوامها سبعة عشر ألف مقاتل. كما نجحوا في طرد البياتيين من «لرستان» عن آخرهم، وفي توسيع حدود البلاد حتى بلغ امتدادها إلى (شستر) و(همدان) و(أصفهان) من ناحية، ثم إلى العراق العربي من الناحية الأخرى فكان الأمير (فلك الدين) عاقلا وعالما مطلعاً، في حين كان الأمير (عز الدين) طاغيا جبارا قهارا، ومع ذلك لم يكن لهذا الاختلاف البين، بين الأخوين أية تأثير على إدارة شؤون البلاد، فقد حكما البلاد بالعدل والمساواة فكانت راية السلام ترفرف في الداخل على الجميع بلا استثناء، كما كانت العلاقات الخارجية طيبة، مع الدول المجاورة وتسودها المودة والصداقة. ومن المصادفات العجيبة أن هذين الأخوين قد انتقلا سويا إلى رحمة الله في عام واحد هو (٦٩٣ هـ).

٩ — «جمال الدين خضر»

كان ابنا للأمير (تاج الدين شاه)، وقد أصدر (كينخاتوخان) مرسوما بتعيينه حاكما على البلاد، ولكن ظهر له منافسان قويا الشكيمة وهما (حسام الدين عمر) حفيد (بدر بن شجاع الدين خورشيد) و(شمس الدين الياس) فأخذا يعرقلان جهوده، ويناوآنه وينازعانه الحكيم والسلطان حتى انتهزا بالتعاون مع المغول المحتلين للبلاد، خروجه ذات يوم للصيد والقنص فاغتالوه ومن معه من خدامه وهكذا انقرضت ذرية «حسام الدين خليل» من البلاد في عام (٦٩٣) للهجرة.

١٠ — « حسام الدين عمر »

تولى هذا الأمير مقاليد الأمور قوة واغتصابا ، وقد نازعه الحكم وناصبه
العداء كل من « صمصام الدين محمود » و « نور الدين محمود » نجلى « عز الدين
كرشاسب » وسائر أقاربه ، وكان « حسام الدين » يعتز بالمغول ويعتمد عليهم
بينما كان كافة الأمراء من آل خورشيد يعضدون « صمصام الدين محمود »
ويشدون أزره ، لأنه كان أميرا شجاعا راجح العقل . وقد استطاع فى فترة
وجيزة حشد جيش لجب زحف على رأسه من حدود « خوزستان » إلى ناحية
« خرم آباد » ، مما أدى إلى تنازل (حسام الدين عمر) عن الحكم لصمصام الدين

١١ — « صمصام الدين محمود »

انقضى عهد هذا الأمير فى فتن داخلية ومنازعات طاحنة بين الأقارب
وذوى الرحم حول تولى الحكم . وقد قتله (غازان خان) فى عام (٦٩٥) للهجرة .

١٢ — « عز الدين أحمد ^(١) »

كان ابنا للأمير محمد بن عز الدين حسين بدر الدين مسعود . وقد عين حاكما
على (لرستان) بعد صمصام الدين وهو ما يزال طفلا ، ولهذا أبى ابن عمه (بدر الدين
مسعود بن فلك الدين حسن) أن يخضع له بحجة أنه أكبر منه سنا وأكثر شدا ،
مما حمل (أولجايتو خان) ^(١) على تعيين ابن عمه هذا أتابكا وحاكما على
(دلار) ^(١) . وترك تسم (انجو) من البلاد تحت حكم (عز الدين) الذى انفرد

(١) فى (شرفنامه) « عز الدين محمد » لا « أحمد » والسلطان (محمد
خدا بنده) لا (اولجايتو خان) و (ولاي) لا (دلار) . المترجم

بحكم كافة بلاد اللر الصغير بعد وفاة ابن عمه (بدر الدين) هذا .

١٢ — « دولت خاتون »

تولت الحكم في البلاد بعد وفاة زوجها الأمير (عز الدين أحمد) ، ولكنها لم تتمكن من مباشرة شئون الدولة كما يجب بسبب تدخل المغول (١) وتقول رواية من الروايات ان هذه الملكة تخلت عن الحكم بعد فترة ، لعز الدين حسين (ويروى شرفنامه أنه أخرها . المترجم) بسبب زواجها من يوسفشاه أتابك اللر الكبير .

١٤ — « عز الدين حسين »

اعترف السلطان أبو سعيد بحكومة هذا الأمير التي عمرت أربعة عشر عاما

١٥ — « شجاع الدين محمود »

جاء في رواية للدكتور فريج أن هذا الأمير قد حاول الاستقلال بشؤون البلاد وعدم الاعتراف بسلطة المغول ، ولكن الشعب قد أبي أن يسايره في تحقيق هذه الرغبة ، وامتشق الحسام وقاومه حتى أزاله من الوجود .

ولكن كتاب (شرفنامه) يقول انه ابن الأمير السابق ويرجع مقتله إلى خلاف من نوع آخر نشب بينه وبين الأهالي . ومهما تعددت الأسباب وتباينت فالثابت أنه قد قضى عليه في عام ٧٥٠ للهجرة .

(١) يذكر تاريخ (كزیده) حوادث هذه الدولة حتى عهد (دولت خاتون) هذه ، أما الباقي فمأخوذ من دائرة المعارف الاسلامية ، ومن مؤلف الدكتور فريج أي الترجمة التركية . باسم (كر دلر) . المؤلف

١٦ - « الملك عز الدين بن شجاع الدين »

كان ما يزال طفلا لم يتعد الثانية عشرة من عمره حين وفاة والده . وفي سنة ٨٧٥ للهجرة وصل (شاه شجاع) من آل مظفر بجيشه إلى (خرم آباد) وتزوج فيها من إحدى بنات الملك عز الدين ، وقد تزوج من الأخرى السلطان أحمد الجلايري حاكم بغداد . وفي عام (٧٨٨) للهجرة حينما وصل (تيمورلنك) إلى إيران كان لرستان الصغير يسوده اضطراب وقلاقل ، فبادر تيمور إلى الزحف من فيروزكوه إلى لرستان ، وحاصر خرم آباد أمدا قصيرا ثم ما لبث أن استولى عليها وخربها ، ثم أعمل السيف في رقاب الناس حتى قضى على جميع رؤساء اللار وعلى رجالهم البارزين ، فعم الخراب والدمار جميع البلاد من أقصاها إلى أقصاها .

وتقول بعض الروايات . ان الملك عز الدين وولده (سيد احمد) أسرا في قلعة (رميان) الواقعة على مقربة من (بروجرد) ، فاعتقل هو في (سمرقند) وابنه في قلعة (أندكان) على مقربة من همذان . ثم أرسل إلى لرستان بعد ثلاث سنوات وقد أبدى الملك عز الدين هذا نشاطا محسوسا في أيام زين العابدين من آل المظفر . وفي عام (٧٩٥) عاد تيمورلنك إلى إيران ، وجعل البلاد في هذه المرة خرابا يابا بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ ، كما أغرق لرستان في بحار من الدماء ودمرها تدميرا ، ومع ذلك لم يتمكن من القبض على الملك عز الدين ولا على ابنه الذي فر هاربا من البلاد . وقد استغل (محمد سلطان) حاكم فارس اضطراب حبل الأمور في هذه البلاد في تلك الأثناء ، فجرد جيشا في عام (٧٩٨) للهجرة ، على خوزستان ولرستان واستولى عليهما . وتقول رواية أخرى ان تيمورلنك قد قبض على الملك عز الدين بن شجاع بعد مدة وقتله سنة (٨٠٤ هـ) .

١٧ - « الملك سيد أحمد »

كان محتفيا حين مقتل والده ، ثم خرج من مخبئه وظهر للعيان بعد أن انقضى زمن تيمورلنك وأسدل عليه الستار : وأسس حكومته في لرستان من جديد عام (٨١٠) للهجرة ، وظل يحكم البلاد مستقلا حتى عام ٨١٥ للهجرة .

١٨ - « شاه حسين »

تولى زمام الحكم بعد وفاة أخيه (سيد أحمد) ، وانتهن فرصة النزاع الناشب بين أحفاد (تيمور) وشرع في توسيع حدود مملكته حتى امتدت إلى (همدان) و (جرباذقان) و (أصفهان) . وقد غزا أقليم (شهرزور) أيضا ، بيد أن القدر قد قسا عليه فأوقعه أسيرا في أيدي عشيرة (بهارلو) فكانت هذه نهايته ، حيث قضى عليه في عام (٨٧١) للهجرة .

١٩ - « شاه رستم »

كان ابنا لشاه حسين ، وقد تولى الحكم بعد والده ، ولما رجع الشاه اسماعيل الصفوى من فتح بغداد إلى (حويزه) حشد جيشا مؤلفا من عشرة آلاف رجل بقيادة (حسن بك لالا) و (بيرام بك قرمانلو) ، وجرده على (شاه رستم) الذى اضطر إلى الاعتصام بالجبال لأنه لم يستطع الصمود أمام هذا الجيش العرمرم ، ولما ضاقت به السبل بادر إلى التسليم ، وجاء للقاء الشاه اسماعيل الذى منحه عفوه وأظهر تقديره له وأعاده حاكما على لرستان . (١)

(١) يقول (تاريخ عالم آراى عباسى) ان « شاه رستم » كان ذا لحية طويلة ، وقد أمره الشاه اسماعيل أن يزينها بالدرر والجواهر ويحضر إلى بلاط الشاه على هذه الصورة ، فنفذ أمر الشاه . (ج - ١) المؤلف

٢٠ - «أوغوز خان»

كان ابنا لشاه رستم ، أسند إليه الشاه (طهماسب) قيادة جيش إيران وفي الحق أنه كان قائدا مغورا وجنديا صنديدا ، وقد زحف في عام (٩٤٠ هـ) بجيش لجب إلى ماوراء النهر لمنازلة (عبد الله خان أزبك) الذي كان قد وصل وقتذاك إلى (خراسان) مهددا إيران كلها بالخطر الداهم والشر المستطير وكان أوغوز خان قد ترك أخاه (جهانكير) نائبا عنه في « لرستان » طيلة أيام حروبه في خراسان وماوراء النهر فما كان من هذا الأخ إلا أن انتهز فرصة تغيب أخيه عن البلاد وانشغاله في الحروب ، وسارع بإعلان استقلاله بلرستان بمساعدة الشعب الذي آزره وأيده بجميع قواه ، ولما عاد (أوغوز خان) من ميدان الحرب اشتبك مع أخيه في حروب داهية أسفرت عن قتله خلال إحدى المعارك .

٢١ - « جهانكير »

عالج هذا الأمير شئون الحكم مستقلا ودون منافس بعدمقتل أوغوز خان بضع سنين لم يحدث خلالها توتر في العلاقات بينه وبين الدولة الصفوية ، والسر في ذلك هو أنه لما وصل الشاه (طهماسب) إلى تلك البقاع عام ٩٤٨ لتأديب (علاء الدولة رعناش) والى (ديزفولي) فقد سارع (جهانكير) إلى بلاطه ، وقدم له فروض الولاء والاخلاص والاجلال .

ويقول (اسكندر منشى) في المجلد الثانى من كتابه ان (جهانكير) قد انقلب أخيرا وشق عصا الطاعة على إيران ، فجرد عليه الشاه (طهماسب) الأول جيشا لجبا بقيادة (عبد الله خان استاجلو) ، ودارت رحى معركة طاحنة بين الفريقين أسفرت عن قتل (جهانكير) واندحار جيشه ، وانطلق الجيش الايراني في سرايين البلاد يعميث فيها فسادا ، وقتل الكثيرين من الأبرياء حتى جعل البلاد قاعا صفصفا .

وقد لجأ كل من (شاه رستم) وأخيه (محمدى) ولدى (جهانكير) إلى بلاطه

بغداد ، وبعد فترة توسط لهما (سيد أمير) لدى الشاه ، فعفا (١) عن شاه رستم ولكن رغبته الملحة في الاستقلال وسعيه الخثيث المتواصل لتحقيقه أدى في النهاية إلى إلقاء القبض عليه وقتله في عام ٩٤٩ للهجرة .

(٢٢) - « شاه رستم الثاني »

كان هذا الأمير ابنا لجهانكير ، وقد اعترف الشاه (طهماسب) بحكومته دون رغبة أو ارتياح ، لأن حكام (لرستان) ما كانوا ينقطعون أو يكفون عن أحداث القلاقل وإشعال نار الفتن في سبيل نزعتهم الاستقلالية ، الأمر الذي دفع الشاه (طهماسب) إلى القضاء على هذه الأسرة القديمة لاسيما وأن شاه (رستم) لم يكن له سوى أخ صغير وحيد . فأوعز في يوم ما إلى الأمير (مسلم كودرزي) أحد أمراء (شاه رستم) بأن يخدع سيده ويستدرجه إلى طهران . فحقق الأمير طلبة الشاه (طهماسب) الذي تمكن بتلك الحيلة الجهنمية من إلقاء القبض على (شاه رستم) والزج به في غياهب السجون . ولما أدرك الشعب اللوري الغرض الذي يرمى إليه الشاه (طهماسب) من وراء هذا العمل بادروا إلى نقل (محمدى) الصغير أخى (شاه رستم) إلى قلعة (چنكوله = شنكوله) وإخفائه فيها ، وتولت حراسته قوة عسكرية يعتد بها . وهكذا لبثت البلاد بغير حاكم بضع سنين . وإذا برجل يظهر فجأة مدعيًا بأنه (شاه رستم) وأنه تمكن من الفرار من السجن . وكان الرجل يبدى معرفة تامة بالبلاد ، فضلا عن أنه كان يشبه (شاه رستم) تمام الشبه لدرجة أن نساءه

(١) ولكن نفس المؤرخ (اسكندر منشى) يقول ان الشاه (طهماسب) بعد ان عفا عنهما ، قسم بلاد لرستان الصغير بين (شاه رستم) واخيه (محمدى) ، في حين أن دائرة المعارف الاسلامية تقول غير هذا القول . المؤلف

أنفسهن لم يفتن إلى كذب هذا الدعي الأفاك . وهكذا تم احياء حكومة لرستان من جديد ولكن بشكل آخر .

ولما ترامي نبأ ذلك إلى مسامع الشاه (عباس) تملكه الغضب ، وأطلق سراح (شاه رستم) الحقيقي على الفور ، وسلمه مرسوماً بإسناد الأمانة إليه وأمره بالعودة سراعا إلى لرستان ، وما أن وطئت قدماه أرض البلاد حتى انكشفت حقيقة الأمير الدعي الكذاب ، فقبض عليه وقتل . وهكذا عاد الحق إلى نصابه ، وتولى الأمر صاحبه الشرعي .

وفي خلال تلك الحقبة كان أخوه الأمير (محمدى) قد شب وكبر والتف حوله أنصار كثيرون ، يطالبون له بالأمانة ، وكاد القتال ينشب بين الأخوين لهذا السبب لو لا تدخل بعض الزعماء بينهما ، وقد أدى تدخلهم إلى عقد صلح بين الأخوين أشرط فيه بقاء أربعة أسداس البلاد تحت إمرة (شاه رستم) وتسليم السدسين الباقين إلى أخيه (محمدى) وقد تلا عقد الصلح فترة سكون وهدوء ولكن الأمير (محمدى) لم يكن ليقتنع بنصيبه ، وما فتئ يحدث القلاقل ويشير الاضطرابات ضد أخيه حتى دبر له أخوه (شاه رستم) مكيدة للتخلص من متاعبه . فدعاه ورجاله ذات يوم إلى وليمة كبرى وما أن حضروها واجتمع شملهم حتى ألقى القبض عليهم وزج بهم في غياهب السجن .

وكان للأمير محمدى هذا ثلاثة أبناء ، ما أن علموا بما آل إليه أمر أبيهم حتى شقوا عصا الطاعة ، وأقضوا مضاجع كل من (شاه رستم) والشاه (طهماسب) فأصبحت البلاد بالنكبات ولقي الناس الكثير من الويلات ولحققتهم الأضرار من جراء ذلك ، ولم يقف زعماء اللور مكتوفي الأيدي أمام هذه الحالة المثيرة

(١) يقول المصدر السابق انه قبض على (محمدى) من قبل أمير خان الموصللو

وحبس في قلعة آغوت . المؤلف

فاجتمعوا وفكروا في إيجاد وسيلة لاختاد نيران الثورة وقطع دابر الفساد من البلاد ، فاجدوا وسيلة أنجمع من إصدار قرار باعادة (محمدي) إلى الحكم وأرسلوا بمحضر اجتماعهم مشفوعا برأيهم إلى بلاط الشاه وقد وافق الشاه على هذا الرأي ونفذ طلبتهم بشرط إرسال أبناء (محمدي) إلى طهران كرهائن لديه ، وهكذا أطلق سراح (محمدي) ولكن لم يمض على إطلاق سراحه طويل وقت حتى انتهز أبناؤه فرصة سنحت لهم ففروا من طهران ورجعوا إلى أبيهم ، ثم أخذ محمدي في مضايقة شاه رستم وإيغار صدره من جديد ومنازعة الحكم حتى تمكن من انتزاع لرستان من يده والانفراد بالحكم ، ثم تطورت العلاقات بين محمدي وبين البلاط الإيراني فأصبحت ودية للغاية ، كما أنه حسن علاقاته أيضا بالعثمانيين حيث أنشأ صلات طيبة بينه وبين سلطانهم «مراد» الثالث ، كان من نتيجتها أن ضمن للرستان الصغير حماية الدولة العثمانية سنة ٩٩٢ هـ وضم نواح (مندي وبدره وجسان وتورساق) إلى بلاده.

بيد أنه لم يمض على هذا طويل وقت حتى ساءت علاقاته بالدولة العثمانية فاضطر إلى التفاهم مع شاه إيران ورفض حماية العثمانيين الذين غضبوا لذلك وأمروا حاكم بغداد العثماني بالزحف على لرستان لتأديب حاكمه فنفذ الأمر ولكنه أخفق في مهمته

(٢٣) - «شاه ويردي»

كان (شاه ويردي) رهينة في بغداد حين وفاة والده (محمدي) وما أن علم بوفاة والده حتى أخذ يفكر في وسيلة للخلاص حتى تهيأت له أسباب الفرار وتمكن من الوصول إلى لرستان في الوقت المناسب واعتلى عرش أبيه واعترف له الشاه (محمد خدا بنده) الصفوي بالحكومة والامارة .

ويقول «تاريخ عالم آراي عباسي ج - ٢ ، ان (شاه ويردي خان) كان

قد ذهب إلى همذان حين هاجم الجيش العثماني (نهاوند) واستولى عليها ، ولما ترامت الأنباء إلى همذان بأن (سنان باشا) قائد الجيش العثماني متجه صوب (همذان) ، كاشف حاكمها بأن الجيش الإيراني قليل العدد لا يعول عليه ولا يمكن الصمود به أمام جحافل العدو ونصح له بعدم التصدي لهذه الجحافل المتدفقة . ولكن حاكم (همذان) قد أصم أذنيه عن الاستماع إلى هذه النصيحة السديدة وخاض غمار الحرب فوق أسير في قبضة العدو ، وعاد (شاه ويردى) إلى لرستان . وفي خلال تلك الفترة حدثت هجرة عشيرة (قره أولوس) الضاربة في جهات نهاوند إلى بلاد لرستان فاضطر (شاه ويردى) إلى الترحيب بهم . وقد سلك مع العثمانيين مسلك المداراة وتصنع معهم السياسة رعاية لمصالحه ومحافظة على استقلال البلاد .

وفي العام الألف للهجرة (١٠٠٠ هـ) تحسنت علاقته بالحكومة الإيرانية حيث لم يجد من جانب الترك المعونة التي كانت ينتظرها منهم ، فزوج أخته شاه إيران ، وتزوج هو من إحدى أميرات الأسرة الصفوية الإيرانية . ولكن هذا التفاهم وذلك الانسجام لم يدوما طويلا ، إذ نشب القتال بينه وبين (اوغورلى سلطان) البياقي حاكم أصفهان حينما قدم إلى (بروجرد) لتحصيل الأموال الأميرية فقتل في إحدى المعارك الخاطفة . وكان الشاه عباس - وقتذاك - في خراسان ، وما أن ترامت أنباء هذا القتال المشيرة إلى مسامحه حتى عاد سراعا إلى لرستان لتأديب (شاه ويردى) الذي لم يصمد أمام الشاه ولجأ إلى الدولة العثمانية ، فقسم الشاه عباس بلاد لرستان إلى قسمين أحدهما يشمل منطقة (خرم آباد) وقد أعطاه لمهدى قلى خان شاملو وثانيهما ويشتمل على ما تبقى من البلاد أسنده إلى (سلطان حسين بن شاه رستم) . ونقل عشيرة (قره أولوس) إلى منطقة (عليشكر)

عام ١٠٠٢ للهجرة: ثم عطف على عشيرة (البيات) فأديها صارما (١).
وبعد عام أصدرت الحكومة الإيرانية عفوها عن (شاه ويردى) على
أثر توسط كل من (اعتماد الدولة) و (فرهادخان) لصالحه، فعاد إلى لرستان
بعد أن تعطف عليه الشاه بالانعامات والخلع السنية، وأعاد إليه إمارة منطقة
(خرم آباد).

وفي عام (١٠٠٦) للهجرة عاد الشاه عباس فجرد عليه حملة من أجل (خرم آباد)
فعمد (شاه ويردى) إلى الفرار واعتصم بقلعة «جنكوله»، ولكن قوة من
حملة الشاه العسكرية يقودها (الله ويردى خان) قد تعقبته حتى القلعة، وبعد صدام
عنيف وقتال قصير الأمد ألقت القبض على (شاه ويردى) وجيء به إلى الشاه
عباس في (صدمره) فأمر بقتله. وبعد مقتل (شاه ويردى) ولوان (حسين
خان بن منصور بك) صار حاكما على قسم من لرستان، إلا أن (طهماسب قلى)
أغنى نادرشاه أقطع بلدان (الصيمرة وهيزماس وبشتكوه) لعشيرة (أينانلو)
وهكذا أسدل الستار على حكومة (لرستان الصغير) وكان ذلك في عام
(٩٩٣ هـ - ١٥٨٥ م) (٢) ومع ذلك تمكن أحفاد (شاه ويردى) من المحافظة
على إمارة صغيرة في (بشتكوه) ظلت في أيديهم وتعاقب عليها ابتداء من عهد
(حسين خان) حكام منهم، عرفوا باسم الولاية: وهم حسين خان، إسماعيل خان
أسد خان، حسن خان، كلب على خان، على خان، حيدر على خان (هذان
الواليان الأخيران كانا ابني حسن خان المتوفى سنة ١٢٥٦ هـ = ١٨٤٠ م)
وحسين قلى خان و غلام رضا خان. (وفي عهد هذا الوالى الأخير وهو آخر
وال مستقل للورستان، عمده (رضا شاه بهلوى) إلى ولاية لورستان فألغى

المؤلف

(١) تاريخ عالم آراى عباسى جزء ثان.

المترجم

(٢) كذا، ولعله (١٠٠٤ - ١٥٩٥ هـ)

إمارتها المستقلة وربطها مع سائر الولايات الإيرانية بالحكومة المركزية .

ملحوظة :

إذا أمعنا النظر في أحوال هذه الحكومة العريقة في القدم لوجدنا أن فترة الاستقلال والحرية الكاملة لهذه الحكومة لم تعمر طويلا ، وكل ما في الأمر أنها تمتعت بالاستقلال التام في عهد (شجاع الدين خورشيد الثاني) لمدة ثلاثين عاما . إذ أفضى النزاع الداخلي بين أعضاء الأسرة المالكة حول الحكم إلى ضعف البلاد ، وانحلالها . وكان ولا يزال هذا الداء الاجتماعي الفتاك مستشرياً في كيان أغلب حكومات تلك العهود . ثم توالى إغارات المغول والتموريين على البلاد تلك الاغارات التي أكرهت الحكومة اللورية على التبعية والخضوع للمغول تارة والتموريين وأحفادهم تارة أخرى ، شأنهم في ذلك شأن سائر الحكومات وقتذاك . ومع ذلك فإنها توسعت كثير في الداخل وفي الخارج ، وأصبحت لا تقل شأننا عن حكومات المناذرة والغساسنة والحمدانيين وأتابكية (ديار بكر) و (ماردين) إذ امتدت رقعة أملاكها من نهر (قارون) إلى (شهرزور) ، ومن حدود العراق حتى (همدان) و (أصفهان) ولا شك في أنها كانت وحدة سياسية لها شأنها بالنسبة للزمان الذي كانت فيه قائمة

الفصل العاشر

١٠ - « الحكومات الايوبية » (٥٦٧ - ٦٨٥ - ٩٥٠ هـ)

(١) - من هو مؤسس هذه الحكومات ، وما اسم كل من والده وجدده ،
ومن أين قدموا ؟

هذه الدولة أو الحكومات هي بحق أعظم الدول التي أسسها الكرد ، ولهذا
يجدر بنا أن نبحث بأسهاب وإمعان في موضوع تأسيسها وفي أصل مؤسسها العظيم
وتحقيق نسبه . فتذهب (دائرة المعارف الاسلامية) إلى القول بأن جد
(صلاح الدين يوسف) مؤسس هذه الدولة، إن هو إلا (شاذى = شاذى) بن مروان
الذى كان من عشيرة الروادى (راوندى) الكردية القاطنة في منطقة (دوين)
وهذه العشيرة بطن من بطون قبيلة (أزبى - هازبى (١)) الكبيرة، ولاريب
في أن نسبة (شاذى) لمدينة (دوين) مسألة في غاية الأهمية . لأننا نعلم أن
الحكومة الشدادية الكردية قامت في مدينة دوين (٢) ولهذا ليس من السهل

(١) هي القبيلة الشهيرة باسم الهذبانىة في أغلب المصادر العربية والاسلامية
ولكن (ابن خلكان) يضبطها هكذا (الهذانية) . وهذا أقرب إلى الأصل
الكردى الذى هو (هذان - هزان - خيزان) إذ لا يزال هو اسم طائفة من
الكرد جنوب بحيرة (وان) . وبلدة بشرق جنوب بدليس . المترجم
(٢) في الواقع أن مسألة (دوين) هذه مهمة جدا ، إذ كانت في منطقة
(أربيل) أيضا مدينة تحمل هذا الاسم وكانت عاصمة الحكومة (سوران)
الكردية ردحا من الزمن . . وكان قسم كبير من القبيلة الهذبانىة الشهيرة
تسكن تلك الجهة في عهد الاتابكية ، ويظهر أن هنالك صلة وثيقة بين =

الاعتقاد بأن الناس في عهد (شادى) كانوا يجهلون أو ينسون ذكرى هذه الحكومة وما كان لها من خطورة الشأن . [من حيث إنها من أولى الحكومات الوطنية التي قامت في أقصى الحدود الشمالية لكردستان . المترجم]

وذكر بعض المؤرخين كابن خلدون سلسلة نسب مفصلة لشادى حيث أوصلها إلى (عوف الحمير الدوسى ؟) ولكن ليس لهذا أدنى نصيب من الصحة بل هو بعيد كل البعد عن الصواب ، إذ الحقيقة أن التاريخ يجهل اسم جد (شادى) (١) .

وقد ولد (أيوب) و (شيركوه) ابنا (شادى) في قرية (أجدانكان أو أجدنقان) ويقول « القاضي ابن شداد » وهو من أصحاب السلطان صلاح الدين ومؤلف كتاب (النوادر السلطانية) ان (نجم الدين أيوب) كان من (دوين) وكان واليا على (تكريت) ويؤيد نفس هذه الرواية أيضا ما قاله (تاج الدين شهنشاه الأيوبي) في كتابه التاريخ من أن (شادى) كان من أهالي (دوين) .

وجاء في رواية أخرى أن (نجم الدين أيوب) ولد في بلدة (شيختان) وعلى ما يظهر (شيخان) (٢) ونشأ وترعرع في الموصل ، وخدم السلطان

= (دوين) هذه وبين القسم المذكور من الهذليانية وأسر « شادى » أيضا ، ولذا فهي في حاجة قصوى إلى تمحيص وتنقيب ، ويظهر أن لفظ « دوين » كرده ومعناه « الحديث أو السؤال » المؤلف

(١) والده معروف وعلى رواية ابن خلدون يدعي « مروان » ج ٢ - ص ٨٤ .

(٢) في ابن خلدون « سجستان » ثم يضعف هذه الرواية ويقول ، وقيل

انه ولد بجبل جور وربى بالموصل ... المترجم

(محمد ملكشاه) الذي عينه محافظا لقلعة (تكريت) . اه من كتاب « الحروب الصليبية ص ١١٢ » .

وقصارى القول ان « شادى » - كما جاء في (دائرة المعارف الاسلامية) كان صديقا بهروز الخادم الرومى الذى كان أستاذا لأبناء الملوك السلجوقيين . وذات يوم غادر (بهروز) هذا بلدة دوين إلى بغداد سرا ، وهناك تقدم بفضل مهارته ولباقته إلى السلطان « مسعود بن ملكشاه » السلجوقى فعينه محافظا لبغداد (١) ولم يلبث بعد توليه هذا المنصب أن بعث فى طلب صديقه (شادى) فلبى دعوته واستجاب لطلبته :

(٢) - كيف تقدموا ؟

غادر شادى جد صلاح الدين وطنه إجابة لرغبة صديقه « مجاهد الدين بهروز » واصطحب معه أسرته إلى بغداد ، وبعد حين تفضل السلطان مسعود ، على بهروز فأقطعته ولاية (تكريت) بصفة التمليك ، وقد أناب مجاهد الدين بهروز صديقه شادى عنه فى إدارة أمور هذه المقاطعة وتصريف شئونها وبعد فترة من الزمن مات (شادى) ودفن فى هذه البلدة وعين ابنه الكبير نجم الدين أيوب خلفا له

وفى عام ٥٢٦ هـ اشتبك أتابك الموصل (عماد الدين زنكى) فى حرب ضروس فى جنوبى تكريت مع جيش للسلجوقيين ببغداد أسفرت عن هزيمته ، هزيمة منكرة واضطراره إلى التقهقر والفرار من الميدان إلى قلعة (تكريت) لاحثا إلى رحاب (نجم الدين أيوب) الذى أكرم وفادته وهيا له الكثير من المعابر من أرمات وأطواف سهلت له عبور دجلة ، الأمر الذى أدى إلى استيلاء حكومة بغداد وشدة غضبها على نجم الدين أيوب ولم يقف الأمر عند هذه الحادثة فحسب

(١) ويقول صاحب مرآة الزمان (٣ - ج ص ٥٨) ان (نهروز = بهروز)

الخادم تعين شحنة لبغداد من قبل (محمد شاه السلجوقى) سنة ٥٠٧ هـ . المؤلف .

بل جدت حوادث أخرى ضاعفت نقمة حكومة بغداد ، منها أن (أسد الدين شيركوه) أخا (نجم الدين أيوب) قد أُردي ضابطا من حامية تكريت قتيلا فزعزع من جراء ذلك مركز الأسيرة بأسرها ، وتملك (بهروز) الخوف على مركزه ، خشية أن تطيح به هذه العاصفة فسارع إلى إقالة (نجم الدين أيوب) من النيابة عنه ، وأنذره بوجوب مغادرة (تكريت) على الفور ، فاضطر (نجم الدين) وأخوه وكافة أفراد أسرتهما إلى مبارحة (تكريت) ليلا في دياجير الظلام ، متجهين شطر الموصل إلى رحاب (عماد الدين زنكي) معللين أنفسهم بأمل حسن وفادته لهم جزاء ما سبق أن أسدوه له من معروف .

ويقال ان «صلاح الدين» ولد بقلعة تكريت في عام (٥٣٢ هـ ١١٣٧ م) (وهو رأي استأنى لين بول أيضا) بينما يذهب بعضهم إلى أن (صلاح الدين) إنما ولد في نفس الليلة التي أمر (مجاهد الدين بهروز) فيها (نجم الدين) وأسرته بضرورة مغادرة (تكريت) ، الأمر الذي أوقع (أيوب) في حيص بيص ، وجر عليه الهم والقلق بسبب متاعب الهجرة المفاجئة ، والآلام التي نجمت عن الوضع في هذا الوقت الغير ملائم .

وما أن وصل (نجم الدين أيوب) وأسرته إلى الموصل ، حتى أكرم (عماد الدين زنكي) وفادتهم ، وتقبلهم قبولا حسنا واضعا نصب عينيه ذلك المعروف الذي سبق أن أسداه له (نجم الدين أيوب) فيما مضى ، فأجرى له راتبا مناسبا ، ولقى الإخوان كل تجلة وإكرام في قصر (عماد الدين) ، وكانا له الساعد الأيمن في بعض حروبه وفتوحاته . ، ولما نجح (عماد الدين) في الاستيلاء على قلعة (بعلبك) خلال هجومه العام على سورية عام (٥٣٤ هـ) عين (نجم الدين أيوب) محافظا لها . هذا ولما لحق (عماد الدين زنكي) بالرفيق الأعلى وصعدت روحه إلى بارئها ، تقاسم أولاده بلدانه فيما بينهم ، ، وعلم (نجم الدين أيوب) أن جنود الشام مقبلون للاستيلاء على (بعلبك) فاستسلم

للأمر الواقع ، ولم يبد أية مقاومة ، بل رافقهم في العودة إلى الشام . وكان هذا التصرف من جانبه في منتهى الحكمة والكياسة . وهناك في بلاد الشام بسم له الحظ ، وأخذت ثقة ولالة الأمور فيه تزداد وتقوى على مر الأيام حتى عين أخيرا رئيسا على كافة جند الشام . وأما (شيركوه) أخوه فقد بقي لدى (نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي) وتبسم له الدهر هو الآخر فظل يتدرج في سلك الترقى حتى أضحى رئيسا لكافة جنوده وقد ظهرت مواهب « نجم الدين أيوب » الحربية وبراعته النادرة أثناء محاصرة الصليبيين دمشق الشام في حملتهم الثانية ، فقد أبدى نجم الدين وقتذاك من الشجاعة الفائقة ، والاستماتة في المقاومة ما حير الصليبيين وألحق بهم هزيمة منكرة ، وخسرانا مينا ، فأطاح بسيولهم الجارفة عن الشام إلى مسافات شاسعة .

وعلى الرغم من أن أمير الشام كان قد قدم فروض الطاعة لنور الدين محمود ، إلا أن هذا لم يحل دون تفكير نور الدين في إعادة الوضع إلى ما كان عليه في عهد والده « عماد الدين زنكي » ، وضرورة الاستيلاء على دمشق ، ، وما لبث أن جرد حملة في عام (٥٤٧ هـ) على دمشق بقيادة شيركوه ، الأمر الذي أوقع نجم الدين أيوب في مشكلة عويصة ، إذ وجد نفسه بين عاملين اثنين لا ثالث لهما ولكن أيسرهما مر ، فاما الاتفاق مع أخيه وهذا ما لا يريده وإما الوقوف في وجهه . وهذا لا بد مؤد إلى محاربة نجح ولي نعمته وهو ما يحرص على تلافي الوقوع فيه . ، وأخيرا بعد أن أعمل الفكر وفق إلى حل وسط انتشله مما وقع فيه من حيرة ، وهذا الحل الوسط ، ما هو إلا اتباعه الطرق السلمية لحل المشكلة ، ، فدخل فورا مع أخيه (شيركوه) في مفاوضات رسمية أفضت إلى دخول جيش (شيركوه) دمشق بعد ستة أيام من اجراء المفاوضات . وبعد فترة من الزمن عين السلطان نور الدين محمود ، نجم الدين أيوب حاكما على دمشق ، وقربه إليه واتخذ له خدنا وصفيا . وأخذت الأمور تجري على أعنتها وتسير على هذا المنوال ، حتى وقع اختيار السلطان (نور الدين) على

صلاح الدين بن أيوب لفتح مصر .

(٣) — « نشأة الأمير صلاح الدين »

أمضى (صلاح الدين) بضعة من سني طفولته في (بعلبك) . ولكن التاريخ للأسف يجهل تماما تفاصيل حياته الأولى هذه . ويقول (ستانلي) انه لا بد وأن يكون مثل (صلاح الدين) كمثل سائر أبناء الأمراء المسلمين الآخرين فتلقى العلم في المدارس الدينية ، وحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة . ولا شك في أنه أتم دراسة على الصرف والنحو على أيدي أساتذة خصوصيين في (بعلبك) ، وتزود بقسط وافر من سائر العلوم كمبادئ الشعر والانشاء وعلوم الحديث والقرآن وغيرها ، لأن والده وقد كان من عظماء الدولة ، كان في مكتبته إحصار أساتذة اختصاصيين وعلماء لتثقيف ابنه ثقافة عالية ويقول صاحب كتاب (طبقات الشافعية) في هذا الصدد ان صلاح الدين تلقى علم الحديث على الحافظ أبي طاهر السلفي ، وأبي طاهر بن عوف ، والشيخ قطب الدين النيسابوري ، وعبد الله بن بري النحوي ، وآخرين من مشاهير علماء عصره . وكان يحفظ القرآن ، وكتاب (التنبية) في الفقه ، وبعض رسائل أخرى عن ظهر قلب . ويقف مؤرخو العرب مكتوفي الأيدي فلا يذكرون شيئا عن عهد (صلاح الدين) قبل سفره إلى مصر ، وان كان البعض من المؤرخين الغربيين قد ذكر أن (صلاح الدين) كان يواظب على مجلس (نور الدين) وكان يلقي من لدنه كل تجلوة لإكرام بصفته ابنالحاكم . دمشق . وكان شابا/عاقلا ، نجيبا ، متدينا ، تقيا ، ويلوح أنه كان كسائر أنجال الأمراء في عصره يميل إلى الصيد والقنص . ولا شك في أنه كان يجيد لعب الكرة والصولجان ، ويشارك السلطان (نور الدين) أحيانا في هذا الضرب الشهير من اللعب . ويؤخذ من كتاب بعث به إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله ،

أنه شارك أباه وعمه - قبل سفره إلى مصر - في جميع غزواتهما وفتوحاتهما .
وكما صرح صاحب كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبي) بأنه كان فارسا بارعا
صنديدا حسبما تقضى عليه قوميته الكردية .

ويقول القاضي (ابن شداد) في كتابه (النوادر السلطانية) ان صلاح الدين
من يوم أن قدم من (بعلبك) إلى دمشق الشام مع والده ، كان يلزمه ويصطحبه
في الحل والترحال ، فيتزود من فضله ، ويتتبع آثاره ويترسم خطاه ، حتى
طبقت شهرته الافاق ، وذاع صيته ، فأقبل عليه السلطان (نور الدين) كل
الإقبال ، وقربه إليه ، وكان يرفع من قدره ، يوما أثر يوم .
ويقول صاحب مرآة الزمان في (ج - ٣ ص ١٥٦) ان السلطان نور الدين
عينه في سنة (٥٦٠) شحنة للشام .

(٤) — «سفره الأول إلى مصر»

لما استنجد (شاور) وزير الخليفة الفاطمي بمصر بالسلطان (نور الدين)
سارع السلطان إلى إرسال حملة عسكرية إلى مصر عام (٥٦٢ هـ) (١) بقيادة
(شيركوه) ، وكان الأمير (صلاح الدين) — كرغبة عمه — من بين قواد
وضباط هذه الحملة ، وكان يقود فرقة الطليعة في هذه الحملة . ويقول (ابن شداد)
أن أسد الدين شيركوه كان لا يبرم أمرا ولا يقدم على أي عمل من غير
استشارة الأمير صلاح الدين ، لأنه كان يعتمد الاعتماد كله على رجاحة عقله
وحسن تدبيره .

وما أن وصل (شيركوه) إلى مصر حتى ألحق بجيش ضرغام — خصم
شاور — هزيمة منكرة في مدينة (بلبيس) وظل يتعقبه حتى ضيق عليه الحصار

(١) عام ٥٦٠ للهجرة في دائرة المعارف الاسلامية . [المؤلف] . وفي (ابن
خلكان) روايتان احدها سنة ٥٥٩ وهي الاصح والثانية سنة ٥٥٨ هـ المترجم

في القاهرة نفسها ، وسرعان ما سقطت (الفسطاط) في قبضة (شاور) ووقع
ضرغام صريعا في المعركة ، وبموته خلا الجو لشاور الذي سولت له نفسه
الغدر بمن استعان بهم للقضاء على خصمه وحال بالفعل بين (شيركوه)
وبين دخول القاهرة ، مما أدى إلى قيام (شيركوه) بارسال حملة عسكرية
بقيادة الأمير (صلاح الدين) إلى مدينة « بليس » حيث استولت على الشرقية
وما أن طرق هذا النبأ مسامع (شاور) حتى طلب النجدة من (أماريك)
ملك الصليبيين بالقدس للخلاص من (شيركوه) فأسعفه الملك الصليبي بحملة
عسكرية قوية ، وما أن وصلت هذه الحملة إلى مصر حتى وقع كل من شيركوه
وصلاح الدين بين نارى المصريين والصليبيين وظلا كذلك ثلاثة أشهر كاملة
وقد استماتا في الدفاع عن بليس رغم اشتداد أوار الحرب وتهيها ، إلى أن
جد ما أسرع بالحرب إلى نهايتها ، ذلك أن السلطان « نور الدين » كان قد
جرد وقتذاك حملة كبيرة وقادها بنفسه على مملكة القدس لتخفيف الضغط
على مصر وحاصر قلعة (بانياس) وما أن تراهى هذا النبأ إلى مسامع ملك
القدس حتى ساورته المخاوف وسارع إلى الدخول في مفاوضات مع شيركوه
لعقد الصلح ، وتم الاتفاق بينهما على أن يحاو كل من جيشى الشام والقدس
عن البلاد المصرية . . . وتنفيذا لتلك الاتفاقية عاد « شيركوه » بجيشه
إلى الشام .

وبعد أن خلا المسرح من (شيركوه) ، اتصل (شاور) المخادع الماكر
بملك القدس وسمح له بإقامة حامية صغيرة من جنده في القاهرة ليستعين بها
على قضاء مآربه ويبدو جليا ما في هذا التصرف من نقض لشروط المعاهدة
التي جلا جيش الشام عن مصر بمقتضاها ، ولهذا استقر الرأى بين السلطان
(نور الدين) و (شيركوه) على الزحف إلى مصر مرة أخرى والاستيلاء
عليها نهائيا ، ووافق الخليفة العباسى فى بغداد على هذا القرار الحكيم والرأى
الصائب .

(٥) - « صلاح الدين يسافر إلى مصر للمرة الثانية »

بعد أعوام ثلاثة من السفر الأول توجه (شيركوه) (١) ومعه الأمير (صلاح الدين) على رأس جيش من ألفين من أبرع الجنود الكرد المنتخبين إلى مصر ، وسرعان ما وصل هذا الجيش إلى أطفيح على بعد أربعين ميلاً من القاهرة ، بعد أن لاقى ضروباً من المشاق وألواناً من الصعوبات والمتاعب ، ومن هناك تمكن من الوصول إلى الجيزة حيث كان جيش ملك القدس معسكر اقبالته على الضفة اليسرى للنيل .

وفي هذه الأثناء عقد الملك (آرمون) ملك القدس معاهدة مع الخليفة الفاطمي دخلت مصر بموجبها تحت حمايته ، وعلى أثر ذلك اجتاز ملك القدس النيل بجيشه الجرار سرا إلى الضفة الأخرى ، وما أن رأى شيركوه ذلك حتى انسحب بجيشه صوب الصعيد فتعقبه ملك القدس حتى (البابين) (٢) حيث وقف شيركوه عن التقهقر وتهاً للطعان فالتقى الجمعان والتحم الفريقان ، وحمل وطيس القتال بينهما ، وكان لمهارة الأمير (صلاح الدين) الفائقة في إدارة دفة الأعمال والخطط الحربية ولبسالته النادرة ، أكبر الفضل في إلحاق هزيمة ساحقة بجيش القدس ، مما أفضى إلى استيلاء جيش الشام فيما بعد على قلعة (الاسكندرية) الحصينة ، التي عهد شيركوه إلى صلاح الدين الدفاع عنها فكان هذا أول اعتراف بامارة صلاح الدين وأعقب هذا أن قسم شيركوه جيشه شطرين ، ترك الشطر الأول مع صلاح الدين وعاد بالشطر الثاني صوب صعيد مصر أما ملك القدس فقد رجع إلى القاهرة يجر أذيال الفشل والهزيمة واتفق

(١) أعني في سنة (٥٦٢ هـ) على أصح الروايات .

(٢) في ابن خلكان ، وكانت باطفيح وقعة الباقيين عند الاشمونيين . وفي

المترجم

ابن الأثير ، وكان يعرف بالبايين . فليحذر .

مع الحكومة المصرية على محاصرة الاسكندرية برا وبحرا وأرسل هو أسطولا من أساطيله إلى مياه الاسكندرية لشد أزر المحاصرين لها من البر ، إلا أن الأمير (صلاح الدين) قد دافع عن القلعة دفاع الأبطال ، وتصدى لجيشي مصر والقدس ، فأبدى ضروبا من الشجاعة الفائقة والمقاومة الرائعة خلال فترة الحصار التي دامت سبعين يوما حيث كان يصد الهجمات البرية والبحرية كالهزبر آناء الليل وأطراف النهار . وكان (شيركوه) حينذاك قد توجه صوب العاصمة (القاهرة) وضرب نطاق الحصار عليها في (بركة الحبشة) مما أدى الى انتشار الذعر والخوف بين صفوف أعدائه فطلبوا الصلح على شريطة خروج كل من جيشي القدس والشام من مصر ، وعدم التدخل في شئونهم مستقبلا وفي أثناء مفاوضات الصلح على هذا الوضع الذي ارتضاه الطرفان ، أمضى صلاح الدين بضعة أيام لدى ملك القدس في معسكره بجوار الاسكندرية فانتهر هذه الفرصة بطبيعة الحال ودرس عن كثب الأنظمة العسكرية عند هؤلاء الأجانب .

وتنفذا لشروط الصلح جلا كل من الجيشين عن مصر وانتهى عهد احتلالهما لها ، ولم يمض طويل وقت على عقد هذا الصلح حتى طمع الملك (أماريك) في الاستيلاء على مصر ، فزحف عليها بجيش عرمرم ، وتمكن من الاستيلاء على (بلييس) وواصل التقدم إلى الأمام مسرفا في سفك دماء كثير من المصريين من بينهم جم غفير من النساء والأطفال

وفي هذه المرة لم يجد الخليفة الفاطمي بمصر مندوحة من الاستغاثة والاستنجاد بالسلطان نور الدين فبعث اليه بكتاب خاص وضع طيه خصلة من شعور نساء المسلمين للدلالة على أن الحالة قد وصلت بالمسلمين فوق ما يطيقون ، وأنهم جميعا في أمس الحاجة إلى حمايته وعطفه ونجده ، أما (شاور) وزير الخليفة الذي كان نسيج وحده في الدماء والمكر والذي كان لا يشق له

غبار في الخيانة والخداع ، فقد عمد كعادته إلى مصانعة ملك القدس ، ومحاولة خداعه باطماعه في مال مصر وثروتها ، ثم دخل معه في مفاوضات لعقد الصلح وكان يهدف من وراء ذلك إلى كسب الوقت حتى تصل النجدة من لدن السلطان (نور الدين) ، وكان له ما أراد ، فقد توقف ملك القدس فعلا على بعد خمسة أميال من القاهرة ، حيث دارت بينهما المخبرات .

(٦) - سفره الثالث إلى مصر :

على أثر استغاثة الخليفة الفاطمي بالسلطان (نور الدين) واستجابة لرجائه الحار ، أمر السلطان (نور الدين) بحشد جيش عرمرم لنجدة خليفة مصر ظاهرا ، والاستيلاء على مصر نهائيا ، وانتزاعها من أيدي الذين لا يحسنون حكمها في الواقع ، وتحرك هذا الجيش - المؤلف من ثمانية آلاف من نخبة الجنود والضباط ومشاهير القواد - صوب مصر بقيادة (شيركوه) . وكان الأمير صلاح الدين غير راغب في السفر هذه المرة لو خلى بينه وبين نفسه ، ولكنه عاد فاستجاب لرغبة السلطان في ضرورة سفره ، وطلب عمه في اللحاق به مهما كانت الظروف ، فاضطر إلى السفر إلى مصر مكرها . وما أن سمع (أمليك) ملك القدس بقدوم (شيركوه) ، حتى شمر عن ساعد الجد ، وأراد أن يحول - بادىء ذى بدء - دون اتصال الجيش الشامي والمصري بعضهما ببعض ، ولكنه أخفق في ذلك إخفاقا ذريعا واضطر في سلخ ربيع الثاني من عام ٥٦٤ (كانون ثاني - يناير ١١٦٩ م) إلى الرجوع أدراجه إلى القدس مدحورا مذموما . وحينذاك وصل شيركوه إلى أبواب القاهرة ، فبادر الخليفة وأعيان مصر وسكانها إلى استقباله استقبالا منقطع النظير ، وأعربوا له عن مزيد شكرهم الخالص على ما أسدى لهم من جليل الأعمال ، وما أبداه من الشهامة والنخوة لانقاذهم من نير العدو الذي لا يرحم .

وبعد أن استراح (شير كوه) من وعناء السفر ، ضرب مخيمه في خارج القاهرة لاقامته هو وجنده ، وقد شرفه الخليفة بزيارته في مقره ، وشكره شكرا خاصا على أعماله المجيدة وجهوده الفذة الموفقة . ثم أعقبه الوزير شاور في الزيارة متظاهرا بابداء الكثير من آيات الود وعلائم السرور ، في حين كان يضمّر خلاف ما يظهر ، وكان لا يدع يوما يمر دون أن يحضر راكبا إلى المعسكر لزيارة (شير كوه) في خيمته ، ويتظاهر له بالود الصافي والصدقة الخالصة والله وحده يعلم أنه كاذب ومخادع . إذ كان يرمى من وراء ذلك الى تهيئة فرصة ذهبية لتدبير مكيدة جهنمية للقضاء على (شير كوه) وقواد جيشه لتنفيذ مأربه ، غير أن ابنه (الكامل) قد فطن إلى أن أباه قد فكر في اقامة وليمة فاخرة يدعو اليها ضحاياه لهذا الغرض تخاف مغبة هذا العمل الإجرامى فما كان منه إلا أن هدد والده بافشاء هذا السر والافشاء بأسراره هذه المسكيدة الى شير كوه اذا سولت له نفسه الأمانة بالسوء الاصرار على تنفيذ هذه الفعلة الشنعاء ، ورغم ذلك عزم شاور فيما بينه وبين نفسه على ضرورة تنفيذ فكرته وأسرها في نفسه حتى تحين أقرب فرصة موالية لتنفيذ هذا الهدف السيء الذى لم يكن خافيا على أغلب المحيطين بشير كوه من القواد والضباط .

ولكن القدر قد أراد له ما دبره هو لغيره إذ توجه في يوم جمعة كعادته إلى معسكر (شير كوه) وتصادف تغيب شير كوه عن المعسكر يومذاك فتقدم اليه الأمير (صلاح الدين) وبعض القواد وركبوا معه كالعادة للتنزه والقنص وما أن بعد بهم المسير حتى أبعدها عنه الخيالة وكان ممتطيا صهوة جواده فانقضوا عليه وطرحوه أرضا وأوثقوه بالحبال ثم أرسلوه للخليفة الذى أعاده اليهم ليقطعوا رأسه ، ويرسلوها اليه فنفذوا أمره على الفور وهكذا أسدل الستار على هذا الوزير الخائن الذى كادت سياسته الخرقاء وأطماعه الدينية الهوجاء ، أن يؤدى إلى وقوع مصر بأكملها في قبضة الافرنج

وعلى أثر هذا الحادث أخذت الأبواب تنفتح والمجال يتسع أمام (شيركوه) فقد بعث الخليفة العاضد في طلبه . وأسند إليه منصب الوزارة ، ومنحه لقب (الملك المنصور أمير الجيوش) .

وهكذا أخذ (أسد الدين شيركوه) يدبر أمور الحكومة المصرية ، ويصرف شئونها ، بصفته وزيرا للخليفة ، غير أن المنية قد عاجلته ، فلم يعمر طويلا ، ووافاه الأجل المحتوم يوم السبت الموافق (٢٢ من جماد الثاني من عام ٥٦٤ هـ) وكان الأمير (صلاح الدين) يقوم بادارة دفة أغلب شئون الدولة وتصريف أمورها في حياة عمه .

(٧) - «وزارة الأمير صلاح الدين»

بعد أيام ثلاثة من وفاة (أسد الدين شيركوه) وقيام ابن أخيه الأمير صلاح الدين بتقبل العزاء في عمه ، أصدر الخليفة مرسوما بإسناد منصب الوزارة إلى الأمير صلاح الدين ، غير أن هذا الاجراء قد أوغر صدور بعض قواد جيش (شيركوه) فعادوا إلى الشام وقد تملكهم الغضب والحقد على (صلاح الدين) الذي واثاه الحظ وأخطأهم ، وفي الحق أن هذا المنصب الخطير لم يكن يصلح للقيام بأعبائه سوى الأمير (صلاح الدين) ولهذا أنعم عليه الخليفة بلقب (الملك الناصر أبي المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب) نعم ! قد وصل الملك الناصر إلى هذا المنصب الخطير في الثانية بعد العشرين من عمره ، كنتيجة حتمية لتقدمه المحسوس في ميدان السياسة والجندية ، وما أن اعتلى صلاح الدين أريكة هذا المنصب حتى ألقى نظرة ذات اليمين وذات الشمال وأمعن النظر فيمن حوله من القواد والضباط ، فلم يجد من بينهم من يطمئن إلى إخلاصه له ، أو نشاطه في العمل ، فأعمل الفكر وأخيرا رأى أن أنجع وسيلة هي أن يجمع حوله والده ، وإخوته ، وأقرباءه الآخرين ، فكتب إليهم

طالباً للحاق به ، فسرعان ما حضروا والتفوا حوله . وأكرم (صلاح الدين) وفادة والده ، لدرجة أنه تنازل له عن منصب الوزارة ولكن والده رفض قبوله قائلاً له : « لو لم تكن أنت جديراً بهذا المنصب لما منحك إياه سبحانه وتعالى » وقد آلى الناصر صلاح الدين على نفسه أن يكسب قلوب المصريين كافة ويحوز ثقتهم ويحتذبهم إليه ، فأعقد عليهم النعم والأعطيات ، وبالغ في إرضائهم ، وأحسن معاملتهم في شتى الأمور ، وعلى الرغم من أنه كان سنياً ، وكافة المصريين تقريباً من الشيعة ، لم يفكر مطلقاً في التدخل في الشؤون المذهبية ، أو الحيدة عن جادة العدل والمساواة ، ولهذا اكتفى بذكر اسم السلطان (نور الدين) في الخطبة بعد اسم الخليفة السني .

هذا وقد استولى الصليبيون على (دمياط) في عهد وزارته هذه ، فأنبرى لهم بجيش ضخم ، وبعد نضال عنيف وقتال مرير ، تغلب عليهم وانتزع المدينة من بين براثنهم ، وهكذا خلص البلاد منهم وطردتهم نهائياً عن الأراضي المصرية ولم يكتف بذلك ، بل سار إلى العقبة وهي واقعة في طريق الحاج فاستولى عليها وطهرها من الصليبيين وقد أحدث هذان الانتصاران الباهران في نفوس المصريين خاصة والمسلمين عامة أثراً طيباً وإعجاباً به منقطع النظير . فعلا شأنه وارتفع قدره في نفوسهم فازدادوا به تعلقاً لافرق في ذلك بين العامة من الجنود وبين الأمراء والقواد .

وحدث أن (مؤتمن الخلافة) المدعو (جوهر) قد حدثته نفسه مناضلة الملك الناصر (صلاح الدين) ومخاصمته خصومة غير شريفة . فأخذ يدس له ويدبر له المكائد ، لدرجة أنه اتصل بالأفرنج يستقدمهم لاحتلال مصر ثانية ليوقع صلاح الدين بين نارى العدوين الخارجى والداخلى ، وكان مؤتمن الخلافة هذا معتزلاً بجيش سودانى يقرب عدده من خمسين ألفاً ، فكان يعتمد عليه الاعتماد كله ، غير أن الملك الناصر سرعان ما سنحت له فرصة ذهبية للقضاء

عليه قضاء مبرما ، فثارت لذلك ثورة السودانيين في جيش الخليفة .
وقد عمد الملك الناصر إلى تعيين أخيه (شمس الدولة تورانشاه) لآخاد
هذه الثورة الجامحة ، فعرف هذا الأخ الشجاع ، والبطل المغوار ، كيف ينتقم
من الثوار أشد انتقام ويستأصل شأفتهم في أقل من بضع سنين ، وقطع دابرهم
من البلدان المصرية بكل الوسائل من تقتيل ، إلى تشريد ، إلى طرد ، وإبعاد
إلى البلاد السودانية حيث تسلمهم هناك « العادل » أخو « الملك الناصر » وقضى عليهم
قضاء مبرما وأجهز عليهم ، وكان صلاح الدين قد عين (بهاء الدين قره قوش)
في وظيفة (مؤتمن الخلافة) بعد مقتل (جوهر) ، ولم يكن الملك الناصر
يتخلص من ثورة السودانيين ، وفتنتهم الجامحة ، حتى زحف الصليبيون إلى
(دمياط) لأن ملك القدس كان قد عقد اتفاقا مع الامبراطورية الرومانية
الشرقية على احتلال مصر .

وتنفذا لهذا الاتفاق ، عجل ملك القدس بالزحف إلى (دمياط) قبل
وصول جيش الروم وأسطولهم ، ولكن الملك الناصر كان قد اتخذ أهبة
وحصن هذه القلعة تحصينا منيعا ، وأعد لها لدفاع طويل الأمد ، ولهذا تمكنت
القلعة من الصمود ، وصدت هجمات جيش ملك القدس وأسطوله بعد حصار
دام خمسين يوما ، وعاد المهاجمان أدراجهما يجران أذيال الهزيمة والخسران
المبين دون أن ينالا من القلعة . فضلا عن ذلك فقد لعبت الطبيعة دورها ،
وأبى القدر إلا أن يقتص من رجال العدو وأسطوله ويرينهم جزاء ما عملوا ،
فسلط عليهم في عرض البحر ريحا صر صرا وعاصفة هوجاء شتتت شملهم
وقضت على ما تبقى لهم من سفن الأسطول الرومي ، وانتهر الملك الناصر هذه
الفرصة الذهبية ، فترك مهمة الدفاع ، وأخذ يوغل في مطاردة العدو ثم توجه
بحملة عسكرية شطر فلسطين ، وأطلق لجيشه العنان للسلب والنهب وشن
الغارات وتضييق الخناق على العدو ومضايقته أينما وجد .

ولا ريب في أن هذا التحول الخطير في الموقفين العسكري والسياسي في مصر، وقيام جيش مصر بالزحف على فلسطين، قد أحدث دويا هائلا في مصر وبهر أبصار المصريين واستلفت أنظار أهلها الذين عانوا الظلم، واكتووا بنار الفوضى - إلى تلك الحالة الجديدة التي وصلوا إليها بفضل إدارة الملك الناصر الحازمة، ودهائه السياسي، الذي أفضى إلى نتائج باهرة، ومواقف مشرقة، حيث أخذ جيش مصر يضيق الخناق على العدو في عقر داره، وأثار بين صفوفه الرعب والذعر والقلق المستمر الأمر الذي أفضى إلى ازدياد محبة المصريين للملك الناصر مما بعث فيه قوة على قوة، وفي نفس الوقت الذي كان فيه الملك الناصر وزيرا للخليفة العاضد بالله، كان أيضا سردارا لجيش السلطان نور الدين، فكان طبعيا أن يكن له كل إخلاص وولاء.

هذا وكان كل من (القاضي الفاضل) والكتاب الشهير (عماد الدين الأصفهاني) يتمتع ويحظى بكامل ثقة الملك الناصر وعطفه السابغ عليهما حيث كانا يتوليان إدارة المخابرات الرسمية وإسداء المشورة الخاصة له في الملئات والحادثات. وقد اختار أخيرا لسكرتاريته الخاصة في عام (٥٨٤) القاضي الذائع الشهرة (ابن شداد) الذي رافقه في جميع فتوحاته وغزواته.

وما أن فرغ (الملك الناصر) من إخماد نيران الثورات الداخلية، والقضاء على مطامع الأفرنج في مصر، حتى شرع يعمل جاهدا على الانفراد بالحكم والاستقلال، والتخلص من التبعية للغير، وأخذ يمهّد لذلك بنشر المذهب السني بين المصريين بدلا من المذهب الشيعي الذي كان سائدا بينهم، وأنشأ خصيصا لهذا الغرض مدرستين دينيتين إحداهما (الناصرية) والأخرى (الكاملية) تدرس فيهما مذاهب أهل السنة والجماعة، فيقول ابن الأثير: إن صلاح الدين قد هدم السجن الشهير الذي كان يعرف بإسم (دار المعونة)، وأقام مكانه مدرسة للشافعية، كما حول (دار العدل) أيضا إلى مدرسة للشافعية وعزل جميع قضاة الشيعة واستبدلهم بقضاة من الشافعية.

وكان السلطان (نور الدين) يشدد عليه ويلح في جعل الخطبة باسم الخلفاء العباسيين وهو الاتجاه الذي كان يميل اليه الرأي العام أيضا ، ولكن الملك الناصر قد أثر التريث ، ولم يتعجل البت في هذا الموضوع واضعا نصب عينيه أولا وقبل كل شيء ، تقوية مركزه قبل أن يخطو هذه الخطوة ويستجيب لرغبة السلطان ، وان هي إلا فترة زمنية حتى جمع مجلس شوره كعادته ، وطرح على المجتمعين مسألة تحويل الخطبة عن الفاطميين إلى الخلفاء العباسيين فأقروها بالإجماع ، وهكذا تحولت الخطبة إلى اسم الخلفاء العباسيين حسب قرار المجلس ؛ وكان الخليفة الفاطمي العاضد بالله وقتذاك مريضا طريح الفراش . فأمر الملك الناصر بأن يكتم عنه الخبر ويبقى في طي السكتان ، ولم يطل بهم هذا التكتيم إذ عاجلت المنية الخليفة العاضد بعد ذلك ببضعة أيام وكان ذلك في عام (٥٦٧ هـ) ، وقد شق نعيه على الملك الناصر ، لأن وفاته جعلته وجها لوجه مع السلطان نور الدين .

وبعد أن قام الملك الناصر بدفن الخليفة العاضد ، وتقبل العزاء فيه ، أدخل قصر الخلافة من قاطنيه من الفاطميين وأتباعهم وأسكن النساء منهم في دار أخرى ، وفرض عليهم رقابة دقيقة لتلافي حدوث القلاقل والفتن التي قد تنجم عن اتصال الجمهور بهم . ثم وزع أموال القصر وخزائنه على الأمراء والقواد وذوى الحاجة من الجند والشعب .

وبعد أن أضحى الملك الناصر حاكم مصر المستقل ، كان باكورة أعماله إنشاء قلعة القاهرة . حيث وجد هذه العاصمة الكبيرة تضم الفسطاط وقطائع أحمد بن طولون والقاهرة المعزية ، فأنشأ حول هذه كلها سورا متينا وقلعة حصينة للمحافظة على المدينة سميت قلعة (صلاح الدين) وبنى فيها دورا وقصورا ومنازل لنفسه ولأهله ولسائر أتباعه . ولما كانت سياسة الملك الناصر (صلاح الدين) ترمي إلى تجنب اغضاب السلطان (نور الدين) منه ،

وعدم إثارة الشكوك والشبهات حوله ، فقد عمد إلى ذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة في الخطب على المنابر ، وضرب النقود باسمه ، ثم انتقى هدية فاخرة من بين كنوز خزان قصر الخلافة وبعث بها إليه .

وحدث في وقت ما أن قصد الملك الناصر إلى قلعة (الشوبك) في فلسطين الواقعة على الطريق التجارى بين مصر والشام افتتحها . وما أن سمع بقدم السلطان نور الدين إلى تلك الجهات ، حتى قفل راجعا إلى مصر على جناح السرعة صارفا النظر عن فتح القلعة ، حيث لم ير من السياسة الحكيمة الاجتماع بالسلطان في تلك الآونة ، إذ أن بعض أمراء (نور الدين) الذين كانوا بصحبة (أسد الدين شيركوه) والملك الناصر صلاح الدين إبان فتح مصر ، ثم غادروها إلى الشام حين تولى (صلاح الدين) زمام الأمور فيها ، ما فتئوا يعملون جاهدين ويسعون سعيا متواصلا للتأثير على السلطان نور الدين لينتزعوا ثقته ، ويغيروا من رأيه في صلاح الدين حتى انه ليقال ان السلطان تحت تأثير منهم قد فكر في مواصلة الزحف على مصر والاستيلاء عليها بعد رجوع الناصر صلاح الدين من قلعة (الشوبك) إلى القاهرة

وما أن ترامى هذا النباء إلى مسامع الملك الناصر حتى بادروا بجمع مجلس شوراه على الفور للنظر في هذا الموقف الجديد ، وقال أحد أعضاء المجلس إنه يجب مقابلة السلطان بالقوة والحيولة بينه وبين دخوله مصر . فاستهجن (نجم الدين أيوب) والد الملك الناصر - هذا الرأي ولم يستصوبه بل اشتد به الغضب وقال « ان هذه البلاد إن هي إلا بلاد السلطان نور الدين وكلنا له رعايا مخلصون وعبيد خاضعون » ثم فض المجلس وانتحى بابنه جانبا ووجه إليه لوما لاذعا على ما بدر منه ، ثم أسدى إليه نصائح في غاية من السداد والحكمة . وفي الواقع لم يكن في مكتة السلطان نور الدين مواصلة الزحف إلى مصر وقتذاك بسبب انشغاله بأمور الجزيرة أي كردستان الجنوبي . وبعد حقبة من الزمن

ندب الملك الناصر أخاه (تورانشاه) لتنظيم أمور السودان وتدير شؤنه .
وما أن فرغ السلطان (نور الدين) من تنظيم شئون الجزيرة ، وتسليمه
كتبها من الملك الناصر معبرة عما يكنه له من ولاء وطاعة ، حتى بعث يطلب
أن يزحف على رأس جيشه ويجتمع به في فلسطين ليقوما معا بزحف مزدوج
على ملك القدس ، فلبى الملك الناصر نداءه ، وسافر بجيشه إلى فلسطين ، بيد
أنه اضطر للعودة إلى مصر قبل ملاقة السلطان ، بحجة مرض والده وخطورة
حالته ، بسبب سقوطه على الأرض إثر كبوة فرسه على مقربة من باب النصر
بالقاهرة ، حيث توفي إلى رحمة الله إثر هذا الحادث .

ورغم هذا فقد أبدى السلطان أشد الاستياء من عودة الملك الناصر إلى
مصر ، فغضب واستقر رأيه على أن يزحف بنفسه إلى مصر للاستيلاء عليها ،
ويعزل الملك الناصر من ولايته عليها ، لولا أن المنية قد عاجلته قبل تنفيذ
ما استقر عليه قراره ، وقد وافاه الأجل المحتوم في يوم الأربعاء (٢١ من
شوال من عام ٥٦٩ = ٢٥ مايو ١١٧٤ م) وكان الملك الناصر قد أبدى قبل
وفاة السلطان نور الدين كثيرا من ضروب النشاط المحسوس ، فأول ماوجه
إليه همه كان تنظيم الجيش فقد وجه إليه الكثير من عنايته وساعده أبوه في
تنظيمه ودقة الإشراف على شؤنه ، وحسن تدريبه ، حتى استطاع الملك الناصر
بفضل هذا الجيش من فتح شمالي أفريقيا ، وسواحل البحر الأبيض من أياالتى
طرابلس الغرب وتونس ، ومن ناحية أخرى أرسل أخاه (تورانشاه) إلى
الين ، فتمكن من غزوها في رجب عام (٥٦٩) وهكذا خضعت تلك البلاد
الشاسعة وولاية (عدن) ذات الأهمية ، لسلطان بنى أيوب في مصر .

وفي هذه الأثناء دبر من وراء ستار ، الشاعر المعروف (عمارة الينى) مع
بعض رفاقه ، إشعال نيران ثورة جامحة ، وكانوا قد اتخذوا أهبتهم ، واتصلوا
بالأفرنج لنجدتهم إذا لزم الأمر ، غير أن الملك الناصر قد اكتشف أسرار

المؤامرة قبل وقوعها ، ففضى عليها في المهد ، واستأصل شأفة المدبرين لها على الفور ، وقد تصادف هجوم أسطول صقلية على الاسكندرية وقتذاك ، فدافع الملك الناصر عنها دفاعا مجيدا ، ومات ملك القدس الصليبي في تلك الآونة ، فاستراح الملك الناصر بموته من عدو لدود ، وخصم عنيد .

ولا شك أيضا أن الملك الناصر قد أضحى ، بعد وفاة السلطان نور الدين سلطانا مستقلا تمام الاستقلال ، وحاكما مطلقا للشرق الاسلامي ، لاشريك له في حكمه . . إذ لم يبق أمامه من ينازعه السيادة المطلقة على الشرق والدفاع عن الاسلام . .

نعم ! كان هنالك نجل السلطان نور الدين الطفل ، يحكم بعض القلاع والبلاد ، وابن أخيه سيف الدين حاكم الموصل ، والملك الساجوقى فى بلاد الروم (الأناضول) ولكن هؤلاء الملوك والأمراء جميعهم لم يكونوا يصلوا إلى مقدرة الملك الناصر لما كان يتمتع به من النفوذ الواسع ، والسلطان العريض فى العالم الإسلامى ، حتى يتسنى لهم منافسته .

ولما كان الملك الناصر قد شعر ورأى ، أن من أقدم واجباته الدينية محاربة الأفرنج ، وطردهم من البلاد الإسلامية ، فقد وجد أن من الحكمة وأصالة رأى أن يتفق مع سائر الأمراء والملوك المسلمين ، ليوحدوا قواهم ، ويجمعوا شملهم ، ويقفوا جبهة واحدة مترابطة لتحقيق هذه الغاية ، فكانت هذه الخطة القوية أساس سياسته الرشيدة مستقبلا ، وقد حالفه التوفيق كل التوفيق فى تنفيذها .

(٨) — « بعد وفاة السلطان نور الدين » :

قبض الملك (الصالح اسماعيل) على ناصية الأمور ، بعد وفاة والده السلطان (نور الدين) وله من العمر حينذاك خمسة عشر عاما ، ولكن

التوفيق قد جانبه ، وكنتيجة حتمية لسوء إدارته تغلب عليه رجال والده وقواد جيشه ، فاستولى ابن عمه (سيف الدين) حاكم الموصل على جميع البلاد التي كانت خاضعة للسلطان (نور الدين) كما استقل كل من الأمراء الآخرين بشئون البلاد التي كان يحكمها نيابة عن السلطان .

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع الملك الناصر حتى بادر على الفور بارسال خطاب إلى وزير الملك الصالح ، المدعو (شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم) موجهاً إليه اللوم فيه على ما فرط منه ، قائلاً له : « إذا لم تخلصوا الخدمة للملك الصالح اسماعيل ولم تحافظوا على ملكه تماماً ، فسأحضر بنفسى وأحافظ على حقوقه » . ولكن الأمراء والقواد قد أصموا آذانهم عن الاستماع لهذه النصيحة ، فقد عمد (شمس الدين ابن الداية) حاكم حلب إلى إيفاد (سعد الدين كشتكين) إلى الملك الصالح اسماعيل ليدعوه إلى حلب ليحول بهذا دون مجيء الملك الناصر لمساعدته والتمسك به ولكن أهل الشام قد عارضوا — أول الأمر — في ذهاب الملك الصالح اسماعيل إلى حلب فعاد (كشتكين) دون أن يصحبه معه ، ولكنه سرعان ما عاد ثانية لنفس الغرض وفي هذه المرة استطاع بدهائه أن يخدع الملك الصالح اسماعيل وينقله إلى حلب ثم ألقى القبض على (شمس الدين بن الداية) وعلى أولاده وسائر أقربائه ، وزج بهم جميعاً في غياهب السجن .

وهكذا سيطر (كشتكين) على حلب ، وفرض عليها سلطانه ، وشرع يعمل جاهداً على تعزيز مركزه وتوطيده ، فاتصل بملك الأفرنج بالقدس ، وعقد معه اتفاقاً ضد الملك الناصر للحيلولة دون زحفه إلى الشام وحلب فاضطر الملك الناصر إلى عرض هذا الأمر على الخليفة العباسي المستنصر بالله ، فبعت إليه بخطاب مؤثر يشكو فيه سوء الأحوال وتخرجها في بلاد الملك الصالح اسماعيل ، الأمر الذي قد يؤدي إلى تمزيق أوصال البلاد ووقوعها

في أيدي الأفرنج ، وفي الواقع كانت الأحوال السياسية ، والظروف الدولية موآتية للملك الناصر لتحقيق غايته النبيلة ، إذ كانت كل من فلسطين وسورية خاضعة لملك صبي لم يعركه الدهر ولم تحنكه التجارب ، وهما (بلدوين) الرابع الشهير بـ (بلك = لعله بمعنى الأرقط) ابن الملك (آمورى) ، والملك الصالح (اسماعيل) ، فكان من حسن السياسة أن ينتهز هذه الفرصة ويخضع هاتين المملكتين لحكمه المباشر ، إلا أنه لما جبل عليه من بعد النظر ، أثر التريث ، ولم يتعجل الأمر ، لأنه لم يكن راغبا في إغضاب أهل الشام منه ، ولهذا كان لا يفتأ يكاتب الملك الصالح (اسماعيل) مبديا له ما يمكنه له من الإخلاص والطاعة ، وكان يسك العملة ويقرأ الخطبة باسمه . وما أن حضر الملك الصالح إلى حلب ، وصار (كمشكين) حاكما مستقلا بها ، حتى ساور القلق والمخاوف (ابن المقدم) وأنصاره من القواد والأمراء فأرسلوا يستنجدون بسيف الدين حاكم الموصل ، لمساعدتهم .

ولسكن (سيف الدين) قد أثر التريث ، وطال به التردد لأنه لم يكن يثق فيهم ، وأخيرا استقر رأيه على مفاوضة الجانب الآخر ، والاتفاق مع الملك الصالح . فلما تبين أمراء دمشق حقيقة الأمر أسقط في أيديهم ، ولم يجدوا محيضا هذه المرة من الاتصال على الفور بالملك الناصر ، وأرسلوا إليه يلتمسون النجدة من لدنه ، ويرجون العمل على انقاذهم من الورطة التي وقعوا فيها .

وقد بادر الملك الناصر الذي كان يتحين الفرصة منذ بعيد ، إلى الزحف بجيش عرمرم شطر (سورية) فوصلها بعد أن قطع صحراء التيه ، مارا ببلاد فلسطين الخاضعة للصليبيين غير هياب ولا وجل ، ولا سيما أنه كان قد مهد السبيل لذلك سياسيا ، حيث كان قد عرض على الخليفة ببغداد رغبته الملحة في ضم سورية إلى أملاكه حتى يتسنى له التفرغ لمحاربة الأفرنج والدفاع عن

مصالح المسلمين دفاعا ناجعا ، لأن حكومة الملك الصالح لم تكن لتستطيع القيام بهذه المهمة المجيدة ، فضلا عن أنها لاتعمل لها قط ، بل الأدهى والأمر أنها عقدت اتفاقا مع الافرنج ضد مصالح المسلمين . . . وهكذا استطاع الملك الناصر الحصول على إذن من الخليفة ، واعترف له الجميع بأنه المدافع عن الاسلام بحق ، مما أفضى إلى تدفق النجيدات والامدادات على جيشه من كل صوب وفج عميق . ولم يتصد له أى كائن ليحول بينه وبين الوصول إلى تحقيق رغبته .

وما أن وصل إلى مدينة (بصرى = أسكى شام) حتى هرع حاكما لمقابلته طائعا مختارا واضعا نفسه طوع أمره ورهن إشارته ، ومن هذه المدينة توجه الملك الناصر رأسا إلى دمشق الشام ، فوصلها في أواخر ربيع الأول عام (٥٧٠ هـ) ، وقصد توا إلى بيت والده حيث استراح قليلا ؛ ثم أخذ في تسلم القلعة وما احتوته من الخزائن والأموال الطائلة ، التي لم يحتجزها أو يستأثر بها لنفسه بل وزعها جميعها على أهل الشام مما أثلج صدور جميع الطبقات وشقى الهيئات من الأهالي ، وكان الملك الناصر بما طبع عليه من فطنة وذكاء خارق يبدو في جميع حركاته وسكناته بمظهر الذى أقدم على هذا العمل لالشيء إلا لمساعدة ابن ولى نعمته الملك الصالح ، وانقاذا له من بين برائن المحيطين به والطامعين فيه . مما قرب به إلى قلوب الناس وحببهم فيه وحفز أمراء الشام وأعيانها إلى الانخراط في سلك جيشه ، واتباع أوامره .

وبعد أن نظم الملك الناصر أمور الشام ، وعين أخاه (سيف الاسلام طغتكين) واليا عليها ، تقدم نحو (حمص) فاستولى على المدينة ثم ترك قوة من جنوده لمحاصرة القلعة ثم واصل سيره إلى (حماه) وكان أمير هذه البلاد وقتذاك المدعو (عز الدين جرديك) الذى كان مع الأمير (صلاح الدين) في سفرته الثالثة إلى مصر ثم عاد إلى الشام حينما تولى (صلاح الدين) الوزارة

في مصر ، مؤثرا عدم البقاء في معيته ، وما كان من هذا الأمير الذي لم ير الخضوع للملك الناصر في بادىء الأمر ، إلا أن عاد أخيرا واطمأن لمواثيق الملك الناصر وعهوده وسلم المدينة اليه ، محتفظا بالقلعة في قبضة أخيه .

وقد أوفد الملك الناصر الأمير عز الدين هذا إلى حلب كمندوب من قبله للمفاوضة فيما يعود على المسلمين بالخير من إطلاق الأسرى وحقن دماء المسلمين ولكن ما كاد الأمير عز الدين هذا يصل إلى حلب ، حتى ألقى (كمشتكين) القبض عليه ، وزج به في أعماق السجن ، ولما ترامى هذا النبأ إلى مسامع أخيه بادر إلى تسليم القلعة إلى الملك الناصر الذي توجه إثر ذلك صوب حلب وضرب نطاق الحصار عليها في اليوم الثالث من جمادى الثانية عام (٥٧٠) ثم أعلن على الملأ أنه لم يأت كعدو يقصد بالمسلمين سوءا ، إنما جاءهم لانقاذ الملك الصالح من بين براثن (كمشتكين) وبعض الأمراء والقواد من العصاة والطغاة .

ولما أحس (كمشتكين) بخطورة الحالة أوجس خيفة ، وفكر في القضاء على الملك الناصر بأيدي الفدائيين الاسماعيليين ، فأوفد من قبله رسولا خاصا للهرشد الاسماعيلي المدعو (شيخ الجبل راشد الدين سنان) يطلب اليه اختيار بضعة من رجاله للفتك بالملك الناصر وسفك دمه ، فما كان من هذا الزعيم الاسماعيلي إلا أن لبي نداءه ، واستجاب لطلبته ، وبعث بجماعة من الفدائيين لارتكاب الجريمة ، إلا أن الملك الناصر كان قد علم بأسرار تلك المؤامرة الدنيئة فتمكن من القبض عليهم وأعدمهم جميعا .

بعد ذلك اشتد ضغط (كمشتكين) على الملك الصالح لكي يحرض الأهالي ويستفزهم لقتال الملك الناصر ، وفعلا نشب القتال بين الطرفين ، ودافع الحلبيون عن قلعتهم بشدة ، ثم أطلق (كمشتكين) سراح (رياموند) حاكم طرابلس الصليبي الذي كان أسيرا منذ عهد السلطان (نور الدين) في قلعة

حلب ، أطلق سراحه كي يكون له ظهيرا ضد الملك الناصر وقد انتهز هذا الحاكم الصليبي الذي تولى الوصاية على بلدوين ملك القدس بعد اطلاق سراحه فرصة طلب (كمشتكين) اليه مساعدته ، فزحف شطر « حمص » لينتقم لنفسه من المسلمين ، ولكن الملك الناصر حامى حمى الاسلام والمسلمين كان له بالمرصاد ، وما أن علم بذلك حتى بادر إلى رفع الحصار عن (حلب) والتوجه على الفور للقاء جيش القدس المحاصر لحمص ، ولكن (رياموند) لم يصمد ولم يقو على الوقوف أمامه ، فقفل راجعا أدراجه ، واستولى الملك الناصر وقتذاك على قلعة (بعلبك) ثم عاد إلى دمشق الشام . وحينذاك استنجد الملك الصالح بالأمير (سيف الدين) حاكم الموصل فنخف الأخير على الفور لنجدة ، وسار بنفسه على رأس جيش ضخم إلى حلب ، وانضم جيش الموصل إلى جيش حلب للوقوف صفا واحدا ضد الملك الناصر ومناوأة من الناحيتين وإيقاعه بين النارين .

ولكن الملك الناصر ، لما جبل عليه من توخى مصلحة المسلمين ، وحقق دمائهم ، والخيولة دون إفادة أعدائهم الفرنج من الخلاف بينهم ، قد أفسد عليهم تديبرهم وخطتهم ، وعرض عليهم الصالح مبديا استعدادده للتخلي عن جميع البلاد السورية التي استولى عليها واتزعا منها ما عدا دمشق الشام التي رأى أن الضرورة تقتضى أن يحكمها هو نيابة عن الملك الصالح ، ثم يعود إلى مصر .

بيد أن سيف الدين والملك الصالح لم يقبلا هذه الشروط السخية ، وآثرا القتال على قبولها ، فاضطر الملك الناصر إزاء ذلك إلى الزحف إليهم ونشب القتال بين الفريقين في التاسع عشر من رمضان عام (٥٧٠ هـ) على مقربة من (حماه) حيث دارت بينهما معركة دامية أسفرت عن انتصار باهر للملك الناصر ، بينما منى خصومه باندحار ذريع . فولوا الأدبار يجررون أذيال الهزيمة إلى أن

دخلوا قلعة (حلب) . فتعقبهم الملك الناصر وضرب الحصار على تلك القلعة ولكن سيف الدين قد تمكن من عبور الفرات إلى الموصل ، إلا أن جيش الملك الناصر لم يكف عن مطاردته حتى أبواب الموصل ، مما اضطر (سيف الدين) إلى أن يجرّد جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف من خيرة جنوده ليُرد به المطاردين فالتحما في مكان يدعى (تل السلطان) ودارت الدائرة على جيش الموصل في هذه المرة أيضاً ؛ وأسّر من رجاله الكثيرون ؛ واستحوذ الملك الناصر على الكثير من الغنائم . أما من نجوا من فلول جيش الموصل فقد هربوا إلى حلب وبعد هذا النصر المبين ؛ استولى الملك الناصر في طريقه إلى حلب ، على قلاع (بزاعة) و (المنبج) و (أعزاز) ، ثم ضيق نطاق الحصار على (حلب) وحدث وقتذاك أن هجم فدائي إسماعيل بغتة وعلى حين غرة على الملك الناصر أثناء حصاره لقلعة (أعزاز) على مقربة من (حلب) ووطعنه بالسيف في أم رأسه ، غير أن قلنسوته الذهبية قد حالت دون إصابته إصابة خطيرة وتكاثرت حاشية الملك الناصر على الفدائي فأردوه قتيلاً فما هي إلا فترة وجيزة حتى تتابع الفدائيون وأخذوا ينقضون على الملك الناصر ، الواحد تلو الآخر ، كان نصيبهم جميعاً القتل بنفس الطريقة التي قضى بها على زميلهم الأول . والذي لاشك فيه أن هؤلاء القتلّة الفدائيين كانوا محرضين ومبعوثين من قبل (كمشتكين) الخائن .

وقد شدد الملك الناصر الحصار على حلب على أثر تلك الحادثة الطائشة مما اضطر أهالي حلب وأرغمهم إلى طلب الصلح ببضعة شروط عرضوها . وقد حضرت وقتذاك كريمة السلطان نور الدين وأخت الملك الصالح إلى الملك الناصر ، لتشفع لأخيها بين يديه ولتطلب الصلح عن أهالي حلب فأكرم الملك الناصر وفادتها وبالغ في الحفاوة بها ولبي رجاءها حيث أطلق سراح أسرى حلب على الفور وداوى جرحاهم مرضاة لها ومراعاة لخاطرهما .

وأخيرا وافق الملك الصالح على الصلح وأقر السلم نزولا عند رغبة الاهالى وتمشيا مع ميولهم وكف عن المطالبة بالبلاد التى فتحها الملك الناصر . وبهذا لم يتبق فى حوزته من أملاكه سوى حلب وأعمالها .

وقد عاد الملك الناصر الى الشام فى شهر شوال من تلك السنة ، حيث تلقى بها خلعة خلعها عليه الخليفة العباسى والانعام عليه بلقب السلطان . وصاحب مصر والشام . ومنذ ذلك اليوم لم يعد يذكر اسم الملك الصالح فى الخطبة ولم تعد تضرب السكة باسمه بل أصبحت تضرب باسم الملك الناصر يوسف بن أيوب ، وقد وزع الملك الناصر جميع الغنائم التى حصل عليها فى هذه الوقائع والحروب على الجيش من ضباط وجنود دون أن يستأثر بشيء منها لنفسه .

(٩) - « عهد السلطنة » .

بعد أن أتم السلطان (صلاح الدين) تنظيم شئون البلدان الشامية ، وتدير أمورها عمد إلى التتكيل بالاسماعيلية أعنف تنكيل وأمره ، ثم عين أخاه (شمس الدولة تورانشاه) الذى كان قد قدم من اليمن إلى الشام لزيارته - وكيلا عنه على كافة البلاد الشامية ، ثم عاد إلى مصر ، وشرع فى بناء سور القاهرة وإقامة قلعتها الشهيرة العاتية . نعم ، إن هذه القلعة قد جددت مرارا وعمرت تكرارا ، إلا أن العلامة الدالة على راية السلطان الخاصة ، والتى هى عبارة عن صورة نسر حمراء فى أرضية صفراء ، لا تزال موجودة وماثلة للعيان على أحد أسوارها .

وما أن عاد صلاح الدين إلى مصر ، وعلم الأفرنج بعودته ، حتى بادروا بانتهاز هذه الفرصة ، وزحفوا بجيشين مستقلين ، من الجانبين صوب الشام وبعلبك ، وأوغلوا فى النهب والسلب ، وأمعنوا فى تدمير البلاد وتخريب القرى

حتى ألحقوا هزيمة منكرة بجيش (تورانشاه) وأسروا كثيرين من المسلمين .
وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع السلطان (صلاح الدين) حتى
نهض على الفور كالأسد المصور وزحف بجيش ليس بكبير إلى فلسطين ، وظل
يواصل السير إلى أن وصل (الرملة) وما قىء أن اشتبك بجوارها بجيش
قوى للأفرنج ، وأسفر القتال عن انتصار العدو ، وقد نجا السلطان نفسه
بأعجوبة نادرة من شر هذه النكبة المريعة المباغته وكان ذلك في عام (٥٧٣) للهجرة
ووقع الأمير الفقيه (عيسى الحكاوي) أسيرا ، ولكن ما لبث أن اقتداه
السلطان بالكثير من المال فأنقذه من ذل الإسار ، ومن الذين أسروا في هذه
الموقعة الدامية الأمير (تقي الدين عمر) وغيرهم من الأمراء والقواد حيث أصيب
جيش السلطان بخسائر فادحة مما أفضى إلى السلطان أن يترك جميع أثقاله
وأحماله ويتوجه إلى مصر معانيا الأهوال والمشقات . وقد توجه جيش
الأفرنج هذا بعد الموقعة إلى (حماه) وضرب نطاق الحصار عليها ولكن من حسن
الحظ أن كان الأمير سيف الدين أحمد المشطوب بالقلعة المذكورة فشارك
حاكمها شهاب الدين محمود في الدفاع عنها دفاع الأبطال وأضطروا العدو إلى
الرجوع عنها خائبين .

ولما عاد السلطان (صلاح الدين) إلى مصر قامت الاستعدادات على
قدم وساق لاعداد جيش قوى في تلك المرة ، وقد تم إعداده في خلال ثلاثة
أشهر ، وما أن تم تجهيزه حتى بادر بالزحف إلى سورية حيث سارع جيشها
بالانضمام إلى جيش مصر ، ثم شرع في مضايقة الأفرنج ، وأمعن في مناوشتهم ،
بشتى الوسائل ، حتى اضطر جيشهم الذي كان محاصرا وقتذاك لمدينة (حماه)
إلى رفع الحصار والتخلي عنها والتوجه صوب (حارم) الخاضعة لحكومة
حلب ، وما تركوها ورحلوا عنها إلا بعد أن تقدم الملك الصالح ، الطائيل من
الأموال ، ولما لمس الأفرنج ضعف موقفهم ، وحروجه مركزهم أمام سطوة

السلطان شرعوا في تحصين حدودهم ، وإنشاء قلعة حصينة من جديد على مقربة من (بيت يعقوب) ولا شك أن هذه القلعة لم تكن في صالح الإسلام ، ، ولهذا لم يأل السلطان جهدا ليثني الأفرنج عن إتمام تحصين هذه القلعة ببذل الأموال واغداقها عن سعة عليهم ولا سكن دون جدوى فلم يكال مجهوده بالنجاح ولم يستطع المال تثبيط عزيمتهم فاستمروا في مواصلة العمل حتى أتموا تحصينها وهكذا أضحت القلعة نقطة حربية هامة ، تمكن ملك القدس بفضلها من تجريد حملة قوية على سورية .

وما كان من السلطان إزاء هذا إلا أن جرده هو الآخر حملة عسكرية تحت قيادة ابن أخيه (فرخشاه (١)) لمقابلة العدو ، وما لبث أن احتدم القتال بين الفريقين وحمل وطيسه حتى أسفر في النهاية عن انتصار (فرخشاه) انتصارا باهرا وعن هزيمة منكرة لملك القدس الذي أوشك أن يقع في ذل الأسار ، لولا أن غامر أحد الفرسان الأفرنج المدعو (همفري) وأنقذ ملكه .

وكان (صلاح الدين) قد زحف من ناحية أخرى بجيش خاص إلى قلعة (بيت يعقوب) وألقى عليها حصارا شديدا ، وأطلق لرجال العنان للنهب والتدمير في أطراف بلدي (صيدا) و (بيروت) .

هنالك تحركت شهوة الانتقام من السلطان في نفس ملك القدس ، فزحف بجيش عرمرم إلى حيث يكمن جيش السلطان ، واشتبك معه في معركة دامية في (مرج عيون) ولكن دارت الدائرة على الأفرنج ولحقت بهم هزيمة شنعاء ووقع الكثيرون منهم أسرى ومن بينهم قواد عديدون على رأسهم (رياموند) حاكم طرابلس ، و « بلدوين » حاكم الرملة ، و « هرج » حاكم الطبرية ، وغيرهم

(١) هو أبو سعيد عز الدين داود فرخشاه بن نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين أيوب .
المترجم

من الأمراء والعظماء ، وكان ذلك في الثاني من محرم عام (٥٧٥) (١٠ يونيو عام ١١٧١ م) .

وبعد شهرين من احراز هذا النصر الباهر المبين ، زحف السلطان صوب قلعة (بيت يعقوب) على مقربة من بانياس فاستولى عليها بعد قتال دام خمسة أيام ، وأسر حاميتها . ثم أخرجها وجعل عاليها سافلها (١) .

ولقد أدى سقوط قلعة (يعقوب) في أيدي المسلمين إلى هلع الأفرنج وخوفهم وقلقهم على مصائرهم التي أضحت في كفة القدر ، فطلبوا عقد هدنة لمدة عامين ، فوافق السلطان (صلاح الدين) على هذا العرض ، وأبرم جميع الأمراء والحكام هذه الاتفاقية ماعدا حاكم (أنطاكية) الأفرنجي . واقتنص السلطان هذه الفرصة واغتمها كي يتفرغ لتنظيم شئون البلاد الجزرية ، إذ كان (نور الدين) حاكم (حصن كيف) ، على خلاف شديد مع حميه (قليج أرسلان) من ملوك سلاجقة الروم (الانضول) ، والذي كان قد أعلن الحرب على نور الدين في حين كان نور الدين حليفا للسلطان ، وفضلا عن ذلك كان السلطان مستاء وغير راض عن أعمال ملك الروم من جراء موقعة (حصن رعبان) .

ورغم كل هذه الأسباب مجتمعة ، فقد رأى السلطان - حقن الدماء المسلمين أن يتفادى الاصطدام بهؤلاء ، وألا يتدخل في القتال الناشب بين الصهر وحميه مفضلا القيام بهجوم على ما كان يسمى (أرمنييه الصغرى) لارغام حاكمها المدعو (رويين (٢)) على الخضوع وقبول عقد صلح معه .

والذي لا يحتمل الشك ، أن هذه الانتصارات الباهرة المتوالية قد استرعت أنظار الجميع إلى ما كان يتمتع به السلطان من المقدرة الفائقة ، والنفوذ الشامل

(١) انظر ابن الاثير ج ١١ ص ١٨٥ تجد فيه التفاصيل .

(٢) وهو الشهير بابن ليون ، كما في ابن الاثير ج ١١ ص ١٩٠ . المترجم

والتوفيق الرائع ... ولا أدل على ذلك من مسارعة الحكومات الصغيرة المجاورة إلى الاعتراف بسلطان (صلاح الدين) المطلق ، وخطب وده ، وتقديم فروض الطاعة وعلائم الولاء والخضوع له ، وإلى عقد أوامر الاتفاق ، وتوثيق عرى الاتحاد معه .

وقد استقر رأى كل من حكام (الموصل) و (الجزيرة) و (أربل) و (حصن كيف) و (ماردين) ، وملك الروم ، وحاكم أرمينية ، على مهادنة السلطان عامين كاملين ابتداء من جمادى الأولى عام (٥٧٥ هـ) . (تشرين أول سنة ١١٧٩ م) .

وقد قطعت هذه الهدنة دابر النزاع ، وإثارة القتال والبغضاء بين المسلمين كافة ، وبفضلها تتلاآت عظمة السلطان صلاح الدين وقوة شكيمة بأجلى مظاهرها في طول وعرض البلاد القائمة بين البحر الأسود والخليج الفارسي والبحر الأبيض ، وافضى كل ذلك إلى إمكان توحيد القوى الإسلامية المبعثرة المشتتة وضم شملها ، وتوجيهها لمحاربة الأفرنج الدخلاء على البلاد . وهكذا تمكن السلطان من العودة إلى مصر في رجب عام (٥٧٦ هـ) راضيا وقد اطمأن قلبه كل الاطمئنان على مصالح الاسلام ، ، تاركا ابن أخيه الأمير (فرخشاه) نائبا عنه في دمشق الشام .

وما أن وطئت قدما السلطان أرض مصر حتى شرع على الفور في إصلاح أمورها وتنظيم شئونها ، وبدأ بتنفيذ سلسلة من المشروعات النافعة ، فأنشأ بها المدارس والمكاتب ، ثم أخذ في تحصين قلعة الاسكندرية التي كان يحكمها وقتذاك أخوه (شمس الدولة تورانشاه) الذي تسلمها إثر تخليها عن حكم (بعلبك) ، وقد توفى فيها قبل وصول السلطان إلى مصر .

وبينما كان السلطان منهمكا في إصلاح شئون مصر وتدبير أمورها ، جاءه النبأ بأن (رينولد آرنات) حاكم السكر قد أدخل بشروط المعاهدة

القائمة ، حيث سطا على قافلة إسلامية من التجار على مقربة من (الكرك) ،
فسارع السلطان إلى إلقاء القبض على الحجاج المسيحيين الذين كانوا على ظهر
سفينة لاجئة إلى نجر (دمياط) .

وفي خلال هذه الفترة ، طير نبأ وفاة (الأمير سيف الدين غازي) حاكم
الموصل والجزيرة (كردستان الجنوبي) وكان قد أوصى قبل مماته ببلدة
(جزيرة ابن عمر) لابنه (سنجر شاه) ، وبلدة (عقر الحميدى) لناصر الدين
كشك ، وبقية بلدان الجزيرة والموصل لأخيه « عز الدين مسعود » وبعد
فترة من الزمن ، وفي اليوم الخامس بعد العشرين من رجب من عام (٥٧٧ هـ)
توفي إلى رحمة الله الملك الصالح (اسماعيل) وكان قد أوصى هو الآخر قبل
مماته « بحلب » لعز الدين مسعود الذي تبادلها « بسنجار » مع أخيه عماد الدين
في الثالث عشر من المحرم من عام (٥٨٧ هـ)

وقد تأثر صلاح الدين لوفاة الملك الصالح كل التأثر وأخذ منه الحزن كل
مأخذ ، وفي الوقت نفسه لم يخف استيائه من استيلاء عماد الدين على « حلب »
غير أنه لم يكن في مكنته الزحف على « حلب » احتراماً للاتفاقية المعقودة التي
تحرّم القتال عامين كاملين . وفي الواقع لم يكن يخطر ببال صلاح الدين ،
وما كان يدور بخله نقض شروط هذه الاتفاقية ولا الخنث بالعهود التي ارتبط
بها ، مع أنه لم يكن باقياً من مدة العامين المذكورين سوى أربعة أشهر فقط .
ولكن سرعان ما تواترت الأنباء وأخذت تترى بأن بعض الموقعين
على الاتفاقية ، على اتصال بشيخ الجبل وبالأفرنج يدبرون معهم المكائد
ويمكرون الخطط لمناوأة السلطان صلاح الدين ، فأمام هذه الحالة الدقيقة
لم يكن السلطان ليقف مكتوف الأيدي حتى يؤخذ على غرة ، فعول ، دون ما تردد
على إيقافهم عند حدهم وإفساد خططهم ، فتحرك بجيشه بمصر متجها صوب الشام
وكان قد بعث بأثقاله وعتاده إليها قبل تحركه مع أخيه (تاج الملوك بوري)

وما أن اقتحم بجيشه الأراضي السورية حتى أمعن رجاله في نهب البلاد الخاضعة للأفرنج الذين لم يستطيعوا مقاومته ولا الوقوف في وجهه أو على الأقل الحيلولة بينه وبين تخريب بلادهم ، ولهذا تمكن بكل سهولة من الوصول إلى دمشق في صفر عام (٥٧٨ هـ) وبعد أن أخلد إلى الراحة فيها بضعة أيام شن هجوما آخر على الأفرنج وانتزع منهم بلدة (بيسان) ثم قفل راجعا إلى الشام ، وبعد أن أمضى في ربوعها شهرا ، توجه شطر « بيروت » وحاصرها برا وبحرا ، وقبل استيلائه عليها ، سار نحو الجزيرة تلبية لدعوة (كوكبوري) حاكم « حران » له .. وفي هذه الأثناء كانت مدة العامين المحرم خلاهما القتال كنص الاتفاقية السالفة الذكر قد انتهت ، فأبدى معظم حكام البلاد الجزرية بل أغليبتهم رغبتهم الصادقة في الانضواء تحت لواء السلطان ، وعرضوا عليه هذه الرغبة بالفعل ، ولا شك في أن هذا التطور السياسي كان خير مقدمة ، وبداية موفقة ، تبشر بانعقاد لواء النصر للسلطان على طول الخط .

وقد بادر السلطان إلى استغلال هذه الفرصة استغلالا واسع المدى ، فزحف على الموصل وكل هدفه أن ينتزعها من حاكمها ، فألقى عليها الحصار غير أنه اضطر بعد شهرين من محاصرتها إلى رفع الحصار عنها ، والتوجه صوب (سنجار) والاستيلاء عليها في اليوم الثاني من رمضان عام (٥٧٨ هـ) ، وفي هذه الأثناء تواترت الأنباء بأن الأفرنج يستعدون لنهب جنوبي سورية ، ولكن السلطان لم يعر هذه الأنباء أية التفاتة أو أهمية ، قائلا : إن الأفرنج هنالك يستولون على القرى ، ونحن هنا يمكننا أن نستولى على المدن والبنادر ، ثم نسترد منهم جميع ما امتلكوه من البلاد الصغيرة حين عودتنا إلى تلك الجهات والواقع أن جل غرض السلطان كان منصبا على توكيد اتحاد الأمراء المسلمين وتأمين خضوعهم لقيادته ليضمن بذلك تأليب جميع قوى الاسلام ضد الأفرنج واستعادة القدس إلى حظيرة الاسلام . ولهذا كان يفضل تسوية

مسألة البلاد الجزرية أولا وقبل كل شيء ، ولقد توجه السلطان بعد استيلائه على (سنجار) شطر قلعة آمد (ديار بكر) تلك القلعة العظيمة الحصينة ، فاستولى عليها ، بعد أن طوقها وألقى عليها الحصار ثمانية أيام .

وتواترت الأنباء وقتذاك بأن (عماد الدين) حاكم حلب ، قد مد يده للأفرنج واتفق معهم على مناوأة السلطان ، وأنهم يبيتون الهجوم على بلاده ، فسارع السلطان إلى اجتياز الفرات على الفور لإفساد خططهم ، وفي طريقه اليهم استولى على « عينتاب » وكان ذلك في اليوم السادس عشر من محرم عام « ٧٩٥ هـ » ثم يمم شطر « حلب » فطوقها وألقى عليها حصارا منيعا ، ولما أيقن « عماد الدين » بالأقبال له في هذه المرة بمقاومة السلطان والوقوف في وجهه ، أبدى ميلا واضحا لعقد الصلح ، عارضا على السلطان مبادلة « حلب » بـ « سنجار » وما يتبعها من البلدان وهي « نصيبين والخابور والركة وسروج » .

فقبل السلطان هذا العرض في اليوم السابع عشر من عام « ٥٧٩ هـ » « ١٩ حزيران ١١٨٣ م » ودخل « حلب » ظافرا يحدوه النصر ، وقابله أهلوها بالفرح والسرور والترحاب ، دون سفك دماء .

وكان قد جاءه أثناء ضربه الحصار على (حلب) : نبأ وفاة أخيه (مجد الدين بوري) فتأثر على وفاته بالغ التأثر ، واشتد به الحزن ، وأخذ منه الألم كل مأخذ . وقد أرسل (محي الدين بن الزكي) قاضي الشام ؛ قصيدة عصماء يمتدح فيها السلطان ، ويشير إلى فتوحاته مطلعها :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب
ولا شك أن فتح « حلب » وضمها إلى قائمة البلدان السلطانية ، كان نصرا للسلطان مؤزرا حيث أعلى من قدره وعظيم شهرته ، بل وجعله هذا الفتح المبين في طليعة عظماء الاسلام وأمرائه طرا ، فقد دانت له جميع البلاد الجزرية

ما عدا (الموصل) حتى (الرملة) بفلسطين ، ومنها حتى طرابلس الغرب ثم اليمن ، وكان أمراء تلك البلاد جميعها يأتمرون بأمره وينفذون طوعا أحكامه وينتهون بنواهيه . . . ولم يعد يشغل بال السلطان ويسيطر على أفكاره سوى فكرة استرداد (القدس) ، وطرد الأفرنج من كافة البلاد الإسلامية .

ولقد غادر السلطان مدينة (حلب) في الثالث من جمادى الأولى من عام (٥٧٩ هـ) وكان الأفرنج حينذاك ، قد انتهزوا فرصة وفاة (عز الدين فرخشاه) نائب السلطان في دمشق وأغاروا على البلاد السلطانية ، حتى وصلوا قرى الشام وأخذوا يخربون ويدمرون وينهبون ويسلبون . وحدث ذلك في الوقت الذي كان أمير السرك الأفرنجي ممعنا هو الآخر في شن الغارات على البلاد الإسلامية حتى وصل إلى أطراف المدينة المنورة ، ولم يكن بينه وبين اقتحامها إلا ، مدى يسير ، لولا وصول الأمير (لؤلؤ) في الوقت المناسب لانقاذ المدينة من المغيرين ، فاشتبك معهم في حرب ضروس طاحنة ، غلبهم فيها على أمرهم ، وردهم على أعقابهم خائبين ، مدحورين ، بعد أن أسر منهم الجيم الغفير .

ولا ريب أن هذه الحوادث قد أثرت في أفكار واتجاهات السلطان تأثيرا بعيد المدى . فوطن نفسه للانتقام من الأفرنج شر انتقام ، فعبر نهر الأردن بجيش عرمرم . وما أن وصل (بيسان) حتى أحرقها ، ثم التحم بالعدو شمالي (العقولة) ولسكن العدو ما لبث أن ولى الأدبار ، ولم يحسر على الاشتباك بجيشه الضخم في القتال . وقد عاد إلى ناحية (الصفورية) .

وعلى أثر ذلك نظم السلطان صفوفه وواصل الزحف حتى وصل إلى السرك وحاصرها حصارا منيعا وضيق الحناق عليها ولكن القلعة الحصينة قد امتنعت عليه ، ولم يفده حصارها ، ولكن اليأس لم يجد إلى نفسه سبيلا

فأعاد الكرة وعاد اليها بعد عام ولم ينل منها أيضا (١).
وأثر هذه الحوادث طلب الأفرنج جميعا الصلح والمهادنة من السلطان
لمدة أربع سنوات ، فقبل السلطان طلبتهم ، وعاد إلى الشام . وفي هذه الاثناء
رغب حاكم الموصل — بعدموافقة الخليفة العباسي — في عقد صلح مع السلطان
وإزالة ما بينهما من جفوة وشقاق ، فأرسل إليه وفدا مؤلفا من (القاضي بهاء
الدين بن شداد) الذي كان مقربا من السلطان ومكرما لديه ، ومن (صدر
الدين شيخ الشيوخ) . بيد أن السلطان لم ير من مصلحته في شيء ، فبول عروض

(١) نشرت مجلة (كل شيء) المصرية في العدد ٢٩٦ الصادر بتاريخ ١١
يوليو سنة ١٩٣١ تحت عنوان (صلاح الدين والأميرة الأفرنجية) قصة تدور
حول محاصرة الكرك ملخصها :

« في عام (٥٧٩ هـ) ألقى السلطان صلاح الدين الحصار على قلعة الكرك
وفي هذه الاثناء كان (همفروي) الرابع (كونت دي تورون) قد عقد زواجه
على كريمة الكونت (رينو دي شاتليون) وكانت الاستعدادات تجري في
أحد أبراج القلعة توطئة للاحتفال بالزواج فأوفدت والدة العريس وهي
الأميرة (ايتانات) هيئة من كبار قومها حاملين هدايا فاخرة إلى السلطان
صلاح الدين ، ورسالة منها اليه ترجوه فيها ألا يطوق البرج الذي يقام فيه
الاحتفال في الليلة المعلومة وأن يتقبل المسلمون هدايا العرس بقبول حسن
ثم تخاطب السلطان فتقول « أتذكر حينما كنت أسيرا في قصرنا ما كنا
نحوطك به من التجلة والاكرام ، وتيسير أسباب الراحة لك ، والعناية بك؟
فتقدرا لهذه الذكريات الصادقة ، أرجو ألا ينقلب فرح ابني إلى ما يكدر
الصفو » — فبناء على هذا يكون السلطان قد أسر في وقت ما وأنه كان مقيما في
اساره لدى (همفروا) . (المؤلف) — [المصادر الاسلامية لا تعرف مثل
هذه الروايات والقصص — المترجم] .

الصلح مؤثرا إعمال السيف وإثارة الحرب ، ولهذا جهز جيشا توجه به صوب الموصل ، وألقى الحصار عليها في عام (٥٨١ هـ) ، ، وأوفد إليه حاكم الموصل في هذه المرة والدته وهي كريمة عمه المغفور له السلطان (نور الدين) ، أملا في موافقة السلطان على عقد الصلح إكراما لوفادتها ، ولكن الموفدة قد عادت بخفي حنين .

ولما جاءت الانباء بقيام اضطرابات ونشوب قلاقل وقتن في أنحاء (خلاط) رفع الحصار عن الموصل ، وتوجه صوب (ميافارقين) فاستولى عليها في ربيع الآخر عام (٥٨١ هـ) ثم عاد إلى محاصرة الموصل واستمر حصاره لها حتى انتابه مرض عضال ، وألح عليه المرض واشتدت به العلة ، فاضطر للعودة إلى « حران » ليمضي فيها بعض الوقت ، وقد قابله في طريقه إليها مندوب آخر من قبل حاكم الموصل ، ليعرض عليه شروطا ملائمة للصلح ؛ منها الخطبة وضرب النقود باسم السلطان مع التنازل له عن بعض البلاد ؛ غير أن المرض الذي لا يرحم قد اشتد على السلطان لدرجة أن بلغ ببعضهم اليأس في شفاؤه ، وأوصى السلطان باللازم وما يتبع ، ، واسكن حدثت المعجزة إذ لم يمض على ذلك طويل وقت حتى خفت وطأة المرض ، وأخذ يتمائل للشفاء في أواخر ذي القعدة عام (٥٨١ هـ) ، وقد وصل وفتتذاك إلى (حران) القاضي ابن شداد وعرض على مسامع السلطان — باسم حاكم الموصل — شروط الصلح ، فقبلها السلطان ، وهي تقضى بالاعتراف بالسلطان حاكما على شمالى الجزيرة ، وشطر من كردستان (أرمينية) وعلى أثر ذلك ، عاد السلطان من حران إلى حمص ، وهناك لبث فترة من الزمن . ثم عاد إلى الشام حيث وصلها في المحرم من عام (٥٨٢) للهجرة .

١٠ — « السلطان صلاح الدين والصليبيون »

لما استتب الأمر للسلطان صلاح الدين ، أو بمعنى آخر بعد أن انتهى من

تدبير شئون الشام والجزيرة ، وقضى على أسباب الفرقة والشقاق التي كانت مستحكمة الحلقات بين أمراء تلك البلاد وحكامها حيث أخضعهم جميعاً لأمره وتسنى له بفضل ذلك أن يضم شمل القوى المتنازعة ، ويجمعها حول فكرة موحدة ، وهدف واحد ألا وهو « ضرورة فتح القدس وطرده الصليبيين من البلاد الإسلامية جمعاء . »

وهكذا أقدم بكل جرأة وعزم من حديد على اعلان الجهاد المقدس ضد الأفرنج . وكانت الظروف مواتية له ومساعدة من ناحية الأفرنج أنفسهم اذ كان أمراؤهم وقوادهم في فلسطين متنازعين متناحرين وعلى الخلاف مع بعضهم البعض مواظبين ، ولا سيما بعد وفاة (بلدوين الرابع) حيث تزعزعت أركان الحكم ، واختل النظام بينهم ، وقام (رياموند) حاكم طرابلس بتصرف شئون الحكم - بالنيابة - فترة من الزمن ، ولما تزوجت (سيبيل) أخت الملك المتوفى بأمير يدعى (جوى) ثم توجت بدل أخيها ، أقدم زوجها الأمير (جوى) على حشد جيش صخم ، وزحف به على (رياموند) الذى كان وقتذاك فى (طبرية) فاضطر (رياموند) إلى طلب النجدة من السلطان ، الا أن السلطان قد أثر التريث ولم يسرع بموافاته بما طلب منه من نجدة اذ لم يكن راغباً فى أن يكون هو البادى بنقض شروط المعاهدة القائمة ، ولكن الذى أقدم على نقض الشروط فى هذه المرة أيضاً ، هو أمير من أمراء الأفرنج وهو (رينولد) حاكم السكر ، وكان ذلك فى عام (٥٨٢) للهجرة حيث كانت قافلة إسلامية مارة على مقربة من السكر فهاجمها الأفرنج ، وسلبوها ، وأسروا من يصطحب القافلة من رجال ونساء ... وجاء فى رواية أن أخت السلطان كانت ضمن الأسرى أيضاً ... ولم يكتف (رينولد) بارتكاب هذا الحادث ، بل بدر منه الكثير مما يعتبر ماساً بشعائر الدين الإسلامى وكرامة المسلمين . ولما ترامى نبأ هذه الحوادث المثيرة إلى مسامع السلطان ، استشاط غضباً ، وغلى الدم فى عروقه ، وأقسم الأيمان المغلظة بأنه إذا قيس له أن يقبض على (رينولد) ،

فأنه سيتولى بنفسه وييده قتله ، جزاء وفاقا لعمله المنكر .
وقد أعلن السلطان الجهاد العام ، واتخذ التدابير اللازمة للحفاظ على طريق
الحاج وتأمينه ، ثم أقام معسكره في « قصر السلامة » على مقربة من « بصرى »
وما هي إلا فترة وجيزة حتى وصل الجيش من مصر وعسكر إلى جانبه ، وفي
هذه الآونة تواترت الأنباء بأن ابنه الملك (الأفضل على) قد عقد له لواء النصر
على جيش للأفرنج في جهة « عكا » وألحق بهم هزيمة منكرة ، وخسرانا مبينا .
وأخيرا ، وبعد نزاع طال أمده ، تصالح « رياموند » مع إخوانه الأفرنج
وأزال ما كان بينه وبينهم من فرقة وجفوة فقوى جانب الأفرنج وأضحوا -
كما كانوا قبلا - كتلة موحدة متراسة . وإزاء ذلك ، عقد السلطان مجلس حرب
للتشاور فيما يجب اتباعه بصدد الحالة الحربية الراهنة ، وموقف الأفرنج العدائي
من المسلمين ، وبعد المناقشة استقر رأى المجلس على شن حرب لا هوادة فيها
على الأفرنج .

وفي يوم الخميس ١٦ ربيع الأول من عام « ٥٨٣ هـ » تحركت جماعات
الجيوش الإسلامية فعبرت نهر الاردن في جنوبي « الطبرية » يوم الجمعة ، ثم
تقدمت قوة إلى الأمام مستطلعة أنباء العدو الذي كان معسكرا في المكان
المسمى « صفورية » ، ثم ترك السلطان قوة عسكرية أمام العدو لمناوشته وشغله
وعاد هو ببقية الجيش إلى « الطبرية » واستولى عليها ، غير أن أهل « رياموند »
قد تمكنوا من اللجوء إلى القلعة بأموالهم ونسائهم ، وطلبوا النجدة من الملك
(جوى) . وبعد أن طال أمد المفاوضات والمشاورات بين الحكام الأفرنج
استقر رأيهم بالاجماع على محاربة السلطان ، ثم عمدوا إلى قطع المياه عن جيوش
السلطان ، ولكن تدبيرهم هذا قد ذهب سدى ، لأن السلطان كان قد سبقهم
واتخذ تدابير فعالة تحول دون وصول الأعداء إلى أغراضهم ، بل المدهش
أنه قد حدث العكس وظل الأعداء محرومين من المياه في أيام اشتد فيها القيظ
وحى وطيس القتال ، فلم يجدوا مندوحة من الرجوع إلى معسكراتهم خائبين

مدحورين . وفي عداة ذلك اليوم شن الجيش الاسلامي حملة قاسية وهجوما عنيفا على الجيوش الافرنجية ، فأذاقها مرارة الحرب والقتال علاوة على ما ولده فيها العطش والجوع من الخور والضعف وأسفر القتال عن هزيمة الافرنج واندحارهم . ويعتبر اليوم السادس بعد العشرين من ربيع الآخر من عام (٥٨٣) للهجرة ، يوم انهيار أساس ودعائم السلطنة الافرنجية بفلسطين ، حيث وقع في الاسر كل من الملك (جوى) ، وأمير السكرك ، وأخي الملك ، وأمراء آخرين وغيرهم كثيرين من كبار الافرنج ... وكان من بين الغنائم الكثيرة التي استحوذ عليها المسلمون ، خشبة الصليب المقدس ،

والذي لا يتطرق إليه الشك أن هذه الهزيمة كانت منكرة بل وقاصمة ، فلم يحسب بمثلها الافرنج منذ وطئت أقدامهم أراضي البلاد الشرقية . وقد أقيم سرادق فاخر - على اثر الحاق الهزيمة بالافرنج - للسلطان ، حيث جلس في صدره ، ومن حوله بضعة من قواده وكبار الأعيان ، ثم قدم إليه الاسرى يتقدمهم الملك (جوى) ، وأمير السكرك المشهور . وما أن استقر المقام بالملك (جوى) حتى طلب ماء جىء به إليه ، فسارع إلى شربه وبعد أن تناول جرعة منه ، ناوله إلى أمير السكرك ، ولكن السلطان منعه من ذلك قائلا : « نحن لم نعطه هذا الماء حتى يأمن من انتقامنا منه » ، ثم استرسل في سرد وتبيان ما ارتكبه أمير السكرك من المظالم والقسوة ضد المسلمين ، وما ألحق بالحجاج المسلمين من الأذى وما وجه إليهم من إهانات ، ، ثم انفرد السلطان قائما وضرب عنقه بنفسه وبذلك بريئ منه وتأثر الملك (جوى) بهذا الحادث ، وتملكه الذعر والخوف على نفسه ، إلا أن السلطان قد بعث في نفسه الطمأنينة ، وأزال ما انتابه من خوف وذعر ، ثم أكرم وفادته ، وأمر بتقديم المساعدات والتسهيلات الضرورية له وجميع الأسرى الآخرين وبترحيلهم إلى الشام بكل تجلة وإكرام ، ماعدا ما تقي أسير أمر السلطان بقتلهم جميعا ، لما سبق أن أظهره من قسوة وارتكبه من مظالم حيال المسلمين .

وبعد فترة من الزمن زحف السلطان على قلعة (الطبرية) ، فاضطرت زوجة (رياموند) اللاجئة اليها ، إلى تسليمه القلعة ، ثم واصل السلطان الزحف حيث توجه صوب ما تبقى من بلاد فلسطين ودخلها الواحدة تلو الأخرى ، فاتحا غازيا ، وكان كلما طرق أبواب بلدة سارع أهلها بتسليمها إليه ، ولم يكن بها من الحاميات إلا عدد قليل ، وكان السلطان يعامل الأهالي من غير ما فارق جنسى ولا دينى ، وأحسن معاملة الجميع دون استثناء مما حبيه اليهم عامة .

وبعد أن تم له الاستيلاء على (الطبرية) واصل الزحف على (عكا) التى استماتت حاميتها فى الدفاع عنها بادية الأمر ، ولكنها عادت واستسلمت أخيرا ورضخت للصالح ، وسمح السلطان لأهلها بمغادرة البلدة ، فدخلها جيش المسلمين فى اليوم الثانى من جمادى الأولى (٥٨٣ هـ) ، وأدوا صلاة الجمعة فى الجامع الذى كان الأفرنج قد حولوه إلى كنيسة .. وقد اغتتم المسلمون الكثير الطائل من الأموال من هذه القلعة .

ثم بعث السلطان إلى أخيه الملك العادل بمصر يبشره بالانتصار ويأمره بالآغارة على البلاد المتاخمة حتى الحدود المصرية ، وتطهيرها من فلول الصليبيين فقام الملك العادل بالمهمة التى وكل إليه تنفيذها ، فاستولى على حصن (مجدل يابا) ومدينة (يافا) ، ووقع فى قبضته الكثيرون من الأفرنج أسرى وكان السلطان قد أرسل بنفسه بعض سراياه من قلعة (عكا) إلى الأطراف ، فاستولت هذه القوات على (الناصرة) و (قيسارية) و (حيفا) و (صفورية) و (الشقيف) و (الفولة) و (معليا) فى حين أن استولت جيوش إسلامية أخرى على « نابلس » و « سبسطيه » وبها قبر زكريا ، ومدن أخرى فى تلك الجهات . . . ثم زحف السلطان بنفسه على قلعة « تبنين » التى كان قد أنفذ ابن أخيه (تقى الدين عمر) للاستيلاء عليها واستولى هو عليها ، ثم عرج على « صيدا »

فاحتلها دون سفك دماء ، كما استولى على « بيروت » بعد قتال دام ثمانية أيام وأراد السلطان بعد ذلك الاستيلاء على (عسقلان) لأنها تقع على طريق مصر والبلاد الشامية ، وتعتبر مفتاح القدس ، ومن دواعي الأسف أن السلطان قد أهمل الاستيلاء على قلعة « صور » حينذاك حيث كان يجتمع فيها رويدا رويدا فلول الصليبيين المهزومة ، غير أنهم كانوا يفتقرون إلى زعيم يلتفون حوله ، ويأتمرون بأمره ، فكان الاستيلاء عليها في غاية السهولة ، إلا أن السلطان لأسباب نجعلها لم يبد اهتمامه بها حينذاك ، فأحجم عن الاستيلاء عليها في هذا الظرف المواتي .

وهكذا أصبحت هذه القلعة فيما بعد أهم مركز عسكري حصين للنصارى ، حيث قدم المركز (كونارد) عن طريق القسطنطينية بجنود كثيرين ، وعتاد ضخم ، واعتصم بهذه القلعة ، ونظم بها خطط الدفاع عن البقية الباقية من أملاك الصليبيين في تلك البقاع ، وسميت هذه الحملة بالحملة الصليبية الثالثة التي جرت الكثير من الويلات والمصائب على المسلمين .

ولا شك أن هذا الإهمال اليسير لمن أكبر أخطاء السلطان السياسية والعسكرية ، لأن أهالي (صور) كانوا يطلبون الصلح ويعرضون التسليم بلا قيد ولا شرط ، ولكن ما لبثوا أن تراجعوا وغيروا رأيهم إثر وصول (كونارد) هذا ، وقد أراد السلطان أن يستعين بوالد (كونارد) الذي كان أسيرا لديه في دمشق على تسليم (صور) ومنع أهلها في الدفاع عنها ولكنه أخفق فيما أراد . وذهبت مساعيه في هذا الصدد أدراج الرياح . وفد توجه السلطان بعد ذلك إلى (عسقلان) وحاصرها أربعة عشر يوما ، بذل في أثناءها مجهودا جبارا أملا في الاستيلاء عليها بطريق سلمي ، بوساطة الملك (جوى) ولكن دون جدوى . فاضطر في آخر جمادى الثانية للقيام بهجوم عنيف على القلعة واضطر المدافعون إلى التسليم بشروط . . . وأعقب ذلك استيلاؤه

على غزوة الرملة وخليل الرحمن وبيت لحم ، وبيت جبريل وبضعة بلدان أخرى . وقد أتم السلطان هذه الفتوحات العظيمة في مدة لا تزيد على شهرين على التحديد ؛ الأمر الذي لم يتيسر لأحد من السلاطين قبله في سنين . ولقد أدى ذلك كله إلى فتح الطرق إلى القدس الشريف من كل الجهات أمام المسلمين . ونظرا لأن السلطان كان يقدر قيمة هذه المدينة المقدسة في نظر المسلمين والنصارى على السواء ، ويعرفها حق المعرفة ، فلم يرد - رحمه الله - الاقدام في بادىء الأمر على محاولة الاستيلاء عليها عنوة ، بالوسائل العسكرية المدمرة ، فأوفد رسلا من قبله إلى أهالي القدس وأولى الأمر فيها كي يسلموا المدينة بطريقة سلمية حقنا للدماء ، ولسكن الأفرنج قد ركبوا رموسهم ، ورفضوا قبول الصلح ؛ كما أبوا التسليم بطريقة سلمية ، وسبب ذلك هو أن (بلبان (١)) حاكم الرملة سابقا والذي وقع أسيرا في قبضة السلطان في معركة (حطين) ، كان قد طلب إلى السلطان السماح له بقضاء ليلة واحدة في القدس . ثم يعود بعدها مستصحبا معه أسرته المقيمة في القدس . ، فسمح له السلطان وأجابه إلى طلبته ، اعتمادا على شرفه العسكري ، ، إلا أن هذا القائد العديم الشرف قد أخلف وعده ، وتحلف في القدس ليقود ويترأس حاميتها ، وينظم الدفاع عنها ... وقد تسنى له حشد ستين ألفا من الجنود وتجهيزهم أتم تجهيز بفضل الأموال الطائلة مما هو مدخر في خزائن الكنائس وغيرها ، والتي وضعها مطران القدس تحت أمره ورهن إشارته للإنفاق منها على شئون الدفاع .

ولما وصلت الأنباء الأكيدة عن هذه الاستعدادات الهائلة إلى السلطان صلاح الدين ، توجه على الفور بجنوده صوب القدس ، فوصلها في الخامس عشر من شهر رجب من عام (٥٨٣ هـ) ، وضرب نطاق الحصار حولها .

(١) في ابن الاثير (١٢ ص ٢٢٣) باليان بن بيرزان صاحب الرملة ومرتبته
عندهم تقارب مرتبة الملك .
المترجم

وبعد أن أمعن النظر في المراكز الحربية ، وغصها غصا دقيقا طيلة أيام خمسة كاملة تراءى له صلاحية الجهة الشمالية من المدينة للقيام منها بالهجوم العام ، فنقل إليها معسكره على الفور ، واتخذ (جبل الزيتون) مركزا لقيادته . وأخذ يضيق الحصار على المدينة من هنالك ، ثم بدأت الجيوش الإسلامية تتقدم شيئا فشيئا ، وتحتاز ما في طريقها من العقبات والعراقيل التي كانت تحوط المدينة ولم يلبث سكان المدينة أن اشتد بهم الضيق ، فاضطر المدافعون من الأفرنج إلى طلب الصلح ، والأمان .. وبعد مفاوضات طويلة شاقة بين الطرفين ، تم الاتفاق على أن يغادر الأفرنج المدينة والقلعة في خلال أربعين يوما ، نظير دفع كل واحد من الرجال عشرة دنانير ، وكل واحدة من النساء خمسة دنانير ، وعن كل طفل دينارين فدية لنجاتهم وسلامتهم من الهلاك .

وهكذا سلت المدينة لصلاح الدين وبدأ خروج أهلها وحاميتها منذ يوم الجمعة السابع بعد العشرين رجب من عام (٥٥٣ هـ) وبذلك تحققت نبوءة (محي الدين) قاضي الشام حين فتح حلب حيث قال إن القدس أيضا ستفتح في شهر رجب كما فتحت (حلب) فيه ^(١) .

وقد استدعى السلطان هذا القاضي لمقابلته . وكافه بإلقاء خطبة الجمعة في القدس يوم فتحها . وكان عدد المصلين في ذلك اليوم كبير الدرجة أن المسجد الأقصى قد ضاق بهم على سعته ، وكانت الفدية التي فرضها (صلاح الدين) على حامية القدس من الأفرنج قد اختص بها الأفرنج وأتباعهم دون غيرهم ، لأنه سمح للنصارى المحليين بأن يلبثوا في القدس كسائر النصارى الذميين ،

(١) قال لي المرحوم ابراهيم أفندي الحيدري ان القاضي محي الدين جعل البيت الاتي مقدمة لخطبة الجمعة التي ألقى يوم الفتح في المسجد الأقصى . الحمد لله ذلت دولة الصليبي وعز بالكرد دين المصطفى العربي المؤلف

خاضعين لأحكام الشريعة الإسلامية . ولم يدخل السلطان المدينة إلا بعد أن غادرها قواد وزعماء الجيش الصليبي ، وما أن وطأت قدماء أرض المدينة حتى أصدر عفوا عن سبعة آلاف من أولئك الذين عجزوا عن دفع الفدية ، من الأفرنج ، وذلك تلبية وتحقيقا لرجاء أخيه الملك العادل (أبي بكر محمد) ، ثم أصدر عفوا آخر عن عشرة آلاف آخرين حين تحقق عجزهم عن دفع الفدية ولم يكتف بهذا ، بل إنه قد أباح يوما كاملا لخروج الفقراء من ذكور وإناث دون أن يطالبوا بدفع الفدية ، كما أذن للقسس والموظفين الدينيين . بأن يحملوا معهم ما يلزمهم من الامتعة .

وخلاصة القول ان السلطان قد أظهر في فتح القدس من آيات العدل ومظاهر الرحمة والعطف ، ما قد فاق وتجاوز ما يتصوره العقل ، وهذا أمر متفق عليه ويعترف به المؤلفون والمؤرخون الأفرنج ويدهشون له ، ، إذ كان السلطان يكرم مثوى الضعفاء والعاجزين ، ويحترم النساء ، ويقدم لهن كافة التسهيلات وأجل الخدمات ، . وقد أثر عنه أنه أكرم وفادة الملكة (سيديل) وحقق رجاءهم إذ أرسلها إلى زوجها الملك (جوى) الذى كان أسيرا فى نابلس كما أنه أجاب طلب الكثيرات من الامهات والزوجات اللاتي مررن أمامه باقيات مولولات باطلاق سراح أبنائهن وأزواجهن من الاسر .

ولا يخفى أن هذه المعاملة الشريفة السامية التى عامل بها (صلاح الدين) أفرنج القدس وفلسطين ، كانت على العكس تماما من تلك المعاملة القاسية التى عامل بها هؤلاء الأفرنج المسلمين لان (جودفرى) حينما استولى على القدس سنة (٤٩٣ هـ - ١٠٩٩ م) ، قد ارتكب ما يندى له جبين التاريخ من الفظائع والاهوال مع المسلمين الآمنين ، إذ قتل منهم سبعين ألفا من الرجال والنساء على التحديد .. وهذه حقيقة ثابتة لا يمكن أن ينكرها المؤرخون المسيحيون ، بل إنهم قد اعترفوا بها بكل جلاء وصراحة .. ولبت صلاح الدين

في القدس قرابة شهر نظم خلاله بعض أمورهما ، فعمر الجوامع والمؤسسات
الاسلامية وأعاد اليها بهاءها وروبقها من جديد ، وأنشأ المدارس والمعاهد
وأجرى عليها ما يكفيها من الصدقات الجارية والأوقاف الثابتة ، ثم توجه على
رأس جيشه الظافر إلى (صور) حيث كان أسطوله قد توجه من مصر صوب
ميناء هذه القلعة بأمر منه ، غير أن المريكز (كونارد) كان قد اغتتم الفرصة
وحصن هذه القلعة تحصينا قويا ، ولهذا لم تكمل بالنجاح جميع الجهود التي بذلها
السلطان لاقتحام هذه القلعة والاستيلاء عليها عنوة من البر والبحر . وكان
الشتاء قد أقبل بيرده القارس ، فانصاع السلطان لنصيحة بعض الأمراء والقواد
ورفع الحصار وعاد بالجيش حيث أخلدوا إلى الراحة .

ولكن السلطان ما لبث أن عض ننان الندم حيث لم يكن هؤلاء الأمراء
في بادىء الأمر قد عرفوا أهمية هذه القلعة وما لها من قيمة حربية . مثل ما
كان يعلم السلطان ، فكان من الواجب إذن الاستيلاء على هذه القلعة الوحيدة
الباقية في قبضة الصليبيين بأى وسيلة كانت ليظهروا البلدان الفلسطينية منهم تمام
التطهير . ولكن مما يؤسف له أن القواد والأمراء العسكريين قد أصروا
على خلاف ما ارتآه وأراده السلطان بصدد الاستيلاء على هذه القلعة الهامة .
وقد ترتب على ذلك ثلاثة أخطاء بارزة :

١ - كان الواجب أن يتقدم فتح هذه القلعة ، فتح القدس ، مادام لم يحدث
ذلك في وقته المناسب الذى أضاعوه سابقا .

٢ - كان الواجب أن يحول السلطان دون عودة الأسرى الفرنج وغيرهم
من مقاتليهم الذين أطلق سراحهم أو الذين غادروا المدن المستردة من
الفرنج وغيرهم إلى الاحتشاد في قلعة (صور) والتحضر لقتال المسلمين
مرة أخرى .

٣ - كان الواجب الاستيلاء على هذه القلعة بأى ثمن كان ، بعد أن أتم

الجيش الاسلامي فتح القدس ونظم أمورها ، ثم ضرب فعلا نطاق الحصار حولها فلم يكن من الكياسة إذن تركها دون فتح .

وصفوة القول إن فتح القدس من جديد على أيدي المسلمين قد أثار روح التعصب بين المسيحيين في أوروبا ، وأقام القسوس ورجال الدين وأقعدهم ، فانبشوا في أنحاء البلاد يوقدون نار الحماس والتعصب بين المسيحيين من كافة الأمم والأجناس . فما هي إلا فترة وجيزة حتى احتشدت منهم قوة هائلة توجهت من كل فج عميق نحو فلسطين تحت قيادة ملوكهم وزعمائهم المشهورين ، وكان من الرؤساء البارزين في هذه الحملة الصليبية المشهورة امبراطور ألمانيا ، وملك إنجلترا (ريشارد) الشهير بقلب الأسد ، وغيرهما من الملوك والعظماء .

وفي هذه الأثناء كان (صلاح الدين) قد أتم فتح قلعة (هونين) وضرب نطاق الحصار حول قلاع كوكب وصفد والسكر ، ثم عاد إلى دمشق في السادس من ربيع الأول من عام (٥٨٤ هـ) حيث جهز جيشا حافلا توجه على رأسه صوب (أنطاكية) و (طرابلس) ولما استولى على (أنططوس) أطلق سراح المملك (جوى) (؟) مشرطا عليه ألا يعود إلى قتاله ، وأن يبارح سورية على الفور إلى أوروبا . ولكن هذا الملك قد خان عهده وذهب توا إلى (صور) عارضا خدمته على (كونارد) ولكن عرضه هذا كان نصيبه الرفض وعدم القبول ، فذهب أخيرا إلى (طرابلس) وتمكن من حشد بقايا الصليبيين ثم عاد أخيرا واشترك مع جيش « صور » في الزحف على (عكا) وقد كتب الفرز للسلطان في هذه الحروب حيث استولى على (المرقب ، والجبلة ، واللادقية ، وصهيون) وغيرها من القلاع والمدن ثم عاد عن طريق حلب إلى دمشق الشام وصرف عامة جيوشه للراحة والاستجمام وتوجه هو بخاصة عسكره خلال الشتاء إلى (صفد) و (كوكب) فاستولى عليهما .

وفي نفس الوقت جاءت الأنباء تترى بأن أخاه (الملك العادل) قد استولى على قلعة (الكرك) الشهيرة .

نعم ! إن السلطان قد تمكن من انتزاع جميع قلاع سورية وفلسطين ومدنهما من بين برائن الأفرنج ما عدا قلعة الصور ذات الأهمية ، والتي أدى بقاؤها في قبضة الأفرنج إلى تهديد المسلمين بخطر شديد ، ولا سيما أن التعصب الأوروبي كان قد بلغ منتهاه من الشدة وقتذاك ، وكانت جموع الصليبيين من الحملة الثالثة ، قد أخذت تتدفق كالسيل الجارف على فلسطين ، وتعتصم بقلعة الصور ، الأمر الذي أدى إلى تغيير موقف السلطان من خطة الهجوم إلى خطة الدفاع ابتداء من عام (٥٨٥ هـ)

وقد حشد (كونارد) قائد قلعة الصور ، قوة عسكرية هائلة في هذه القلعة ، ودلت كافة القرائن وجميع الدلائل على أن هذه القوة آخذة في الزحف على البلاد الإسلامية ، حيث صارت فيما بعد مقدمة لأكبر نكبة حاقت بالإسلام . وتفصيل ذلك ، أن الملك (جوى) قد حشد — على خلاف ما أعطى على نفسه من العهود والمواثيق — جيوشا حافلة وكثيرة في طرابلس وكان يتلقى بين آن وآخر نجدات وامدادات كبيرة عن طريق البحر من الأفرنج .

ولم يقف السلطان إزاء ذلك مكتوف اليدين ، بل أخذ بدوره في اعداد جيش لملاقاة خصومه في (مرج عيون = مرجعيون) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ضرب نطاق الحصار على قلعة (شقيف أرنون) . ولما جائته الأنباء بأن الأفرنج قد ضيقوا الحصار على (عكا) ترك فريقا من جيشه ملقيا الحصار على الشقيف وتوجه بالأغلبية العظمى من جيشه لرفع الحصار عن عكا . وكان المحاصر لها من الأفرنج هو الملك جوى ، وقد دام هذا الحصار عامين كاملين ، وكان السبب في طول مدة الحصار هو تلقي الأفرنج النجدات

تلو النجدات . واشترك (كونارد) أيضا في هذا الحصار .

ولو أن صلاح الدين قد أبدى اهتماما بحصار عكا ، من بادىء الأمر ووجه ضربة قاضية إلى المحاصرين قبل تزايد عددهم واشتداد ساعدتهم ، وقبل وصول (كونارد) لنجدتهم ، لما طال الحصار إلى هذا الحد ، ولما طمع الأفرنج في الاستيلاء على القدس وفلسطين مرة أخرى ، بل الذى حدث هو العكس ، إذ أن السلطان قد اهتم بادىء ذى بدء بقلعة الشقيف وترك الفرصة للملك (جوى) كى يحشد قواته ويزيدها يوما فيوما . وما أن وصل السلطان صلاح الدين إلى عكا ، ورأى الأفرنج منهمكين في تضيق الحصار ، حتى بادر إلى مناوشتهم وسبر غورهم ، وإن هى إلا بضعة أيام حتى سنحت له الفرصة للقيام بهجوم مباغت عنيف فى إحدى نواحي (عكا) واقتحمت قوة كبيرة البلدة تحت قيادة ابن أخيه الأمير (تقى الدين عمر بن شاهنشاه) ، وفتحت الطريق لا يصال النجدات والعتاد .

ويقول (ستانلى) إن السلطان قد تمكن بنفسه من دخول (عكا) فى أصيل اليوم الثانى من شعبان عام (٥٨٥ هـ) . ونصب الأمير (حسام الدين السمين) حاكما للقلعة وقائدا عليها . . . ولما أرخى الليل سدوله عادت القوات الاسلامية إلى معسكرها خارج القلعة ، فاتهز الأفرنج الفرصة وأقاموا تحصينات هائلة فى الجهات والمراكز الملائمة ، ولا سيما ذلك الطريق الذى كان السلطان وجنوده قد افتتحوه نهارا بكل مشقة فقد أغلقه الأفرنج فى وجوههم وهكذا ذهبت جميع جهود السلطان وجنوده فى هذا اليوم هباء وضاعت سدى . ولقد تجاسر العدو بعد ذلك فقام فى الخامس من رمضان عام (٥٨٥ هـ) — علاوة على تضيقه الحصار — بهجوم شامل وعام على جيوش الاسلام فشتتها ، وأبعدھا عن أطراف (عكا) ، وحدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه كافة قوات الاسلام موزعة ومبعثرة فى جهات عدة . . . فكان فريق منها

مضطرا للوقوف أمام (أنطاكية) ليرصد حركات أميرها (بوئمند = ييمند) وفريق آخر يقوم على حراسة (دمشق) مما عسى أن تقوم به الحاميات الأفرنجية بطرابلس الشام من حركات ضد المدينة ، بينما كانت هنالك قوة أخرى كبيرة تسهر على حماية « دمياط » و « اسكندرية » من غزو الصليبيين المفاجئ . لهما .

وهكذا أفضى هذا الانكسار الجزئي ^(١) من جهة ، وحلول شهر رمضان واصرار قواد الجيش الاسلامى على الرجوع وترك القتال فترة من الزمن من جهة أخرى ، إلى اضطرار السلطان إلى الانسحاب والتراجع إلى الورا . حتى (الخروبة) وترك (عكا) بمن فيها تحت رحمة القدر . وقد استاء صلاح الدين وحز في نفسه الألم من نشاط الأفرنج وشدة غيرتهم وحرصهم على مصالحهم في الوقت الذى ينفر فيه المسلمون من مواصلة القتال مفضلين عليها الراحة والاخلاد إلى السكينة ، لأنه كان يقدر مغبة هذا الأمر تمام التقدير ويعلم بل ويتنبأ بمدى الاخطار المحدقة بالمسلمين ، ولهذا أرسل كتباً إلى شتى البقاع الاسلامية يدعو فيها الملوك والأمراء والزعماء لنجدة الاسلام والمسلمين ، وأمضى الشتاء فى (الخروبة) دون القيام بأى عمل إلى أن تمائل للشفاء من المرض الذى ألم به ، وقد اجتمعت حوله خلال ذلك الجيوش الاسلامية ، فنهض على الفور وتوجه على تلك الجيوش الجرارة لملاقاة الأفرنج فى اليوم السابع عشر من ربيع الأول من عام (٥٨٦ هـ) ، فوصل (عكا) بعد سبعة أيام ، وكان العدو قد ضيق الحصار على المحاصرين ، وفى هذه الآونة كان

(١) كانت الغلبة والنصر فى النهاية فى جانب السلطان بحيث قتل من الصليبيين زهاء عشرة آلاف من الجنود والضباط والقواد . (تاريخ اسلام ص ٣٨١)
المؤلف

الأسطول الاسلامى قد وصل من مصر ودخل مياه (عكا) واشتبك مع أسطول الأفرنج فى القتال ، وألحق به هزيمة منكرة ، وتمكن من دخول الميناء حيث استطاع إمداد المحاصرين بمعدات تمكنهم من مواصلة الدفاع .

وفى هذا الوقت بالذات ، جاءت الأنباء تترى بأن (فردريك بارباروس) إمبراطور الألمان ، قد دخل فى صفوف الصليبيين الذين تحركوا قاصدين فلسطين وكانت طلائع الجيش الألمانى قد وصلت إلى شمال بلاد قليقية (أطنه الحالية) فلم يسع السلطان أمام سيول الصليبيين المتدفقة الجارفة ، إلا الاستعانة بملوك المسلمين وحكامهم فى أطراف الأرض ومشارقها ومغاربها . حتى انه أرسل وفدا لسلطان مراكش (يعقوب المنصور) يطلب إليه مد المسلمين بالمعونة والمساعدة . وبما يؤسف له أن استصراخ السلطان هذا قد ذهب هباء ولم يجد آذانا صاغية ولا قلوبا واعية . إذ لم يلب أحد منهم دعوته ونداءه . وهكذا بقى بطل الاسلام وحامى حماء وحيدا منفردا أمام أعدائه الكثرين مستعينا بالله وبقواته الخاصة .

ومن عجائب القدر أن إمبراطور الألمان الذى كان على رأس جيش لجب من جيوش الصليبيين قد لقي حتفه غريقا فى أحد^(١) الأنهار حين اجتيازه له فى الحادى عشر من شهر حزيران (يونيو) عام (١١٩٠ م) = (٥٨٦ هـ) مما أدى إلى عودة فريق من جيشه إلى بلاده ، فى حين توجه الفريق الآخر بقيادة نجله (دوق دوسوايادا) إلى فلسطين عن طريق أنطاكية .

وكانت جيوش الصليبيين قد انقسمت إلى شطرين ، شطر يقوم بأعباء الحصار ، وشر وهو الأكبر قد خصص لمحاربة السلطان ومنازلته ، وقد

(١) عن نهر جيحان الذى يجرى فى كليشيا (قليقية) ويقال له فى كتب الجغرافيا الاسلامية القديمة نهر المصيصة .
المترجم

قام هذا الفريق من الصليبيين فعلا بمهاجمة السلطان في العشرين من جمادى الآخرة من عام (٥٨٦) للهجرة (٢٦ تموز سنة ١١٩٠ م) فزعزع جيش السلطان واضطرب كيانه في بادىء الأمر . ولحق به انكسار جزئى . وتشتت فريق منه حتى وصل إلى أبواب « دمشق » و « الطبرية » واقتحمت بعض طلائع الأفرنج معسكر السلطان . وهنا أخذت الحمية تدب في الجيوش الإسلامية فتبنت أمام العدو كالطود وكرت على جحافلهم كرة عنيفة فألحقت بها هزيمة منكرة . وهكذا دب ديبب الفزع والخوف بين صفوف العدو فولوا الأدبار ولاذوا بالفرار ومن ناحية أخرى كان المدافعون عن قلعة (عكا) قد تمكنوا ببعض الوسائل ، من إحراق الأبراج التى كان العدو قد أقامها لتضييق نطاق الحصار عليهم

(١١) — « اتصال السلطان بالجيش الانجلىزى »

فى اليوم الثانى والعشرين من شهر جمادى الآخرة من عام (٥٨٦ هـ) ، وصل جيش كبير من جيوش الصليبيين بقيادة الكونت (هنرى) ابن أخت ملك الانجليز إلى أبواب (عكا) وأقام معسكره خارجها ، وأعد نفسه للقيام بهجوم عام على جيوش المسلمين . . . هنالك فطن السلطان إلى عدم ملائمة مستقره ومقامه لمنازلة العدو . فانسحب سراعا إلى الخروبة ، يبد أن هذا العمل من جانب السلطان قد قوى من عزائم الأفرنج ، فأمعنوا فى تشديد الحصار ، ولكن محافظ القلعة وهو الأمير (حسام الدين) من ناحية ، (وبهاء الدين قره قوش) قائد التحصينات والمهمات من ناحية أخرى ، كانا يبذلان مع الأبطال من المدافعين جهود الجسارة لصد هجمات العدو الشديدة . وقد أثنى المؤرخ (ميشو) على حسن بلاء هذين القائدين ثناء مستطابا لما أظهره من ضروب البطولة والبسالة أثناء الدفاع ، لأنهما تمكنوا من إحراق البرج السيار الذى كان يقذف حمما على القلعة وأبراجها من قبل الأفرنج ،

وكانا يخرجان بين الفينة والفينة إلى خارج القلعة ويقتحمان صفوف العدو ويضطرانها إلى تغيير قواعدها ومراكزها والتقهر والتراجع إلى الوراء .

وقد أفضى ذلك إلى استئمان السكونت (هنرى) فى القتال ، وتشديده الحصار ، وتركيز كافة جهوده فى هذا السيل ، وفى هذا الوقت كانت الذخيرة والميرة قد أخذت تنفذ من معسكرى الطرفين ولاسيما لدى المحصورين فى القلعة ولمكن السلطان قد تمكن من جلب كمية طائلة من العتاد والأقوات من (بيروت) وإيصالها للمدافعين عن القلعة ، ولما أيقن الصليبيون أن وسائل الحصار التى أقاموها غير كافية لاسقاط القلعة أمام بسالة المسلمين ، واستماتهم فى الدفاع عنها ، بعثوا برسلكهم إلى أوروبا من جديد يستصرخون الملوك والزعماء والقسس وعلى رأسهم البابا . فأخذت القوات الصليبية تترى وتتدفق على (فلسطين) وتصل إلى أبواب قلعة (عكا) طيلة فترة الحصار .

وانتهز السكونت (هنرى) الفرصة التى أرتأها سانحة للصليبيين ، فقام بهجوم عام على الجيوش الاسلامية واحتدم بين الفريقين وطيس القتال . . . وكان السلطان وقتذاك مريضاً طريح الفراش لم يتمكن من الاشتراك والمساهمة فى المعركة الناشبة ، فجلس فى خيمته يشاهد عن كسب معارك حرب ضروس طال أمدها ، واشتد أوارها ثم أسفرت عن اندحار ذريع وخسران مبین للأفرنج ، مما أدى إلى تقهرهم وتراجعهم إلى قواعدهم ومراكزهم السابقة . . . ويقول (السيد أمير على الهندى) مؤلف تاريخ الإسلام المصور : انه لو كان السلطان هو الذى يدير بنفسه دفة القتال فى هذا اليوم لانهقد لواء نصر مبین ، ولسجل عمل حاسم لا مثيل له للمسلمين .

وفى تلك الأثناء كان الأسطول الأفرنجى بعيداً من « عكا » بسبب تغير حالة الجو فى البحر ، فاستغل المسلمون هذا الموقف ، كما استغلوا فرصة النصر فاستبدلوا حامية « عكا » بحامية أخرى تحت قيادة الأمير (سيف الدين على

المشطوب) ، ولكنها كانت أقل من الأولى عددا ، على خلاف رأى السلطان وهذا علاوة على عدم كفاية العتاد والسلاح لدى الحامية الجديدة . ويقول بعض المؤرخين إن سبب سقوط « عكا » فى أيدي الأفرنج إنما يرجع إلى قلة عدد المدافعين عنها ، وعدم رغبتهم الصادقة فى القتال ، وتدفق نجدات متوالية على الأفرنج إذ وصل (فيليب أوجوست) ملك فرنسا فى الثانى عشر من ربيع الأول من عام (٥٨٧ هـ) ، إلى أبواب « عكا » ، وجعل من جيوشه وسائر جيوش الصليبيين جهة متحدة متراسة ، مما أدى إلى تفوق قوة الأفرنج تفوقا محسوسا على جيوش السلطان ، فاضطر السلطان إلى طلب النجدة والمساعدة من الأمراء المسلمين الخاضعين لسلطانه .

وقد زاد الطين بلة وصول (ريتشارد قلب الأسد) ملك الإنجليز أيضا إلى ميدان القتال . وهو الذى اشتهر فى أوربا بقوته الخارقة وبسالته النادرة (١) وما لبث أن اشتد الحصار على (عكا) برا وبحرا ، واستبسل المدافعون واستماتوا فى القتال إلى حين ، ، ولم يكن (صلاح الدين) قد تلقى نجدات بعد ولذا لم يكن فى مكنته حتى هذه الساعة القيام بهجوم على المحاصرين لتخفيف الضغط على المحصورين الذين كانوا قد أشرفوا على الفناء والاضمحلال بسبب قلة الأغذية ، واستفحال وطأة الأمراض المنتشرة من جراء الجوع والعري والفاقة ، وسائر ويلات الحرب . وقد أمر السلطان فى هذه الآونة بأرسال سفينة محملة بالأغذية من « بيروت » ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن وجرت الاقدار على خلاف المبتغى ، إذ اعترض سبيل السفينة جمع من قوات

(١) حينما وصل ملكا الإنجليز والفرنسيين إلى (عكا) كانا مريضين ، فبعث إليهما السلطان بثلج وفاكهة من جبل لبنان . اهـ (تاريخ الاسلام المصور) .
المؤلف

ملك الانجليز ، فما كان من قائدها إلا أن سارع باغراقها خوفا من وقوعها
 المحقق في أيدي العدو . وقد جاء هذا الحادث ضربة قاضية على آمال المدافعين
 في الثبات على الدفاع عن القلعة التي لبثت عامين كاملين تقاوم كافة الهجمات
 التي أحاطها بها الافرنج من جميع الجهات . فمن غارات شعواء وقتال عنيف إلى
 اشتداد وطأة الامراض الفتاكة إلى غير ذلك ، مما كان له أكبر الاثر في إضعاف
 الروح المعنوية بين جوانح الجنود فاضطروا إلى طلب المعونة من السلطان
 وألحفوا في الطلب ، ولكن السلطان لم يكن في مكنته إجابتهم لقلته ما لديه من قوات .
 ولما كانت الحالة تسير من سيء إلى أسوأ ، فقد ذهب الأمير « سيف الدين
 على المشطوب » قائد الحامية إلى ملك فرنسا وقال له : « إننا على استعداد
 لتسليمكم المدينة على شريطة أن تعاملونا كمثل المعاملة التي عاملناكم بها سابقا
 فرد (فيليب أوجوست) على هذا العرض المعقول بقوله : « لا أقبل
 قط بقاء أحد من حامية عكا وسكانها حيا على وجه الأرض ، فاضطر القائد
 إلى العودة إلى قلعته يائسا حزينا ، وقاومت القلعة فترة أخرى ولكن بكل
 صعوبة ، إلا أن الجوع والقحط قد أثرا في النهاية على المدافعين ، فقرروا
 تسليم القلعة بشرط واحد ، وهو المحافظة على أرواح المسلمين ، وكان ذلك
 في اليوم السابع عشر من رجب عام (٥٨٧) . (١٢ تموز = يوليو ١١٩١ م)
 وكان الاتفاق يقضى بإطلاق سراح ألف وستمائة أسير صليبي لدى المسلمين
 ودفع مائتي ألف دينار لزعماء ورؤساء الصليبيين الذين لم يكتروا بتنفيذ هذه
 الشروط ، وداسوا بالأقدام على العهود والمواثيق ، فأسكرتهم نشوة النصر ،
 والتعصب الممقوت وعرضوا سكان (عكا) عموما إلى هلاك محقق حيث
 أعدوا لهم مذبحة دامية وأعمل فيهم ملك الانجليز وجموعه السيوف التي خلفتها
 حامية القلعة عند باب من أبواب المدينة حتى أفنأهم عن آخرهم في اليوم الثالث
 بعد العشرين من رجب ، وهكذا أفضى الدفاع عن القلعة إلى التضحية بستين

ألفا من المسلمين في هذه المرة . وأخيرا كانت بذور الشقاق والخلاف قد أخذت تدب بين الصليبيين أنفسهم مع بعضهم البعض قبل الاستيلاء على (عكا) لان العلاقات بين ملكي الانجليز والفرنسيين كانت متوترة جدا ، كما كان التنافس على أشده بين الملك (جوى) والمركيز (كونارد) حول تاج فلسطين ، فكان الملك (فيليب) يعضد المركيز كونارد ويقف إلى جانبه ، بينما كان الملك (ريشارد) يحمي الملك جوى ويشد أزره . وحدث أن أبدى الملك (فيليب) امتعاضه وشديد استيائه من ملك الانجليز نتيجة بعض تصرفات غير لائقة بدت له منه ، فعادر فلسطين في اليوم السابع من رجب عام (٥٥٨٧) . إلى أوروبا . ومن ناحية أخرى كان المركيز (كونارد) يفاوض السلطان سرا للاتفاق معه ضد ملك الانجليز .

ولا شك في أن هذه الامور قد حدثت من سطوة الصليبيين وصولتهم ، وقوت ساعد المسلمين وخففت عنهم لوعة ما نزل بهم من الكوارث والبلايا وقد توجه ملك الانجليز صوب (يافا) بعد أن أمضى شهرا في عكا للراحة والاستجمام ، ولمكن جيشه لم ينج في الطريق من مهاجمة القوات الاسلامية له ، حيث ألحقت به خسائر جسيمة فما كان من ملك الانجليز - ردا على ذلك - إلا أن بادر إلى تحصين قلعة (يافا) تحصينا منيعا ، وأضاف إلى ذلك بناء قلاع أخرى في السهول المحيطة بتلك القلعة ولمكن الجيوش الاسلامية كانت له بالمرصاد فلم تكن تترك له الفرصة الكافية لاتمام تحصيناتها . ولقد احتدم الصدام بين الفريقين المتنازعين إلى حد أن ملك الانجليز نفسه قد تعرض للاسر والخطف مرارا وتكرارا .

وصفوة القول إن ملك الانجليز لما أدرك ورأى ثبات السلطان ومضاء عزمه ورباطة جأشه وعزمه الاكيد على مواصلة القتال مهما كانت الظروف مع ما يتمتع به من الصفات الحربية النادرة ، ومضاء العزيمة - أيقن أنه أمام

خصم جبار لا يشق له غبار ، وأنه لا يقاس بغيره من الخصوم ، فأمن بأن مناوآته لمثل هذا الخصم العنيد ضرب من المحال وعبت لا طائل من ورائه ، فلهذا وبسبب اعتزامه العودة الى انجلترا قد استقر رأيه على طلب الصلح من السلطان . وكان السلطان صلاح الدين على ما اتصف به من خلق متين ، وجنان ثابت ومضاء عزيمة ، طاهر القلب والنفس ، رقيق الشعور مرهف الاحساس والعاطفة ؛ فلهذا كان شديد التأثر لكثرة ما أصاب المسلمين من الويلات والمصائب والشكبات ، وهذا ما حمّله على أن يأذن للملك العادل بالدخول في مفاوضات مع الملك (ريشارد) لعقد الصلح . فاجتمع هذان العاهلان وتولى الترجمة بينهما (همفري دوتورن) إلا أن المفاوضات لم تسفر عن اتفاق لعدم ملائمة الشروط التي عرضها ملك الإنجليز لوضع حد لهذه الحروب الطاحنة الدامية . . . ومع ذلك لم تتوقف المساعي لتحقيق هذا الهدف النبيل ، والذي قام بالمسعى هذه المرة هو (ماركي دوفروا) وملك الإنجليز . . وبعد أخذ ورد انتهى الملك العادل والملك ريشارد الى اقرار الشروط التالية (١) يتزوج الملك العادل أخت ملك الإنجليز على أن يترك له ملك الإنجليز جميع البلاد الساحلية التي تحت سلطانه كهدية للرواج .

(١) يتنازل السلطان صلاح الدين عن البلاد التي فتحها وانتزعها من الصليبيين للملك العادل ، على أن تكون مدينة القدس مشتركة وحرّة بين المسلمين والنصارى تحت إدارة أخت ملك الإنجليز وقرينة الملك العادل .

ولقد قبل السلطان صلاح الدين هذه الشروط على مضض حيث لم يطمئن إليها ، في حين رفضها رجال الدين من المسيحيين ولم يقبلوها ، واعتبروا الملك ريشارد وأخته خارجين على الدين المسيحي ، ولهذا لم تنفذ شروط هذا الصلح البتة . والفائدة الوحيدة التي جناها صلاح الدين خلال فترة الصلح هذه وإبان المفاوضات والمحادثات ، هي انتهازه الفرصة والحاقه الحزاب والدمار بقلعة

(عسقلان) الشهيرة في اليوم التاسع بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٧ هـ) حتى لا تقع غنيمة باردة في أيدي الأفرنج ، مادام المسلمون يرفضون الدفاع عنها لأن الدفاع عن (عكا) قد كلفهم غالبا . . . ثم عرج السلطان على (الرملة) فأمر بتخريبها أيضا . . . ثم واصل الزحف بجيشه إلى (عين النطرون) فلم يترك في هذه المنطقة عامرا إلا دمره ، كيلا يفيد منه الأعداء ، ، ، ولما أقبل الشتاء ذهب السلطان سرا إلى القدس ، وأذن للمجاهدين بالانصراف ، تاركا قوة صغيرة في تلك الأنحاء بعيدة عن الأبصار لترصد وترقب حركات العدو من ناحية ، وتعزز حصون القدس وقلاعها من ناحية أخرى .

وفي أوائل ذي الحجة عام (٥٨٧ هـ) في صميم الشتاء القارس ، توجه (ريشارد) نحو الرملة فاستولى عليها بعد جهد جهيد ، ثم واصل الزحف والغزو حتى (بيت النوبة) ، ولكنه لم يستطع الصمود والشبث هنالك فقفل راجعا تاركا وراءه بعض قوات الصليبيين للاغارة على الأطراف ، فذهب هؤلاء إلى (يافا) و (عكا) . . . وهكذا انكشفت بل ونقصت قوات (ريشارد) ووزعت وبعثت في شتى الجهات . .

ثم أراد هو — وقتذاك — تعمير قلعة (عسقلان) ليتخذها مقرا ومركزا لحركاته العسكرية الخاصة .. إلا أن الشقاق الذي كان ينخر في عظام الصليبيين ويهدد كيانهم ، ومنافسة (كونارد) لملك الانجليز ، ووصول أنباء غير مطمئنة له من إنجلترا — قد ثبط من همة (ريشارد) وسرعان ما أبدى ميله مرة أخرى لعقد الصلح ، فدخل في مفاوضات لهذا الغرض .

وما أن أقبل الربيع ، حتى تواترت الأنباء بظهور يواذر ثورة داخلية في أطراف الجزيرة ، فاضطر السلطان لتجريد قوة من جيوشه ، لاختداد تلك الثورات في مهدها قبل تفاقمها واندلاع لهيبتها . . . حينذاك أراد (ريشارد) أن يستغل هذا الموقف ويقوم بمهاجمة السلطان في هذه الآونة . . . وفجلا

حشد جيشا كبيرا ، وزحف به صوب البلاد السلطانية ، في منتصف جمادى الأولى من عام (٥٨٨ هـ) وظل يواصل الزحف حتى وصل (حصن الداروم) وبعد أن سفك (ريشارد) دماء الكثيرين من أهالي تلك البقاع من المسلمين ، وخرب المدن والقرى في تلك الأصقاع ، أراد أن يعود من حيث أتى خشية أن يلحقه إندحار مفاجئ فيقعده عن استرداد القدس ؛ بيد أن الصليبيين لم يدعنوا لأمره ، فاضطر لمواصلة الزحف والغزو حتى (بيت النوبة) حيث كان السلطان قد أعد نفسه للدفاع المجيد ، فكان قد خرب الطرق ، وغور الآبار ، وأنضب العيون في جميع المسالك التي يحتمل أن يسلكها العدو ، الأمر الذي أساء الصليبيين أيما إساءة وأقض مضاجعهم ، فساورهم قلق شديد مضمّن . . . وكان أن عقدوا مجلسا حرييا قرروا فيه العدول عن استرداد (القدس) ، والزحف على مصر نفسها بدل الزحف على القدس .

ولما عاد الملك (ريشارد) إلى « عكا » بعث برسالة إلى السلطان ، أثار فيها مسألة الصلح من جديد ، ودارت بينهما مفاوضات انتهت بعقد صلح في اليوم الثاني بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٨ هـ) . (٢ كانون أول سنة ١١٩٢ م) على شريطة أن تبقى (يافا) أيضا في قبضة الصليبيين .

تلك هي النتيجة الحتمية التي وصلت إليها الحملة الصليبية الثالثة في بلاد المشرق بعد فقدانهم الآلاف من الضحايا التي قدمتها جماعات الفدائيين والمتطوعين من الأوروبيين الذين ساقهم نزوات التعصب الأعمى الممقوت ، إلى بطاح فلسطين وسهول القدس المترامية الأطراف ، وما ذلك إلا بفضل قوة السلطان صلاح الدين ومضاء عزيمته ، وحسن تديره للأمور ، وجرأته النادرة ، وسرعة خاطره في أخرج الأوقات وأشدّها حليكة وخطرا ، ولهذا لم يحصل صليبيو الحملة الثالثة في فترة الخمس سنوات التي خاضوا خلالها غمار معارك طاحنة ، ذهب ضحيتها معظمهم ونجا الباقون بالعودة إلى بلادهم إلا على بلدين على الساحل حيث بسطوا سلطانهم عليهما .

وأما ما أفاده (صلاح الدين) من هذه المعارك والحروب الأخيرة ، فلنذكر في هذا المقام ما ذهب إليه صاحب كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبي) حيث يقول : « إن حروب فلسطين قد ابتدأت من بعد معركة (حطين) الكبرى ، ولم يكن حينذاك في أيدي المسلمين ولا قرية واحدة من أرض (فلسطين) ، ولكن صلح الرملة الذي أبرم في اليوم الثاني بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٨ هـ) ، قد مكن المسلمين من بسط سلطانهم ونفوذهم على كل (فلسطين) سوى قطعة من الأرض مستطيلة تمتد من الصور إلى عكا ، حيث طرد الأفرنج من كافة البلاد في تلك البقاع الشاسعة ، وعادت القدس إلى أملاك السلطان ، وبذلك ظهر شأن الإسلام واسترد شرفه ورونقه من جديد »

عاد (صلاح الدين) بطل الكردينال والإسلام بعد هذا الصلح إلى القدس حيث تفرغ لتنظيم شئونها وتدعيم أمورها ، فأنشأ بها من المدارس العلمية والملاجئ الخيرية ، والمستشفيات ، ما خلد به ذكره على مدى السنين والأيام ثم أبدى رغبة صادقة في الحج إلى بيت الله الحرام ، ولكن قواد الجيش وزعماء الإسلام قد ثنوه عن عزمه والتسوا منه العدول عن هذه الفكرة خشية أن تتصدى له العصابات الصليبية في الطريق وتعتدى عليه ، إذ كان الطريق إلى بيت الله الحرام مارا بمنطقتهم ، وإزاء إلحاحهم قد عدل السلطان بصفة مؤقتة عن تحقيق هذه الأمنية المباركة ... ثم قام بجولة تفتيشية في البلاد الساحلية ومعه قوة خاصة صغيرة ، فتفقد الشئون والقلاع ، وأمر بتهيئة الوسائل لراحة السكان ، وتعزيز القوات ثم توجه عن طريق (نابلس) و (بيسان) و (كوكب) إلى (بيروت) حيث اجتمع هنالك بأمر (أنطاكية) ، وأخيرا عاد إلى دمشق في اليوم السادس بعد العشرين من شوال عام (٥٨٨ هـ) .

(١٢) « وفاة السلطان صلاح الدين »

قام السلطان خلال الفترة التي أقامها بدمشق - علاوة على معالجته شئون

الدولة - بتوزيع الصدقات من ماله الخاص على المساكين والأياشي والفقراء والذين انقطعت بهم السبل ، وعلى الغزاة والمجاهدين ، وترحيلهم إلى بلادهم ، وإلى جانب ذلك كان يقضى بضع ساعات من أوقات فراغه في الخروج للصيد والقنص ، وفي اليوم الرابع عشر من صفر عام (٥٨٩ هـ) ، خرج السلطان لاستقبال الحجاج العائدين من (مكة) حيث كان الاحتفال بعودتهم رائعا وبالغ الروعة . فقد شهد جمع غفير من العظماء والكبراء وعامة الناس ، وقد بلغ بالسلطان التأثير من بهجة هذه المشاهد الروحانية أن أجش بالبكاء لعدم تأدية فريضة الحج في هذه السنة المباركة ، وشوقا منه لزيارة بيت الله الحرام .. وما أن عاد إلى مقره العالي حتى اعترته قشعريرة قاسية وانتابته حمى شديدة وأخذ المرض الذي لا يرحم يشتد ويلح عليه يوما بعد يوم إلى أن توفاه الله إلى رحمته في يوم الأربعاء الموافق السابع بعد العشرين من رجب عام (٥٨٩ هـ) (٤ مارس سنة ١٩٣ م) ، عن سبعة وخمسين عاما . . . فبكاه الناس على اختلاف طبقاتهم بكاء مرا ، واعتكفوا في بيوتهم طيلة يوم الوفاة حدادوا وحزنا عليه ، فلم يكن يرى في المدينة سوى أسواق مقفلة ، وشوارع مقفلة ، ، وقد أقيمت مراسم الجنازة على أبسط وأقل ما يمكن من المظاهر - تنفيذًا لوصيته - ودفن حيث مات . . . وبعد نحو من ثلاث سنوآت ، اشترى نجله (الملك الأفضل على) دارا يمتلكها رجل صالح بجوار الجامع الأموي ، وأقام بها ضريحًا نقل إليه رفات والده العظيم وكان ذلك في يوم عاشوراء باحتفال مهيب عظيم ، وأقام مأتما كبيرا وجلس بالجامع لتقبل العزاء ثلاثة أيام كاملة .

هذا وفي اليوم التالي لوفاته ، احتشد جمع غفير من الناس في الميادين والشوارع ، يبكون وينتحبون ، فكان عويلهم يرتفع ويصعد إلى عنان السماء ، ولكن السلطات سرعان ما تدخلت لمنع الاسترسال في هذا الصراخ ، ولم تسمح لأي فرد بالرناء والعويل ، اللهم إلا الشاعر (العماد الكاتب الأصفهاني)

الذى رثاه بقصائد طويلة عصماء ، أبكت الناس أجمعين .
ويقول الدكتور أحمد البيلي : « مات السلطان ، وبموته فقدت الأمة
الاسلامية سلطانا قويا أعزها وأقالها من عثرة كادت تؤدى بها إلى الهلاك
والدمار . . . توفى صلاح الدين وقد قدر فضله أعداؤه إذ وجدوا فيه أستاذا
كبيرا ، وعاملا عظيما ، فأخذوا عنه دروسا فى الشجاعة والفروسية ، ونماذج
فى الكرم ، ومثالا يحتذى لمكارم الأخلاق ، وينبوعا للرحمة والشفقة ، فاغترفوا
من فضائله غير قليل . » وكان للسلطان فى حياته سبعة عشر ولدا من الذكور
وأنثى واحدة . كما نص على ذلك صاحب كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى .

(١٣) « صفاته العالية وخصاله الحميدة »

تبينا من مجريات تاريخ حياة هذا العاهل الاسلامى والبطل المغوار . كم
بذل من جهود جبارة ومضنية لبث الروح المعنوية بين الغزاة المسلمين والمجاهدين
وتقوية روح الشجاعة والاقدام وحب التضحية فيهم منذ أن صار وزير للخليفة
العاقد حتى يوم أن لقي ربه . . . وكما قدم من الخدمات الجليلة للعالم الاسلامى
فحسب ، بل للعالم الشرقى بأسره . . . وكيف نجح فى تذليل الصعاب ، وتحطيم
العقبات ، وإزالة العراقيل التى كانت تقف حجرة عثرة فى سبيل توحيد الجهود
الاسلامية ، والوقوف جبهة مترابطة كالبنيان المرصوص فى وجه الفرنجة
المغيرين الطامعين ، وذلك بالتغلب على الأمراء المسلمين من المنشقين المستقلين
اللاهين ، وبالظفر بالفرنجة والصليبيين المغيرين على الشام ومصر اللتين طالما
فرقت بينهما أهواء السياسة ، والخلافات المذهبية ، والأغراض الطائفية
والحزازات الشخصية ، فتمكن هذا العبقرى الهمام من الجمع بين هذين القطرين
تحت راية عدله وإدارته الحازمة . . . وكيف لازمه التوفيق فى إنشاء وحدة
إدارية شاملة تنظم عقد جميع البلاد الاسلامية التى يقطنها كثير من الأقوام

المتباينة الجنس والمختلفة اللغة ، بادئا بكردستان موطن آبائه واجداده البهايل حتى بلاد تونس من ناحية ، واليمن وعدن من جهة أخرى وكيف نشر لواء العدل في تلك الاصقاع . وعامل الناس بالقسطاس المستقيم ، وحقق المساواة ، وقوى فيهم الشعور بالاخوة الإسلامية . . . فلا عجب إذن ألا يبقى أو يوجد بين هؤلاء الاقوام أحد غير راض عنه ، أو يتوانى عن بذل النفس والنفيس مرضاة له ، وهذا أبلغ دليل على ما كان يتمتع به السلطان من كامل ثقة الجمهور وعظيم احترامهم لذاته ، ولا غرو فقد كان ينتصر المظلوم ويعينه على الظالم ، ويغيث الملهوف ، ويقسو على القوى ، ويحارب العدو ، ويتساهل في حقوق نفسه ، ويتسامح ، وكان كل همه منصبا على رعاية شئون الإسلام وتحقيق المسلمين والحرص على حقوقهم والسهر على مصالحهم .

ولم يكن صلاح الدين سلطانا مستبدا يفعل ما يريد أو يبرم كما يتراءى له ، بل كان الأمر شورى بينه وبين ذوى المكانة والعقل الراجح ، وأصحاب الرأى الصائب والفكر الثاقب من رجالاته . وذلك تمشيا مع روح الشريعة الإسلامية الغراء المستمدة من كتاب الله والسنة النبوية . . . ولم يعرف عنه أنه مال قط إلى الاستبداد بالرأى ، أو الانفراد بالبت في المسائل والشئون العامة ... وطالما تنازل عن رأيه الخاص احتراما لرأى الجماعة ونزولا على ارادة الأغلبية . (كما حدث ذلك في مسألتى « صور » و « عكا ») .

وكان السلطان بارعا في كسب القلوب واسترضاء الناس وذلك لمحاولة توفير الخير والرفاهة للجميع ... فلا عجب أن كانت وفاته صدمة عنيفة ونكبة عامة للجميع ، لأنهم كانوا يعتبرونه أبا بارا ، وملكا عادلا ، ومخلصا لرعاياه ، وسلطانا قوى البطش بأعداء الإسلام ، وشديداً على خصومه أينما كانوا . وبالجمله فقد كان الخادم المخلص للدين والعامل على رفع شأنه وليس أدل على

ذلك من النصيحة التالية التي ألقاها على مسامع نجله الظاهر (غازي) حين عينه في منصب من مناصب الدولة . ألا وهي :

« أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير ، وأمرك بما أمر الله به ، فإنه سبب نجاتك » وأحذر من الدماء والدخول فيها والتقليد بها ، فإن الدم لا ينام ، ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والامراء وأرباب الدولة والاكار ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداواة الناس ، ولا تجهد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم »

ولا يمكن أن يلحظ الإنسان من بين ثنايا أخبار (صلاح الدين) أو يلح من أحواله مع رعيته أهبة الملوك وعظمة السلاطين ، فكان لا يفر من أفراد رعيته حق الوصول إليه والمشول بين يديه دون مشقة أو عناء ، لا يعترض سبيله حاجب أو يقف دونه حائل ، لا يعتريه خوف ولا رهبة ، ولصاحب المظلمة أن يذهب بنفسه للقاء السلطان لبث شكواه ، وكان ذوو الحاجات وأرباب المظالم يتزاحمون عليه فلا يظهر عليه ضجر أو ملل ، وما توافد الناس عليه من كل فج إلا لانهم لمسوا فيه لين الجانب ، وإحقاق الحق ، والالفة والانس ، والتلطف مع الجميع على السواء . . . وكان فوق ذلك رقيق القلب سريع التأثر ، تتحرك عواطفه وتدمع عيناه إذا ما طرق سمعه صوت ضعيف أو أنين مسكين ، وكان يحزل العطايا للبوساء والايامى والمساكين ، وكان شفوفا لدرجة لا يستطيع معها أن يرى خادما له يضرب . . . وعجيب هذا من سلطان كان السادة في أيامه لا يفتأون يقسون ويضربون عبيدهم وخدمهم . وكان رحمه الله مثال البساطة النادرة في ملبسه وما كاه ومسكنه ، وقد حدث أن شيد له منزل أنيق في دمشق فألقى عليه نظرة عاجلة ثم قال « ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الابد ، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت ، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه » .

ولم تفتنه أموال ملكه الواسع فكان يقول « إن المال والتراب سيان عندي »
لذلك كان يكره أن يسأله سائل دون أن يعطيه وإذا عاد السائل وطلب المزيد
أعطاه دون أن يقول له « قد أعطيناك من قبل » ولكثرة بذله ، وسعة سخائه
كان أعوانه ينكرون وجود مال لديهم حتى لا يتبادى في البذل حتى تنفد الأموال
ولا يجد ما يجهز به الجيوش لمحاربة الأعداء . . . وليس أدل على جوده وكرمه
من أنه حين وافته المنية لم يوجد في حوزته مال ، كما أنه لم يترك ضيعة
ولا قعرا . . . وإلى هذا يشير صاحب السمو الملكي الأمير (محمد علي) ولي عهد
المملكة المصرية الآن في الرحلة الشامية « كان رحمه الله غاية في الجود والكرم
حتى قيل انه لم يترك بعد وفاته سوى سبعة وأربعين درهما ، وهي ثروة ربما
ترك السائل لأولاده أضعاف أضعافها ، ولكن السخاء والحنان والشفقة على
المساكين والفقراء تستنفد المال ولو كان مثل الجبال »

وفي عام ١٣١٦ للهجرة (١٨٩٨ م) حينما زار امبراطور المانيا
وأمبراطورتها بلاد الشام ، ألقى - وهما في دمشق - خطبة قال فيها ما ترجمته : « وما
يزيد في سروري أنتى موجود في بلد عاش فيه ذلك الرجل الذي كان أعظم
رجال عصره ، وفريد دهره شجاعة وبسالة ومن كان مثال الشهامة النادرة ،
والذي طبقت شهرته الآفاق . ألا وهو البطل المغوار صلاح الدين الأيوبي ،
وقد أرسلت الامبراطورة أكيلا بديعا من الزهر ليوضع بإسم الامبراطور
على ضريح بطل التاريخ الاسلامي ، وقد نقش عليه بالعربية (ويلهم الثاني
قيصر ألمانيا وملك بروسيا تذكرا للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي)

ويقول مؤلف كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبي) : كيف لا تجتمع
الامة الاسلامية بأسرها على محبة هذا الرجل العظيم الذي كشف عنها الغمة
التي حاقت بها من جراء تعدى الفرنجة عليها وعلى بلادها وديارها ، والذي
نهض بجلائل الأعمال في سبيل الشرق والشرقيين ، وإعلاء شأن الإسلام والمسلمين

والذى قال لجنود الأعداء (قفوا مكانكم، فما قلب أسد أقوى من قلب أسدكم) دون أن يخشى سهام العدو المصوبة إلى قلبه، ولقد كان يمتطى صهوة جواده ويقود جنده وهو مريض ويقول (إني إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادى) فلا غرو إذا وضع الناس أرواحهم بين يديه وأنفسهم طوع بنانه ورهن إشارته ... نعم ! وصل السلطان صلاح الدين هذه المكانة فى أمته بل وعند أعدائه بإقدام شهد بثبات جنانه، ودربة استمال بها القلوب والألباب . وخبرة افتتح بها البلدان وقادها الأجناد، وحنان وشفقة جعلت له فى المكانة فى قلوب رعيته ما لم يتسن لغيره من قبله . فأحبها وقام بكلياته على رعاية مصالحها ، فكان خلاصة الشرف الإسلامى ، والبقية الباقية من المجد الشرقى ومثال البسالة الكردية النادرة .

وكان يضم مجلسه العلماء والوجهاء ، ويقصد بابه الفقراء والضعفاء وكان من شيمته التواضع حتى قال قائل (أدهشني منه التواضع والتقى) وكثيرا ما كان يعرض نفسه للاخطار مع جنده ، محافظة على ملكه الذى كان العدو يتربص له ويرنو إلى انتزاعه منه ، وهذا إقدام وشيم وعلو نفس قل أن يتحلى بها غيره من السلاطين والملوك .

ولقد شهد له بهذا بل وبأكثر من هذا أعداؤه أنفسهم ، فقد قال « استأنلى » ما ترجمته : « ولم يخطيء الناس ادراك أوصافه وأخلاقه ، فهو دون منازع شريف النفس ، همام ، شهيم ، شجاع ، وديع ، رقيق ، شفيق ، طاهر القلب نقيه ، ناصع الحياة ، زاهد فيها ، مجد ، كدود ، بسيط ، ساذج فى جميع أحواله ، غيور على دينه ... بهذه الصفات الفريدة النادرة أصبح جديرا بأن يكون مثال البطولة فى الإسلام »

وجاء فى كتاب تاريخ المؤرخين ما ترجمه : (والذى أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وسخاؤه وكرمه ورحمته وحلمه وصفحه

وعفوه ، لا سيما محافظته على العهود والمواثيق . ومن المدهش حقا أن تكون هذه الاوصاف التي ملأت قلوب أهل أوروبا إعجابا بهى الاوصاف التي يصفون بها ذلك الرجل الذى انتصر عليهم وألحق بهم الهزيمة فى آسيا) .

وقال عنه « استيفن سن » : (كان صلاح الدين موفقا فى خططه ، ماهرا فى عمله ، سريعا فى تقدير قوى عدوه ، ما تردد لحظة واحدة فى تنفيذ مرسومه . أما عن نشاطه فما كان الملل يجد إلى نفسه سبيلا ، وكان صبورا على الشدائد وعظيم الثقة بنفسه . . كل هذه كانت من صفاته البارزة بوضوح وجلال ، نظرته فى الامور نظرة صادقة ، وحكمه عليها حكم عادل ، كان إذا عن له أمر نادر بتنفيذه دون تردد أو ابطاء . . . وقد خدمته كل هذه المزايا فى أعماله السياسية والحربية) . كما قال عنه السيد أمير على الهندى فى كتابه (تاريخ الإسلام المصور) أنه كان من أعظم الملوك الفاتحين وأشدهم بطولة وبسالة فى العالم . وقال عنه (أحمد زكى باشا المصرى) فى خطاب ألقاه ونشر فى مجلة « رعمسيس » ما نصه : (وقد كان القبط يحبون هذا الملك العظيم صلاح الدين الذى حماهم وراعاهم وعرفوا فى ظل أيامه السعادة والهناء . . وأى دليل على هذا أكبر من وضع صورته إلى جانب الآنية المقدسة ؟) . ثم أردفت المجلة هذا بقولها أن أحد شعراء الأندلس المدعو عبد المنعم الأندلسى ، قد زار مصر فى ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين ، ونظم فى ذلك قصيدة تمثل الحقيقة التاريخية ، نورد منها هذين البيتين :

خطوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقاليم
يدين لها قس ويرقى بوصفها ويكتبه يشفى به فى التمام
وقد ورد فى تاريخ « هامر » أن (صلاح الدين) قد أوصى فى أواخر حياته بالتالى : « إدفنوا معى سيفى الذى حاربت به فى قبرى ليكون لى خير شاهد يوم القيامة » .

(١٤) «آثاره العمرانية والمدنية»

تلك حياة صلاح الدين كما رأيناها كلها حرب وقتال وجهاد . . . إلا أنه قد وجه عنايته إلى جانب هذا إلى النواحي العمرانية التي يذكرها له التاريخ بمداد الفخر والتقدير . . . رأى أن التدريس في جامع الفسطاط (جامع عمرو) يسير على منوال ما هو متبع في الأزهر ، فابتنى في عام (٥٦٦ هـ ١١٧٠ م) المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق وخصصها للشافعية ، وهي أول مدرسة أسست في مصر . . . ثم ابتنى المدرسة القمحية بالقرب من الأولى وخصصها للمالكية . . . ثم ابتنى مدرسة للحنفية في عام (٥٧٢ = ١١٧٦ م) واتخذ لها مقرا دار الوزير البطاحي وتعرف الآن بالمدرسة السيوفية ، ولم تقف مجهودات السلطان عند فتح هذه المدارس بل رتب الوظائف للمدرسين والطلبة فيها على السواء ، فتمكن بذلك من نشر المذهب السني واحلاله عند العامة والخاصة محل المذهب الشيعي ، ويقول صاحب « كتاب صبح الأعشى » : أما الخوانق والربط فلم يكن للديار المصرية بها عهد قبل الدولة الأيوبية ، وكان المبتكر لها هو السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) رحمه الله ، فابتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء ، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانة بزقاق البركة .

هذا ويرجع الفضل إلى (صلاح الدين) في وضع أساس الأسطول المصري حيث رأى بشاقب فكره وبعد نظره أن مصر ينبوع متدفق يستقي منه قوته البحرية . فبنى السفن . وعمر الأسطول ، وبلغ من اهتمامه بأمر الأسطول أن أنشأ له ديوانا خاصا يسمى ديوان الأسطول سلم مقاليدته لأخيه الملك العادل ، وقد كانت الاسكندرية ودمياط الميناءين البحريين في ديار مصر يضاف إليهما مدينة « تنيس » الخربة الآن .

أما (الفسطاط) و (قوص) فكانتا من أعظم الموانئ النيلية ، وكانت السفن الحربية تبنى في هذه الموانئ وترابط بتلك الثغور حتى إذا أزفت الآزفة شقت طريقها إلى البحر لأعلاء كلمة الاسلام .

تطلع صلاح الدين إلى الاسكندرية فوجدها محط أنظار الفرنجة ، ولكي يطمئن عليها قلبه أمر بعمارة أسوارها وأبراجها ، ثم ابنتى بها (بيمارستانا = مستشفى) بعد أن ابنتى آخر بمصر . وفيه يقول صاحب الأعراس : (ولما ملك السلطان الديار المصرية ، واستولى على القصر ، وكان القصر قاعة بناها العزيز بن المعز في عام (٣٨٤) للهجرة ، فجعلها السلطان بيمارستانا ، وهو البيمارستان العتيق الذى بداخل القصر) . . ثم أنشأ السلطان بها دارا للغرباء ، كما أنه مهد بعض الجسور ، وظهر الترع لإصلاح حال المزارعين ، ولما كان من عادته أن يسرح جنده في الشتاء ، فقد كان حال الزراعة مرضيا ثم نظر إلى الأهلين وقد أثقل كاهلهم وزراء الفواطم بمختلف أنواع الضرائب ، فبادر على الفور إلى إلغاء المكوس ، وقرأت نسخة مسجلة على المنابر يوم الجمعة الموافق ٣ صفر عام (٥٦٧ هـ) - (٣٠ يونيو سنة ١١٧١ م) . وإليك

نبرة من هذا السجل : (وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمساحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم (المقس) والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر برا وبحرا مركبا وظهر سرا وجهرا لا يحل ماشده ولا يحاول ما عنده ولا يكشف ما ستره ولا يسأل عما أورده أو صدره ولا يستوقف في طريقه ولا يشرق بريقه ولا يؤخذ منه طعمه ولا يستباح له حرمة)

من هذا السجل يدرك المرء لأول وهلة مدى ما كان يصادفه الناس من عبء هذه الضريبة وغيرها التي ما كانت تترك غاديا ولا رائحا إلا كشفت ستره

ومدت أيدي العمال والموظفين إلى ماله فسلبته ، وإلى متاعه فنهبتة ، ووردت بعد ذلك منه إلى الخزانة السلطانية ما شاء طمعها .

ويقول الدكتور أحمد بيلي : إن الانسان ليدرك من إبطال هذه المكوس ما كان يعانيه السكان من الذلة من جهة ، وما كان يرمى إليه صلاح الدين من نشر التجارة وتسهيل سبلها من جهة أخرى ، لاعتقاده وتأكده بأنها مرقى الأمم إلى الحضارة والمدنية ، ولذلك أثر عنه أنه كان يديحها مع الفرنجة أثناء حروبه معهم .

ولما أبطل مغارم أهل الحجاز أيضا ؛ عوض أمير مكة عنها بألفي دينار وثقف أردب من القمح سنويا هذا عدا عدة إقطاعات بالصعيد واليمن ، وبهذا زال عن كاهل الحجاج ذلك العناء الذي كان يقف حجر عثرة في سبيل الكثيرين من راغبي أداء الفريضة . . واختتم كلامه بقوله : هذا قليل من كثير من مناقب هذا السلطان الكبير ، والقائد العظيم وعندى أنه لو كثرت بين ملوك المسلمين أمثال صلاح الدين لما وصلت الأمم الإسلامية من الضعف والوهن في أمورها الداخلية والخارجية إلى ما وصلت إليه .

ويقول السيد أمير علي : إن القاضي الفاضل الذي كان وزير السلطان كان ساعده الأيمن في تنفيذ مشروعاته الخيرية ، إذ لم تكن حكومة صلاح الدين الشورية مؤلفة من (قره قوش) و (حسام الدين) و (المشطوب) فقط ، بل كانت تضم غيرهم من أمثال القاضي الفاضل وعماد الدين الكاتب وعيسى الحكاري وبعض علماء آخرين . (١)

(١) يقول الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادي الذي اجتمع بصلاح الدين في القدس بعد الصلح ، أن أول ليلة تشرفت فيها بمقابلة السلطان رأيته في مجمع من العلماء يصغى إلى كلامهم تارة ويناقشهم في مباحثاتهم تارة أخرى =

١٥ - (أنجال السلطان صلاح الدين)

قسم السلطان مملكته قبل مماته بين أولاده ، فعهد بحكومة فلسطين وسورية إلى الملك « الأفضل أبي الحسن نور الدين علي » . . وبحكومة مصر إلى الملك « العزيز عثمان أبي الفتح عماد الدين » وبحكومة (حلب) إلى الملك « الظاهر الغازي غياث الدين » . . وكان أخوه « الملك العادل » يحكم شطرا من البلاد الجزرية ، كما كان أبناء عمه « شيركوه » منفردين بحكم حمص وبلادها . . . أما اليمن فكان يحكمها أولاد أخيه « سيف الاسلام طغتكين » ولكن السلطان لم يعين - حين وفاته - خلفا له على أريكة الحكم ولا وارثا ، ولهذا استقر كل من هؤلاء يدير دفة الحكم في مكانه حسب النظام السابق قرابة عام وكلهم معترفون بأشراف الملك الأفضل عليهم .

(الملك الأفضل ، والملك العزيز ، والملك العادل)

كان الملك الأفضل أكبر أنجال السلطان (صلاح الدين) وكان يخضع له رؤساء باقي الحكومات الايوبية . . وكان « ضياء الدين ابن الأثير » - أخو ابن الأثير المؤرخ الشهير - وزيره ومدير أمور مملكته المترامية الأطراف . ومن دواعي الأسف أن هذا الوزير كان ضعيف الرأي ، ساء التدبير تنقصه الحسنة في السياسة والدربة في الادارة ، مما أفضى إلى اضطراب زمام الأمور

وكان يهتم بتحصين قلعة القدس وتشبيد سورها حتى انه كان ينقل الأحجار بنفسه للبنائين وكان يحضر يوميا من شروق الشمس للاشراف على البنائين والعمال ، وكان يقضى ليله في تصريف شئون الدولة . (تاريخ الاسلام المصور) .
المؤلف

واختلال النظام ، وأبعد الكثيرون من عمال الدولة وذوى المناصب الكبيرة ممن حنكتهم التجارب وعلتهم الحوادث ، وممن برعوا فى الإدارة من رجال صلاح الدين - أبعدوا عن مناصبهم ، فاضطروا أن يرحلوا إلى مصر الواحد تلو الآخر حيث ضم شملهم بلاط الملك العزيز ، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى أعلن الملك العزيز استقلال مصر .

وفى عام (٥٩٠) للهجرة توجه بجيش لجب صوب (سوريا) واستولى على بلاد أخيه وضمها لمصر ، غير أن تدخل الملك « العادل » وبعض الأمراء الأيوبيين وتوسطهم فى الأمر ، قد حسم النزاع بين الأخوين تلك المرة ، ولم يمض على ذلك عام أو بعض عام حتى أعاد الملك العزيز الكرة وزحف على (سورية) مرة أخرى وفى هذه المرة وقف الملك « العادل » إلى جانب الملك « الأفضل » وأثار بحسن تدبيره وبدسائسه المحكمة الفعالة الجيش المصرى ضد ملكه العزيز فاضطر هذا الملك الشاب إلى العودة إلى مصر خائبا مدحورا .

وكان الملك العادل يتظاهر فى بادىء الأمر بالسعى الحثيث لإزالة ما بين أبناء أخيه من الشقاق والخلاف إلا أنه لما تحقق لديه ما جبل عليه رجال المملوكين المتنازعين فى مصر وسورية من قلة التجارب وسوء الإدارة ، وأيقن أن ما عاناه صلاح الدين فى تكوين الدولة الإسلامية الموحدة من الجهود المضنية الجبارة سيذهب هباء ، وسدى وأن هذا الصرح الشامخ الذى يعتز به بنو أيوب سينهار من جراء التشاحن والتطاحن بين أنجاله القليلى الدربة والضعيفى الإرادة . إزاء هذا عمد إلى ما يكفل تركيز إدارة البلاد كلها تحت سلطانه وحكمه الحازم وفرض إرادته العليا على الجميع ولا سيما وأن أحوال ابنى أخيه كانت تساعد على تحقيق هذا المأرب ، وعلى هذا الأساس قام بنصرة الملك الأفضل واضطر الملك العزيز إلى العودة إلى مصر كما ذكرنا .

وأخيرا وبعد أن أصلح ذات البين بين المملكين عاد الملك الأفضل إلى سورية ولبث هو في مصر بحجة إصلاح أمر الملك العزيز ، وتنظيم الإدارة بها وفي الواقع أنه كان يضع أساس حكومته في مصر ، وبعد حقبة من الزمن تشبث لسبب ما ، بالزحف مع الملك العزيز على رأس جيش كبير صوب سورية وكان ذلك في عام (٥٩٢) للهجرة ، وانتزع الشام من الملك الأفضل الذي اضطر إلى قبول قلعة (صرخد) واتخذها له مقاما بدل دمشق الشام . وهكذا خضعت البلاد الشامية لحكم الملك العادل تحت ستار خضوعها لمصر والمملكة .

نعم ! إن هذه التدابير ولا سيما بين الأقرباء والأنساب ليست من الأمور المقبولة من الوجهة الأخلاقية ، وإن كانت ضرورة ملحة من وجهة المصلحة العامة للحفاظ على كيان أسرة بني أيوب ، ولضمان عدم تشتت القوى الإسلامية أمام هجمات الصليبيين المتوالية على أطراف البلاد وتحفزهم في كل وقت لاسترداد ما فقدوه من البلاد في حروبهم مع صلاح الدين فمن هذا يتضح أن مصلحة البلاد نفسها كانت تتطلب قيام حاكم قوى وقائد بارع وإدارى حازم على رأس الحكومة ليتولى مهمة الدفاع عنها والدود عن حياضها .

ولاشك في أننا إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من تلك الناحية أى من وجهة المصلحة العامة لما وجدنا أى سبب وجيه يحملنا على توجيه العتب التاريخي لفاتح الكرك ألا وهو الملك العادل الذى - بعد أن تم له ما أراد من إخضاع سورية إلى تنظيم أمورها - قام بحولة تفتيشية فى أنحاء البلاد الجزرية ، ونظم أمورها ، وحسن أحوالها ثم اضطر للعودة إلى سورية على جناح السرعة بسبب وفاة الملك العزيز الفجائية فى ٢٧ المحرم من عام (٥٩٥ هـ) بمصر ، واستدعاء الملك الأفضل من قلعة (صرخد) إلى مصر ، وتعيينه نائبا ووصيا على الملك المنصور (محمود ابن الملك العزيز) الذى كان وقتذاك لا يزال طفلا صغيرا

ولقد شاء الملك الأفضل استغلال منصبه الجديد ، فأخذ يعمل جاهدا على استرداد حقه المسلوب من عمه الملك العادل ، ودخل فعلا في مفاوضات مع أخيه الملك الظاهر بحلب ، فوعده هذا الأخير بتقديم يد المساعدة له ، وشد أزره حينما يصل جيش الملك الأفضل إلى سورية ، غير أن الملك العادل كان عالما بما يجري بين الأخوين من مخبرات وما دار بينهما من مفاوضات فبادر بقوة نفوذه ورشيد سياسته وبعد نظره إلى إثارة زيران الفتنة وإشغالها بين صفوف جيش الملك الأفضل وبين قواده ، ثم ما لبث أن زحف إليه بجيشه ، وضيق عليه الخناق ، إلى أن اضطر إلى تسليم نفسه في ربيع الثاني عام (٥٩٦ هـ) وبهذا أبعد الملك الأفضل والملك المنصور محمود من مصر وضم البلاد المصرية إلى البلاد الأخرى الخاضعة لنفوذه وسلطانه .

وعاد الملك الأفضل وقد باء بفشل ذريع إلى قلعة (صرخد) وفي خلال ذلك زحف أخوه الملك الظاهر بجيشه من حلب إلى الشام على أمل الاستيلاء عليها ، فضيق عليها الحصار ولكن سياسة الملك العادل الرشيدة قد برزت ونجحت في هذه المرة أيضا . حيث تدارك الأمور بسامى حكمته قبل استفحالها ونجح في الوقيعة بين الأخوين مما أدى إلى رفع الحصار عن دمشق ، وتخلي الملك الظاهر عنها ، وعودته بجيشه إلى حلب كما عاد الملك الأفضل هو الآخر إلى قلعة (صرخد) ثانية ، إلا أن الملك العادل قد أقطع الملك الأفضل قلعة النجم ، وقلعة سروج ، وقلعة صمصاد . ولكن هذا الانعام لم يدم طويلا حيث عاد فانتزعها منه بعد فترة يسيرة ، وكان ذلك في عام (٥٩٩ هـ) وذلك رغم شدة إلحاح والده الملك الأفضل ورجائها ابقاء تلك القلاع في قبضة ابنها ، ونسكن الملك الأفضل قد عمد إلى تحصين قلعة « صمصاد » وتعميرها ثم أعلن تبعيته لسلطنة سلاجقة الروم (الأناضول) وأمضى ردحا من الزمن على هذا الوضع إلى أن توفي أخوه الملك الظاهر ، فأراد - بتعريض من الملك

(كيكاس) ملك السلجوق في قونيه - أن يستولى على حاب فيقيم له بها حكومة خاصة ، غير أن هذه المآرب والآمال قد تحطمت لعدم توفر الاخلاص بين المتفقين ، ولسبب تدخل الملك الأشرف نجل الملك العادل في الامر في الوقت المناسب ، فعاد الملك الافضل الذي جانبه الحظ أدراجه الى صمصاد في عام (٦١٥ هـ) يجر ذيل الفشل ، ولبت فيها منعزلا عن الناس إلى أن توفاه الله الى رحمته فجأة في عام (٦٢٢ هـ) .

(١) « سلطنة الملك العادل »

أعلن الملك العادل (سيف الدين) نفسه سلطانا في القاهرة في اليوم السادس عشر من ربيع الآخر عام (٥٩٦ هـ) وكان قد أخضع جميع البلاد التي كانت تابعة لصلاح الدين عدا (حلب) وأطرافها كما سبق الذكر ، وسلك مسلك أخيه في إدارة دفة الحكم في البلاد ، وتصريف شئونها العامة بمنتهى العدل والعزم ، فوزع المناصب - باسمه - على أنجاله ، فعهد بمصر إلى نجله الملك الكامل ، وبالبلاد الشامية إلى الملك المعظم عيسى ؛ وبالبلاد الجزرية إلى الملك الأشرف موسى ، كما عهد إلى آخرين من أولاده ببعض بيلاذ أقل أهمية تابعة لأملاك أخوتهم في تلك البقاع . ولم تكن وطأة الصليبيين شديدة على البلاد الإسلامية في عهد الملك العادل ، ومع ذلك فقد نقض الفرنجة شروطهم واتفاقاتهم التي كانوا قد ارتضوها وأبرموها في عهد (صلاح الدين) وذلك ديدنهم دائما مع المسلمين ، إذ زحف جيش كبير منهم عن طريق البحر صوب (بيروت) فاستولى عليها في الوقت الذي كان فيه أنجال صلاح الدين متنازعين متطاحنين ولم يقف الملك العادل مكتوف الأيدي ، بل بادر بأعداد جيش قوى بمجرد أن دانت له الأمور واستقرت الأحوال ، وزحف على رأسه إلى « يافا » واستولى عليها . . وكان الصليبيون يحاصرون - وقتذاك - بلدة (التبنين)

ولسكنهم عجزوا عن فتحها ، وما لبثوا أن طلبوا عقد الصلح فأجيبوا إلى طلبهم وتم عقد هدنة مدتها ثلاث سنوات .

وهكذا مرت بسلام عاصفة الحملة الرابعة من حملات الصليبيين السبع على البلاد الاسلامية، وسبق أن أشرنا إلى أنه لما توفي الملك الظاهر (غازي) حاكم حلب في عام (٦١٣ هـ) قام الملك الأفضل - يعضده الملك السلجوقي كيكاوس - بمحاولات للاستيلاء على حلب، وأن محاولاته قد أخفقت والآن نقول إن ذلك الاخفاق قد أدى إلى سقوط (حلب) كغيرها في قبضة الملك الأشرف نجل الملك العادل ، وهكذا انتهت بل انقرضت حكومات أبناء البطل المغوار (صلاح الدين) في كافة البلدان انتهاء مبرما، وقد كان من حسن طالع الملك العادل أن فيران الحملة الصليبية الرابعة لم يمتد لحيها ولم يتطير شررها في تلك المرة إلى البلاد الاسلامية، بل اقتصر على القسطنطينية فأحرقها وجعلتها خرابا يابا .

وفي عام (٦١٣ هـ - ٦١٤ هـ) = (١٢١٦ - ١٢١٧ م) ، أثار البابا (اينوساني) الثالث ، أوروبا كلها ، وتمخض عن هذه الاثارة « الحملة الصليبية الخامسة » التي كان من زعمائها ملك المجر ، وأمراء النمسا وبافاريا ، وسائر أمراء جنوبي المانيا ، وكان عدد جنود الحملة مائتين وخمسين ألفا معظمهم من الألمان ... ويمم الجميع شطر السواحل الشامية عن طريق البحر حتى نزلوا في (عكا) ، ونهبوا تلك المناطق دون تمييز لدرجة أن اشتبكوا في القتال مع نصارى « سورية » أيضا ، ثم استقر رأيهم على أن يزحفوا جميعا صوب مصر فعادوا إلى ساحل البحر ، وأقلعوا بسفنهم نحو مصب النيل في البحر الأبيض المتوسط ، وهنالك غادروا ظهور السفن وألقوا الحصار على ثغر (دمياط) وكان الملك العادل - وقتذاك - في شمالي سورية ، وهنالك بلغته الأنباء بمحاصرة الفرنجة لدمياط ، فأدرك أن الأمر جد خطير وأن الموقف خرج

دقيق ، فعادسريعا إلى دمشق الشام، وأخذ في حشد الجنود، وتجهيز الجيوش لمقابلة الصليبيين ، غير أن الأجل المحتوم قد وافاه فمات في (علا كين) على مقربة من الشام في جمادى الآخر عام ٦١٥ هـ (٣١ أغسطس سنة ١٢١٨ م)

(٢) « صفاته ومزاياه »

يقول السيد أمير على مؤلف (تاريخ الاسلام المصور) : كان الملك العادل سيف الدين (أبو بكر محمد) عارفا بالأمور ، مدبرا ، بعيد النظر ، حميد الخصال ، رابط الجأش ، ميالا للخير ، يحب العلماء وذوى الفضل ويتقرب منهم مثل أخيه صلاح الدين وقد كان شجاعا ، شديد الوطأة في الحروب ، عاقلا ، حازما في الادارة والسياسة ، وكان الساعد الايمن لأخيه صلاح الدين قبل مماته ، كما أن له أيادى ييضاء في الحرب مع الصليبيين سواء أفي عهد أخيه أم في عهد حكومته .

وكانت تربطه بريتشارد قلب الأسد ملك الانجليز صداقة وطيدة ، ولم يكن ريتشارد يخاطبه في المحادثات والمراسلات إلا بقوله « أخى العزيز » وتوكيدا لهذه الصداقة أدخل الملك العادل نبأه الملك الكامل ضمن الفرسان (شواليه) وكان عنوانه الملكى على النقود لفظ (أبو الفداء) وقد استطاع طيلة أيامه المحافظة على مجد الدولة الاسلامية وكرامتها .

(١) « سلطنة الملك الكامل »

الملك الكامل هو نجل الملك العادل وأسمه (محمد) ولقبه (ناصر الدين) وكنيته (أبو العالى) . ولد في شهر ربيع الأول من عام (٥٧٦) للهجرة ، وتولى الملك في مصر بعد وفاة والده العظيم ، حيث ألقى على كاهله عبئا ثقيلا ، ومهمة شاقة مضنية ألا وهى طرد الصليبيين النصارى حول (دمياط) وإبعادهم عن

كافة الأراضى المصرية ، وكان الملك المعظم عيسى شرف الدين - وقتذاك - ملكا على البلاد الشامية ، والملك الأشرف موسى مظفر الدين يدير دفة شئون (حلب) ، وقد طال وقت الحصار على (دمياط) حيث كان الصليبيون يلحون ويمعنون فى التضيق على المحصورين مما أدى إلى موت الكثيرين من المحاصرين والمحصورين نتيجة تفشى الأمراض وانتشار الأوبئة والجوع ، وقد سقطت (دمياط) - دون غيرها - فى أيدي الفرنجة بعد حصار دام عاما ونصف عام . وكان تعداد أهالى هذه المدينة وحاميتها حين هبت للدفاع ، سبعين ألفا ، فى حين أن هذا العدد قد نقص وانخفض إلى ثلاثة آلاف حين تسليم المدينة للفرنجة ، ولم يكتف المتعصبون من الفرنجة بهذا القدر من الضحايا بل تبادوا فى غيهم ، فأقاموا مذبحه عامة بعد تسليمهم المدينة وقضوا على الثلاثة آلاف الباقية ظلما وعدوانا . .

ثم توجه الجيش الصليبي إلى القاهرة بعد سقوط دمياط فى قبضتهم ، ولكن جيش الملك الكامل المعد لمقابلة المغيرين - وإن كان قد عزز بجيوش وقوات من قبل اخوته الملوك - كان لا يزال دون قوات العدو وعددا ، ولم يكن يعول عليه فى الهجوم والسبق ، ولهذا أثر الملك الكامل الدخول فى مفاوضات مع قائد الصليبيين العام ، وعرض عليه الصلح ، على أساس أن ترد (دمياط) إلى المصريين وأن تعاد فلسطين إلى الصليبيين ، ولكن هذا الصلح كان نصيبه الرفض البات من قبل الصليبيين . . وقد كان لسقوط (دمياط) ثغر مصر الأوحده ، ولزحف الصليبيين على القاهرة حاضرة المملكة المصرية ، أكبر الأثر فى أوروبا ، فشد ذلك من عزائم الصليبيين ، وقوى سواعدهم ، وتمسكهم الجشع وتولاهم الطمع فى امتلاك « مصر » نهائيا ، وقد اضطر الملك الكامل - إزاء هذا - إلى التنازل عن القدس وفلسطين فى سبيل إنقاذ « مصر » ، وفى هذه الأثناء لعبت الطبيعة دورها حيث طغى نيل مصر وفاض ، وكان الصليبيون

قد أبطأوا طويلا في انجاز أعمالهم، فسنحت فرصة ذهبية للملك الكامل الذي عمد إلى إصدار الأمر بتخديم جميع السدود، وهدم الجسور المقامة على النيل وإطلاقه في أراضي الدلتا التي سرعان ما أغرقها المياه عن آخرها، وبذلك قطع خط الرجعة على كافة المغيرين حيث تعذر إيصال المدد إليهم من البحر، مما أدى إلى تعرضهم إلى ألوان من البؤس والشقاء، فضلا عن العصابات الإسلامية التي كانت تتخطفهم من ذات اليمين وذات الشمال، مما اضطر الصليبيين إلى طلب الصلح وهم صاغرون، فأجيبوا إلى طلبهم، واشترطوا أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم، وأن يصرح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس. ولم يمض طویل وقت على إخفاق الحملة الصليبية السادسة في مهمتها، حتى بدأ الشقاق يدب ديبه، بين أنجال الملك العادل، وتفاقم النزاع، واشتدت وطأة التطاحن بينهم، إذ كان الملك المعظم عيسى حاكم (سورية) قد قلب ظهر المجن لأخيه طمعا في ملكه، وكان يصبو إلى انتزاع مصر منه، وسعى لهذا الهدف سعيا حثيثا، وبذل محاولات جدية للاتفاق مع (جلال الدين خوارزمشاه) لتحقيق هذا الغرض.

ولما بلغت أنباء هذه المساعي مسامع الملك الكامل أعرب عن غضبه وشديد استيائه. وفي تلك الاثناء كان «فردريك الثاني» امبراطور ألمانيا ميمما نحو مصر بجيش لجب، فأظلمت الدنيا في وجه الملك الكامل حتى اضطر إلى مفاوضة الامبراطور ليعقد معه الصلح، وفي خلال المفاوضات مات الملك المعظم حاكم سورية، وكان ذلك في ذي القعدة من عام (٦٢٤ هـ) تاركا بلاده لابنه الملك «الناصر داود» فانتهم الملك الكامل هذه الفرصة، وزحف على رأس جيشه الى الشام

وقد فكر الملك الأشرف في بادىء الامر في أن يمد يد المساعدة للملك الناصر ويشد أزره ثم عاد فعدل عن هذه الفكرة وتفاهم مع الملك الكامل، وما لبثا أن استوليا سويا على الشام التي أقطعها الملك الكامل للملك الأشرف عام (٦٢٦ هـ)

في مقابل بعض البلاد الجزرية ، كما عوض الملك الناصر عما فقدته بقلعتي الكرك والشوبك (١) ثم قام الملك الكامل بتنظيم شئون (سورية) وبعدئذ توجه إلى الجزيرة حيث أصلح الكثير من أمورها ، واتخذ فيها من التدابير ما يكفل منع تدفق سيول الخوارزميين والمغول ، وبعد ذلك استولى على بعض القلاع هنا وهناك ، ثم أقطع « حصن الأكراد » ملكا خاصا لنجله الكبير (نجم الدين أيوب) ، وعينه حاكما على الجزيرة .. وبعد حقبة من الزمن سمح له بأن يجر حملة عسكرية تقوم بالقاء القبض على فلول جيش (خوارزمشاه) المبعثرة ، حتى يتمكن بذلك من إيقاف سيول المغول المتدفقة .

وفي عام (٦٢٩) للهجرة (١٣٢٩ م) وصل « فردريك » إمبراطور ألمانيا إلى (سورية) وكانت مفاوضات الصلح قد انتهت بينه وبين الملك الكامل ، وكانت شروط هذا الصلح تقضى بخضوع القدس والناصرية ، وما حواليهما ، وجزء من الساحل الممتد من « عكا » حتى « يافا » لحكم الإمبراطور بصفة مؤقتة ، على أن تكون هنالك هدنة يقف فيها القتال لمدة عشر سنوات وستة أشهر وعشرة أيام ، وكان هنالك شرط آخر يقضى بأن يقوم الإمبراطور بمساعدة الملك الكامل ضد أعدائه أيما كانوا . ومع ذلك لم ترض هذه الشروط المسلمين والنصارى على السواء وقد غادر الإمبراطور فلسطين وسافر إلى ألمانيا .

وبعد هذا الصلح ، تعقدت الأمور ، وتفاقم الشر بين الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف ، وبين سلطان سلاجقة الروم ، فبعث السلطان كيقيباد السلجوقي بحملة عسكرية على شمال الجزيرة في عام (٦٣١ هـ) واشتبك في القتال مع

(١) يقول تاريخ الاسلام المصور انه قد عوض بقلع الحران والرها والركة ولكن الوقائع التالية لا تؤيد ذلك
المؤلف

الايوبيين ؛ وكانت الغلبة للسلجوقيين في بادىء الامر اذ استولوا على بعض املاك الايوبيين ، بيد أنهم لم يستطيعوا المحافظة عليها والاحتفاظ بها ، ووقف القتال بين الفريقين بوفاة السلطان (كيقباد) حيث اضطر الجيش السلجوقى إلى الجلاء عن البلاد التى احتلها فى عام (٦٣٣ هـ) .

ولم يدم الوفاق طويلا بين الملك الكامل والملك الأشرف ، حيث اتفق الملك الأشرف - لمناهضة أخيه - مع بقية ملوك الأسرة الأيوبية وأمرائها وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع الملك الكامل ، حتى عمد إلى إعداد جيش زحف على رأسه إلى الشام ، وقبل أن يلتحم فى القتال مع جيوش الأشرف وحلفائه توفى أخوه الملك الأشرف إلى رحمة الله بدمشق الشام فى الرابع من شهر المحرم عام (٦٣٥) للهجرة ، وهكذا سقطت « دمشق » فى قبضة الملك الكامل دون حرب أو قتال ، وعوض الملك صالح اسماعيل - أخو الملك الأشرف - عن ذلك بقلعتى (بعلبك) و (بصرى) .
وبعد ذلك ببضعة شهور لقي الملك الكامل ربه فى دمشق الشام فى اليوم الواحد بعد العشرين من شهر رجب من عام (٦٣٥ هـ - ٨ مارس عام ١٢٣٨ م)

(٢) « صفاته ومزاياه »

لاريب أن الملك الكامل ، كان على جانب عظيم من المقدرة والكياسة فقد أظهر صفات نادرة ، ومهارة فائقة فى ميدان السياسة والقتال ، وتعتبر وفاته نذيرا بتدهور الحكم الأيوبى ، وكان يحمل لقب (فارس) قدمه له الملك (ريشارد) قلب الأسد ، وكان خير خلف لوالده الكبير وعمه العظيم فى حب العلم ، ونشر العرفان ، والاهتمام بحركة التجديد والعمران وتعميمها فى البلاد وله فى هذا الميدان آثار خالدة فى البلاد ، كما أن له أياذى يرضا على نظام الرى فى مصر ، حيث يذل جهودا مشكورة فى هذا المجال .

ومن أعماله الأخرى التي تمت في عهده ، إتمام تحصينات قلعة القاهرة الشهيرة ، وفي الحق أن بعض أعماله الأخرى كتسليمه القدس ، وبعض الأماكن الأخرى في فلسطين لإمبراطور ألمانيا وإن كانت عرضة ، في الظاهر على الأقل ، للوم والعتب ، إلا أن المرء لا ينبغي له في مثل هذه المواقف أن يصدر حكماً قاطعاً إلا بعد أن يمعن النظر ويدرس بحذر وإمعان ، الظروف والملايسات الداخلية التي كانت محيطة به ، وذلك إلى جانب ما كان بين الأخوة من غيرة وحسد ، وهذا فضلاً عن الظروف السياسية الخارجية للدولة .

« الملك العادل الثاني »

على أثر وفاة الملك الكامل ، نادى أمراء الأسرة الأيوبية وأعضاؤها بنجله (الملك العادل الثاني) سلطاناً ، وكان أصغر أنجال الملك الكامل سناً ولم يكن لدى هذا الملك الجديد أدنى قابلية أو استعداد لتولى زمام الحكم لصغر سنه . وضعف رأيه ، وميله إلى البطالة . فكان الحق إذن في جانب أخيه الأكبر الملك (نجم الدين) الذي كان - وقتذاك - حاكماً على الجزيرة وملقياً الحصار على قلعة (الرها) وما أن ترامى إلى مسامعه نبأ نعي والده حتى عمد إلى رفع الحصار عن الرها أملاً في العودة سريعاً إلى (سورية) ، بيد أن الخوارج في جيشه قد تألبوا عليه وتمادوا في غيهم وحاربوا إلقاء القبض عليه ولكنه استطاع التخلص منهم بأعجوبة ولجأ إلى قلعة (سنجار) وما أن علم (بدر الدين لؤلؤ) صاحب الموصل وأشد خصوم الملك نجم الدين حينذاك بهذا النبأ ، حتى عول على اغتنام هذه الفرصة للقضاء على خصمه والتخلص منه فجاء على رأس جيش عرمرم لالقاء الحصار على سنجار ومن حسن الحظ أن كان للملك نجم الدين وزير وقاض راجح العقل . قد أحسن تصريف الأمور ، وتمكن من خلق جو للنفاهم وإزالة الجفوة بين سيده وبين

الخوارزميين المتألبين العصاة ، وبهذا تكتل الجميع وألحقوا بالعدو هزيمة منكرة فرجع بدر الدين لؤلؤ مع فلول جيشه القهقري مدحورا يجر أذيال الهزيمة . ثم توجه الجيش الظافر صوب (ديار بكر) وألحق هزيمة أخرى بسليطان الروم الذي كان ملقيا الحصار على هذه القلعة . وهكذا عادت البلاد الجزرية كلها مرة أخرى لحكم الملك (نجم الدين) .

وفي عام (٦٣٦ هـ) عرض (الملك الجواد يونس) حاكم الشام ، على الملك نجم الدين أن يسلمه الشام نظير إقطاعه مدن (سنجار) و (الرقة) و (العانة) من البلاد الجزرية ، فلم يدع الملك نجم الدين هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده ، فتقبل العرض على الفور فرحا مسرورا . وما لبث أن ترك ابنه (تورانشاه) في منصب حاكم الجزيرة وأقطع بعض البلاد منها لأمرأ وقواد خوارزميين ، ثم توجه هو على رأس جيش عرمرم صوب البلاد الشامية وتسلم « دمشق » حسب الاتفاق . وكان الاتفاق قد تم وقتذاك بين « الملك العادل الثاني » وابن عمه (الملك داود) حاكم الكرك على أن يهاجما سويا (الملك نجم الدين أيوب) وقد لجأ حينذاك بعض القواد والضباط من أمراء جيش الملك العادل الذين كانوا ساخطين عليه لسوء معاملته لهم إلى صفوف جيش الملك نجم الدين كما أبدى الملك داود هو الآخر رغبته في الانضمام الى الملك (نجم الدين) على شريطة أن تسلم له (دمشق) بيد أن هذا الطلب قد رفض رفضا باتا فاضطر للبقاء إلى جانب الملك العادل لتنفيذ الخطة التي تم الاتفاق بينهما على تنفيذها

وفي عام (٦٣٧ هـ) تحرك الملك نجم الدين أيوب على رأس جيش من خمسة آلاف مقاتل من الشام وهدفه الزحف على مصر والاستيلاء عليها ، فوصل نابلس ولبث فيها مدة ليتعرف مدى صداقة عمه (الملك اسماعيل) ومدى تعاضده له في هذه المهمة إذ أن عمه هذا كان يظهر له الكثير من علائم المودة والمحبة بألفاظ معسولة وأقوال خلافة . في حين أنه كان يبطن لابن

أخيه خلاف ما يظهر ويضمّر له في نفسه الشر والخيانة والغدر ويحيك له المكائد ؛ فكان يتفاوض سرا مع أمير (حمص) لاتخاذ تدابير مشتركة لاثارة جيش نجم الدين ضده . وقد توصلا إلى غرضهما بخداع واغراء قواد جيش الملك نجم الدين بوعود كاذبة وأمانى خلافة وباطلة ، فانفض جيشه وكذا أنصاره من حوله وبقي هو وحيدا لا سند له في قلعة نابلس . وما أن علم الملك (داود) حاكم الكرك بذلك حتى زحف بجيش على نابلس . وأسر الملك نجم الدين وبعث به إلى قلعة الكرك رغم طلب الملك العادل إرساله إليه في مصر .

وفي هذه الفترة انتهت مدة المعاهدة المعقودة بين الملك الكامل والامبراطور فردريك ولكن الافرنج كانوا غير راغبين في تسليم القدس إلى المسلمين حسب الشروط المتفق عليها فزحف الأمير (داود) على القدس واستولى عليها بعد حصار دام واحدا وعشرين يوما وكان ذلك في جمادى الاولى من عام (٦٣٧ هـ) وأزال جميع التحصينات التي كان الافرنج قد أقاموها حول المدينة .

ثم بدأ الحظ يبسم من جديد للملك (نجم الدين أيوب) حيث فشلت المفاوضات بين الأمير (داود) والأمير (اسماعيل) والملك (العادل) لعقد اتفاق دائم بينهم ، فبذل أمير (حماه) وساطته لعقد أواصر الاتفاق وإيجاد التفاهم بين الملك (نجم الدين أيوب) والأمير (داود) اللذين سرعان ما عقد بينهما اجتماع في القدس وأبرما معاهدة ثنائية بينهما تقضى بأعطاء مصر للملك نجم الدين ، وبقاء البلاد الشامية ، وغيرها من البلاد الشرقية في قبضة الملك (داود) .

ولقد أثار هذا الاتفاق مخاوف الملك العادل ، وساوره قلق شديد على ملكة ، فأصدر أمره على الفور لعمه الملك (اسماعيل) بأن يبادر بالزحف على

موقعى هذا الاتفاق، فتحرك عمه على رأس جيشه . وعسكر بمدينة (بلبيس)
ليعد العدة ، ويتخذ الأهبة للزحف إلى فلسطين ، وكان فريق كبير من جيشه
من جماعة المماليك وهم المدعومون بالآشرفية نسبة إلى الملك الأشرف أخى
(الملك الكامل) ساخطين على سيدهم الملك (العاذل) ومتذمرين منه ، فانتهزوا
الفرصة وانفجروا ثأرين فى المعسكر ، وألقوا القبض عليه ، وخلعوه عن
العرش وانتزعوا منه السلطنة ، وبعثوا به إلى « قلعة القاهرة » وزجوا به سجيناً
فى غياهبها (١) .

وبعد بضعة أيام ولوا سلطنة مصر للملك نجم الدين أيوب .

(١) « الملك الصالح نجم الدين أيوب »

هو أكبر أولاد الملك الكامل ، ولد بمصر فى عام (٦٠٣ هـ) وعينه والده
ولياً للعهد فى عام (٦٢٥ هـ) إلا أنه فقد ثقة والده فيه أخيراً فأبعد عن مصر
نتيجة دسائس حاكمتها والده الملك « العاذل الثانى » ضده لدى زوجها فأوغرت
صدره من ابنه وقد عانى الملك الصالح الكثير من الولايات والمشاق كما ذكرنا
كى يصل إلى هذا المركز السامى ، إلى أن ساعده الحظ على حساب الملك العاذل
الذى أفضى فشله الذريع فى تصريف الأمور ، وإدارة دفة شئون الدولة إلى
خلعه واللقاء به فى غياهب السجن ودعوة الملك الصالح نجم الدين إلى مصر
والمناداة به سلطاناً عليها فى عام ٦٢٧ للهجرة (١٢٤٠ م) . ولم يمض على إعلان
السلطنة طویل وقت ، حتى جاء نبأ موافقة الخليفة ببغداد على هذا الأجراء .
وهكذا استتب الأمن ودانت الأمور للملك الصالح بمصر دون قتال

(١) وقد بقى الملك العاذل أبو بكر حبيساً فى هذا السجن حتى عام (٦٤٥)
لهجرة ، حيث نفذ فيه حكم الإعدام فى هذه القلعة
المؤلف

أو نزاع ، كما كانت البلاد الشرقية (كردستان) أيضا خاضعة لإدارة ولده
(تورانشاه) الخازمة ، ما عدا البلاد الشامية التي كان الحكم فيها مضطربا ،
بسبب تطاحن الأمراء الأيوبيين والولاء على اعتلاء أريكة الحكم ، ولولا
هذا لأمكن القول دون تردد بأن عهد (صلاح الدين) الذهبي قد بعث من
جديد ، وإن الشيء الوحيد الذي كان يقض مضاجع الملك الصالح « نجم الدين
أيوب » هو إيجاد وسيلة يتدرع بها للتنصل من معاهدة القدس المعقودة بينه
وبين الأمير (داود) بشأن تملك الأخير لسورية ، تلك المعاهدة التي عقدت
في ظل من الضغط والإكراه مما لا يجعل باستمرار سريانها أية قيمة قانونية
أو أخلاقية . وهذا ما حدا بالملك الصالح إلى المبادرة بإعلان سقوط هذه
المعاهدة مع الوعد في الظاهر بتنصيب الأمير (داود) واليا على دمشق من قبله
ولقد أمضى الملك الصالح العام التالي لحكمه في تنظيم أمور مصر وشؤونها
الداخلية فضرب بيد من حديد على أيدي المجرمين الذين عاثوا في أنحاء المملكة
فسادا وجرد حملة عسكرية على عرب مصر العليا (الصعيد) فنكل بهم أفظع
تنكيل ، وألقى القبض على الزعماء منهم والرؤساء ، ثم عمد إلى تقسيم أراضيهم
وتوزيعها بين مماليكه . ثم أنشأ لنفسه في جزيرة الروضة المحاطة بالنيل قصرا ،
وثكنة لمماليكه الخاصة .

وفي السنة نفسها حدث صدام بين الملك نجم الدين وبين خصومه الداخلين
من أعضاء الأسرة ؛ حيث كان يدرك الأمير (داود) تمام الإدراك ما ينطوي
عليه إلغاء المعاهدة السابق ذكرها من أن السلطان لا يترك له مجالا لتوسيع
نفوذه ، كما أن الأمير (نجم الدين اسماعيل) عم السلطان كان يعرف حق
المعرفة أن السلطان لا يمكن أن يترك له الشمام لقمة سائغة . ومن أجل ذلك
كان بادي القلق دائم الاضطراب (ومن ناحية أخرى كان (بدر الدين لؤلؤ)

صاحب الموصل قد وسع من دائرة نفوذه في الجزيرة وفي سائر البلاد الشرقية إذ استولى على مدينة (آمد) من (توران شاه) نجل السلطان الذي لم يكن باقيا في حوزته وتحت حكمه سوى قلعتي (حصن كيف) و (الهائم).

فازاء هذه التطورات والأحوال المتلاحقة، اتفق الأمير (داود) والأمير (اسماعيل) صاحب دمشق مع الأفرنج بفلسطين ضد السلطان نظير إعطائهم بلاد (الطبرية) و (سقيف آرنون) و (صفد) وهي من البلدان التي كان قد فتحها السلطان (صلاح الدين) سابقا؛ وفضلا عن ذلك، فقد سمحوا للأفرنج بشراء السلاح في دمشق.

وخلاصة القول إن اتفاقا هاما قد تم بين هؤلاء الأمراء الأيوبيين الذين أضلهم الطمع، وبين الأفرنج الذين أعماهم التعصب، للقضاء على الملك (نجم الدين أيوب) وأخذوا في إعداد العدة لتنفيذ هذه الخطة المرسومة، وكان الأمير (نجم الدين اسماعيل) عم السلطان هو الرأس المدبر للحركة، وصاحب الرأي فيها، وكان هو نفسه قد دبر مكيدة وحاك دسيسة أخرى في وقت ما، لانتزاع «دمشق» من قبضة (الملك الجواد يونس) الذي هرع إلى صفوف الأفرنج فرارا منه، فاستغل الأمير اسماعيل الاتفاق المعقود مع الأفرنج، وأرسل للأفرنج مبلغا من المال وتسليمهم منه الأمير «الجواد» وقضى على حياته ظلما وبهتاناً.

وصفوة القول إن الأميرين «داود» و «اسماعيل» قد وصل بهما الأمر إلى درجة قصوى من الخسة والدناءة لكي يهدما صرح السلطنة الأيوبية من أساسه، فأخبرا الأفرنج سرا بأن الأسرى المسلمين الذين لديهم في (سقيف آرنون) سيقومون بالثورة، وما أن علم الأفرنج المتعصبون بهذا النبأ حتى بادروا سراعا بنقل أولئك الأسرى إلى «عكا» وهناك قتلوهم عن بكرة أبيهم وبعد حقبة من الزمن زحف جيش المتحالفين المعبأ من الأفرنج وجنود

الأميرين (داود) و (اسماعيل) ، واشتبك بجيش السلطان (نجم الدين) فيما بين (غزة) و (عسقلان) . ودارت بين الفريقين رحى معركة طاحنة انحاز خلالها الجيش الاسلامي الذي كان يقوده الأمير (اسماعيل) إلى جانب السلطان ، مما أسرع بالمعركة إلى نهايتها ، فأُسفرت عن اندحار جيوش المتحالفين اندحارا ذريعا ، وأسر الكثيرين من الأفرنج ، فاضطروا إلى الاذعان وعقد الصلح مع السلطان الذي عاد بجيشه إلى مصر بعد توقيع شروط الصلح ، وفي السنة التالية قام الأفرنج ومعهم الأمير (داود) ببعض مناوشات ومصادمات دموية في سورية منتهزا فرصة ابتعاد جيوش السلطان عنها .

وفي عام (٥٦٤١) جرت مفاوضات للصلح بين الملك (نجم الدين أيوب) والأمير (اسماعيل) على أساس إطلاق سراح الملك (غياث الدين (١)) ابن الملك نجم الدين الذي كان أسيرا لدى الأمير (اسماعيل) وأن يعترف به ملكا وتلقى باسمه الخطب على المنابر ، ولكن حدث أن ترامت أنباء إلى الأمير (اسماعيل) بأن هنالك مخبرات سرية بين الملك (نجم الدين) والخوارزميين ولذلك قطع المفاوضات الجارية مع الملك نجم الدين أيوب .

وفي أواخر هذا العام عقد كل من (داود) و (اسماعيل) اتفاقا نهائيا مع الأفرنج ، ووقعاه فعلا ، وأخذوا في تنفيذ نصوصه التي تقضى بترك الجزء الأكبر من فلسطين بما فيه القدس الشريف ، وبعض مراكز اسلامية مقدسة أخرى في تلك البقاع إلى الأفرنج ، في عام (٥٦٤١) كما اضطر الأمير (داود) الذي كان من أعد خصوم الأفرنج إلى تسليم الصخرة المقدسة وركاب البراق في المسجد الأقصى .

(١) كان هذا الأمير قد وقع أسيرا في قبضة الأمير اسماعيل أثناء ذهاب الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى نابلس ووقوعه أسيرا . المؤلف

ولم يجد الملك (نجم الدين) مناصا إزاء هذه الحالة الحرجة من الاستنجاد بالخوارزميين الذين استجابوا لطلبه ولبوا نداءه في عام (٦٤٢ هـ) وأغاروا على الطرق والمنافذ المؤدية واستولوا عليها ، كما أعملوا في تلك الجهات الكثير من أعمال التخريب والتدمير . وفي نفس الوقت أرسل الملك (نجم الدين) من مصر جيشا لشد أزr الخوارزميين ، كما أن الأمير (اسماعيل) أرسل جيشا لمساعدة الأفرنج ، فاشتبك الجمعان ودار بينهما القتال في أطراف (غزة) وأسفرت هذه المعركة الدامية عن اندحار ذريع للأفرنج وحلفائهم ، وعن غلبة الجيش المصرى والخوارزميين الذين نهبوا البلاد نهبا تاما ، واسترد الجيش الاسلامى المصرى القدس وبقية بلاد فلسطين في عام (٦٤٢ هـ) ، وبقيت هذه البلاد في قبضة المسلمين ابتداء من هذا التاريخ حتى عام (١٣٣٦ هـ — ١٩١٨ م) (١) . واستطاع الأمير (داود) أن يحتفظ بالسكر والسלט ومجلون (في مملكة شرق الاردن الآن) .

وقد واصل الجيش المصرى زحفه حتى طرق أبواب الشام وألقى عليها الحصار ، ولما طال أمد الحصار اضطر صاحبها الأمير (اسماعيل) للتسليم في عام (٦٤٣ هـ) مقابل تسلمه قلعتى (بعلبك) و (بصرى) .

وقد بعثت هذه الانتصارات الباهرة الطمع في نفوس الخوارزميين فازدادوا طغيانا وعتوا ، ولم يقنعوا بما أقطع لهم من الأراضى وما وزع عليهم من الأموال ، بل انضموا إلى صفوف جيش الأمير (اسماعيل) الذى أمرهم

(١) كانت القدس في قبضة السلجوقيين أيام ضعف العباسيين ، فاستولى عليها عام (٤٣٩ هـ) الخليفة الفاطمى المستنصر بالله . وفي عام (٤٩٢ هـ) استولى عليها الأفرنج وأباحوا فيها القتل سبعة أيام حيث حشدوا في المسجد الأقصى تسعين ألفا وقتلواهم عن آخرهم . وفي عام (٥٢٨ هـ) استردها السلطان (صلاح الدين) المؤلف

بحصار (دمشق الشام) والاستيلاء عليها، ولكن قائدا أيوبيا ظل مستميتا في الدفاع عنها حتى أوائل عام (٦٤٤ هـ) حيث نهض أمير (حلب) و (حماد) الذي قعد عن تقديم أية مساعدة حتى وقتذاك للملك (نجم الدين) نهض لمقاومة الخوارزميين واستئصال شأفتهم قطعاً لدابر فسادهم الذي عم البلاد، وسرعان ما زحف بجيشه للاشتباك بهم، - فاضطر هؤلاء الخوارزميون لرفع الحصار عن دمشق والمبادرة إلى التحرك للقاء الجيش الزاحف عليهم من (حلب)، وما لبث أن التقى الجمعان في القصب (لعله القصير) ودار بينهما قتال عنيف أسفر عن اندحار الخوارزميين وخذلانهم، وقتل أحد قوادهم، وهروب آخر ولجأ الأمير (اسماعيل) نفسه إلى (حلب) حيث شمله أميرها (يوسف الثاني) برعايته، ولكنه فقد (بعلبك) إذ استولى عليها الملك (نجم الدين أيوب) وأسر أولاده ونسائه وذهب بهم إلى القاهرة، كما فقد الأمير (داود) هو الآخر جميع ممتلكاته ما عدا (السكر) تاركاً فيها نجلاً له صغيراً جداً، ولجأ هو أيضاً إلى (حلب).

وقد أبدى أمير حلب عظيم استيائه من الملك نجم الدين، ودفاعاً عن ملكه عزم على أن ينتزع «حمص» من الملك «نجم الدين» فأرسل جيشاً ضرب عليها حصاراً قوياً قرابة شهرين تمكن بعدهما من انتزاعها من قبضة الأمير الأشرف، في عام (٦٤٦) وهذا ما استثار حفيظة الملك (نجم الدين) وأثار غضبه، ولم يقف مكتوف اليدين، بل حضر بنفسه إلى الشام لمنازلة «الناصر يوسف الثاني» وبعث بقائد من قواده على رأس جيش آخر لاسترداد «حمص» وما أن ترامى إلى مسامع الملك (نجم الدين) بعد وصوله إلى الشام أن الحملة الصليبية السابعة التي كان يقودها «لويس السابع» ملك فرنسا، متجهة صوب (دمياط) حتى اضطر إلى عقد صلح عاجل مع (الناصر يوسف) بعد أن توسط بينهما خليفة بغداد، ثم عاد سريعاً إلى مصر لاعداد العدة

وتهيئة وسائل الدفاع عن البلاد . ورغم ما أصابه من مرض شديد فقد انتقل إلى معسكره بأشمونين بناقلة المرضى ، ومع ذلك فلم يستطع طرد الصليبيين واسترداد (دمياط) من بين برائتهم ، لا انتشار الفوضى واختلال النظام بين جنوده خلال فترة مرضه ، وعدم تمكنه وقتذاك من الاشراف عليهم ، كما أن البدو من قبيلة السكناة الذين كانوا مكلفين بحراسة بعض النواحي القريبة من ميدان القتال فقد كانوا يعيشون في الارض فسادا ، ويعتبرون تلك الانحاء التي خلت من جند السلطان الموكول إليهم أمر حراستها ، كلاً مباحا لهم ، ومرعى خصيبا ، يتصرفون فيه حسبما يترأى لهم .

هذا ، وقد نظر الملك (نجم الدين) قبيل وفاته ، إلى أولاد الامير (داود) نظرة عطف وشملهم برعايته ، وفي الواقع أن ولده الكبير حين رأى أن والده سبق أن عهد إلى ابنه الصغير إلى قلعة السكر ، سارع بالزحف صوب هذه القلعة فاستولى عليها وأسر أخاه فيها ، ثم جاء على عجل للقاء الملك نجم الدين وقدم اليه القلعة نظير إعطائه جهة أخرى ، فما كان من الملك نجم الدين إلا أن سارع إلى إرسال قائد من قواده على رأس قوة عسكرية لتسلم القلعة المذكورة وقد توفي الملك (نجم الدين) ولحق بالرفيق الاعلى في اليوم الخامس عشر من شعبان سنة (٦٤٧) (٢٣ تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٢٤٩ م) .

(٢) « أهدافه وآثاره »

كان الهدف الاسمي لهذا السلطان هو تأسيس دولة قوية ذات شوكة وسلطان على نسق حكومتى (صلاح الدين) ووالده الملك الكامل ، حيث كانت تبسط سلطانها على مصر وفلسطين وسورية والجزيرة ، وقد تحقق هذا الهدف مع وجود فارق قليل في أواخر أيام حكمه ، يستثنى من ذلك إمارتا حلب والموصل المستقلتين . وقد أعد الملك (نجم الدين) قوة عسكرية خاصة

من مماليكه (١) لإظهار قوته وماله من عظيم السطوة والبأس ، والواقع أن هذه القوة قد أفادته كثيرا طيلة عهده لحسن نظامها وقوة مراسها ولسكنها وهي قوة أجنبية عن الاسرة الحاكمة وعن البلاد . قد انقلبت أخيرا شأنها في ذلك شأن غيرها من القوات الغريبة، إلى معول هدام أدى في النهاية إلى اضمحلال الحكومة الايوبية بمصر ثم في الشام .

وقد كان الملك (نجم الدين أيوب) قوى السلطة، مهابا من قواده وموظفيه شديد الوطأة عليهم ، لا يجروء أيهم على أن ينبس أمامه بينت شفة أو يسأله عن شيء . كما وجه الملك اهتمامه وكامل عنايته بأعمال الإنشاء والتعمير ، فشيّد القصور ، وأنشأ المدارس . وما قصر الروضة والكبش بمصر إلا شاهدان على ما نقول ، بل يعتبران من آثاره الخالدة على مر السنين وكر الاعوام ، وزيادة على ذلك فقد خطط مدينة الصالحية كي تكون مدينة دفاعية محصنة على الحدود الشرقية .

(١) هؤلاء المماليك يطلق عليهم لقب (المماليك البحرية) وكانوا حرسا خاصا للسلطان ، أرقاء من الجركس والسكرج اشتروا بالمال وكانوا يقيمون في ثكنة عسكرية بجزيرة الروضة وسط النيل . . وقد نشأت طائفة أخرى من هؤلاء المماليك في عهد السلطان قلاوون أشهر سلاطين المماليك ، كان يطلق عليهم لقب « المماليك البرجية » لأنهم كانوا يقيمون عادة في الأبراج الداخلية لقلعة القاهرة - فالطائفة الأولى من المماليك قضت على حكومة الأيوبيين بوادي النيل ودام سلطانهم في مصر وسورية من (٦٤٨ - ٧٩٢ هـ) ... وأما الطائفة الثانية منهم فقضت على حكومة الطائفة الأولى في سنة (٧٨٤ هـ) ودام سلطانها حتى دخول السلطان سليم الأول العثماني مصر في سنة (٩٢٢ هـ) حيث قضى على هؤلاء الآخرين .

المؤلف

« عهد سلطنة تورانشاه »

كان (تورانشاه) وهو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب حين وفاة والده حاكما على اقليمى الجزيرة وكرديستان ، وكان قد اكتسب خبرة واسعة ، ومرن على سياسة الحروب والقتال خلال حروب والده ضد (بدر الدين لؤلؤ) صاحب الموصل ، وضد سلطان سلاجقة الروم ، حيث كان يتولى اعباء القيادة ويشرف بنفسه على شئون الجيش والدفاع عن الحدود ، وقد نال شهرة رائعة في ميادين القتال وإدارة شئونها . فلما جاءته الأنباء بوفاة والده العظيم سافر إلى مصر على عجل ، فوجد أن زوج والده «شجرة الدر» التى كانت على جانب كبير من رجاحة العقل وحسن التدبير - قد أخفت نبأ وفاة والده عن الناس فبايعه الأمراء والقواد وسائر رجال الدولة وأولياء الأمور ، ونادوا به ملكا على البلاد خلفا لو والده . وفى خلال هذه الفترة كان جيش الصليبيين بقيادة (سن لوئيس) قد اتخذ من (دمياط) مقرا وقاعدة لحركاته العسكرية ، ثم قام الصليبيون منها بحملة عسكرية كبيرة على عاصمة مصر بعد أن تدفق عليهم الكثير من الأمدادات والمعونة من قبل الانجليز والفرنسيين . وقد كانت مدينة المنصورة أول هدف للصليبيين . . . وما أن وصل (تورانشاه) إلى القاهرة حتى عمد إلى إعداد العدة وتهئية وسائل الدفاع عنها ، وحشد الجيوش لصعد المغيرين / ولما كان الصليبيون قد تباطأوا كثيرا فى الوصول من (دمياط) إلى (المنصورة) حيث لم يصلوا إلى ضواحيها إلا بعد نحو من شهر ، فقد استفاد (تورانشاه) من هذا التباطؤ واستغله فى حشد جيش للدفاع عنها بعد أن أقام التحصينات اللازمة حولها . . .

وفى هذا الوقت وصل جيش آخر للصليبيين وهو ألماني ، وضرب حصارا قويا حول المدينة ، دون مبالاة بما أعد من وسائل الدفاع عن هذه المدينة التى تحيط بها الترع والجداول المتفرعة من النيل ، الذى كان لفيضانه الفضل فى

قلب خطط (سن لوئيس) رأسا على عقب . هذا فضلا عن هدم الجسور والمعابر الواقعة على النيل وفروعه بين المنصورة والقاهرة بأمر من الملك (توراتشاه) مما أفضى إلى تدفق السيول وإحاطتها بجيش الصليبيين إحاطة السوار بالمعصم ، وقطع خط الرجعة عليهم من كل جانب .

وفي هذا الظرف المواتى شن (توراتشاه) هجوما عنيفا على الصليبيين من جميع الجهات ، وضيق عليهم الخناق ، وبهذا قطع الطريق بينهم وبين دمياط ، فتفشى بينهم المرض ، وحل بهم الجوع ، وذاقوا ألوانا من البؤس والشقاء . ولم يكتف (توراتشاه) بهذا فقط ، بل أقدم على عمل آخر جرى يرمى به إلى تطويق دمياط ، ومنع الصليبيين من القيام بأية محاولة للهروب من أى جانب « وذلك بأن عمد إلى نقل قطع من السفن على ظهور الجمال إلى ساحل البحر ، وإنزالها إلى البحر الأبيض بعد تركيبها وتجهيزها وتزويدها بالمقاتلين ، ثم أرسلها إلى مياه دمياط ، وهكذا قطع طريق البحر أيضا على الصليبيين فوقعوا فى حيص وييص . والخلاصة ، أن قائد الصليبيين وجيوشهم قد اضطروا - أمام هذه الظروف العصيبة - إلى التقهقر والانسحاب دون نظام ولكن الجيش المصرى الذى كان لهم بالمرصاد ، لم يهيء لهم فرصة للنجاة بل أسر منهم الكثير الأغلب ثم شنت شمل الآخرين فى عام (٦٤٧ هـ) ، ووقع (سن لوئيس) نفسه أسيرا فى يد الملك (توراتشاه) ومعه ذلك العلم المقدس الذى كان قد أخذه من دير (سان دنيس) تبركا به ، وأسر معه الكثيرون من القواد والزعماء ، وذوى الرأى منهم ، ولم ينج الملك (لوئيس) من ذل الأسر ومرارة الاعتقال إلا بعد أن أمضى اتفاقية تعهد فيها بتسليم (دمياط) ، ودفع فدية عن نفسه وعن قواد جيشه وسائر رجاله قدرت - وقتذاك - بثمانمائة ألف دينار من الذهب ، وبمغادرته للقطر المصرى على الفور على ألا يعود إليه قط . وبعد أن نفذ هذه الشروط غادر مصر إلى سورية ولبث هنالك ثلاث

سنين . وقد قدرت خسائر الصليبيين في هذه المعركة بأكثر من ثلاثين ألف نسمة من المقاتلين . اهـ . (معالم تاريخ العصور الوسطى) .

وبعد انتهاء مشكلة الصليبيين ، تفرغ الملك (تورانشاه) لتوطيد النظام بين جنوده المماليك ، إذ كان القسم المسمى منهم « بالمماليك البحرية » ، وهم ممالك والده العظيم ، عتاة ، طغاة لا يخضعون لنظام ولا لعرف . وكان (تورانشاه) يعتز بجيش الجزيرة ضد هؤلاء المماليك العتاة ، وكان يحاول جاهدا إخضاعهم بقوة هؤلاء الجزريين ؛ وقد فطن الجنود المماليك إلى هذا الخطر المحدق بهم ، فخرجوا عن طاعة السلطان ، وقلبوا له ظهر المجن ، فدبروا له مؤامرة أسفرت عن اغتياله ، وكان ذلك في عام (٦٤٨) للهجرة .

ويقول بعض المؤرخين ان لشجرة الدر - امرأة والد تورانشاه - يدأ في هذه المؤامرة الدنيئة ، ويظهر أن لهذا القول نصيباً من الصحة ، لأن هذه المرأة الطموحة الذكية كانت طامعة في الملك ، وبصفتها زوجة أب وليست أما ، كانت تكره (تورانشاه) ، فضلا عن أنها كانت على اتصال بمسدري المكيدة والذين حاكوا أطراف المؤامرة من المماليك البحرية ، وليس أدل على ذلك من زواجها برئيس هؤلاء المماليك الذين اغتالوا (تورانشاه) وهو المدعو (أيبك) . ومن هنا لا يبعد أن تكون (شجرة الدر) مطلعة على نوايا المتآمرين قبل وقوع الجريمة . وعلى كل فإنه لمن سوء طالع المملكة الأيوبية أن تحرم من ملك قاهر ، وقائد محنك مغوار ، مثل (تورانشاه) الذي كان آخر سلطان أيوبي يجمع بين صفات الجندي الماهر ، والاداري الحازم ، والقائد المحنك . إذ كان المأمول أن تنهض المملكة الأيوبية وتتقدم على يديه تقدما عظيما محسوسا لولا أن عاجلته المنية واختطفته يد المنون ، حيث ذهب ضحية جناية أثيمة قام بها غلبان والده من الجند الأجني قبل أن ينفذ برنامجه الاصلاحى .

ولقد شهد التاريخ بأن الملك (تورانشاه) ذلك القائد الداهية الجرى . هو أول ملك يعتمد إلى إنشاء سفن وينقل قطعها على ظهور الجمال إلى البحار حيث يكون منها أسطولا عظيما ينازل به خصمه فيصرعه . وقد أتى بعد بقرنين وأربع سنوات السلطان التركي (محمد الفاتح) ، وقام بمثل هذا العمل تماما أمام أسوار القسطنطينية ، ولا شك في أنه قد اقتدى في ذلك بتورانشاه . والفضل للسابق كما يقولون .

وعلاوة على ذلك ، فقد كفاه فخراً أنه هو الذي أباد الصليبيين ، وطردهم من الديار المصرية ، وأوقع « سن لويس » ملك فرنسا في الأسر .

« نهاية حكومة الأيوبيين بمصر »

بعد أن أقدمت جماعة المماليك البحرية العصاة على ارتكاب جريمتهم الشنعاء . وهي اغتيال (تورانشاه) ، عمدوا إلى تولية (شجرة الدر) - زوجة أبيه - مكانه على عرش مصر ، وألقوا الخطب على المنابر وسكوا العملة باسمها الذي اصطالحوا عليه وهو (المستعصية الصالحة ملكة المسلمين أم الملك المنصور خليل) ولقد بادرت الملكة إلى تعيين (معز الدين أيبك) رئيس جماعة المماليك البحرية قائداً عاماً لجيوش مصر . بيد أن سلطنة (شجرة الدر) لم تعمر طويلاً لمعارضة الأمراء والقواد بمصر لها ، وإصرارهم على تعيين ملك من أسرة بني أيوب حتى تمكنوا في النهاية من تنصيب الملك (الأشرف موسى) ابن بنت الملك الكامل وابن آخر أمير أيوب في اليمن مكان (شجرة الدر) وكان ذلك في عام (٦٤٨ هـ) (٥ أغسطس سنة ١٢٥٠ م) ، ولكن الحكم والنفوذ في الحقيقة كان يتركز في يد القائد العام (معز الدين أيبك ^(١)) .

(١) يقول السيد أمير على مؤلف (تاريخ الاسلام المنصور) ان (أيبك) محرف (أغابك) والأقرب إلى الذهن (آي بك) بمعنى الأمير قر . المؤلف

وبعد عام توترت العلاقات بين مصر وبين الملك الناصر يوسف حاكم حلب ، واحتدم وطيس القتال بين قوات الفريقين ، ودام بينهما النزاع ثلاث سنوات ، وأخيراً عقد صلح بين الملك الناصر وبين معز الدين أيبك عام (٦٥٢هـ) وذلك بفضل تدخل خليفة بغداد لحسم النزاع ووضع حد لسفك الدماء .

وفي عام (٦٥٣هـ) أعلن معز الدين أيبك استقلاله التام في حكم مصر ، بعد أن خلع الملك الأشرف ، وبعث به إلى أقربائه في اليمن . وهكذا انتقلت السلطنة الأيوبية العتيدة بوادي النيل إلى أيدي غلبانهم المماليك . وتكررت تلك الغلطة بل تلك المأساة السياسية والعسكرية حين أودى بسلطنة العباسيين وقضى عليها ، أولئك الذين جرى بهم لتأييدها والدفاع عنها . فكان الواجب يحتم على الملك الكامل الأيوبي - قبل أن يجند الجند من هؤلاء المماليك العتاة أن يلقي نظرة على تاريخ العباسيين وخلافتهم ليتخذ عبرة بما آل إليه أمرهم بسبب إكثارهم من الجند المماليك .



٢ - الحـكـومة الأيوـبية بحـلب (٥٧٩ - ٦٨٥ هـ)

أقطع السلطان صلاح الدين بلاد حلب هذه - لأول مرة - لابنه الملك الظاهر « غازي » وله من العمر وقتذاك ، أحد عشر عاماً . وبعد بضعة أشهر ألقى عبء إدارتها على عاتق أخيه الملك العادل . وفي عام (٥٨٢ هـ) شرع يقسم البلاد الخاضعة لسلطنته العريضة من جديد ، فنصب أخاه الملك العادل أتابكا (قياً) لابنه الملك العزيز بمصر ، وأعاد (حلب) إلى حكم الملك الظاهر غازي وزوجه (ضيفة خاتون)^(١) ابنة الملك العادل .

ولقد أخلص الملك الظاهر كل الاخلاص لوأله طيلة عهده الزاهر إذا اشترك وساهم كتابع له ، في حروبه الكثيرة وتضحياته الكبيرة أثناء نضاله واشتبا كهمع الصليبيين ، وقد ظل حريصاً على الظهور بهذا المظهر أيضاً مع عمه الملك العادل بعد وفاة والده . وكان الهدف الاسمي لهذا الملك هو ضمان إيجاد توازن بين ملوك وأمراء الأسرة الأيوبية ليتمكن بذلك من الدفاع عن البلاد الاسلامية التي كان يحيق بها الشر ويتهددها الخطر من كافة النواحي ، فلا غرو أن يبادر إلى تحصين قلعة حلب حتى أضحت على جانب عظيم من قوة المناعة والاحكام .

وقبل وفاته في عام (٦١٣ هـ) ، كان قد أوصى بالملك من بعده لابنه الصغير الملك العزيز « محمود » الذي أنجبته من ابنة عمه الملك العادل .

وكان يرمى من وراء ذلك إلى الاستفادة من نفوذ الملك العادل والحصول

على معوته لتوطيد حكم أسرته في حلب ، فتولى الملك الأشرف موسى - نجمل الملك العادل - قيادة جيوش حلب ، ودافع عن هذه القلعة العاتية دفاع الأبطال ضد غارة السلطان كيكاوس السلجوقي ، وكان يتولى عبء تصريف الأمور الإدارية كل من « طغرل » نائب الملك الظاهر ، والقاضي بهاء الدين ابن شداد الشهير . واستمر الحال على هذا المنوال في عهد الملك العادل والملك الكامل وابنه من حيث الاعتراف بسلطنة الملك العزيز الذي باشر سلطاته الملكية في عام (٦٢٨) والذي ملأ المناصب الهامة من بين رجاله وأخصائه واستولى على قلعة « البيرة » القائمة على نهر الفرات قد آلت إليه من ميراث عمه الملك الزاهر « داود » ولقد نهضت مدينة حلب ، وتقدمت تقدما محسوساً في عهد والده وطيلة أيامه هو في النواحي العمرانية والتجارية وغيرها ، كما اتسعت رقعة بلاده في حدود الشام والجزيرة كثيراً .

وفي عام (٦٣٤) ، توفي الملك العزيز فصعدت روحه إلى بارئها وهو لا يزال في عنفوان شبابه ، تاركا ملكه وعرشه لابنه الملك « الناصر يوسف » البالغ من العمر - حينذاك - سبع سنوات فقط ^(١) .

ولقد تولت (ضيفة خاتون) - جدة الملك الناصر يوسف - مقاليد الأمور إثر أزمة سياسية عصيبة ، وصارت نائبة الملك . فلما توترت العلاقات بينها وبين الملك الكامل ، اتفقت مع الملك الأشرف حاكم الشام الذي تمكن من الدفاع عن بلاده حين أغارت الجيوش المصرية عليها . وقد نهض قائد جيشها « الملك المعظم » - نجمل السلطان صلاح الدين - برد الاعداء على أعقابهم ، وألحق بهم خسائر جسيمة .

(١) الملك الناصر هذا قد ولد له من زوجته فاطمة خاتون ابنة الملك

وعلاوة على ذلك ، فقد اتحدت مع السلطان « كيخسرو السلاجوقي » ،
 جهارا ، تعزيزاً لنفوذها ، وتوطيداً لمركزها ، وقبلته متبوعاً لها حيث جعلت
 الخطبة وسكت العملة باسمه في بلادها ، وأعلنت خطبة حفيدها الملك الناصر
 يوسف على أخت هذا السلطان ، وفي خلال هذه الفترة كانت نكبة قاصمة
 تزحف نحو بلاد الشام على غرة ، وهي انقضااض جميع المقاتلين والعناصر
 الفتاكة من الخوارزميين الذين فروا هاربين أمام غارات التتر والمغل من
 رجال (جنكيز) على البلاد الإسلامية مبتدئين بيحرقزون حتى حدود البلاد
 الشامية ، وأخذوا يعيشون بأرض الجزيرة فساداً من تدمير القرى إلى إحراق
 المساكن ، إلى فتك بالاطفال والنساء ، واستولوا عنوة على كافة بلاد الملك
 الصالح ابن الملك الكامل في بلاد الجزيرة .

ومن دواعي الأسف أن عوامل الشقاق والتنافس بين أمراء بني أيوب
 قد وقفت حجرة عثرة وحائل دون اتحادهم ووقوفهم صفواً واحداً وجهة متراصة
 حيال الخطر المحدق بهم والزاحف عليهم من الشمال أو التوفيق بين مصالحهم
 ومصالح القادمين من الشمال للصمود أمام أعدائهم الآخرين في الغرب والجنوب
 وأخيراً اندحر جيش حلب ، وغلب على أمره أمام قوات الخوارزميين الجارفة
 ووقع القائد العام وهو الملك المعظم أسيراً في قبضة الخوارزميين ، ووقعت
 أحمال الجيش الإسلامي وأثقاله في أيدي الأعداء غنيمة باردة وهكذا سقطت
 جميع البلاد السورية حتى (حماه) في أيدي الخوارزميين في عام (٦٣٨ هـ) .
 ثم عزز الجيش الإسلامي الحلبي المنهزم بعد ذلك بجيش ملك « حمص »
 وبقوات من البدو الذين أجلاهم الخوارزميون عن أماكنهم ، وبهذا أضحي
 جيشاً قوى المراس ، شديد البأس ، في مكنته منازل الخوارزميين الغاليين ،
 مرة أخرى وما لبث أن اشتبك الفريقان في القتال ، واسفرت المعركة عن
 اندحار الخوارزميين وخذلانهم ، فولوا الأدبار حتى وصلوا إلى « الرحبة » ،

وهناك كفف المسلمون عن مطاردهم وتركوهم وشأنهم . ولكن الخوارزميين المهزومين لم يستقر لهم قرار في بلد من البلدان ابتداء من (حران) إلى (العانة) التي أوغلوا منها في البلاد الخاضعة للخليفة العباسي . وهكذا تم استرداد كافة البلاد الجزرية التي كان الخوارزميون قد استولوا عليها ، وأطلق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين كانوا معتقلين في (حران) من قبل الخوارزميين . وفي عام (٦٤٠ هـ) أيضا ، ألحق الجيش الحلبى هزيمة نكراء بالخوارزميين وإن هي إلا بضعة أشهر حتى توفيت (ضيفة خاتون) إلى رحمة الله . فتولى الملك الناصر يوسف ، مقاليد الأمور ، وبسط سلطانه على معظم (سورية) مبتدئا بالعريش حتى ضفاف الفرات ، ومنحه خليفة بغداد لقب (السلطان) ؟ بيد أن القدر لم يمهله طويلا ليتمتع بمانال من مجد وأبهة وسؤدد وسلطان ، إذ سرعان ما ظهر شبح الخطر المغولى على البلاد الإسلامية جمعا ، لأن (هلاكو) إمبراطور المغل قد زحف بحجافله خلال عام (٦٥٨ هـ) ، إلى حلب التي طال انتظار حاكمها الملك « الناصر يوسف » لوصول المدد من مصر إليه دون جدوى ، مما اضطره بعد دفاع مجيد ومحاولات يائسة لصد المغل ، الى مغادرة حلب ، والتوجه الى دمشق الشام . ومع ذلك فلم تقدر له النجاة ، اذ وقع أسيرا في يد (هلاكو) ، ففضى عليه وعلى الحكومة الايوبية في حلب - بالتالى - قضاء نهائيا ومبرما .

٣ - « الحكومة الايوبية في الشام »

ذكرنا سابقا أن السلطان صلاح الدين قد قام بتقسيم بلاده قبل مماته على أنجاله ، وكانت البلاد الشامية من نصيب نجله الأكبر الملك الأفضل ، ولم يمض على وفاته طويل وقت حتى دب الخلاف . وتحركت عوامل الشقاق بين الاخوين : الملك الأفضل على ، والملك العزيز عثمان حاكم مصر ، وأخيرا

تدخل عهدهما الملك العادل في الخلاف الذي طال أمده وحوصرت دمشق مركز حكومة الملك الأفضل مرارا والخلاف لا يزال ينشب أظفاره ، كما ظلت الأمور مضطربة وغير مستقرة في الشام وسورية حتى وفاة الملك العزيز واندحار الملك الأفضل ، ودخول هذه البلاد تحت حكم الملك العادل . وفي عهد الملك المعظم عيسى - نجل الملك العادل - اضطربت الأمور مره أخرى في هذه البلاد كنتيجة حتمية لغارات الفرنجة المتواصلة عليها . وبعد وفاة الملك المعظم ، تولى نجله الملك الناصر أمور البلاد إلا أن الملك الكامل قد أبى أن يترك له الفرصة ، فهاجمه بجيش جرار ، وقد انضم الملك الأشرف موسى - أخو الملك الكامل - إلى جانبه في بادئ الأمر ، ولكنه عاد وانحاز إلى جانب أخيه أخيرا ، مما أدى إلى سقوط (دمشق) في يده « وصار الملك الأشرف موسى حاكما على دمشق في عام (٦٢٦) للهجرة .

وبعد فترة من الزمن اضطرب الملك الأشرف إلى الاتفاق مع سلطان الروم (كيقيباد السلجوقي) لصد خطر الخوارزميين سويا عن بلادهما .

وقد أرسل - لهذا الغرض - جيشا عرمرما من جيوشه تحت قيادة الأمير « عز الدين عمر الحسكارى » ، للاشتراك مع حليفه (السلطان علاء الدين كيقيباد) في قتال ومناوأة الخوارزميين (الجلاليين) . فألحقت حجاجل الحليفين هزيمة منكرة بعدوهما المشترك على مقربة من (أرزنجان) . في اليوم الثامن بعد العشرين من رمضان عام (٦٢٧) الهجرة . وبعد حقبة من الزمن تفاقم الخلاف بين المملوكين الأشرف والكامل وبين حليفهما السلطان علاء الدين كيقيباد الذي زحف على بلاد الجزيرة واستولى على شطر منها ، ولم يرتد عنها إلا بعد عامين أى في عام (٦٣٢) للهجرة .

وفي أخريات حياة الملك الأشرف قد دب ديبب الخلاف وتوترت العلاقات بينه وبين الملك الكامل الذي أمر الجيش المصرى بالزحف إلى

الشام . وبعد قليل توفي الملك الأشرف . فأخذت علائم الشقاق والخلاف تنشب أظفارها بين أمراء وملوك بني أيوب في عهد الملك العادل الثاني ، واتفق الملك الصالح إسماعيل حاكم الشام مع الفرنجة لمناهضة الصالح أيوب حاكم مصر الذي شمر عن ساعد الجد ، واستطاع التغلب على خصومه المتحالفين ضده في معركة (غزة) ، وذلك بفضل مساعدة الخوارزميين له ، وكان ذلك في عام (٦٣٤) للهجرة و (١٢٤٤ م) ، وهكذا تمكن من بسط سلطانه على (سورية) من جديد ، وتوحيدها مع مصر .

وبعد وفاة الملك المعظم تورانشاه نجل الملك الصالح أيوب ، بادر الملك الناصر يوسف حاكم حلب الى الاستيلاء على دمشق الشام فكان هذا الملك آخر ملك أيوبي على الشام . وفي الحق قد ازدهرت المدن والقرى السورية في عهد الأيوبيين ازدهارا كبيرا ، ولا غرو فقد كان الأمراء والأميرات والزعماء ، والقواد يتسابقون - في هذا العهد - في انشاء الدور العامة . والقصور والمدارس ، ولا سيما في دمشق الشام التي تقدمت ونهضت نهضة عظيمة حيث أضحت مجمع العلماء والفضلاء ومركز العلم والعرفان ، يؤمها الناس من كل صوب وفج عميق .

ويقول الرحالة الشهير (ابن جبير) - الذي كان معاصرا للسلطان صلاح الدين والذي زار هذه المدينة في عهده - انه كان في الشام ما يقرب من عشرين مدرسة علمية ، ولم يمض على هذا طويل وقت حتى بلغ عدة المدارس المثلين .

٤ - « الحكومة الايوبية بحماة »

بعد دخول (حماة) تحت حكم الايوبيين ، أعطاها السلطان صلاح الدين لنجل أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر ، وظل أحفاد هذا الأمير يحكمونها

كأبراء عن كبار ، منتهجين في حكمها سياسة الود والتفاهم ؛ وتقديم فروض
الولاء والطاعة لكبار أمراء وملوك أسرة أيوب الى حدما . هذا ولما انقض
جيش (هلاكو) المدمر على البلاد ، فلم يقووا بطبيعة الحال على الصمود
والثبات أمام سيوطهم الجارفة ، وآل مصيرهم الى التبعية لدولة المماليك ، بمصر
وذلك بعد اندحار جيوش التتر ، وانسحابهم من البلاد السورية ، حيث
انقرضت هذه الأسرة نهائيا في عام (٦٩٨) للهجرة .

وكان المؤرخ الكبير والعالم والعلامة الشهير (الأمير أبو الفداء اسماعيل)
ابن أخى آخر ملك على حماة محبوبا من السلطان محمد الناصر قلاوون ،
حيث شاركه ، وشدد أزره ، في جميع حروبه وفي أيام جهاده ضد الفرنجة ،
فغمره بفيض من عطفه ، ومنحه لقب السلطان ، وحقوق السلطنة . ولقد
نهضت مدينة (حماه) وتقدمت في عهده تقدما عظيما ، وازدهرت فيها العلوم
والفنون .

والمعروف أنه مات ودفن في هذه المدينة . هذا وقد خلف السلطان
أبا الفداء ، ابنه الملك الأفضل محمد في تسنم عرش حماه غير أنه لم يحافظ على
ثقة ملك مصر فقبض عليه وزج به في السجن بقلعة الشام وهكذا انقرضت
حكومة الأيوبيين .

هـ — الامارة الأيوبية في حمص »

استولى السلطان صلاح في عام (٥٧٩) للهجرة ، على بلاد حمص ، وبعد
أربع سنوات من استيلائه عليها منحها للامير محمد ولد عمه شيركوه . وفي عام
(٦٤٦ هـ) ، استولى الملك الناصر يوسف الثانى حاكم حلب على هذه البلاد
ولبت يحكمها فترة من الزمن ، ولكن حكمه هذا لم يعمر طويلا إذ انتقل إلى
أحفاد (شيركوه) الذين ظلوا يحكمون البلاد حتى عام (٦٦١) حين انقضت

جيوش التتر بقيادة (هلاكو) على البلاد السورية ، واضطرار هؤلاء الحكام إلى السكف عن المقاومة ، وفتح أبواب قلعة (حمص) لهم ، وهكذا انقرضت أسرة (شيركوه) من حمص .

« الأمانة الايوبية باليمن »

من المعلوم لدينا أن الملك المعظم « تورانشاه » أخو السلطان صلاح الدين قد غزا اليمن وفتحها في عام (٥٦٩) للهجرة ^(١) ، وترأس حكومتها مدة عامين

(١) ورد في (مرآة الزمان ج—٣ ، ماملخصه) ان شمس الدولة تورانشاه الذي توجه إلى فتح اليمن مرفى طريقه بمكة المكرمة ودخلها وما كان من أميرها إلا أن أغلق باب الكعبة وانسحب إلى جبل أبي قبيس متحفزا وأما تورانشاه فقد دخل الحرم المكي وصلى به فتقدم نحو الكعبة قاصدا الطواف حولها وما أن رأى الكعبة مقفلة الآن رفع يديه إلى الله تعالى مناجيا آلهي اذا كنت قاصدا هذا المكان بنية حسنة فافتح على هذا الباب . قال هذا وشد القفل وفتح الباب باذن الله تعالى فدخل الكعبة وصلى بها أيضا . ولما بلغ نبأ هذا إلى أمير مكة المقيم بجبل أبي قبيس نزل من عليائه وذهب إلى شمس الدولة تورانشاه واعتذر إليه . فقبل عذره وخلع عليه خلعا سنية وأبقى في منصبه . ثم واصل تورانشاه السير بالعسكر حتى دخل اليمن واصطدم بقوات عبد النبي بن المهدي فكسره شركسة . وكان هذا المتغلب على اليمن في غاية من الظلم والجور فعدت أعماله الجائرة الصبائية حد المعقول حيث كان قد بنى قبر والده وقبة ضربه من الذهب الابريز وأجبر الأهالي لأن يحجوا إلى هذا الضريح بدل الكعبة المعظمة . وقد تمكن الملك المعظم تورانشاه من القبض على هذا الطاغية وقتله والاستيلاء على أمواله وأموال قبة والده من الذهب والمجوهرات .

المؤلف

باسم أخيه صلاح الدين ، ثم عاد إلى مصر تاركاً على أريكة حكمها نائباً عنه ولما توفي « تورانشاه » أسندت حكومة اليمن إلى أخيه الملك العزيز طغتكين في عام (٥٧٩ هـ) ، ولبت هذا الأمير في اليمن حتى توفاه الله إلى رحمته في اليوم السادس عشر من شوال من عام (٥٩٢) ، حيث خلفه في منصبه ابنه المعز اسماعيل الذي لقي حتفه مقتولاً في عام (٥٩٨) ، فخلفه أخوه الناصر أيوب الذي قضى نحبه هو الآخر في اليوم الثاني عشر من المحرم من عام (٦١١) . وبذلك انتقل الملك إلى « المسعود صلاح الدين يوسف ابن الملك الكامل » الذي سار إلى اليمن على رأس قوة عسكرية كبيرة . وفي اليوم الثاني من شهر المحرم من عام (٦١٢) وصل (زييد) عاصمة اليمن ، وما أن تم له الاستيلاء على الثغر ، واستتب له الأمر فيها ، حتى أعاد (سليمان ابن تقي الدين عمر بن شهنشاه) إلى مصر ، واشتبك هو في القتال مع إمام اليمن . وفي اليوم الثامن من جمادى الآخرة من عام (٦١٤) ، استولى على (صنعاء) . وفي عام (٦١٩) قفل راجعاً إلى مصر بعد أن سلم مقاليد الحكم ، وزمام الأمور فيها إلى أبناء الرسول (الرسولية) اتباع الأيوبيين ، وفي رجب من عام (٦٢٤) للهجرة اضطروا إلى العودة إلى اليمن حيث ألقى القبض على أولاد الرسول ، وزج بهم في أعماق السجن ثم عاد فأطلق سراحهم في نفس اليوم . وعاد إلى مصر في نفس العام بعد أن عهد بشئون الحكم إلى (نور الدين عمر بن علي الرسول) الذي ما لبث أن أعلن استقلاله بالحكم بعد فترة وجيزة . وهكذا وضع أساس الحكومة الرسولية باليمن .

٧ — « الحكومة الأيوبية بالجزيرة »

قامت هذه الحكومة منذ اليوم الذي تأسست فيه حتى عام (٦٤٣)

للهجرة في مركزها بمدينة (ميفارقين (١). وقد استولى المغل على بعض البلاد التابعة لهذه الحكومة في عهد (المظفر غازي). فزالت على أثر ذلك هيئة الحكومة، وتضاءل نفوذها، ورغم ذلك بقيت بعض البلاد ذات الأهمية الثانوية في الجزيرة وكردستان في أيدي من تبقى من الأيوبيين ومنهم أمراء (حصن كيف (٢) الذين عمروا حتى القرن العاشر الهجري باسم (الملكان = الملوك).

« نظرة عامة »

إن السلطنة الأيوبية التي أقيمت دعائمها على أنقاض دولة الفاطميين في مصر، والأتاكية في «سورية»، كانت على جانب عظيم من القوة والنفوذ وعلو الشأن وحسن الإدارة والنظام، وذلك على الرغم من هجمات الصليبيين المتتالية عليها خلال عهود السلطان صلاح الدين والملوك العادل والملوك الكامل. وقد اعترها حقيقة في بعض الأحيان شيء من الوهن والضعف، وساءت إدارتها في بعض الظروف ولا سيما في عهد الملك «العادل الثاني»، ولكن الملك الصالح (نجم الدين أيوب) قد استطاع التغلب بثاقب فكره، وقوة شكيمته على أهواء الأمراء المستبدين، ولم يتركهم في طغيانهم يعمهون،

(١) الآن تسمى (سليوان) نسبة إلى العشيرة الكردية الكبرى الشهيرة بالسليوانية المحرفة عن السليمانية لأن الكرد ينطقون باسم (سليمان) هكذا (سليوان = سليفان) وماورد في الخرائط الزكية (سبلوان) تصحيف وغلط (٢) الآن تسمى (شرناح) ولا تزال بجوارها عشيرة كردية عريقة في القدم تدعى (ملكان) المترجم.

فوضع حداً لسوء الإدارة التي كانت تسود مصالح الدولة ، وبذلك أعاد للدولة مجدها السابق التليد. وهكذا فعل ابنه (توران شاه) الذي لولا شدته التي أثارت عليه بماليكه الخاصة ، لكان من المنتظر جداً أن يقوم بدور خطير لرفع شأن الحكومة الأيوية ، إذ كان قائداً محكماً ممتازاً ، وإدارياً حازماً .

هذا ولم يكن نشاط السلاطين والملوك الأيوبيين قاصراً على ميدان السياسة والحكم فقط ، بل سجل لهم التاريخ جولات محمودية وآثاراً ناطقة في ميادين العلم والمعرفة والاقتصاد أيضاً . كما عنىوا بالزراعة وتحسين سبلها ووسائل تقدمها ررقها من حفر الترع إلى إقامة الجسور وتنظيم وسائل الري وإلى غير ذلك . كما بذلوا جهوداً مشكورة لتنشيط التجارة في الداخل والخارج ، وليس أدل على ذلك من تلك المعاهدات التجارية الكثيرة التي عقدها مع الدول الأوربية .

أما الجيش الأيوبي فكان فريقين : أحدهما يتألف من الحرس الخاص وهم المماليك ، وثانيهما كان من الجنود المرتزقة التابعين للأمراء والقواد الخاضعين لسلطان الملوك . ومثل هذه التشكيلات كانت ذات نفع وفائدة حيث كانت تتفق وموارد الحكومة العامة التي كانت تخضع للظروف والملايسات في تلك العهود البائدة . وكان الجيش المملوكي مشكلاً من عبيد اشتروا وتربوا تربية عسكرية خاصة في كنف الملوك وتحت إشرافهم ، وكان مماليك هذا الجيش في بادئ الأمر على جانب عظيم من الدربة ، وحسن النظام ، ومخلصين في تحقيق الغاية التي وجدوا من أجلها ، مثلهم في ذلك كمثل أتراك العباسيين ، وانكشارية العثمانيين ، ولكنهم مالبثوا أن ضعف شأنهم ، واختل نظامهم ، وكثر شغبهم . وانتهزوا فرصة ضعف الحكومات وانحلالها ، فانقلبوا إلى شرمستطير ، وأضحوا بلاء على الحكومات ، والملوك الذين كانوا يعتمدون عليهم .

ولا غرو أن الدولة الأيوبية ، تلك السلطنة الإسلامية الكبرى قد وضعت أساس تقدم عظيم ، ونهضة كبرى للعالم الإسلامى . حتى أضحت تلك السلطنة كعبة العلماء والفضلاء يحجون إليها من كل صوب حيث كان هؤلاء العلماء يلقون لدى ملوكها وأمرائها كل تشجيع وكل عناية مما شجعهم على خدمة العلم والفنون كما أدخلوا تحسينات كبيرة وواسعة على نظم الإدارة وعلى طرق الجباية ونظموا كثيرا من أصول ومراسم المسكاتبات السلطانية ، والألقاب والعناوين الحكومية . وتقدمت نظم الأقطاعات فى المملكة الأيوبية تقدما كبيرا ، وقد انتقلت هذه النظم الأقطاعية مع الصليبيين إلى أوربا حيث تأصلت وسادت فيها ؛ شأنها شأن غيرها من عادات وتقاليد فرسان القرون الوسطى بأوروبا ، تلك العادات والتقاليد المقتبس معظمها من أصول وعادات العهد الأيوبي فى الشرق ، مثال ذلك شعار الملوك وأسرهـم .

١١ - « حكومة بني أردلان » (٦١٧ - ١٢٨٤ هـ)

جاء في كتابي (شرفنامه) و (الأربعة القرون الأخيرة للعراق) . أن هذه الحكومة كانت على جانب عظيم من القوة وعظم الشأن . كما يروى لنا أهالي منطقة (أردلان) أن تاريخ هذه الحكومة قديم جدا يرجع إلى أوائل أيام العباسيين بل إلى عهد الساسانيين . ولكن ليس هنالك أية وثيقة يعتد بها نستدل منها على صحة الشق الأخير من هذه الرواية . ومهما يكن من أمر فالذي لا شك فيه أن هذه الحكومة قد تأسست في أواخر عهد العباسيين حسبما يؤخذ من رواية (ميجر لونجريك) من أن (جنكيزخان) كان قد اعترف بهذه الحكومة ومن قول الدكتور (فريج) من أن جنكيزخان قد عين مؤسس هذه الحكومة واليا على تلك المنطقة في بادئ الأمر . ولما كان المغول قد استولوا على إيران في عام (٦١٧ هـ) في خلافة الناصر لدين الله فعني هذا أن هذه الحكومة الأردنية قد عمرت أكثر من ستة قرون ونصف قرن ، مستقلة تارة ، وتابعة لدول كبيرة تارة أخرى ، لأنها زالت نهائيا من عالم الوجود سنة (١٢٨٤ هـ) . ولنتعرض الآن بالتفصيل نشأة هذه الحكومة فنقول « إن التاريخ لا يذكر شيئا قاطعا في هذا الصدد ، اللهم إلا ما جاء في (شرفنامه) من القول بأن (بابا أردلان) وهو من أسرة (أحمد بن مروان) مؤسس الحكومة المروانية الكردية في كردستان المركزي — قد قدم من (ديار بكر) وحط الرحال بين أحضان عشيرة (كوران - جوران) وأقام بينها (١) ، ثم

(١) انقرضت الحكومة المروانية في أواخر القرن الخامس الهجري ، ومن المحتمل جدا أن « بابا أردلان » قد فر في هذا الوقت من ظلم وعسف لوزير أبي جهير الذي كان له يد في القضاء على هذه الحكومة الكردية . المؤلف

انضم إلى جيش المغول حينما استولى (جنكيزخان) على إيران ؛ فعينه حاكما على اقليم (شهرزور) .

وفي هذه النقطة فقط تتفق رواية صاحب كتاب (الأربعة القرون الأخيرة للعراق) مع رواية (شرفنامه) بهذا الخصوص ولكنها تزيد وتقول إن (بابا أردلان) من أسرة قديمة نبيلة من (ديار بكر) قد هاجر إلى عشيرة (كوران) وعلا شأنه بينهم ، ولم يمض على مقامه بين ظهرانهم طويل وقت حتى تمكن من بسط نفوذه على عشائر (شهرزور) وعلى سكان الوديان الشرقية لأقليم (هاورامان) فأخضعهم لسلطانه تماما ، مما حمل (جنكيزخان) على الاعتراف بحكومته تلك ، حين قدم إلى هذه الجهات . هذا ويقول الرحالة المستشرق الانجليزى الشهير (ريج) ان الأسرة الأردلانية كورانية أصلا ومن فرقة (مامونى) ولا شك فى أن بحوث هذا المستشرق ؛ وما وصل إليه من النتائج ، أقرب إلى العقل والصواب ؛ إذ من المعقول بل من المستساغ أنه وصل إلى السيادة وبسط نفوذه على عشائر تلك الجهات كلها بفضل تأييد عشيرته الكورانية وتعريضها له ، وهكذا تمكن من وضع أساس حكومة وطنية عمرت عصورا طويلة رغم الحوادث العاصفة ووقائع التاريخ (١) .

وإن (شرفنامه) ليفتقر إلى معلومات عن (بابا أردلان) وبضعة من ذراريه ، ولسكن (ميجرلونجريك) يقول إن (كول بك ابن بابا أردلان) قد أخضع بنفسه (أربل) لحكمه أيضا ؛ وإن عهد أميرين من أمراء هذه الأسرة وهما (خضر بك ابن كول بك) و (إلياس بك ابن خضر بك) قد انقضى بسلام دون قتال أو نزاع ، ما زادهما قوة وبأسا .

(١) يذكر الدكتور « فريج » وهو المعروف بتعصبه الظاهر للترك ، فى كتابه « كردلر » أصل بابا أردلان بطريقة تخالف ما جاء هنا كل المؤلف

ولقد صادف ظهور الحكومة الجلالية في العراق في القرن الثامن الهجري عهد أمير ضعيف من الأردلانيين يلوح أنه (خضر بك بن إلياس بك) ، حيث استولى الجلاليون على القسمين الشمالى والغربى من البلاد في عهد هذا الأمير ، بل وبذلوا الكثير من المحاولات للاستيلاء على البقية الباقية من البلاد ولكن استماتة الأمير الجديد وهو (حسن بك بن خضر بك) في المقاومة ، وما اتخذ من التدابير الفعالة قد حال كل ذلك دون تحقيق أهداف المغيرين ثم حدث أخيراً وفي القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وفي عهد حكومة (مأمون بك^(١)) القوية أن استردت تلك البلدان الشمالية والغربية من معتصبيها الجلائريين ، وبذلك صار نهر الزاب الكبير (زى بادينان) حداً شمالياً لحكومة أردلان التى بادرت فوضعت حامية عسكرية في قلعة (رواندز) .

ولاشك في أنه لم تظهر قط حكومة قوية ذات شأن بين الحكومات المجاورة للعراق في تلك الأيام مثل هذه الحكومة الكردية الباقية آثارها تطاول الدهر في غربى إيران .

وفي هذا العهد كانت تقيم في ولاية (شهرزور) نفس القبائل والعشائر والأسر القديمة التى تسكنها الآن ، ولم يكن قد جاءها بعد من إيران عشائر « الزنكنه والهماوند والجاف » أما الأسرات الأخرى مثل « الشيخان والطالبانى والجبارى » فلم تكن قد تكاثرت بعد حتى تستحق أن يطلق عليها

(١) إن مأمون بك هو ابن « منذر بك بن حسن بك » الذى قاوم الحكومة الجلالية في العراق مقاومة عنيفة بكل شجاعة وثبات ... وذكر المؤرخ «على أكبر» أن حكم «مأمون بك» قد عمر من عام (٨٦٢) حتى عام (٩٠٠) للهجرة ، أعنى ثمانية وثلاثين عاماً اهـ « دائرة المعارف الإسلامية » المؤلف

أسماء العشائر ، وقد كانت الوديان الواقعة في شرق (كركوك) في أيدي القرويين والفلاحين الأكراد المختلطين بغيرهم ، ولم تكن توجد هناك حينذاك حياة مدنية بالمعنى الحديث إلا بقدر معلوم ، وكانت البلدان التالية قلاعاً ومراكز لحكومات وطنية صغيرة وهي (درنه ، بنجوين - ونقعان الآن على الحدود العراقية واليرانية - وكذا : كوى . حرير . رواندز . عقره) .

وهناك في شمال الزاب الكبير كانت تقع أملاك إمارة العمادية ويتبعها كل من العقرة والدير ودهوك وأحياناً زاخو . وقد خضعت هذه الإمارة لحكومة (أردلان) قرابة مائتي عام ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي حتى الرابع عشر الميلادي ، حيث دخلت في حوزة الحكومة الجلالية . وقد قامت في هذه البلاد ابتداء من القرن الرابع الميلادي أسرة مالكة تدعى (بادينان — بهادينان) حيث كان سكان الإمارة من العشائر الهكارية . كما كانت بلاد (مكري) هي الأخرى خاضعة لحكومة أردلان .

وكان لمأمون بك ثلاثة أبناء ذكور ، هم (بيكه بك ، سرخاب بك ، محمود بك) فلما أدركته الوفاة وصعدت روحه إلى بارئها ، خلفه في الحكم ابنه الكبير (بيكه بك) الذي لم يتمكن من بسط نفوذه على جميع أرجاء المملكة ، الأمر الذي أدى إلى استقلال كل من أخويه بناحية من البلاد . أما البلاد التي بقيت خاضعة لبيكه بك فهي (قلعة زلم ، تغه سو ، شميران ، هاوار ، سيمان ، داودان أوراودان ، كلغمبر) . والظاهر أنه لم يقع ما يستحق الذكر من الوقائع الهامة في عهد (بيكه بك) ، وإذا كان شيء قد حدث فإننا نجعله تماماً .

وإذا نظرنا إلى تاريخ توليه الإمارة عام (٩٠٠) للهجرة ، لأدركنا أنه كان معاصراً للسلطان (سليم الأول) العثماني ، حيث يقول (الميچرلونجريك) أن إمارة (أردلان) قد خضعت - مثل الإمارات الكردية الأخرى - لسلطان الدولة العثمانية ، بعد انتصار العثمانيين على الإيرانيين في معركة

(جالديران) . . . ولكنى أرى أن هذا من الأمور المشكوك فيها جدا ، لأن مولانا حكيم الدين (إدريس البدليسى) لا يذكر شيئا عن هذا فى حملة كردستان . ثم خلف (بيكه بك) نجله (مأمون بك) الذى كان معاصرا للسلطان سليمان القانونى (٩٢٦ - ٩٧٤ هـ) ، وقد كان تابعا سياسيا للحكومة الإيرانية الصفوية ، الأمر الذى ساعده على بسط نفوذه وسلطانه وتوسيع حدوده الجغرافية حتى امتدت إلى (زى كويه = الزاب الصغير) ، فشملت هاورامان ، شهرزور ، قره داغ ، وسهل كرمان (عبر جبال قره داغ وطريق كفرى - كركوك) .

ولا شك فى أن هذا التوسع قد أثار نائرة الحكومة العثمانية وقلقها ، فأخذت فى بادىء الأمر تعمل على الوقوف فى سبيل هذا التوسع بأن وضعت قوة من الانكشارية فى (كركوك) ، وجردت حملة عسكرية كبير بقيادة (حسين باشا) فى عام (٩٤٥ هـ) على (مأمون بك) بحجة تأمين الطريق إلى (بغداد) ، وقطع دابر فساد عشائر (شهرزور) التى كانت تتعرض دائما للهارين فى هذا الطريق . وكان معظم جنود هذه الحملة من جند الأمراء الكرد الذين كان من بينهم (سلطان حسين) أمير العمادية . ولكن الغرض الحقيقى لهذه الحملة لم يكن سوى الاستيلاء على (مريوان = مهروان) و (سنه = سنندج) وإذا لم يتم ذلك فلا أقل من انتزاع أقليم (شهرزور) . ولقد استمات (مأمون بك) فى مقاومة هذا الجيش ، ودافع دفاع الأبطال عن البلاد إلى أن اضطر أخيرا إلى الاعتصام بقلعة (زلم) التى ضيق عليها العثمانيون الحصار ، ولما رأى (مأمون بك) أنه لا قبل له بمواصلة الدفاع ، إنسل خفية من القلعة وذهب إلى استانبول (١) مستنجدا بالسلطان ، ولكنهم زجوا به هنالك فى

(١) تقول رواية أخرى أن مأمون بك وقع أسيرا واخذ إلى (اسلامبول) على هذا النحو (كوردلر ص ١٧٢) .

أعماق السجون . أما جيش (حسين باشا) فقد عاد من حيث أتى بعد أن خرب البلاد وأعمل فيها يد النهب والسلب .

ولما تولى (سرخاب بك) عم (مأمون بك) زمام الأمور استؤنفت العلاقات الطيبة بينه وبين (طهماسب) شاه إيران ، واستولى على بلاد ابن أخيه بسهولة . فما كان من السلطان سليمان إلا أن أطلق سراح (مأمون بك) في استانبول وأسند إليه لواء (الحلة) ؛ كما أسند إلى أخيه (اسماعيل بك) سنجق (سروجك) . ولكن (سرخاب بك) كان قد تملك ناصية البلاد وأعد العدة كاملة للدفاع ، مما أدى إلى فشل محاولات الأخوين لانتزاع البلاد من قبضة عمهما .

وفي عام (٩٤٨) للهجرة وقع القاص ميرزا - أخو الشاه طهماسب - في أيدي الجنود الكرد فأخذوه إلى (سرخاب بك) . ولكن لم يمض طويل وقت حتى زحف (اسماعيل ميرزا) بجيش إراني من القزلباشية حاصر به (سرخاب بك) مع (القاص ميرزا) في قلعة (مريوان) فاضطر (سرخاب بك) إلى تسليم (القاص ميرزا) إليه ؛ وبذلك صان بلاده وحفظها من تخريب القزلباشية لها (١)

ولما رفع (علي باشا) وإلى بغداد أنباء هذه الحوادث إلى الباب العالي في استانبول ، غضب الباب العالي وحمل حملة شعواء على ضعف (علي باشا) وتقصيره في اتخاذ التدابير السكافية ، وبادر إلى عزله من منصبه ، وعين بدله (محمد باشا البلطه جى) الشهير واليا على بغداد ، وكان ذلك عام (٩٥٦) للهجرة (١٥٤٩ م) . وقد عهد هذا الوالى الجديد إلى (عثمان باشا) استرداد اقليم (شهر زور) وأصحابه بجيش كبير معزراً بالطوبجية وبقوات كردية كبيرة ،

(١) (عالم آراى عباسى) .

فسار على رأسه إلى قلعة (زلم) التي كان (سرخاب بك) معتصما بها ، فألقى الحصار عليها وطال أمد الحصار حتى اضطر البطله جى إلى الحضور بنفسه حيث تسلم بنفسه القيادة . وعالج الموقف بحكمته ، فاتبع سياسة الدهاء والملاينة مما حمل (سرخاب بك) على ترك القلعة والانسحاب منها دون سفك دماء من غير طائل . وهكذا اسقطت قلعة (زلم) في قبضة البطله جى باشا الذى بادر إلى وضع قوة عسكرية كافية بقيادة (ولى بك) فيها لحمايتها . ومنذ عام (٩٦١) للهجرة انتظمت تلك البلاد في نطاق الادارة العثمانية .

هذا ، وليس في الروايات الشائعة في بلدة (سنه) شيء له علاقة بهذا الخصوص ، ومما لا شك فيه أن (سرخاب بك) بعد خروجه من قلعة (زلم) والتجائه إلى الحكومة الايرانية قد عاد إليها ثانية بمعاونة تلك الحكومة حيث تمكن من بسط سلطانه على مقاطعتي (أردلان) و (شهرزور) مع الاحتفاظ بمكانته في البلاط الشاهاني الايراني . وكان نجله (بارام = بهرام بك) حاكما لرواندز فلبث فيها طويلا . ويقول الدكتور (فريج) ان (سرخاب بك) أعلن استقلاله التام بعد فترة من الزمن عن الايرانيين رافضا حمايتهم له ، ونجح في حكم البلاد ، وقطع دابر الفتن ، ومنع نشوب القتال ، وقد كان دون شك من أهمحكام هذه الأسرة الكردية .

وقد نوه صاحب (شرفنامه) أيضا برجاحة عقل هذا الأمير ، وحزمه في الادارة ، وعدله المطلق في الحكم ويقول إنه قد خلف أحد عشر ولدا من بعده وفي الوقت الذى كان فيه (سرخاب بك) متفقا مع الايرانيين ، ظهر على المسرح (محمد بك بن مأمون بك) واستولى على سنجق الحلة وسروجك (١)

(١) من المشكوك فيه وجود علاقة بين الحلة وسروجك ، والظاهر أن شرفنامه الذى ورد فيه اسم الحلة هذا فيه تحريف أو خطأ . المؤلف

وأخذ في بسط سلطانه شيئا فشيئا على بلاد (قره داغ ، شاربازير ، دمهراڻ = دجوران) ، وطلب إلى السلطان سليمان إسناد إدارة هذه البلاد كلها إليه بصفته الوارث الشرعي لأبيه وعمه ، ويظهر أن طلب (محمود بك) هذا قد أحدث رد فعل في الآستانة ، بدليل أنه لم يمض طويل وقت عليه حتى عمدت الآستانة إلى تجريد حملة كبيرة بقيادة الصدر الأعظم (رستم باشا) و (عثمان باشا) ميرميران (بغداد) وغيرهما من حكام كردستان وأمرائه للاستيلاء على إمارة (أردلان) فتحركت تلك الحملة وألقت الحصار على قلعة (زلم) وظل الحصار قائما عامين كاملين توفي خلالها (محمد بك) وكان الشاه (طهماسب) يساعد حماة القلعة مساعدة فعالة ، مما اضطر (رستم باشا) إلى العدول عن فتحها والتوجه إلى شهرزور حيث توفي في هذا الأثناء وقد عين بدله مرة أخرى (محمد باشا البلطه جي) ، فتوجه على رأس جيش عرمرم صوب (شهرزور) فاحتلها ، وكان (سرخاب بك) في هذه الأثناء متفقا مع الإيرانيين . وبعد وفاة (سرخاب بك) خلفه في الحكم ابنه (سلطان علي) الذي مات بعد سنة واحدة من اعتلائه الحكم ، فقام نزاع بين أخيه (بساط بك) وابنائه (تيمورخان) حول الاستئثار بالحكم ، وقد انتهى هذا النزاع بوصول (بساط بك) إلى الحكم مكان أخيه .

ولكن (تيمورخان) لم يترك له فرصة يستريح فيها بل واصل الكفاح والنزال - تعضده الحكومة العثمانية - حتى دحر عمه ، وتم له الاستيلاء على الإمارة بأكملها . ثم أنعم عليه السلطان مراد الثالث بلقب ميرميران وبرتبة الباشوية وأسند إليه إدارة مقاطعة (شهرزور) أيضا مع تعيين أنجاله الأربعة أمراء سناجق (٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م) .

وجاء في (شرفنامه) عن أنجال (تيمور باشا) وسناجقهم ما يلي :
(١) سلطان علي ، كان أمير سناجق (سنه = سنندج) وحسن آباد وقلعة قزله

(٢) بوداق بك، كان أمير سنجق قره داغ .

(٣) مراد بك، كان أمير سنجق (مهروان = مريوان) .

(٤) بدرخان بك، كان أمير سنجق (شاربازير) .

ويقول الدكتور (فريج) ان عهد (تيمورخان باشا) كان نكبة على كردستان لأنه كان تواقا للنهب والسلب وميالا لسفك الدماء لدرجة أن أثارت ثائرة (عمر بك) و (شاهو يردى بك) (أميرا (لرستان) فتآمرا ضده وقبضا عليه للتخلص من شروره وآثامه ، بيد أنه أفلت من بين برائتهما أخيرا وأخذ يمعن في الإغارة على بلادهما وبلاد جيرانه ، وسلب أموال الناس بالباطل حتى وقع قتيلا في إحدى غاراته عام (١٩٩٨ هـ) .

وبعد وفاة (تيمور خان باشا) تولى الحكم من بعده أخوه (هلو خان) الذى كان على عكس أخيه يمقت أعمال السلب والنهب ويستنكرها ، ولكنه لم يكن فى مكنته وقتذاك الحيلولة دون قيام القبائل والعشائر بالسلب والنهب بين حين وآخر حسبما تعودت على ذلك . وكان تعلقه بالبلاط العثمانى ظاهرا جليا فى عهد السلطان مراد الثالث .

ويذكر (شرفنامه) معلومات مفصلة عن هذه الإمارة حتى عام (١٠٠٥) للهجرة ، ولكن (دائرة المعارف الاسلامية) وكتاب (الأربعة قرون للعراق) لا يذكرا إلا القليل عن أحوالها بعد هذا التاريخ

والظاهر أن حكم هذه الإمارة آل بعد (هلو خان) إلى الخان (أحمد خان) فى عام (١٠١٤ هـ و ١٦٠٥ م) حيث كانت علاقاته بالشاه (عباس) طيبة ووطيدة جدا ، ولهذا أتبع إمارته لسلطان ايران ، وكان يعتز بحماية الشاه له فيتسلط على العشائر الكردية والامارات المحلية الخاضعة للدولة العثمانية . وكان أول عمل قام به بعد أن سلك هذا المسلك وتخير لنفسه اتباع هذه السياسة — الهجوم على العشائر المسكرية فاجتاحها ، وبعد بضع سنين تمكن من الاستيلاء

على قلعتي (راوندز) و (العمادية) ونصب عليهما نوابا عنه ، كما أنه أختنع كلا من (كوى) و (حرير) غير أن التسلط على هذه البلاد وبسط سلطانه عليهما لم يعمر طويلا . ومع ذلك فمن المعترف به أن العشرين سنة الأولى لحكم أحمد خان لامارة أردلان كانت بحق عهد ازدهار وتقدم ونهضة محسوسة للبلاد ، حافظ أحمد خان طيلة هذه المدة على حدود الامارة القديمة ، ولقى خلالها عطفًا سائغا من لدن الشاه عباس الذى تعطف عليه وزوجه من أخته (١) ومما يدل على بعد نظر هذا الخان أنه قصر إغاراته وحروبته على الجهات الغير خاضعة مباشرة لسلطان العثمانيين ، أعنى أنه وجه همه نحو الامارات الكردية المحلية ، ولعله كان يرمى من وراء ذلك إلى تحقيق الوحدة الادارية فى البلاد الكردية ، بيد أن هذا الخان كان هو وجيش أردلان ، مع الشاه عباس فى إغاراته على بغداد عام (١٠٣٤ هـ) حيث زحف بجيشه إلى كركوك (كر كويه) ، وبعد قتال قصير الأمد استولى على هذه القلعة وعلى منطقة (شهرزور) كلها (٢) وبذلك امتد سلطان أحمد خان ونفوذه من غرب العمادية حتى حدود كرماشان وهمدان ، ومن لرستان حتى بحيرة أورمية . حيث خضعت امارة السهران كلها لسلطان أردلان .

ولم يدم عهد القوة والسلطان لهذه الامارة بعد وفاة الشاه عباس عام (١٠٣٧) للهجرة وفى عام (١٠٣٩) للهجرة ، قد وصل خسرو باشا الصدر الأعظم إلى الموصل لاسترداد بغداد من الايرانيين ، وهنالك قدم له كل من (سيدى خان) حاكم العمادية ، و (ميره بك) أمير السهران وبضعة أمراء من الكرد ، النصيح والمشورة بوجوب الاستيلاء على (أردلان) فتوجهوا صوبها جميعا . وظل الخان (أحمد خان) حفيظا على صداقته للحكومة الايرانية وتعلقه بها . وقد

(١) تاريخ نعيم .

(٢) تاريخ عالم آراى عباسى .

تأيد ذلك في مواقع كثيرة ولا سيما حين غزو الشاه عباس الأخير لبغداد ،
ولكن الكشيرين من رجال جيشه البارزين كانوا يبدون ميلا نحو العثمانيين
لكونهم سنين ، وكانوا يتحينون الفرصة للانضمام إلى جيش (خسرو باشا)
عند اقترابه من الحدود ، وعلى أثر تحرك الجيش العثماني من (كركوك) جاء
لفيف من قواد (أردلان) ورجالها مع عشرين أميرا من أمراء كردستان إلى
الصدر الأعظم (١) ووضعوا أنفسهم في خدمة الجيش العثماني الذي واصل
السير حتى عسكر في ناحية (كلنبر) ولبث يصلح في قلعتها خمسين يوما .
وبعد ذلك أرسل الصدر الأعظم قوة عسكرية استولت على قلعة
(مهربان = مريوان) وفي الوقت الذي كان الجيش العثماني ما يزال في الموصل
كان القائد الايراني العام (زينل خان) وبصحبه الخان (أحمد خان) قد
قد تحرك من همذان على رأس جيش قوامه أربعون ألف مقاتل دون أن
يتخذ الحيلة ويقطع خط الرجعة على جناح العدو الرابض بمهربان واشتبك
مع هذه القوة ، وبينما كان القتال على أشده بين الفريقين وصلت قوات الصدر
الأعظم إلى ساحه الوغى فقررت مصير المعركة ، وألحقت الهزيمة بالجيش
الايراني ، وقتل في المعركة بضعة ألوف من الجند وأعدم (زينل خان) من
قبل الشاه ، وعين بدله (رستم خان) قائدا عاما للجيش الايراني ، وتحرك
الشاه بنفسه على رأس جيش لجب من (أصفهان) إلى ميدان القتال .
وبعد هذه الغلبة الساحقة توجه الصدر الأعظم (خسرو باشا) إلى قلعة

(١) جاء في (تاريخ نعيم) أن (أحمد خان) حينما اجتاز نهر الزاب الأسفل
سارع بتقديم فروض الطاعة للصدر الأعظم ، ورضى عنه السلطان (عثمان)
وأقطع في الموصل مكانا ... اهـ واعتقد أن هذا غير صحيح . نعم ! لقد
جاء وقت كان فيه (أحمد خان) مستاء من الايرانيين بسبب سمل عيني ابنه
بأمر الشاه صفى .
المؤلف

(حسن آباد) حيث كان مقر الخان (أحمد خان) فدمرها تدميرا وجعلها خرابا يابا ، ثم واصل السير حتى قرع أبواب (همدان) في سنة (١٠٤٠) للهجرة (١٦٣٠ م) فدمرها ، ثم عرج على بلدة (دركزين) وقتل من أهلها الكثيرين ، ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد وحاصرها أربعين يوما ، ولكنه لم ينل منها شيئا ، فقفل راجعا إلى الورا عن طريق الموصل في عام (١٠٤١ هـ) (١٦٣١ م) . وقبل أن يغادر الصدر الأعظم الموصل زحف (أحمد خان) إلى ولاية (شهرزور) واستردها من الجيش العثماني .

هذا ولم نعر على معلومات واضحة عن أواخر عهد أحمد خان وخلفائه وكل ما نعرفه أن أحمد خان قد استاء في وقت ما من الشاه (صفى) لسبب مبعثه الظلم ولجأ إلى الحكومة العثمانية في الموصل (١) وفي خلال ذلك تولى إمارة أردلان (سليمان خان) وهو من نفس الأسرة . ويظهر أن (سليمان بك به به) قد أغار في سنة (١٦٩٤ م) أي في عهد سليمان خان على إمارة أردلان ، وكانت هذه الاغارة في عهد حكومة ضعيفة لا تملك حولا ولا طولا ، مما أدى إلى وقوع شطر كبير من البلاد الأردنية في قبضة (بابا سليمان بك) ولكن الأردلانيين تمكنوا بعد ذلك بعام واحد من استرداد ما فقدوه من بلاد بفضل تعاضيد الحكومة الإيرانية لهم .

(١) يقول الفون هامر صاحب تاريخ الدولة العثمانية في هذا الصدد ما خلاصته : ان الخان احمد خان قد استاء استياء شديدا من معاملة الشاه صفى له لأن خلف الشاه عباس هذا قد بلغ به الظلم والغدر إلى أن يعمد إلى ابن احمد خان فيسمل عينيه مما اضطر أمير أردلان الابي بأن يغادر ايران ويلجأ إلى الحكومة العثمانية في الموصل . وما كان من كوجك احمد باشا هنالك إلا أن كتب إلى الباب العالي في استانبول واتى له بالخلع السنية ورتبة بكربكي وما يستتبعها من الشارات ثم سافر مع احمد باشا على رأس جيش عرمرم

وفي عام (١١٤٣) للهجرة غزا حسين باشا والى بغداد اقليم همذان ، وكان الحاكم الشرعى الوراى لأردلان وقتذاك هو (على قلى خان) الذى انصاع للعثمانيين بمحض اختياره ودون قتال ، لأنه كان معزولا عن الحكم بسبب تدخل الايرانيين ، فكان يعلق آمالا كبارا على مساعدة (حسن باشا) له. وقد ترتب على ذلك استيلاء (خانه باشا) البابانى على (أردلان) بأمر من حسن باشا بفضل إطاعة (على قلى خان) وكثير من رجاله واستسلامهم له .

هذا ، وبعد حروب (شرفخان الأفغانى) والسرदार (أحمد باشا) فى شهر كانون أول (ديسمبر) سنة (١٧٢٦ م) آل إلى (خان باشا) أمر إمارة (أردلان) لأنه كان سبيا فى إنكسار الجيش العثمانى ، ودام ذلك أربع سنوات حتى عهد نادرشاه . ولما دانت الأمور فى إيران لطهماسب قلى (نادرشاه) وأخرج الجيش العثمانى من إيران أعطى أقليم (أردلان) لسبحان ويردى خان وبذلك قضى على حكم البابانيين فى (أردلان) .

== إلى إيران واصطدما فى سهل مهربان بالاييرانيين ودام القتال يومين واسفر عن اندحار جيشى الكرد والعثمانيين ومقتل احمد باشا ورجوع احمد خان الى الموصل حزينا اشد الحزن .

وقد اثرت هذه الهزيمة تأثيرا بالغا فى هذا الأمير الشجاع الغيور حفيد السلطان صلاح الدين الايوبى الاسد الهصور فمات سنة (١٠٤٦ هـ) .

هذا ولما كانت الايات الفارسية الآتية تشتمل على تواريخ ميلاد ووفاة وحياة هذا الأمير نثبتها فيما يلى نقلا عن صحيفة زين الكردية .

خاف اكراد يعنى خان احمد سال بنخت (١٠٠٢) امداز عدم بيرون
سال كج بنخت (١٠٢٣) يافت حكم وجلوس در غلط (١٠٣٩) كشت واله ومجنون
باز صحبت يافت اندر غم (١٠٤٠) يافت حكمى زيبيشتر افزون
سال غمها (١٠٤٦) هزيمتش دادند رفت بيرون از اين زمانه دون

المؤلف

وفي عام (١٧٩٣) للسياد استولى سليمان باشا الباباني على شطر كبير من بلاد أردلان بعد انتصاره للمرة الثانية على عمه سليم باشا في (قزله)، غير أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى قاومه؛ فصدده عن البلاد (سبحان ويردى خان) أمير أردلان، وفي السنة التالية زحف سليمان باشا الباباني تنفيذا لإشارة صدرت إليه من (كريمخان الزند) إلى أردلان غازيا، واستولى على (سنه). وكان يشد أزره جيش كريمخان الزند. وبعد عام قتل سليمان باشا خلفه نجله (على بك) في إمارة أردلان، وكان أخوه محمد باشا حاكما على قلعة (جوالان). وكان بنو أردلان على اتفاق مع (أقا محمد خان القجري) الذي كان من ألد أعداء الأسرة الزندية على العمل سويا؛ ولهذا كان (كريمخان) يحمي البابانيين ويمنحهم تأييده. وكانت هذه الظاهرة سببا في اقتحام الجيش الإيراني - في كثير من الأحيان - لبلاد أردلان وشهرزور والتدخل في شئونهما وهكذا كان الحال مع جيش والي بغداد الذي كان يتدخل هو الآخر في شئون تلك البلاد الفينة بعد الفينة.

وفي عام (١١٦٨ - ١٢١٤هـ) انتقلت إمارة أردلان إلى خسروخان الكبير^(١) من بعد (سبحان ويردى خان). وفي عام (١١٦٠هـ) زحف «أحمد باشا» والي بغداد إلى كرماء نشاه، كما زحف «محمد باشا الباباني» إلى «سنه» فاعترض سبيله جيش أردلاني فسحقه سحقا، واستولى على «بانه» ثم اشتبك في قتال مع خسروخان فهزمه هو الآخر، ولكن كريمخان الزند بعث بقوة كبيرة يقودها «كلب علي خان» لنجدة جيش أردلان طاردا «محمد باشا الباباني» حتى «كركوك».

وخلاصة القول ان أردلان قد اجتاحت مرارا، ودمرت تدميرا في عهد

(١) يقول الميجرسون ان (خسروخان) خطب ابنة الشاه فتح على .
ولكن الظاهر ان الذي فعل ذلك هو خسروخان الأول . المؤلف
(م - ١٩)

حكومة البابانيين . وفي عام « ١٢١٤ هـ » خلف « أمان الله خان » والده « خسرو خان الكبير » ودام حكمه حتى سنة « ١٢٤٠ هـ » . والواقع أن هذا الأمير كان محبا للعلم والعلماء ، وعاملا في نشر المعارف وبث روح العمران في أنحاء البلاد ، فتقدمت أسباب النهضة الأدبية والعمرانية في مدينة « سنه » تقدما محسوسا وأصبح بلاطه كعبة القصاد من الشعراء والأدباء والعلماء من أنحاء كردستان وإيران ، وقد حظى السرجون مال الكولم ، والمسieur ريج « ريتز » بمقابلته أثناء سياحتهما في إيران . ولذلك فهما يكيلان له الكثير من آيات المديح والثناء ويطريان حسن إدارته للبلاد وعظيم خدماته في سبيل إسعادها ، وقد خلفه ابنه « خسرو خان » الذي حكم البلاد عشر سنوات ، والذي كان له القدح المعلي في الشعر والأدب . وكانت « ماه شرف خانم » الشاعرة الشهيرة والأديبة الفاضلة زوجا لهذا الوالي . وبعد وفاته وفي عهد خلفه وهو ابنه « رضا قلي خان » (١) اندلع لهيب الفتن ونشبت حروب بين أمراء هذه الأسرة أدت إلى حبس الوالي البالغ من العمر وقتذاك ستة عشر عاما في طهران ، ولم يطلق سراحه من السجن إلا بعد وفاة « محمد شاه » . أما « أمان الله خان » الذي حكم أردلان من سنة « ١٢٦٥ » حتى سنة « ١٢٨٤ هـ » فهو أخوه ، وآخر حاكم لأردلان . إذ الثابت أن الحكومة الإيرانية قد بدأت تتحرش بحكومة هذه البلاد ابتداء من عام (١٢٦٨ هـ) . حتى تمكن « ناصر الدين شاه » في عام « ١٢٨٤ » من القضاء على الأسرة الأردلانية نهائيا وتعيين عمه الأمير « فرهاد ميرزا » ، حاكما على أردلان . نعم إنه لا يزال هنالك رجال بارزون من هذه الأسرة ولكنهم يفتقرون إلى الجاه والنفوذ . ولقد سبق القول بأن هذه

(١) يقول الميجرسون ان اسم هذا الحاكم هو (غلام شاه خان) .
(من تقرير عن السلطانية طبع كلكتا سنة ١٩١٨) .
المؤلف

الحكومة كانت من أهم الحكومات الكردية التي قامت في إيران . ويقول « شرفنامه » انها تمتعت بالاستقلال التام فترة من الزمن ، وضربت باسم حكامها السكة ، وألقيت باسمهم الخطب . ويظهر أن فترة الاستقلال التام هذه قد عمرت منذ أوائل القرن السابع الهجرى أى من أواخر عهد الحكومة الأيلخانية حتى أوائل عهد الحكومة الصفوية « بداية القرن العاشر الهجرى ، أى قرنين كاملين .

ثم تلا ذلك عهد الخضوع السياسى للإيرانيين تارة ، وللعثمانيين تارة أخرى تبعاً للظروف حتى زوال حكم الخان « أحمد خان » ، ثم بدأ نفوذ إيران يزداد فى البلاد رويداً رويداً حتى قضى عليها نهائياً وأسدل عليها الستار فى عام (١٢٨٤هـ) ودفن هذا التراث التاريخى أيضاً فى مقبرة التاريخ^(١) .

(١) ألحق المؤلف المفضل بآخر هذا المبحث شجرة نسب احفاد (بنى أردلان) الذين اشتهروا أخيراً فى إيران بأسرة والى زاده نقلا من كتاب انجليزى يدعى (عشائر ورجال ايران الغربى) طبع سنة (١٩١٨) . فلم نتسكن من ترجمتها ودرجا الآن وارجئناها الى ان تسخ الفرصة لعمل مجموعة انساب لساير الاسر والحكومات المترجم

١٢ - حكومة ملوك الكرد = الكردت (٦٤٣ - ٥٧٨٥)

يرى (كرزن) أن هذه الحكومة أسستها عشيرة (كوردكلى = طائفة الكرد) بسجستان فدامت أيامها من عام (٥٦٤٣ = ١٢٤٥ م) إلى (٧٨٥ = ١٣٨٣) ومن دواعي الأسف أن ليس لدينا معلومات مفصلة وكافية عن أحوال هذه الحكومة. وكل ما نعرف عنها أن هذه الأسرة أو الطائفة القوية نزحت أو اجليت من (كردستان) في وقت غير معلوم. وهذه المعلومات قد اقتبسها كرزى من كتاب (راولنسون) القيم (ج - ١ ص ٢٢٨ هامش)

هذا وقد تعرض كتاب (قاموس الاعلام) التركي لذكر هذه الحكومة فقال، أن هذه الحكومة قامت حوالى القرن السابع والثامن في بلاد هراة والغور وخرجستان وسيستان في عهد الايلخانيين حيث خلف مؤسسها شمس الدين محمد سنة (٦٤٣ هـ) جده لأمه في حكم الغور. وفي عهد الامبراطور منكوقا آن الايلخانى صدر مرسوم سلطاني بالتصديق على حكمه باسناد اماره هراة اليه. فدامت امارته ٣٣ سنة حيث توفي الى رحمة الله سنة (٦٧٦ هـ) في عهد الامبراطور ابقاخان الايلخانى. وكان الامير اداريا حازما وشاعرا مطبوعا، وقد استمر الحكم في اعقابه فترة من الزمن حيث توالى على الحكم من نسله ستة اشخاص. ولما جاء دور الشخص السابع وهو (الملك معز الدين ابو الحسين محمد) اغتنم الفرصة السانحة من انقراض الامبراطورية الايلخانية في ايران فوسع حدود مملكته واعلن استقلاله التام، وقد تولى الحكم بعده هذا الامير ابنه (غياث الدين) بالاستقلال حتى عهد (تيمور) الذى حاصره في هراة حيث قضى عليه وعلى سائر اعضاء أسرته وانتهت أيامه في سنة (٧٨٣ هـ)

وتفصيل ذلك هو أنه بعد أن انتقل شمس الدين محمد المؤسس الأول لهذه الأسرة تولى الحكم ابنه ركن الدين ودام حكمه من سنة (٦٧٦ حتى سنة ٦٩٤ هـ)

ثم خلفه ابنه (نخر الدين) الذي كان سجيناً سبع سنوات في عهد والده ، ثم اطلق سراحه بناء على تدخل ورجاء (الامير نوروز) حيث ذهب بعده لاجئاً الى ساحة (غازان خان) وقد وصل الى الحكم بفضل وهمة الامير نوروز الذي جوزى من نخر الدين هذا جزاءاً سنهار حينما لجأ اليه فراراً من الأمير قتلغ حيث سلمه الى خصمه ، وقد شق عصا الطاعة فترة من الزمن للامبراطور (غازان خان) ثم قاتل أخاه اولجايتو خان ايضاً ، وهكذا امضى ايام حكمه في قتال ونضال مع خصومه وجيرانه مدة اثني عشرة عاماً ، منها عشرة اعوام في حياة والده وعامان بعد وفاته ، حيث ارتحل الى دار الاخرة سنة (٧٠٦ هـ) خلفه اخوه (غياث الدين) وقد جاءه المرسوم الايلخاني بتولية الحكم بالغور وخراسان ، وفي سنة (٧٢١ هـ) حج الى بيت الله الحرام ، وفي عودته توجه الى السلطانية (عاصمة الدولة الايلخانية) وتشرف بمقابلة السلطان ابي سعيد والامير جوبان . ولما توترت العلاقات بين السلطان ابي سعيد وبين الامير جوبان الذي لجأ من جراء ذلك الى غياث الدين هذا ، لم يحافظ غياث الدين على علاقات الصداقة التي كانت بينه وبين الامير جوبان ، بل خانه هو وابنه هلو خان بان قتلهما وارسل جثتيهما الى السلطان ابي سعيد . وهكذا انقضت أيامه بعد أن حكم (٢٢) عاماً واعتلى منصة الحكم بعده ابنه (شمس الدين) الذي كان لا هياً غير ملتفت لشؤون الامارة فلم تدم أيامه اكثر من عشرة شهور حيث قضى نحبه في سنة (٧٣٠ هـ) خلفه اخوه (حافظ) حكم البلاد عامين كاملين . وفي خلال سنة (٧٣٢) تولى الحكم اخوه (معز الدين) الذي هو من اعظم ملوك السكرت . وقد اعلن استقلال امارته التام في سنة (٧٣٦ هـ) حينما ارتحل السلطان ابو سعيد الى دار البقاء فخطب وسك العملة باسمه بخراسان وبلاد الغور . وفي سنة (٧٤٣) حارب السر بدارين وكسر جيوشهم فزاد شأنه وارتفع قدره ، وهكذا حكم البلاد بجلالة قدر وبحزم وادارة عادلة الى أن توفي الى رحمة الله سنة (٧٧١ هـ) وكان العلامة سعد الدين التفتازاني قد ألف كتابه (المطول) الشهير في البلاغة باسم هذا الملك .

هذا وقد تسلم العرش بعد معز الدين هذا ابنه (غياث الدين بير علي)
فصار ثامن الملوك وآخرهم من آل كرت المشهورين بخراسان والغور، حكم مدة
اثني عشرة عاما حيث زحف اليه تيمور بجحافله وحاضره في قلعة هراة ودام
الحصار مدة واشتد القتال ودافع دافع المستميت واخيرا انتهى امره فوقع في
يد تيمور فقتله هو وأقرباءه جميعا وهكذا انتهت حكومة جماعة الكرد
بخراسان ايضا . ١١هـ (١) .

(١) هذه الحكومة التي تسميها بعض المصادر الحديثة بحكومة جماعة الكرد
بخراسان وسيستان ، هي المشهورة في كتب التاريخ القديمة بملوك كرت او (بنى
كرت) نسبة الى لقب مؤسسها (شمس الدين محمد كرت) الذي لقب بكرت
لقطعه صفوف الخوارزمين عند قتاله لهم لان الكرت بالخوارزمية بمعنى القطع
او الشق وقال بعضهم انه بمعنى العظيم والمكرم . والمؤرخون مختلفون ايضا
في ضبط اسم « كرت » هل هو بفتح الاول ام بضمه والمشهور هو الاول
كما ان الاختلاف كبير بين المؤرخين في جنسية هذه الاسرة هل هي ايرانية
(فارسية او كردية او تاجكية) ام تركية وتركمانية . انظر (جامع الدول)
لمنجم باشي (وجهان آرا) لغفاري (ومراة الادوار ومراقبة الاخبار) للاري .
المترجم

١٣ - الحكومة الزندية (١١٦٧ - ١٢٠٢ هـ)

إن الفترة الواقعة في تاريخ إيران بين مقتل « نادر شاه » وبين تأسيس الحكومة القاجارية تلك الفترة التي قاربت نصف قرن كانت مسرحا للفوضى والاضطراب ، اللهم إذا استثنينا منها عهد « كريم خان » .

ولاستعراض الحالة الداخلية في إيران قبل ظهور (كريم خان) يجدر بنا أن نذكر أنه في الوقت الذي عين فيه (احمد خان) رئيسا للحملة المنوط بها إعادة الأمن والطمأنينة واستئصال بذور الفتنة والاضطرابات في إقليم خراسان ، كان (محمد حسين خان) رئيس عشيرة القجر التركمانية ، قد وطد مركزه في (استرآباد) وأخضع لسلطانه ونفوذه كافة بلاد (مازندران) أيضا . وكان (نادر شاه) قد عمد إلى قتل (فتح علي خان) والد (محمد حسين خان) وهذا ما أوجر صدور أبناء العشيرة القجرية وجعلهم يصبون جام غضبهم ونقمتهم على أحفاد (نادر شاه) وأتباعه . وقد جرد (أحمد خان) حملة عسكرية - عباها من الأفغانين - على (مازندران) خشية أن يسبقه (محمد حسين خان) فيفسد عليه الأمر ، بيد أن هذه الحملة قد حاق بها الفشل الذريع والخسران المبين ، وهكذا اتسع نفوذ رئيس قبيلة القجر ، وعلا شأنه وبرزت قدرته الفائقة واضحة لكل ذي عينين .

وكانت ولاية (آذريجان) في هذه الآونة ، يحكمها (أسد خان) الأفغاني ، وكان يبسط سلطانه على ولاية (كيلان) أحد الرؤساء المحليين المدعو (هدايت خان) الذي أعلن استقلاله التام ، وهكذا كان الحال في (كرجستان) التي كانت خاضعة لجنرال مسيحي من جنرالات (نادر شاه) وكان يدعى (هراقايوس) . ويبدو أن هذا هو الآخر كان طامعا في الاستقلال .

وفي هذا الوقت الذي كان فيه شمالي إيران يغلي بالمرجل ، وتكتنفه

الاضطرابات والقلاقل من كل جانب، كان (علي مردان خان) — وهو أحد رؤساء العشيرة البختيارية الكردية — قد زحف إلى (أصفهان) وانتزعها من واليها (أبو الفتح خان) الذي كان واليا عليها من قبل شاهرخ ، ونصب عليها واليا من سلالة الصفويين لاجتذاب قلوب الأهالي في هذه العاصمة الكبيرة ، واستمالهم اليه . إلا أن هذا الاجراء السياسي لم يكن كفيلا بإتمام تلك المهمة الكبرى التي أقدم على تحقيقها دون أن يلقي تعضيدا فعالا أو مساعدة جدية من القواد والأمراء الآخرين من أمثال « كريم خان الزند » الذي لم يكن سليل أسرة كبيرة معروفة (١) ولا من القواد أو الأمراء في جيش « نادر شاه » إلا أنه كان يتحلى بأخلاق فاضلة وبسالة نادرة .

ويقول المؤرخون أن « كريم خان » إنما كان على اتفاق مع « علي مردان خان » منذ البداية، ولا سيما فيما يتعلق بمسألة تنصيب حاكم من سلالة نادر شاه على رأس الحكومة كما استقر بينهما الرأي وقتذاك ، على أن يكون أحدهما وزيرا إلى جانب الأمير الصفوي في حين يصبح ثانيهما سردارا للجيش . وتقول بعض مصادر أخرى أن (كريم خان) لم يكن يفكر ، بل وما دار بخلفه قط أن يكون على قدم المساواة مع « علي مردان خان » في النفوذ والسلطان بل كل ما كان يرنو إليه هو أن يكون خلفا له بعد وفاته حيث كان هذا الرئيس البختياري طاعنا في السن ولا ذرية له .

ولقد أمعن وتمادى « علي مردان خان » بعد استيلائه على أصفهان ، في العسف والطغيان ، وانزال صنوف الظلم بالأهلين ، ولكن « كريم خان »

(١) ويؤخذ من الرايات الشائعة في نواح « خوى » ، أن كريم خان كان ابن شقى خطير من أشقياء تلك الجهات كان يدعى « إيماك » وما زال اسم جده مجهولا . المؤلف .

قد حال دون تسرب هذه المظالم وامتداد ذلك العسف إلى منطقة « جلفا »، التي كان يحتلها هو شخصيا ، فدافع دفاعا مجيدا ، أكسبه احترام الجميع حيث أسرهم بعظيم نبله وكريم فضله ، وكان معظم القاطنين في تلك المنطقة من المسيحيين الذين غمرهم « كريم خان » بعدله المطلق وأرضاهم بالابتعاد عن التعصب المذهبي والديني ، ذلك الأمر الذي أفضى - بعد أمد وجيز - إلى حقد « علي مردان خان » عليه ، والغيرة منه ، وتحرك عوامل الحسد والتنافس والبغضاء بينهما ، وقد بيت علي مردان خان في دخيلة نفسه أمرا وهو العمل على إبعاد « كريم خان » عن منطقته ، حتى يتسنى له اضطهاد الأهليين في تلك الجهة ، ولكن الأهالي كانوا على بينة من الأمر ، وعالمين بالنية المبيتة نحوهم وقد أقدم - من ناحية أخرى - علي قتل والي « أصفهان » الذي كان قتله نذيرا بأن الجناية التالية لا بد وأن تكون مقتل (كريمخان) .

وقصارى القول ان الوسوس والأوهم التي سيطرت على أفكار « علي مردان خان » وما تملكه من غيرة شديدة ممن حسبهم منافسين له قد أدت في النهاية إلى امتشاق الحسام بين الصديقين المتآخيين ، فوقف كريمخان ومن معه من حلفاء وأنصار موقفا حازما ضد علي مردان خان وأعلنوا عليه حربا لا هوادة فيها وحدثت مصادمات عديدة بين الفريقين لقي (علي مردان خان) حتفه خلالها ، قتله قائد يدعى محمد خان ، وكان ذلك في عام (١١٦٠) للهجرة (١٧٥٣ م) وهكذا خلت بلدان ايران الجنوبية من منافس عنيد شديد لكريم خان .

ومع ذلك فقد كان لزاما عليه -- قبل أن يحاول بسط نفوذه على هذه البلاد -- أن يستأصل شأفة عدة خصوم ألداء آخرين حتى يتمكن من انفاذ أمره فيها . وكان أغلبية جيش كريمخان تتألف من عشيرة (لك) التي كانت على كامل الاستعداد لحكم ايران بفضل بسالتها وقوة شكيمة رجالها . وكانت

(الزند) فرقة من هذه العشيرة . وأما أبناء المدن الإيرانية وسكانها فكانوا يميلون أيضا إلى جانب « كرىمخان » لما جبل عليه وما أُرْعنه من تحقيق العدالة والمساواة والحزم في إدارة شئون البلاد دون محاباة ، وكانت العشائر العربية في إيران هي الأخرى مع « كرىمخان » قلبا وقالبا ، كما أن نفس العشائر التركية التي كانت تقف إلى جانب خصمه وتنتصر له ، قد كانت تنظر إلى أعمال كرىمخان نظرة إعجاب ورضى .

(١) عهد كرىمخان

سبق أن ذكرنا أنه بعد مقتل (مردان خان) لم يبق أمام (كرىمخان) من ينافسه ويناصبه العداء ، اللهم إلا (أسد خان) الأفغانى و (محمد حسين خان القجرى) فعقد (كرىمخان) العزم على التخلص من كاهيهما . وما لبث أن بدأ بالزحف على أسد خان ، واشتبك معه فى قتال عنيف على مقربة من قزوین ولكن الحظ قد تنكر له ، والنصر قد جانبه ، ففى هزيمة منكرة أرغمته على رفع الحصار عن أصفهان والتخلى عن شیراز كذلك . ثم انسحب مضطرا - بعد أن حاقت به الهزيمة - إلى الجبال الممتدة بين إقليم (فارس) وبين الخليج الفارسى على مقربة من وادى نهر (كرمىير) وأضحى فى موقف عصيب لا يحسد عليه .

ولكن (رستم سلطان) زعيم قرية خشت - كانت قرية صغيرة على حافة جبل مشرف على وادى نهر كرمىير - قد قام بإسداء خدمة جليلة لكرىمخان بأن انقض بغتة على « أسد خان » فى مضيق جبلى صعب المنال يطلق عليه كوماريج ، وشن عليه هجوما عنيفا ، وألحق به هزيمة منكرة فى الوقت الذى كان كرىمخان قد تحفز فيه للقتال بجيشه الرابض فى وادى (كرمىير) السالف الذكر . وما لبث أن استقبل هذا الجيش المتعطش للقتال والنزال عدوه

المقهور الفار من وجه (رستم سلطان) بتسديد ضربات قاصمة إلى قلوب رجاله ثم دارت بين الفريقين رحى معركة طاحنة إلى جوار قرية خشت السالفة الذكر ؛ أسفرت عن هزيمة منكرة وخذلان مبين لأعداء (كريمخان) الذي أحرز نصرا مؤزرا لا مثيل له في التاريخ ، ولقد أمعن فريق من الجيش المنتصر ورجال العشائر القاطنة في تلك البقاع في مطاردة فلول جيش العدو المقهور حتى أشرفوا على أبواب شيراز فدخلوها فاتحين. أما «أسد خان» فلم يجرؤ بعد ذلك على الظهور أمام خصمه أو التصدى له كما أنه قد لبس الهزيمة صاغرا ، وخذل خذلانا مبينا أمام خصمه الآخر (محمد حسين خان) فلاذ بالفرار ، ولجأ إلى بغداد فاستقبله واليها بحفاوة بالغة وأكرم وفادته - ولكنه لم يقدم إليه المساعدة التي كان يصبو إليها كي يسترد سيادته وسلطانه على بلاده التي افتقدها ، فلم يجد مندوحة من طرق باب آخر عله يجد ضالته ، و يعثر على من يحقق له أحلامه وأمانيه . فكان أن لجأ إلى الجنرال (هراقليوس) والي (كرجستان) وطلب مساعدته ولكنه لم يعره التفاتة ولم يجبه إلى طلبته ، الأمر الذي اضطره أخيرا إلى الارتقاء في أحضان خصمه (كريمخان) الذي أكرم وفادته ، واحتفى به حفاوة بالغة . وسرعان ما أضحي موضع ثقة كريمخان وأخلص صديق له بين رجاله إذا أسند إليه أرفع مناصب الدولة وأسمائها وهكذا انقلب ذلك العدو الشديد المراس إلى صديق حميم قوى الشكيمة .

بهذا لم يبق هنالك من أعداء يهددون كيان دولة (كريمخان) إلا عدو واحد شديد البأس قوى المراس ، ألا وهو (محمد حسين خان) رئيس عشيرة القبجر التركية التي أتى بها (تيمورلنك) من (سورية) وأنزلها بایران ، وهي إحدى العشائر السبع التي أوصلت الشاه (اسماعيل الأول) إلى كرسي الحكم . ولما دانت الأمور لسكريمخان ، واستقرت الأحوال في فارس ، وخضعت له كافة البلدان ، وبعد أن أفاد من الحروب التي نشبت بين (محمد حسين خان)

وبين (أسدخان) ، لم يكتف بسط سلطانه على بلاد فارس وحدها بل مد نفوذه إلى بلاد (أصفهان) وشطر من إقليم العراق العجمي ؛ بيد أنه لم يمتص على ذلك طويلا وقت حتى وجد (كريمخان) نفسه مضطرا إلى التخلي عن أكثر هذه البلدان التي كان قد بسط سلطانه عليها . وسبب ذلك أن (محمد حسين خان) بعد أن هزم (أسدخان) ، وضم بلاد (آذربيجان) إلى بلاده توجه بجيش كبير لم يتحرك جيش يماثله منذ عهد (نادرشاه) صوب (أصفهان) فحاول (كريمخان) - دون جدوى - رد هذا الجيش عن (أصفهان) ... ولما رأى أن محاولاته اليائسة التي بذلها ذهبت أدراج الرياح وأن جميع جهوده قد ضاعت سدى ، اضطر إلى التخلي عن (أصفهان) والعودة إلى (شيراز) حيث اتخذها قاعدة للدفاع .

أما (محمد حسين خان) فبعد أن اتخذ أهبطه وأعد العدة للنزال والقتال ، تقدم بجيش عرمرم قوامه ثمانية وثلاثون ألف مقاتل نحو (شيراز) لالقاء الحصار عليها تاركاً في (أصفهان) فريقاً من هذا الجيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل ، وقد وصل إلى حدود (شيراز) في وقت كانت فيه كل العوامل متوافرة والظروف مواتية للمهاجمين ؛ غير أنه قد فوجئ بهجوم عنيف في سنة (١١٧٠هـ / ١٧٥٧م) وذلك قبل أن يحيط بحاله ويثبت مدافعه على قواعدها ؛ إذ قام (شيخ علي خان) الذي كان أحد رؤساء عشيرة الزند ، بهجوم مفاجئ على مؤخرة جيشه وأصاب عتاده ؛ ولقد شد أزره في هذا الهجوم المباغت أهالي تلك المنطقة الذين كانوا قد نقلوا أطفالهم ونساءهم إلى الجبال المحيطة بهم . وأدى هذا الهجوم المباغت إلى انتشار الذعر والاضطراب وتفشى الفوضى بين صفوف جيش (محمد حسين خان) فضلا عن انقطاع الميرة عنه ، أضف إلى ذلك أن مدة الحصار قد استطالت ، وأن الجيش كان جنوده مزيجاً غريباً من عناصر متباينة لا انسجام بينها ، وكانت سلطة رؤساء الجيش لا تستند إلا على مجرد القوة ؛ فضلا عن أن فريقاً من هذا الجيش كان حديث العهد بالتدريب العسكري

في حين كان فريق آخر منه من فلول جيش (أسدخان) الذين كانوا منذ بضعة أشهر في قتال مع جيش (محمد حسين خان) .

وفي تلك الأثناء كان الجنود السكرج والسبكاري، وهم طائفة من جنود (كريمخان) يلاحون ويمنعون في مضايقة المحاصرين ، ولم يكن كل همهم موجهاً نحو الدفاع عن المدينة فحسب بل كانوا يهرعون إلى خارجها حيث ينقضون على المحاصرين انقضاض الصاعقة فيشتتون شملهم ، ويلقون الرعب والذعر بين صفوفهم ، وما تركوا فرصة لمناوأة المحاصرين تمر إلا وقد انتهزوها . وسرعان ما ساءت الحال وتخرجت في جيش (محمد حسين خان) وأخذ رجاله في التفرق شذراً مذبذباً ، مما اضطر رئيس القجر إلى العدول عن حصار المدينة ، وفعلاً أفلح عن (شيراز) ، وعاد سرا إلى (أصفهان) تاركاً بعض القوات حول (شيراز) لمواصلة الحصار ، غير أن رجال هذه القوات سرعان ما تفرق شملهم ، ولم يستطع (محمد حسين خان) الصمود في (أصفهان) فعاد منها إلى (مازندران) على رأس جيش متخاذل ، خائر القوى ، محطم الروح المعنوية لا يربو على اثني عشرة ألف مقاتل .

وفي عام (١١٧٠) للهجرة (١٧٥١ م) زحف (كريمخان) على (أصفهان) بعد أن أعد العدة والعتاد ، وبعد أن نظم شؤنه ووطد مركزه في بلاد فارس فقبول من أهالي أصفهان بكل حفاوة وترحاب ، وأكرموا وفادته ، وعمهم السرور وابتهجوا ببلقائه ، وهكذا قوبل في أغلب مدن العراق العجمي بالترحاب .

وكان (كريمخان) في حاجة قصوى إلى ضرورة إحراز انتصارات حاسمة كي يستعيد نفوذه ، ويسترد شوكرته . حقاً إنه قد أحرز النصر في بعض الحروب التي خاض غمارها ، ولكنه مني بفشل ذريع في البعض الآخر ولم يكن الفوز يحالفه في حومة الوغى إلا ما ندر ، غير أن احترام الأهالي

لأسيما سكان، المدن واستقبالهم الرائع له قد خلق فيه من الضعف قوة، وأدى به إلى النجاح والفوز في تحقيق غايته النبيلة، ألا وهي إقامة حكومة عادلة تشعر بشعور الناس، وتتعرف مطالبهم وحاجياتهم. ولقد انصرف كريمخان بأدىء ذى بدء إلى توطيد النظام وتنظيم شئون البلاد التي انضمت إلى حوزته طواعية وبمحض إرادتها ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لتجريد حملة عسكرية ألّفها من صفوفه رجاله وأسند قيادتها إلى (شيخ على خان) وكان هدف هذه التجربة بلاد (مازندران) لتسكّره (محمد حسين خان) على المبادرة بالتسليم نهائيا وتقديم فروض الولاء والطاعة له... ولكي يتحقق هذا الهدف كان لا بد من بذر بذور الشقاق والفرقة بين صفوف العشيرة القجرية. إذ كانت هذه العشيرة الباسلة متفرعة إلى ثلاث أقسام كبيرة: يقيم القسم الأول منها في نواحي بلاد (كنجه) ويقطن الثاني في أطراف (المرو) في حدود خراسان اصد عادية الأزبك من بلاد إيران، في حين كان يسكن القسم الثالث بلاد (استرأباد) على أن هذه الثلاثة أقسام كانت تخضع كلها عادة لأسرتين كبيرتين وقد انفردت إحدهما إلى حين ببسط سلطانها ونفوذها على هذه الأقسام الأمر الذى أدى إلى بذر بذور الشقاق واشتداد هيب التنافس بين الأسرتين وقد اتسعت هوة الشقاق على أثر تدخل كريمخان في الأمر وتشجيعه الأسرة الثانية على استرداد نفوذها على العشيرة ومنازلة خصمه (محمد حسين خان) رئيس العشيرة «ومن المصادفات العجيبة أن أحد قسمي هذه العشيرة كان يرأسه رجل يدعى (محمد حسين خان) أيضا. وكان هذا القسم يسمى (يوخارى باش — الرأس الأعلى). وقد أدى التنافس المستمر بين هذين الخصمين (محمد حسين خان) رئيس العشيرة و (محمد حسين خان) رئيس أحد أقسام العشيرة إلى انضمام الأخير إلى صفوف جيش (شيخ على خان). فتسرب الضعف إلى نفس خصم كريمخان، ومع ذلك فقد اضطر لمنازلة (شيخ على

خان (بقوة متخاذلة قليلة العدد ، وسرعان ما تألب عليه فريق من هذه القوة فترك الميدان ، ثم ما لبث أن وقع هو بنفسه أسيرا . (١) وقد نتج عن هذا الانتصار الباهر في مازندران دخول كيلان ومعظم بلاد آذربيجان في حوزة كريمخان . غير أن بلاد آذربيجان هذه لم تبقى في حوزته إلا فترة وجيزة إذ استولى عليها (فتح على خان) رئيس عشيرة الأفشار الذي كان ديدنه الوقوف إلى جانب أعداء كريمخان في معظم الأحوال ، ولكنه في هذه المرة قد أعلن الحرب جهارا على كريمخان ، واشتبك معه في قتال عنيف في مكان يقال له (قره جيمن) جنوبي (تبريز) حيث حاقت به هزيمة منكرة لجأ على أثرها إلى قلعة (أرمية) (٢) وألقى عليها الحصار بضعة أشهر ، ولما أيقن أنه ليس في مقدوره الثبات على قدميه ومداومة الحصار لجأ إلى كريمخان فعفا عنه في سنة (١١٧٣ هـ ١٧٦٠ م) .

هذا . وكان (فتح على خان) قد اتصل قبل التسليم ببعض القواد والزعماء من رجال (كريمخان) ليشجعهم على خيانة سيدهم ومولاهم . ولما اكتشف أسرار هذه المؤامرة الدنيئة لاقى (فتح على خان) جزاءه وأبعد عدد من الزعماء والقواد الذين حامت حولهم الشبهات عن مناصبهم . ويقول المؤرخون الإيرانيون ان القائد الشهير (شيخ على خان) قد أعدم بسبب هذه المؤامرة ولكن هذا القول مازال يفتقر إلى التأيد .

(١) وقد توجه أولاد (محمد حسين خان) هذا إلى تركستان ، ثم عادوا بعد أربعة أعوام إلى بلاط كريمخان فأكرم وفادتهم وأسند اليهم مناصب عالية وكان (آقا محمد خان) وهو اكبر أبنائه سبب انقراض أسرة (كريمخان) الزندية فيما بعد .

(٢) يطلق (استرابو) على هذه المدينة اسم (ثبارما Theparma) ويظن أن زرادشت ولد فيها .
المؤلف

ولقد لقي (كريمخان) في جميع حروبه ومعاركه في سبيل الحكم والسلطان تعظيماً ملموساً ومساعدة تامة من العشائر العربية العنارية حول الخليج الفارسي لدرجة أن بعض القوات العربية قد صحبته ولازمته حتى بلاد (أصفهان) . فلاغرو أن كانت الصلة بينه وبين تلك العشائر متينة ، كما كانت علاقته بها على أحسن مايرام ، ولم يحدث أن جرد عليهم حملات تأديبية ، اللهم إلا في أحوال نادرة كحالة الامتناع عن دفع المال ، أو رفع راية العصيان ، كما حدث من قبل الأمير (موحاننا) أمير بندر (ريغ)^(١) الذي أقدم على قطع الطريق بين (شيراز) وبين بندر (بوشهر) . إذ كان كريمخان شديد الوطاسة على مثل هؤلاء . ولما حدث مثل هذا من قبل شيخ عشيرة السكعب المدعو الشيخ سليمان اضطر كريمخان إلى الزحف عليه بجيش جرار لتأديبه وإيقافه عند حده ، فما كان من هذا التأثير إلا أن لاذبالفرار ، ولجأ على ظهر سفينة إلى إحدى الجزر القريبة . هذا ، وقد كان (زكي خان)^(٢) مصدر قلق لحكومة (كريمخان) في معظم الأوقات لما جبل عليه من القسوة المريرة والشدة المتناهية في الحروب والقتال مما لا يتسق ولا يتفق وسياسة (كريمخان) الرشيدة ، وكان هذا هو السر في حدوث التصادم والتشاحن بينهما في أغلب الأحيان . وقد حدث ذات مرة أن شق (زكي خان) هذا ، عصا الطاعة على أخيه ، فقصد وفي معيته بعض الأمراء والقواد إلى عشيرة الفيلي ليستعين بها ، ولتشدد أزره على إثارة الفتن والقتال وإشعال نيران الثورات ضد أخيه . ولكن محاولاته هذه قد باءت

(١) يقع بندر « ريغ » هذا على مسافة نصف درجة من شمال غربي بندر (بوشهر) .

(٢) الشائع المظنون أنه أخو كريمخان . وفي الحق أنه كان ابن عمه وإخاه لأمه وكان له ماعداً زكي خان أخ لأمه يدعى اسكندر خان واخت لأمه . أي كانوا جميعهم من أم واحدة وليسوا من أب واحد . المؤلف

بالفشل وضاعت سدى ، الأمر الذى اضطره إلى أن يعود ويرتقى تحت قدمى أخيه ، يطلب الصفح ويلتمس المغفرة على ما فرط منه ، فعفا عنه أخوه ، وأسند إليه منصبا ملائما . ثم مالبث أن أوفده إلى (دامغان) (١) لتأديب جيش (قلى خان القجرى) الذى كان يعيث بين أرجائها فسادا ، وقد تسنى له بسرعة البرق القضاء على الفتنة فى مهدها ، وإطفاء لهيب ثورة هذا العاصى القوى الشكيمة . واضطره إلى الفرار حيث لجأ إلى التركمان واحتفى بهم . وفى الواقع كان استخدام القسوة واتباع الشدة من قبل (زكى خان) فى إخماد الثورات خدمة كبرى للأمن العام فى أغلب الظروف ، لأن حلم (كريمخان) وعدله كانا قد شجعا بعض الرؤساء والقواد على إشعال نيران الثورات دون مبالاة بالعواقب لما يعلمونه من أن العفو والحلم والمغفرة من شيم كريمخان ، ولكن الناس قد اقتنعوا وأيقنوا أخيرا أن إخماد لهيب الثورات لا يمكن أن يعالج بحلم كريمخان وليوثته بل يعالج بقسوة (زكى خان) وغلظته ، وليت الثورات كانت قاصرة على بلاد دامغان فقط ، بل اندلعت نيرانها فى مازندران ، وفى عدة جهات أخرى ولكنها سرعان ما أخمدت جميعها بقسوة بالغة ، لدرجة أن جماعات الثوار كانت تلوذ بالفرار قبل وصول الحملات التأديبية .

وهكذا استطاع زكى خان بفضل شدته المتناهية وإدارته العسكرية الحازمة تطهير إيران من العصاة الطغاة ، وهىأ لها حياة سلمية مطمئنة ظلت ترتع فى ظلالها طيلة أيام كريمخان الأخيرة . ولقد قنع كريمخان واكتفى بلقب وكيلى الشاه ، ولم يطمع فى مركز الشاه اسماعيل بن أخت الشاه حسين الصفوى ، البالغ من العمر وقتذاك تسع سنوات . وقد ولى شأها من قبل على مردان خان . وأكثر من ذلك فقد حافظ على مركز هذا الشاه الصبي متخذاً شيراز عاصمة للبلاد

(١) موطن الاسرة البارثية (اشكان)
(٢٠ — م)

وأقام فيها إلى جانب الشاه تاركا قيادة الجند وإدارة دفة الشؤون العامة للقواد
والأمراء من رجاله . وما لبث أن حشد جيشا جرارا ، وأسند قيادته إلى أخيه
(صادق خان) . وبعث به لالقاء الحصار على (البصرة) . ومن المحتمل أنه
قد أقدم على هذا العمل اقتداء منه بسائر الحكومات الإيرانية السابقة ، لمجرد
تأمين السلام ونشر لوائه في داخلية البلاد بشغلها بالحروب الخارجية ضد الترك
الذين لاشك في أن قتالهم كان لا بد أن يستثير نخوة الأهالي وحميتهم ، ويستميلهم
نحوه ، ويحتذب قلوبهم إليه ؛ إذ كان يعلم تمام العلم بأن ليس هنالك من عوامل
وأسباب تحمل الشيعيين وترغمهم على تجنب المنازعات الداخلية وطرحها
جانبا وتجمعهم حول فكرة واحدة سوى العمل على استرداد الأماكن
المقدسة الشيعية التي كان الترك يسيطرون عليها . ولهذا كان الاستيلاء على
(العراق العربي) هو الهدف الأسمى لسكرتيمخان ، وقد بدأ يمهّد لتحقيق هذا
الهدف بأن تعمد اتهام (عمر باشا) وإلى بغداد لدى حكومته بأسطنبول
ورماه بالتحامل على الإيرانيين ، بدليل فرضه رسوما مالية على الزوار
الإيرانيين للأماكن المقدسة الإيرانية ، وكانت الحكومة العثمانية قد رفضت
دعوى الإيرانيين هذه ، ولم تعرها التفاتة ولا آذانا صاغية ، فما كان من
الحكومة الإيرانية إلا أن أصدرت أوامرها إلى (صادق خان) بالزحف
صوب البصرة ، فسار إليها عن طريق ساحل الخليج الفارسي على رأس جيش
قوامه خمسون ألف مقاتل ، وأسطول من ثلاثين سفينة خفيفة كانت قد أعدت
في ميناءى (بوشهر) و (ريغ) للعمل إلى جانب الجيش . وكان للدولة العثمانية
بعض سفن حربية راسية في ميناء البصرة ، ولكنها كانت قديمة بالية قد تسرب
إليها العطب ، لا تصلح للعمل ، ولا قبل لها بمقاومة أسطول (صادق خان) القوي
وبمجرد أن سيطر جيش (صادق خان) على شط العرب ، بادر إلى إقامة
جسر من الأرمات والأطواف على هذا النهر ، وبذلك تمسكن هو وجيشه
من الانتقال إلى الضفة اليمنى للنهر بعبور هذا الجسر ، وشرع في إلقاء الحصار

على البصرة وكانت (البصرة) مدينة كبرى ، تشتمل على حدائق واسعة غناء ، ويسكنها زهاء خمسين ألفا من السكان ، وكان عدد رجال الحامية يفوق ربع عدد السكان . وكان (سليمان أغا) حاكم المدينة رجلا عسكريا ماهرا ، ومحبويا من جنوده ومن مرؤسيه . وكانت أسوار المدينة عالية ومرتفعة ، إلا أنها لم تكن محكمة تمام الاحكام ، وكان خط الدفاع لا يعدو عدة حصون نصب عليها ما يقرب من مائة مدفع .

بدأ إلقاء الحصار على البصرة في شتاء سنة (١١٨٩ هـ - ١٧٧٥ م) . وتقدم الجيش الإيراني إلى الأمام فأمرت الحكومة العثمانية ولاية (وان) و (الموصل) و (ديار بكر) و (حلب) و (الشام) — بتعبئة جيوشهم ، والاحتشاد في (بغداد) .

وكان هؤلاء الولاية يضمرون خلاف ما يظهرون ، فقد تظاهروا بأن القصد من ذهابهم إلى بغداد إن هو إلا القيام مع واليها وجيشها بنجدة الحامية العثمانية في البصرة ، ولسكنهم ما كادوا يصلون إلى بغداد حتى اغتالوا واليها (عمر باشا) إرضاء لملك إيران ، وعلى أثر اغتياله أوفدوا هيئة رسمية إلى (شيراز) لتعرض على مسامع (كريمخان) الرغبة الصادقة في الكف عن القتال ، ووضع حد لهذه الحرب المستعرة ، ما دام الباعث على قيامها واندلاع لهيها هو والي (عمر باشا) قد قتل ، وتحققت بذلك رغبة الشاه ، ولكن الشاه قد قلب لهم ظهر المجن ، ولم يجهم إلى طلبتهم ، بل أراد أن يستغل هذا الضعف العثماني ، وظل يحارب حتى اضطر حاكم البصرة العثماني إلى المبادرة بالتسليم دون قيد أو شرط بعد حصار دام ثلاثة عشر شهرا ، نفذ خلالها الزاد والذخيرة ، وانتشر البؤس والشقاء بين الأهليين وبين جنود الحامية . وكان ذلك في شهر يونيو سنة (١١٩٠ هـ - ١٧٧٦ م) .

وقد أرسل الحاكم وأقطاب معيته إلى (شيراز) مشيعين بكل تجلة واحترام وأحسن (صادق خان) معاملة أهالي البصرة ، وأسبغ عليهم من مزيد كرمه

وفضله، ونصب أحد رجاله المدعو (على محمود خان) حاكماً عسكرياً عليها، ثم عاد هو بعد ذلك إلى (شيراز).

وحدث أن اندلع لهيب فتنة بين عشيرتين من عشائر (البصرة) فسارع (على محمود خان) بالتدخل بينهما دون أن يعد للوقوف عدته فهاقت به هزيمة منكرة، وعرض نفسه لخسارة جسيمة، وذهب القائد الإيراني ضحية هذه الفتنة الجائحة. وما أن طرقت هذه الأنباء المفجعة المثيرة مسامع (صادق خان) حتى بادر بالحضور إلى البصرة وعالج الأمر بالحسنى والسياسة والحكمة، بفضل ما جبل عليه من دماثة الخلق، وحسن المعاملة، وسرعان ما عادت الأمور سيرتها الأولى، ورفرف السلام والوثام على ربوع المدينة، وظل الأمن مستتباً حتى وفاة (كريمخان). ثم غادر (صادق خان) البصرة بسبب عوامل شخصية فانهز إلى (بغداد) هذه الفرصة الذهبية، وسارع بالزحف على البصرة حيث استردها بكل سهولة.

كانت أوروبا لا توجه أهمية تذكر لتجارة إيران قبل حكم (كريمخان) بسبب اضطراب الأمور الداخلية وتزعزع الأمن وانتشار القلاقل والفتن في أرجائها.. فلها ولي (كريمخان) الحكم وقضى على هذا الاضطراب قضاء مبرماً، واستأصل شأفة مثيري الفتن والقلاقل، سادت الطمأنينة ورفرفت على أنحاء البلاد، فتقدمت التجارة الداخلية وكذا الزراعة، إذ كان هذا الملك الهمام لا يألو جهداً في تشجيع أرباب الصناعات - حتى الأرمن منهم - في بلاده وحثهم على تحسين صناعاتهم والعمل على ترقيتها، كما عمل على حماية التجارة، فعم الرخاء، وانتشر لواء السلام والطمأنينة في أواخر أيام حكمه العادل في كافة أنحاء إيران، وكان الممولون من أصحاب الأملاك والزراع لا يمدون الحكومة إلا بقسط ضئيل، ولسكنهم كانوا يقدمون عن طيب خاطر ما يطلب إليهم دفعه أكثر من ذلك. وكانت طبقة ذوى الأملاك هذه تكاد

أن تكون مستقلة في كل شئونها وأمورها، وكانت ترفل في حلال من السعادة والهناء في ظل حكم (كريمخان) العادل الذي كان يؤثر هذه الطبقة بالتعزيد والمساعدة .

ولقد شملت هذه النهضة المباركة جميع مدن إيران في عهد هذا المجدد ، إلا أن شیراز قد نالت من هذه النهضة نصيب الأسد ، ويلوح أن كريمخان قد اتخذ هذه المدينة عاصمة لملكه لأنها كانت على مقربة من مواطن عشيرته ، فضلا عن تعلق أهاليها به . ولقد بذل جهودا جبارة في تحصينها وتزيينها وذلك بإقامة الطوائف ، وتشديد القلاع حولها ، وبناء القصور ، والدور العامة بها ، وغرس الأشجار والزهور ، وإنشاء الحدائق الغناء حولها ، وكل هذا إلى جانب عمله المتواصل على تأمين الأهالي وتوفير أسباب السعادة والرفاهة لهم .

وقد صور لنا مؤرخ إيراني ^(١) هذه الأيام الذهبية الوضاعة من أيام كريمخان فقال : (إن النور الباهر الذي أوجده كريمخان قد أضاء جميع بلاد إيران إلا أن قوة إشعاعه كانت محسوسة في (شیراز) أكثر من غيرها ، ولهذا كان سكان هذه المدينة المحظوظة في بحبوحة من الطمأنينة والسلام ، وفي فيض من السعادة والرفاهة ، والناس يمشون أوقاتهم في هناء دائم وصفاء مقيم بين بنات حسان كالآقمار ، وغلبان كاللؤلؤ والمرجان ، فكان هاتف الذوق والشوق والحب والعشق يطوف على رموس الجميع ، كل على قدره من الحياة ، ونصيبه ومركزه في المجتمع) .

وقد توفي كريمخان إلى رحمة الله في اليوم الثالث عشر من شهر صفر من عام ١١٩٣ للهجرة (١٧٧٩ م) ^(٢) عن ثمانين عاما ، فقد حكم إيران ثمانية

(١) هو « علي رضا » صاحب تاريخ الأسرة الزندية . المؤلف
(٢) ذكر في « تاريخ السرجون ملكولم » أنه دفن في شیراز وأنه بعد قيام الحكومة القجرية عمد آقا محمود خان السفاك إلى استخراج عظامه =

وعشرين عاما مستقلا تمام الاستقلال دون منازع، ولا سيما في العشرين سنة
الآخيرة من حكمه التي كان خلالها منفردا بالحكم والسلطان في ايران
بأجمعها (١).

« أخلاقه وسجاياه »

ليس من السهل تصوير سجايا هذا الملك الفذ ، وما جبل عليه من حميد
الخصال إذ كان يجمع بين صفات الملك المستبد، وخصال الملك العادل الذي
يقدر الشورى ويؤمن بها ، فلم يكن حليما لدرجة الضعف والانقياد الأعمى
لمن حوله ، ولا بالشديد الصلب لدرجة الطغيان وفرض إرادته وأهوائه على
الغير . بل كان معتدلا في غير إفراط، ومتساحا في غير تفريط ، وكان صائب
الرأى ، حكيما في تصرفاته . وقد لازمه كل ذلك في جميع أدوار حياته مما جعله
يحتفظ بوقاره ويصون عليه كرامته وذكره العاطرة لدى الجميع . وهذا لا يمنع
من أنه كان في بعض الأحيان يصدر أمره بتوقيع عقوبات صارمة على من
يستحقها ، شأنه في ذلك شأن كل الحكام . ولكنه كان يكل إلى الآخرين
تنفيذ تلك العقوبات الصارمة التي تخالف طبعه ، وهكذا كان يوقع الرعب
والهلع في قلوب خصومه من الأعداء ومن الثوار العصاة ، بيد أن رحمته

= من القير ، وكذا عظام نادر شاه ، أحضرها من المشهد ودفنها جميعها في
عتبة باب سرايه ليطأها بقدميه كل يوم ذهابا وإيابا . المؤلف

(١) يقول البعض انه توفي عن خمسة وسبعين عاما ، وقال آخرون عن
سنة وثمانين عاما ، ولكن الراجح هو ما ورد في المتن ، غير أنه من المحتمل
جدا أن كريمخان نفسه كان لا يعرف تاريخ ميلاده إذ لم تجر العادة وقتذاك
بتسجيل المواليد بين العشائر . المؤلف

كانت تظفي دائماً على قسوته ، حين يلجأ إلى رحابه أعدى أعدائه فما يلبث أن يمنحه عفوه بلا تردد .

ومن أبرز صفاته الحميدة أنه كان طيب السريرة عاطر السيرة ، وإن تاريخ حياته لسجل عامر ومليء بالحوادث الطريفة ، والقصص العجيبة المسلية ، فكان مثلاً يحتذى في الشهامة والجرأة ، يبادر إلى العفو والتسامح في غير ما تردد ، يعتمد على أولئك الذين يمنحهم عفوه ، الاعتماد كله ويجعلهم أسرى إحسانه فيغدق عليهم من فيض كرمه وسابغ عطفه دون فارق أو تمييز . وكان متمسكاً بقواعد الدين وأوامره غاية التمسك ولكن في غير ما تعصب ، وكان هاشا باشا بهي الطلعة ، ممتعا بمباهج الحياة الدنيا وطيباتها في اعتدال ووقار واحتشام تلك الطيبات التي يجب أن يتمتع بها الناس جميعاً ولكن في غير ما إسراف . ولم تؤثر هذه المتعة في مركزه كحاكم عادل وإداري حازم .

وكان كريمخان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، إذ يلوح أنه لم يذهب إلى الكتاب لا في طفولته ولا في شرح شبابه ، بل وما رعب أيضاً في الذهاب إليه حين كبر سنه . وهو ابن رئيس عشيرة جبيلية^(١) لا تعرف من نواميس الحياة ومجرياتها وتطوراتها سوى ما يمسه ويتفق والبيئة الجبيلية النائية عن العمران فكان من الطبيعي أن يعزف كريمخان عن الدرس وعن تلقى العلم والارتشاف من مناهله ، وأن ينهج نهج سائر أبناء رجال القبائل في الولوع بالفروسية والألعاب الرياضية وأعمال الجندية والتدرب على القتال والكر والفر .

وعلى الرغم من أنه كان أمياً ، فقد كان يستحث الناس ويشجعهم على تلقى العلم والافتراف من مناهله .. وكان مجاسه العالي مجمع العلماء والفضلاء الذين

(١) كانت عشائر (لك) بما فيها قبيلة الزند وغيرها في غاية من الجهل والتأخر كسائر العشائر والقبائل الإيرانية .
المؤلف

هرعوا اليه من كل حذب وصوب . وقد جدد ضريحي الشعارين الشهيرين
(الشيخ سعدى) و(حافظ) المدفونين فى ضواحي (شيراز)، وأوقف عليهما الكثير
من العقارات والكروم والحدائق الغناء، وأقام الموظفين والحراس اللازمين
لإدارة هذه الأوقاف . ولقد كانت هذه المأثرة من أبرز ما أثر كريمخان وأعماله
المجيدة وكان له أحسن وقع وأجمله فى نفوس أهالى شيراز الذين كانوا يكتنون
فى قلوبهم شديد إعجابهم وعظيم فخرهم وكامل تقديرهم وإعزازهم لهذين الشاعرين
وكان حريصا ساهرا على نشر لواء العدل بين رعاياه ، وقد أثر عنه أنه كان
يجلس كل يوم بضع ساعات لسماع شكاوى المظلومين والفصل فى شكاواهم ،
ورد مظالم الناس ، وتعرف مطالب الأهلين .

وكان من شيمته الحلم . وليس أدل على مبلغ حلمه من تلك القصة التالية
التي رواها (مالكولم) .

يقال إنه ذات يوم بعد أن أتم أمور مجلس العدل ، هم بالعودة إلى بيته
وهو شاعر بتعب من جراء العمل والظفر فى أمور الرعايا وإذا برجل مشمر
عن ساقيه يعدو عدوا شديدا يتقدم اليه مقتحما موكبه وصارخا (العدل العدل)
فيسأله كريمخان بقوله :

— من أنت ؟

الرجل : تاجر وقد سرق جميع ما امتلكه .

كريمخان : كيف كان ذلك . وأين وقعت الحادثة ؟

الرجل : كنت نائما .

كريمخان : لماذا نمت (قال هذا فى غضب وشدة)

الرجل : غلطت ، وقد كنت أظن أنك صاح وغير نائم .

وقد أزالته هذه الاجابة السديدة ما تولى كريمخان من الغضب والامتناع

وأعجب بجسارة الرجل وصراحته ، ولهذا لم يتأثر منه ، بالرغم مما في جوابه من عتب لاذع .

وقد أمر وزيره بأن يدفع للرجل قيمة ماله المسروق من الخزانة العامة ، قائلا انه يجب بذل الجهود للعثور على هذا المال المسروق .

هذا وإن الطريق الذي سلكه كريمخان في تأسيس وتدعيم أركان دولته لاشك في أنه الطريق المعنوي السوي في المحافظة على التقاليد ، وأسس الأخلاق القويمة والخصال الحميدة . إذ لم يسلك قط سبيل التعسف والخسف مع رعيته كي يخضع الجيش لنفوذه ، وما أقدم قط على اتباع سياسة خرقاء تجر وراءها ذيل الفشل والدمار والخذلان على البلاد ، في سبيل مجد عسكري زائل ، أو انتصار مدني ظاهره براق . وكانت حياته الخاصة يغلب عليها طابع التواضع ، ودماثة الخلق ، وسهولة الطبع والبساطة في المأكل والملبس والمشرب ، وفي شتى مظاهر الحياة .

وكانت أوامره للرؤساء والموظفين صارمة لانقض فيها على عكس الحال مع رعاياه الذين كان يبادلهم حبا بحب ، ويتودد اليهم ، ويلطفهم ، ويقابلهم بوجه بشوش ، ويستمع إلى مطالبهم ، ويتعرف حاجاتهم . وكانت تتوافر لديه قدرة كافية لأن يجمع في وسط يخيم عليه ظلام التأخر ، بين ما يقتضيه ويتطلبه الحرص على تنفيذ القانون واحقاق الحق من اتباع مبدأ الشدة والصرامة ، وبين ما توجه به الانسانية والعواطف البشرية النبيلة من اتباع مبدأ التسامح والشفقة . فلا غرابة بعد كل ما ذكرنا أن عاش كريمخان بين الايرانيين لا كملك فقط ، بل كأب رحيم بار بهم ، وساهر على مصالحهم

وقد كانت وفاته نكبة قاصمة للبلاد أحدثت هلعاً وحزناً وكداً بين كنانة الايرانيين الذين كانوا يحلون ويقدسون اسم هذا الملك الهمام اعترافاً بما قام به من جليل الخدمات ومجيد الأعمال ، وما بذله من الجهود الجبارة حتى نجح

في اقامة حكومة ايرانية بحثة ، في وقت كانت فيه عوامل الشقاق وأسباب الخلاف والفرقة تمزق أوصال البلاد ، وتسير بالجمهور على غير هدى نحو الهاوية ويذكره الايرانيون دائما بالخير ، ويكيلون له المديح والثناء ؛ ويقولون (انه وإن لم يكن من الملوك العظام من حيث العظمة المادية ، فلم يقتن قصورا نخمة ولا حاشية ضخمة ، ولم يحرز فتوحات واسعة ، ولكن من الواجب أن نعترف بأنه كان حاكما عادلا الى أسمى طبقات العدل ، وأنه لا مثيل له بين ملوك ايران (١))

« الحالة بعد وفاة كريمخان »

تعتبر وفاة كريمخان بداية لظهور القلاقل ، وتحرك الفتن وتزعزع أركان دولة الزند ، واضطراب الأحوال في جميع بلاد ايران ، ولقد أنجب كريمخان خمسة ذكور (٢) ، مات أحدهم قبل وفاته ، وعاش الأربعة الآخرون الذين عرضهم

(١) يقول (سر مال كولم) نقلا عن تاريخ « كدخدا » إني سمعت هذا من أفواه الكثيرين من رجال الدولة القجرية المتأخرين .

ويقول (بيننج) في الجزء الثاني من كتابه (ص ٢١٧) . لا يوجد في جميع قوائم أسماء ملوك ايران مثيل وند لكريمخان في تعلق الشعب به وحبه اياه لدرجة التقديس ، وكان لا يذكر اسمه دائما إلا مقرونا بالنجاة والاحترام .

(٢) كان أكبر هؤلاء الأبناء (صلاح خان) الذي سمل ابن عمه أكبر خان عينيه قبل أن يصل الى الحكم ، والثاني (أبو الفتح خان) الذي أعماه عمه صادق خان بعد أن أعلن حكمه ظاهرا ، وانفرد هو نفسه بالحكم والثالث (محمد علي خان) الذي أعماه أكبر خان ايضا ، والرابع (محمد رحيم خان) الذي توفي قبل وفاة ابيه ونجا مما وقع فيه اخوته من شباك ، والخامس (ابراهيم خان) الذي قطع أكبر خان لسانه . المؤلف

القدر لضروب من الخيانة والغدر اکتوا بنارها من قبل رؤساء أسرهم بعد وفاة أبيهم . وقد قبض (زکی خان) على زمام الأمور ، واستبد بالحکم بعد وفاة کریم خان مباشرة ، وحاول جاهدا بشتى الوسائل الممكنة وبكافة الأساليب توطيد مركزه في الحکم .

وكان بعض زعماء عشيرة الزند لا يأمنون جانبه ويخشون غدره وبطشه بهم . ولهذا سارعوا إلى الاستيلاء على القلعة الداخلية لمدينة (شیراز) واستعدوا وتأهبوا للدفاع ، وفي نفس الوقت أعلنوا تأييدهم للامير (أبي الفتح) نجل کریمخان ولكن (زکی خان) قد أفسد عليهم تدبيرهم إذ بادر فأعلن ولاية عهد کل من أبي الفتح خان وأخيه محمد علي خان (١) لعرش والدهما ، فحال هذا الاجراء الجهني دون تظاهر الأهل وتعضيدهم لهؤلاء الزعماء ... والحق أن ولي العهد كانا حاکمين إسما لافعلا . إذ أنه قد استبد بالأمر وانفرد بالحکم بحجة أنهما شابان تنقصهما الخبرة بشئون الحکم ويفتقران إلى الحنكة والتجارب وفهم الأمور على حقيقتها .

هذا وكان ساعده الأمين في تنفيذ خططه وتحقيق مآربه ابن أخته المدعو (علي مرادخان) .

ولقد بذل (زکی خان) جهودا جبارة أملا في الاستيلاء على القلعة الداخلية لشیراز ، ولكن هذا العمل لم يكن باليسير الهين كما خيل إليه ، ولهذا اضطر إلى أن يسلك طريق المكر والخديعة مع حامية القلعة وأخذ يقطع لهم على نفسه العهود والمواثيق بالمحافظة على حياتهم ، ووعدهم وأغراهم بأنه سيسند إلى رؤسائهم مناصب ملائمة من مناصب الدولة ، فصدقه الرؤساء ، ووقعوا في حباله ، وسلخوا أنفسهم إليه ، ولكنه ما كاد يتمكن منهم بهذا الأسلوب

الذي حتى قضى عليهم جميعاً قضاء مبرماً، وعلى أبشع صورة حائثاً بوعده الذي قطعه على نفسه، ولما سمع (صادق خان) بوفاة كريمخان غادر البصرة إلى (شيراز) وعلى مقربة منها نصب خيامه. وأقام معسكره إلى جوارها، وأرسل ابنه (جعفر خان) إلى المدينة لمقابلة (زكي خان) وليتعرف رأييه في الشكل الذي تكون عليه الحكومة، وما لبث أن عاد (جعفر خان) إلى والده حاملاً إليه تأمينات (زكي خان) وكل ما يبعث في نفسه الطمأنينة، ولكنه لم يفتنه في نفس الوقت أن يوصي والده بالألا يعتمد على كلام (زكي خان) أو يثق فيه، وبوجوب اتخاذ الحيطة والحذر منه، لأنه ليس ببعيد أن يكون عرضة في كل وقت للوقوع في شباك (زكي خان) والأرتشاف من كأس غدره وخيائته الشائنة تلك الكأس التي شرب منها رؤساء الزند مراراً وتكراراً. وكان لهذه التوصية أوقع الأثر في نفس (صادق خان) الذي فقد الأمل في الاتفاق مع (زكي خان)، وقرر محاصرة (شيراز)، وكان واثقاً من نتيجة الحرب والقتال بقدر وثوقه من طاعة رجال جيشه ومحبتهم له. وقد أعد جيشه، وعبأ جنده للقتال على أساس هذه العقيدة. ولما رأى (زكي خان) أنه لم ينجح في اجتذاب خصمه (صادق خان) إلى داخل المدينة بالحيلة والدهاء عمد إلى إلقاء (أبي الفتح خان) في غياهب السجن، وإعلان أخيه (محمد علي خان) الذي كان شريكه في الحكم حتى ذلك الوقت حاكماً مستقلاً على إيران، وألتي القبض على ثلاثة أولاد لصادق خان كانوا في (شيراز) حينذاك. ثم أقفل أبواب المدينة وأعلن على الملأ أنه سوف يقوم بإعدام أسر ضباط جيش (صادق خان) ورجاله كافة وعن بكرة أبيهم، وقد فعل هذا التهديد وذلك الوعيد فعل السحر إذ حقق ما كان يرمى إليه (زكي خان) لأنهم كانوا يعتقدون أن قتل أطفالهم، وإعدام نسائهم، وإراقة دم الأبرياء منهم عمل هين لدى زكي خان، فكانت النتيجة أن بادر جميع الضباط والجنود من ذوي

الأسر ، وعمن لهم أقرباء في داخل (شيراز) إلى التسرب من معسكر (صادق خان) ولادوا بالفرار إلى (شيراز) ، وقد أدى هذا إلى إفساد خطط (صادق خان) وتداييره . وانهار آماله في الفوز . إذ لم يبق إلى جانبه من جنده إلا ثلاثمائة مقاتل من رجاله الأخصاء ، فاضطر إلى العودة بهم إلى طريق (كرمان) ، ولسكن زكي خان قد اقتفى أثره وأرسل قوة من الفرسان لمطاردته فأدركته على بعد أربعين ميلا من شرقي (شيراز) في مكان يقال له (دربند أورينجان) حيث اشتبكت معه في قتال عنيف أسفر عن قتل قائدها الذي بموته اندحرت القوة وباءت بفشل ذريع ، وولت الأدبار إلى أن وصلت إلى مدينة (شيراز) وبذلك تهيأت الفرصة لصادق خان كي يستأنف السير برجاله حتى وصلوا إلى كerman واعتصموا بقلعتها الصغيرة .

ومن الأحداث الهامة التي وقعت عقب وفاة كريمخان ، نجاة أغا محمد خان القجري ، وهروبه من شيراز حيث كان سجيناً بقلعتها منذ اليوم الذي وقع فيه أسيراً عام (١١٦٠ هـ - ١٧٤٧ م) ولم يكن يسمح له بالخروج من القلعة إلا أياماً معدودات في بحر السنة للصيد والقنص فقط .

وكان كريمخان يشمله بعطفه ، ويفيد من خبرته وتجاربه في شئون الحكم ويستشير في أمور الدولة كما أن أغا محمد خان كان قد ربط مصيره بوفاة كريمخان ولهذا كان ينتظر هذا اليوم ويتعجله بفارغ الصبر ، لاسيما وأن أخته كانت زوجا لكريمخان . وما أن سعدت روح كريمخان إلى بارئها حتى شاغل الحراس ورجال الحكومة الذين وقعوا يومئذ في حيص ويص وخرج منسلا من المدينة مع بضعة من رجاله المكلفين بالقيام على خدمته ، وسار في البیداء حتى وصل إلى بلاده ؛ وحط الرحال بين قومه وعشيرته . ثم أخذ في حشد قوات كبيرة مكنته من إعلان نفسه ملكا على البلاد في عام (١١٩٢) للهجرة (١٧٧٩ م) .

ولقد كان (زكي خان) واثقا تمام الثقة بأن رئيس القجر غير مكتف ولا قانع بأقليم (مازندران) وحده ، وأنه لا بد زاحف إليه يوماً ما ، ولهذا أعد جيشاً قوياً بقيادة ابن أخته المدعو (علي مراد خان) ، وأمره بالزحف إلى حيث رئيس القجر لينمعه ويوقفه عن التقدم ، غير أن هذا التدبير قد جاء على خلاف ما كان يرومه ، إذ أن ابن أخته الشجاع الحريص كانت التجربة قد علمته أن أحوال بلاده لن تتيح لمثل (زكي خان) المجرد من القوة الذاتية والذي يفتقر إلى العصية العشيرية ، النجاح في تحقيق مطامعه الشخصية أو يأمن جانب أحد من الناس ، ولهذا كان يترقب الفرص ويتحينها ليشق عصا الطاعة على (زكي خان) ذلك الحاكم الظالم المستبد المكروه من الناس والذي لا يؤمن جانبه قط .

سيطرت هذه الفكرة على عقل (مراد خان) وما لبث أن اتخذ من دعوة (صادق خان) واستنجاهه حين انفصاله عن (شيراز) وسيلة ومبرراً لإخراج فكرته إلى حيز العمل ، فما أن وطئت قدماه أرض طهران حتى جمع أمراء جيشه وقواد جنده على الفور وقال لهم : « هل من الجائز مساعدته رئيس مثل (زكي خان) الذي أساء معاملته كل الناس ، وغدر بأنجال سيده وولى نعمته (كريمخان) عليه الرحمة والغفران ؟ » ولا شك في أنه قد تمكن بهذا الأسلوب من اقناعهم برأيه دون عناء . ثم توجه صوب (أصفهان) وما أن اقترب منها ولمس بل ورأى بعيني رأسه أن الأهالي والرعايا جميعهم قد انحازوا إلى جانبه ، وأنهم يتمنون من صميم أفئدتهم الغلبة له على (زكي خان) - حتى عمد إلى عزل واليها المعين من قبل (زكي خان) ، ثم أعلن الملاءة أن الغرض من حركته إن هو إلا إقامة نجل كريمخان ملكاً على البلاد خلفاً لوالده ، وأنه ليس هنالك من هدف آخر يتطلع إلى تحقيقه . . فسر الأهالي بما أعلن وازدادوا حبا له وتعلقا به ، وأبدوا استعداداً طيباً لتأييد الوضع الجديد واعزازه .

وما أن علم (زكى خان) بعصيان ابن أخته حتى طار لبه وفقد صوابه واختل توازنه ، فبادر على الفور الى حشد جيش ، سار على رأسه إلى أصفهان وما درى بأن الانتقام الالهى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، إذ ما كاد يصل إلى ضواحي (يزد خواست) حتى ضيق الخناق على أهلها وطالبهم بتوريد الأموال التي كان فرضها عليهم قسراً ، وقد طلب إليه الأهل إعفاءهم من دفع هذه الأموال في تلك السنة ، لسوء حالتهم وفقيرهم المدقع ، وأنزلوا من شبك القلعة وفداً من سراة القوم وأعيانه ليشرحوا له سوء الحالة وتعذر الدفع ، فما كان منه إلا أن أشاح عنهم بوجهه ، وأساء معاملتهم ، وأمعن في اضطهادهم ولم يكتف بذلك بل استدرج سيد البلدة وهو رجل من الأشراف وأراد أن يفتك به ، ويذيقه سوء العذاب ، لولا أن حامية القلعة قد حالت دون ذلك . وكان لهذه الحادثة أسوأ الأثر في نفوس الأهلين ، فقست عليه قلوبهم وبيتوا له في أنفسهم أمراً ، ألا وهو التخلص منه ، وما أمهلوه ولكن قتلوه على الفور وكان ذلك في عام (١٧٧٩) لليلاد .

وبعد مقتل (زكى خان) على هذا الوضع ، أعلن (أبو الفتح خان) نجل كريمخان شاهاً على بلاد إيران ، وكان ذلك في سنة (١٧٨٠) لليلاد . وكان (أبو الفتح خان) رجلاً شجاعاً ، ومملوكاً عادلاً ، ذا خصال حميدة ومعتدلاً في كافة الأمور ، فليس هو بالحريص ولا بالطامع ، غير أنه لم يكن لميلاً بجدارة ذلك المركز السامى في مثل هذه الظروف الدقيقة المحيطة بالبلاد ومع ذلك لم يكن هنالك من شخص آخر يمكنه أن يحول دون خروج الملك من أسرة كريمخان ، ويعيد الأمن إلى نصابه ، ويضع حداً لأطماع الطامعين في الملك غير هذا الذى نودى به مملوكاً للبلاد .

ولما سمع (صادق خان) بما حاق بخصمه (زكى خان) نهض على الفور وتوجه صوب شیراز ودخلها ، تحف به أبهة الملك وسطوته في اليوم الثلاثين من شهر

جمادى الأولى من عام ١١٩٤هـ وكان هذا الأمير الزندى قائداً محنكاً ، وجندياً بأسلاً ، وإدارياً حازماً ، إلا أنه كان طموحاً قوى الرغبة فى السلطان واعتلاء أريكة الحكم إذ كان من الصعب على نفسه أن يخضع لأوامر حاكم جاهل ضعيف الإرادة . وقصارى القول كان ينعدم التفاهم والانسجام - كلية - بين العم وابن أخيه الأمر الذى أدى فى النهاية إلى أن يلقي صادق خان القبض على ابن أخيه ، وليته اكتفى بهذا بل أمعن فى الغلظة والوحشية وسمل عينيه حسب العادة السائدة فى تلك العهود المظلمة ، وأعلن نفسه شاهاً مستقلاً للبلاد فى عام (١١٩٤هـ) (١٧٨٠م) ولكنه ما كان يحلم قط بأن عرشاً ينتزعه ويستولى عليه قسراً وبمثل هذه الوسيلة الوحشية سيكتسب له الدوام والاستقرار .

والواقع أن خطر (على مراد خان) كان قد عم وازداد وقوى نفوذه واتسع فارسل (صادق خان) ابنه (جعفر خان) إلى أصفهان ليرقب عن كثب حركات (على مراد خان) الذى كان قد تغلب على (ذى الفقار خان) خصمه الثائر فى بلاد قزوین و سلطانيه وزنجان ، واستولى على هذه البلاد وأرسل رأس الثائر إلى (شيراز) فى عهد (أبى الفتح) فازداد بذلك نفوذه . وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الحوادث وتتتابع كان (على مراد خان) فى طهران . فلما جاءت هذه الأنباء وترامت إلى مسامعه بادر على الفور إلى المناداة بنفسه ملكاً للبلاد وتوجه على رأس جيش كبير نحو (أصفهان) ولما اقترب منها أرسل عليها والياً جديداً من قبله .

أما (صادق خان) فقد عمد إلى إعداد جيش قوامه عشرون ألف مقاتل وأسند قيادته إلى ابنه (تقى خان) الذى شن هجوماً على جيش (على مراد خان) ، وأوقفه عن التقدم إلى الامام . ثم ما لبث أن ألحق به خسائر جسيمة إذ شتت شمل جيشه الذى سارع فريق كبير منه بالانحياز إلى جانبه واضطره هو نفسه إلى التقهقر والتراجع نحو (همدان) فى جماعة من أقربائه وأخص رجاله للمحافظة على هذه البلاد .

وبعث (صادق خان) إلى نجله بكتاب يحثه فيه على استغلال هذا النصر

المبين، فيعمل جاهدا على التخلص من (علي مراد خان) نهائيا، ومطاردته حتى يقضى عليه قضاء مبرما. ولكن هذا الامير الغر الطائش الذي أسكرته نشوة النصر، قد ركب رأسه ولم يعمل بنصيحة والده، ودخل (أصفهان) ظافرا وقضى شهرا بين ربوعها، دون أن يحسب حسابا لاستعداد خصمه الذي انتهز هذه الفرصة الذهبية فأعاد تنظيم شتونه وأصلح من أمره وأخذ يتربص مجريات الأحوال ويتربص حتى تسنح له الفرصة.

ثم غادر تقى خان (أصفهان) وتوجه نحو العراق أملا في توسيع ميدان فتوحاته، وكان بعض قواده ورؤساء جيشه قد قلبوا له ظهر المجن، وخرجوا عليه. وعلى مقربة من مدينة (همدان) فوجى (تقى خان) بخصمه العنيد (علي مراد خان) الذي اشتبك معه في قتال عنيف أسفر عن اندحار وخذلانه وما نجى من الموت المحقق أو من الوقوع في الأسر إلا باعجوبة... وسار (تقى خان) يجر أذيال الهزيمة حتى وصل إلى شیراز في حالة يرثى لها.

ولما ترامت الأنباء إلى (صادق خان) بأن (علي مراد خان) زاحف على عاصمة بلاده، بادر على الفور إلى حشد جيش جله من المشاة وبعث به إلى خارج (شیراز) على مسافة خمسة وعشرين ميلا منها، ليحول دون تقدم العدو وتوغله، ولكن هذا الجيش قد فوجى بهجوم مباغت شنه عليه (علي مراد خان) في الوقت الذي كان الجنود منهمكين في توزيع الطعام والذخيرة على القوات المختلفة، فتشتت شمل هذا الجيش أيضا، وتعقبه فرسان العدو وألحوا في مطاردة فلوله حتى أوصلوها إلى أبواب « شیراز » وألقوا عليها الحصار.

وقد دام هذا الحصار ثمانية أشهر، ولم يكلف المحاصرون أنفسهم مؤنة القتال والهجوم كي يتعجلوا سقوط المدينة بل اكتفوا بتشديد الحصار

وتضييق الخناق على المحصورين من الأهالي والمدافعين الذين كانوا قد ملوا القتال وسموه وخارت قواهم من شدة الجوع وقسوته وتفشى الأمراض ، وتوالى الويلات والنكبات ، فمال الكثيرون منهم إلى الثورة ومحاولة تسليم المدينة للاعداء ، وفعلا عمد بعض المدافعين ذات ليلة إلى الاستيلاء على أبواب المدينة ، ثم فتحوها على مصاريحها لجيش (علي مراد خان) فدخلها في هدوء وسلام دون سفك دماء ، وأحسن معاملة الأهالي جزاء لما قدموا له . ولكن (صادق خان) قد ركب رأسه ، وامتنع عن التسليم ولجأ بأسرته وكبار رجاله إلى القلعة الداخلية حيث اعتصموا بها حقبة من الزمن ، ولكنه اضطر أخيراً إلى التسليم ، ونفذ فيه وفي رجاله العظام حكم الأعدام شقياً ، وكان ذلك في سنة (١١٨٦ م) ولم ينجو من الشنق سوى ابنه (جعفر خان) الذي كان قد انسجم مع (علي مراد خان) قبل الاستيلاء على المدينة بزمن ليس بقصير .

هذا وكان (صادق خان) قد اشتهر في عهد أخيه (كريم خان) بالعدل والحزم وحسن التدبير في كافة أنحاء إيران ولا سيما بعد توفيقه في فتح البصرة وضمها لرقعة الامبراطورية الزندية ، ولكن أعماله الشائنة الأخيرة مع بني قومه وأقربائه الأذنين ، وطمعه في الانفراد بالحكم ، قد أفقدته عطف الناس أجمعين ، وجعلت من المتعذر بل من المستحيل عليه الوصول إلى الحكم .

إزاء هذه الحالة يقف المرء جامداً لا يسعفه المنطق كيف يفسر عمل (صادق خان) كي يحقق رغبته في الوصول إلى الحكم مع وجود أنجال لسكريم خان الذي كان مبعث الشهرة العريضة التي كانت تنفياً الأسيرة الزندية ظلها .

وهكذا دانت الأمور لعلی مراد خان فصار ملكاً على إيران ، ويؤخذ من سجل أعماله وانتصاراته أن البلاد لبثت بضع سنين مسرحاً لدسائس القواد العسكريين ومنازعاتهم .

ولم يبرز أحد قط في أثناء المحاصرة مثلما برز واشتهر (أكبر خان) ابن (زكي خان)، ولكنه كان ظالما جبارا عتيا، بقدر ما كان باسلا وشجاعا وقد وصلت به الجرأة والقسوة وحب الانتقام إلى أن يتولى بنفسه ويديه المتلطختين قتل (صادق خان) وأبنائه الثلاثة. ولكن المنتقم الجبار الذي لا يغفل ولا ينام قد أبى - جل شأنه - إلا أن تكون الجريمة التي ارتكبها هذا السفاك وسيلة لمصرعه هو بعد مدة وجيزة، إذ ألصقت به تهمة تدبير مؤامرة لقتل الشاه غيلة. ولم يكن من الصعب إقناع (علي مراد خان) بصحة هذه التهمة، فأصدر أمره لجعفر خان بأن يهدر دم هذا السفاك الذي قتل أباه وأخوته وما زالت يداه ملطختين بدمائهم.

وبعد بضعة أشهر انتقل (علي مراد خان) إلى أصفهان واتخذها عاصمة لحكومته. وكان يولى (جعفر خان) كامل ثقته ويعتمد عليه الاعتماد كله، ولهذا نصبه واليا عليها من قبله. وكان نجله (شيخ ويس) قائدا عاما للجيش فعهد إليه المحافظة على الحدود الشمالية، ومراقبة حركات (أغا محمد خان القجري) فكتب له الفوز في باديء الأمر وأحرز نصرا مبينا باستيلائه على (مازندران) وإحاقه هزيمة منكرة برئيس القجر، واضطره للفرار إلى (أستراباد)، ثم أرسل في أعقابه قوة لمطاردته والقاء القبض عليه.

ولكن (محمد ظاهر خان) الذي كان يتولى قيادة هذه القوة المطاردة كان قصير النظر فلا عجب أن قطع على نفسه وعلى جيشه خط الرجعة إلى (مازندران) حيث أصيب بفشل ذريع، ثم مالبت أن وقع صريعا في ميدان الوغى، وتشتت شمل جيشه شذر مذر، وسارع الذين نجوا من جنده إلى الانضمام إلى جيش (شيخ ويس) المعسكر في مازندران والذي اضطر هو الآخر وعلى رأسه قائده إلى الجلاء عن (مازندران) واللجوء إلى (طهران) حيث وقف إلى جانب جيش (علي مراد خان) وانتظم في صفوفه. وكان ذلك في عام ١١٩٩ هـ (١٧٨٤ م).

كان (على مراد خان) في هذه الآونة مريضاً وقد اشتدت عليه وطأة المرض ، ومع ذلك كان يبدى نشاطاً محسوساً في معالجة الأمور وإعداد الجيوش التي كان من بينها ذلك الجيش الذي بعث به إلى (مازندران) ووطن النفس على أن يقوم هو نفسه بنجدته إذا اقتضى الأمر .

وفي هذه الأثناء جاءت الأنباء تترى بأن (جعفر خان) قد شق عليه عصا الطاعة وأنه زحف صوب العاصمة ، فغلبه التأثر واشتد حزنه وبرح به الألم لدرجة أنه لم يطق صبراً ، ولم يترث حتى يبرأ من علته بل سارع إلى الزحف نحو أصفهان معرضاً نفسه لبرد الشتاء القارس رغم الحاح وزيره وطبيبيه الخاص عليه بالاعتكاف . ولكن الأجل المحتوم قد وافاه في عرض الطريق فصعدت روحه إلى بارئها ، وكان ذلك في عام (١٧٨٥ م) فاضطر الزعماء والقواد وذوو الرأي إلى إخفاء نبأ موته عن الجيش حتى وصلوا العاصمة .

وما أن ترمى هذا النبأ إلى مسامع رجال الجيش حتى عمدوا إلى النهب والسلب وتفرقوا شيعاً يعيشون في البلاد فساداً .

ولقد أسهب الكثيرون في الكلام عن أخلاق (على مراد خان) وسجاياه ويستخلص من رواياتهم أنه كان مثلاً يحتذى في الشجاعة والبسالة النادرة ، وليس أدل على ذلك من شهادة خصمه القوي الجبار (آقا محمد خان القجري) له ، ذلك الخصم الذي قاسى الأمرين في عهد هذا الشاه في سبيل المحافظة على (مازندران) ، والذي كان يرد على الذين كانوا يستفزونه ويحثونه على شن الهجوم على العراق العجمي بقوله : (اصبروا حتى يقضى على هذا الأعمى (١) المحترم ، وحينذاك فقط يمكننا أن نعمل شيئاً) .

(١) كان (آقا محمد خان القجري) يذكر (على مراد خان) دائماً بهذا الوصف . والواقع أنه كان أعور لا أعمى .
المؤلف

وقد وصل (جعفر خان) إلى (أصفهان) بعد وفاة علي (مراد خان) بخمسة أيام فقط ، فألقى واليها المدعو (بكر خان) قد اغتصب الحكم واستأثر بلقب الوالي لنفسه خلال هذه الأيام القلائل ، فبادر إلى عزله. وأرسل إليه من يلقي القبض عليه ، ويخلفه في منصب الوالي ، وتم ذلك كله في غاية من السهولة والسرعة وبذلك لم يبق هنالك من ينافس (جعفر خان) في إدعاء الملك سوى « شيخ ويس » ولهذا رأى (جعفر خان) أنه من الحكمة وعين الصواب أن يسلك مع هذا الأمير مسلكا يتسم بطابع السياسة والملاينة حتى يتمكن منه ، فبعث إليه بكتاب ودى رقيق ، يستميله إليه ، ويستدرجه إلى مستقره ومقامه حتى نجح بالفعل في استقدامه إليه ، وما أن تمكن منه حتى أقدم على تغيير سياسة اللين والحكمة وبدأ معه سياسة جديدة سداها الاضطهاد ولحمتها شتى ألوان التعذيب والتنكيل ، ولت الأمر وقف عند هذا الحد بل لقد أمعن في ابدائه وسمل عينيه كيلا يتمكن ابن الأخ فيما بعد من مناوأة عمه بطلب الحكم لنفسه. هذا وقد آن الأوان لأن يفى (أقا محمد خان القجري) بالوعد الذي قطعه على نفسه لأنصاره ، إذ سبق أن قال لهم : (سنقوم بزحف عام إلى العراق على أثر موت علي مراد خان) فلم يكن هنالك إذن من مانع يحول بينه وبين البر بوعده . وما لبث أن تحرك على رأس قوة من الفرسان يتراوح عددها بين (٥٠٠ و ٦٠٠) فارس وعبر جبال (مازندران) إلى الجنوب ولما رأى في الطريق أن عدد المنتظمين في صفوف جيشه من الأنصار في ازدياد مستمر ، عمد إلى الزحف إلى أصفهان مباشرة وذلك تشجيعا لجنوده على خوض المعارك .

وما كاد يمضي شهران على وفاة (علي مراد خان) حتى كان الجيش القجري يقتحم مدينة أصفهان ويدخلها غازيا فاتحا . وكان ذلك في اليوم السادس من مايو سنة (١٧٨٨) للميلاد . وكان (جعفر خان) قد أخلى المدينة قبل وصول

القجری إليها ، وذلك على أثر ثورة ^(١) أشعل لهيبها وقام بها العصاة ونهبوا كل ما يمتلكه (جعفر خان) من أموال ومقتنيات وأعملوا السلب في أثقال الجيش ومرافق الدولة .

وفي الوقت الذي دخل القجری فيه أصفهان على النحو الذي ذكرناه ، دخل (جعفر خان) شیراز ، ولكن صداقة حاكمها (سيد مرادخان) ^(٢) له لم تكن موضع ثقة كاملة ، إلا أن الأهالي قد سارعوا إلى تأييده والوقوف إلى جانبه بفضل تشجيع أشرف البلدة وأعيانها له ، وكان أبرز هؤلاء الأعيان المدعو (حاجي إبراهيم) الذي كان يبدى نشاطا ملحوظا ومحسوسا لتأييد (جعفر خان) لكي يثبت قدميه ، ولهذا لم يفت جعفر خان أن يكافئه على حسن صنيعه إذ عينه واليا على فارس (كلانتر)

ولقد رأى (أقا محمد خان) ألا يدع الفرصة تضيع وتفلت سدى دون أن يقوم بعمل حاسم ، فاشتبك في القتال مع البختياريين القاطنين في فارس وحدثت بينهم مناوشات ولكن غير حاسمة ، فاضطر أخيرا إلى العودة سريعا إلى طهران فاتهمز جعفر خان هذه الفرصة وزحف ثانية إلى أصفهان واستردها وقبض على (رحيم خان) الذي كان واليا عليها من قبل (أقا محمد خان) وأرداه قتيلا ولسكنه سرعان ما أخلى أصفهان وجلا عنها حين بلغه زحف أقا محمد خان عليها ثانية ذلك الخصم الذي كان قويا عتيا لا ينضب معين أمواله ورجاله والذي كان يبسط سلطانه ونفوذه على شمال ووسط إيران ولديه عزم على محاصرة (شیراز) والذي لم يكن لجعفر خان قبل به .

(١) يقال إن الذين أشعلوا نيران هذه الثورة ودبروها وأداروا دفتها هم بعض الرؤساء الذين كانوا قد نجوا من السجن ، وكان من بينهم (بكرخان) وإلى أصفهان السابق .

(٢) كان سيد مرادخان هذا ابن اخت (علي مراد خان) . المؤلف

هكذا كان موقف جعفر خان أمام خصمه وهو كما نرى موقف ينم عن الضعف والعجز المتناهيين ، وكان هذا هو نفس موقفه إزاء الثورات الداخلية إذ حدث أن شق عليه وإلى همدان - من قبله - عصا الطاعة . ودحر الجيش الذي كان قد أرسله لتأديبه منتهزا فرصة ضعفه وتقاعسه ، وكان أيضا قد فقد مدينة (يزد) بعد أن تسبب خسارة جسيمة .

ولكن الحظ عاد لخالفه في أواخر عهده إذ نجح ابنه (لطف علي خان) في الاستيلاء على (لار) وقد شجعه بعد الشقة بينه وبين (آقا محمد خان) على تجريد جيش آخر على (أصفهان) لاستردادها ، وقد استطاع في بادئ الأمر القضاء على حامية هذه المدينة ، غير أن هذا النصر المؤقت لم يدم طويلا ، حيث وردت الأنباء باقتراب رئيس القجر من المدينة ، فاضطر (جعفر خان) إلى الجلاء عنها مرة أخرى .

هذا وكان (جعفر خان) محبوبا لدى الأهالي والأجانب على السواء إذ كان يحسن معاملة الجميع ، وكان الكل أمامه سواسية كأسيان المشط ، وكان عادلا ، حلما ، يحترم حقوق الغير . . . وقد وكل مهام الإدارة إلى وزير عاقل ذى شخصية محترمة ، عرف كيف يسوس أمور الدولة بحزم وعزم . ويتصرف في معالجتها بحكمة ^(١) ولكن تصرفه السيء ضد قائد من أخلص قواده قد أفقده السمعة الطيبة التي كان يتفيا ظلها بل وأدى في النهاية إلى تقويض دعائم حكومته وزوال دولته .

هذا ، وكان من بين أمراء وقواد جيش (جعفر خان) قائد يدعى (حاجي

(١) هو (ميرزا حسين) والد (ميرزا بزرگ) وزير الأمير (عباس ميرزا) ولي عهد إيران الشرعى . وكان الوزير (ميرزا حسين) هذا محبوبا من الأهالي ويكنون له عظيم الاحترام .
المؤلف

على قوليه (الكاشاروني)، عهد إليه جعفر خان إخماد ثورة (كاشان) التي أشعل لهيبها ثائر يدعى (عرب محمد حسين خان) فنجح في إخماد نيران الثورة أيما نجاح، واضطر رئيس العصاة إلى التسليم مع آلاف من الأسرى، وكان من بين هؤلاء الأسرى ألف وخمسمائة مقاتل من أهالي خراسان استسلموا بعد قتال عنيف ووافقوا على التسليم بشرط واحد ألا وهو المحافظة على حياتهم وعلى كرامتهم، ولكن (جعفر خان) قد قلب لهم ظهر المجن وركب رأسه وأبى إلا أن ينقض الشروط، ويحنث بالوعد الذي قطعه قائده (حاجي على قوليه خان) على نفسه، ويزج بهؤلاء الأسرى الخراسانيين في أعماق السجن، وقد أصم أذنيه، وأشاح بوجهه عن الاستماع لأي رجاء من لدن قائده في هذا الصدد، فلم يجد هذا القائد الشريف - إزاء هذا - بدا من ترك خدمة مولاه والعودة إلى بلاده. وبعد رده من الزمن أرسل جعفر خان قوة لاستحضار هذا القائد إلى (شيراز) ولكنه رفض بإباء ما عرض عليه من وعود وعهود لتأمينه، فلم تجد القوة مندوحة حينذاك من إلقاء القبض عليه، ونقلته إلى شيراز حيث زج به في غياهب السجن. . . وهناك وبين جدران السجن اتبحت الفرصة لحاجي قوليه خان لتدبير مؤامرة مع نزلاء السجن من العظماء ضد (جعفر خان) انتقاماً منه لأنفسهم. وكان بين المتآمرين رجل له قيمته وله وزنه، ذلك الرجل هو (سيد مراد خان^(١)) الذي لعب دوراً خطيراً كان له أكبر الأثر في إنجاح هذه المؤامرة التي نفذت على الوجه التالي :

(قامت امرأة من الأسرى باخفاء مخدر معها. ونجحت في دس هذا

(١) كان والياً على « شيراز »، وكم قدم من مساعدات فعالة لجعفر خان ولكن العلاقات قد ساءت بينهما أخيراً فألقى به « جعفر خان » في غياهب السجن .
المؤلف

المخدر في طعام كان معدا لجعفر خان ، فما كاد يتذوق الطعام حتى أغمى عليه) . وفي تلك اللحظة الرهيبة تمكن أنصار المتآمرين من إطلاق سراحهم وما أن غادروا أبواب السجن حتى سارعوا إلى حيث يرقد خصمهم فانقضوا عليه كالصاعقة وأجهزوا عليه ، وألقوا برأسه من القلعة الداخلية إلى باب المدينة ثم أعلنوا ونادوا بين الناس بأن (جعفر خان) قد انتهى أمره . وكان ذلك في عام (١٧٨٩) للهيلاد .

(٢) - عهد « لطف علي خان »

كان (لطف علي خان) نجل (جعفر خان) مقبلا في كرمان خلال هذه المدة ، وكان (سيد خان) زعيم الحركة الثورية قد نادى بنفسه شاعرا على إيران ، ولكن ما هي إلا بضعة أشهر حتى نداعت أركان حكومته وتزعزعت قوائم سلطانه الزائل ، إذ كان (حاجي إبراهيم) والي فارس العام وثيق الصلة بلطف علي خان ، فاتفق مع بعض الزعماء ورؤساء العشائر والبيوتات الكبيرة على مقاومة هذا المغتصب . وما أن ترامى نبأ اغتيال (جعفر خان) إلى مسامع ولد (لطف علي خان) حتى أخذ يفكر في المطالبة بعرش أبيه ، ولكنه كان ضعيف الثقة في بجيشه ، ولهذا لم يكن في مكنته المطالبة سريعا بهذا العرش ، ولهذا توجه على الفور إلى شيخ بلدة (أبي شهر) طالبا إليه مساعدته ، ولكن المنية قد عاجلت الشيخ قبل أن يتقدم له بالمساعدة الممكنة وإن كان الشيخ قد أوصى ابنه الشيخ ناصر بتعريض لطف علي خان وشد أزره ، فقام الشيخ ناصر بامداده بجيش صغير من لدنه ، فأرسله علي (شيراز) فاشتبك في القتال مع (حاجي هاشم) أخى (سيد خان) . ولكن للأسف دارت الدائرة على جيش النجدة وتشدت شمله .

وعلى أثر هذه الهزيمة بعث (حاجي إبراهيم) بجيش لمحاربة لطف علي خان

وكان يقوده (على محمود خان) الذي كان يضم العدا لحاجي إبراهيم ويتحين الفرصة لطعنه من الخلف طعنة نجلاء ، وفي الوقت نفسه كان يمالئ لطف على خان الذي اتفق معه بمجرد وصوله وأعلن تأييده له ، وقد علق (لطف على خان) آمالا كبيرا على انضمام هذا القائد إلى جانبه ، وتوجه صوب العاصمة واستعان بالأصدقاء الذين كانوا قد هياؤا الرأي العام لقبوله حاكما عليهم خلفا لآبيه سنة (١٧٨٩م) . وكان (سيد خان) قد لجأ إلى القلعة الداخلية ولكنه ما لبث أن اضطر للتسليم فأعدم .

أما (حاجي على قولين خان) الذي كان من أكبر المحركين للثورة فقد قدم هو وبضعة من الزعماء الآخرين له الضمانات الكافية من قبل (حاجي إبراهيم خان) ، فقبلها (لطف على خان) بل وشمل هؤلاء الثوار بعطفه وأولاهم ثقته كان للطف على خان وقتذاك من العمر عشرون ربيعا ، ولكنه تدرج في شتى المناصب في عهد والده وهو في سن مبكرة ، وأبدى فيها نشاطا ملموسا ونجاحا أيما نجاح ، وكان يملأ كل منصب وليه بمجدارة ، وقدرها له العدو قبل الصديق ، ولم يمض طويل وقت حتى كان يتبوأ عن جدارة أسمى المراكز وأرفعها ، مما أثار إعجاب جميع الذين احتسكوا به وعرفوه في الحرب وفي السلم على السواء . وكان فارسا لا يشق له غبار وجنديا مهر في شتى الفنون العسكرية ، وكانت كل أعماله وتصرفاته تتسم بطابع الجرأة البالغة والحكمة المتناهية ، غير أنه للأسف كانت تنقصه تلك الصفات اللازم توافرها فيمن يلي منصب السلطنة والحكم من دربة وحزم وسرعة بت وحسم للأدوار التي كان يتبأطأ في تصريفها لدرجة الاستهتار والاهمال وذلك على خلاف ما طبع عليه من الجرأة والعزم فيما يتعلق بالمسائل العسكرية وشئون الحرب والميادين وما أخذ على (لطف على خان) أيضا أنه غير طباعه بعد تولية الحكم ، إذ كان قبل اعتلائه العرش حلو الشئائل ، رقيق الحاشية ، رءوفا ورحيما

بالضعفاء ، ثم انقلب إلى ذئب عقور يروق له استعمال الشدة والقسوة ، وليس أدل على ذلك من تنكره لحاجي إبراهيم خان الذي كان له اليد الطولى في إيصاله إلى أريكة الحكم والاحتفاظ له بعرش أبيه ، ولكنه انقلب عليه وعامله بالقسوة وانتزع منه الثقة ، وناصبه العداء والخصومة ، بل الأدهى من ذلك وأمر ، أنه كان ينظر إلى قوة وسلطان هذا الرجل الذي وضع التاج على مفريقه نظرة حقد وحسد وغيرة . وقد فوجيء (لطف على خان) في أوائل عهده بزحف خصمه (أقا محمد خان) نحو (شیراز) فما كان من هذا الحاكم الطائش إلا أن جازف وخرج لمقابلة العدو الزاحف واشتبك معه في معركة دامية عند مكان يقال له (هزاريزا) أسفرت عن اندحاره أمام قوات القجر الجارفة وعاد يجرر أذيال الهزيمة إلى (شیراز) واعتصم بقلعتها . وواصل (أقا محمد خان) الزحف ثملاً بنشوة النصر حتى ألقي الحصار على (شیراز) غير أنه اضطر للعودة إلى (طهران) عاصمة ملئكه بعد إلقاء الحصار بشهر واحد ، وبعد ذلك بعام كان لطف على خان قد أعد نفسه وأضحى على أتم استعداد للقاء خصمه حتى لا يؤخذ على غرة مرة أخرى ؛ بيد أن (أقا محمد خان) لم يزحف إلى شیراز لانشغاله في (آذربيجان) ، فأراد لطف على خان ألا يقف الجيش الذي أعده للقتال عن العمل فتوجه على رأسه لمهاجمة (كرمان) واضطر إليها إلى الموافقة على تسليمها إليه مشروطاً بضعة شروط قبلها (لطف على خان) في بادىء الأمر تحت تأثير وضغط من مستشاريه الذين نصحوه بذلك لعدم ملاءمة الجو وقتذاك للسكر والفر . ولما كان من أهم تلك الشروط صرف النظر عن الوالى وأتباعه عاد (لطف على خان) فرفض هذه الشروط بعد أن وافق عليها مبدئياً ، وظل الحصار قائماً طيلة الشتاء القارس والبرد ، الأمر الذى أدى إلى فقدان الجيش المحاصر الكثير من رجاله ومن مواشيه وحيوانات نقله ، وزاد الطين بلة أن تساقطت الثلوج بغزارة فعطلت

الطرق واستحال جلب المؤن والذخائر مما أفضى إلى هياج الجند وانتشار روح التدمير بين صفوفهم . فاضطر (لطف على خان) إلى العودة إلى شیراز وهو في حالة يرثى لها .

وقبل أن يتعرض لطف على خان لهذه النكبة العسكرية القاصمة كان قد اتخذ من التدابير الادارية والسياسية ما يحول دون خيانة رجاله وغدرهم به في غيبته فعين أخاه الصغير - الذي كان ما يزال طفلا - واليا عاما لفارس ، وفي نفس الوقت عهد بحكمдарية (شیراز) وضواحيها إلى (حاجي ابراهيم خان) ، وأسند قيادة الحامية العسكرية إلى (بختيار خان) أحد رؤساء عشيرة الزند ، كما أنه عهد بقيادة حامية القلعة الداخلية إلى زعيم آخر من زعماء العشيرة الزندية ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى توزيع السلطات والتفريق بين الهيئات حتى يحول دون اتحادها ضده وغدرها به . ولسكنه عبثا حاول ، إذ أن (بختيار خان) كان رجلا ضعيف الرأي متكبرا بل ومغتبرا بمنصبه العسكري ومزهوا باستقلاله الاداري لافي دائرة نفوذه فحسب ؛ بل كان يحاول دائما التعدي على اختصاص (حاجي ابراهيم) والتحكم فيه والاستبداد بأموره وإذلاله بشتى الطرق ، ولم يكتف بهذا بل اخذ يحرض (لطف على خان) ضده ويوغر صدره منه حتى آتت هذه الدسائس أكلها لدى (لطف على خان) ولقيت منه آذانا صاغية ، فتزعزت ثقته في وزيره ، وليس أدل على ذلك من معاملته السيئة لهذا الوزير بعد عودته من (كرمان) مخذولا مدحورا .

والواقع أن هنالك حادثة وقعت من قبل ، بين (لطف على خان) وبين وزيره « حاجي ابراهيم » وكانت ذات أثر عميق في تطور العلاقات بينهما ، وخلاصة وقائعها أن « لطف على خان » سبق أن عفا عن بعض المتهمين في حادث اغتيال والده بناء على توصية ورجاء « حاجي ابراهيم » وكان من بين من شملهم العفو (ميرزا مهدي) الذي استخدمه (جعفر خان) من قبل في وظيفة

(لشكر نويس — محاسب الجيش) ، والذي قطعت أذناه وطرد من العمل حين ثبت اختلاس أموال الدولة . ولما قتل « جعفر خان » وعلقت رأسه على باب القلعة ، ذهب (ميرزا مهدي) هذا وقطع أذنيه ، ولكنه أنكر أخيراً أنه ارتكب هذه الفعلة الشنعاء . بيد أن (حاجي ابراهيم) أيضاً كان يعتقد ببراءته من هذه التهمة ولهذا طلب العفو عنه من (لطف علي خان) الذي وافق على منحه العفو حتى ولو كانت التهمة حقيقة ثابتة إزاء ما قطعه على نفسه من عهود ومواثيق . حدث بعد ذلك أن قام (لطف علي خان) بتوزيع خلع وإنعامات على رجال الدولة ومن بينهم (ميرزا مهدي) ويقال إن والده العاهل قد علمت بذلك فأسرعت في طلبه وقالت له (أما يكفيك أن تمنح عفوك لقاتل والدك حتى تعود فتنعّم عليه بالخلع والنياشين فتسىء بذلك إلى ذكريات والدك ؟) فتأثر (لطف علي خان) من هذه الأقوال اللاذعة المقصود بها التقرّيع واللوم . وما أن عاد إلى قصره حتى دعا (ميرزا مهدي) لمقابلته وعاتبه عتاباً قاسياً ثم أصدر أمراً بإحراقه على الفور . ولما علم (حاجي ابراهيم) بنبأ ذلك أسرع إلى القصر ورأى بعيني رأسه جثة (ميرزا) المحروقة ، فدهش لما رأى وبدأ منذ ذلك اليوم — كما قال هو بنفسه للسرايا — يفتقد ثقته في مولاه ولم يعد يطمئن إليه .

وقد ظهر للعيان ما كان يبدو بين الحاكم ووزيره — بعد هذا الحادث — من خلف وشك وعدم إنسجام ، فكان (لطف علي خان) يحاول جاهداً القضاء على ذلك النظام الذي كان قد ارتضاه دستوراً للعمل حتى ذلك الحين ، ولكنه لم يكن من الجسارة والقوة بحيث يستطيع العمل في سبيل ذلك جهاراً وفي وضوح النهار . وذلك خوفاً من نفوذ الوزير الذي كان فضلاً عن تمسك أهالي (شیراز) وتعلقهم الشديد به — حائزاً لثقة ولاية الأقاليم وزعماء العشائر والبيوتات ، أولئك الذين كانوا يحبونه ويؤيدونه .

وكان أخوه قائد المشاة في الجيش ، ولهذا رأى (لطف على خان) أنه من الحكمة عدم استعمال الشدة في الظاهر ولكن استيائه كان واضحا جليا في جميع المسائل التي كان يحتك فيها بالوزير ، مما أفضى في نهاية الأمر إلى اتخاذ الوزير قرارا خطيرا في قرارة نفسه. ألا وهو القضاء على (لطف على خان) خشية أن يقضى عليه هو أخيرا .

وفي هذه الأثناء كان « لطف على خان » يفكر في الزحف على « أصفهان » فبادر إلى تفريق السلطات وتوزيع المناصب العليا كما فعل قبل سفره إلى كرمان فعين من أسرته قائدا لحامية « شيراز » ، وآخر محافظا للقلعة الداخلية ظلما منه بأن هذا التدبير سيقه شروزيه فيشل نفوذه كيلا يغدر به . وبعد أن غير قيادة حامية « شيراز » بصفة رسمية ، دعا إليه « حاجي ابراهيم » في وقت تأهب فيه الجيش للسفر وطلب منه أن يرسل بنجله « ميرزا محمود » إلى المعسكر ، ولما كان هذا النجل صغيرا جدا لدرجة عدم صلاحيته لتولى أى عمل في الجيش فقد تبين لحاجي ابراهيم بجلاء أن « لطف على خان » يقصد بذلك مجرد ابعاد الولد عن والده حتى لا يكون عضدا له ، فازداد قلقه وساورته المخاوف ولعبت برأسه الهواجس ، مما بدا من سوء نية الحاكم ، فطرح عن نفسه فكرة التردد واستقر رأيه على تنفيذ ما أضمره في نفسه ألا وهو تسليم بلدة « شيراز » ، للآقا محمد خان ، وتوحيد الحكم في جميع بلاد إيران .

والواقع أن « حاجي ابراهيم » كان قد فقد نهائيا ثقته في مولاه ولاح له أنه محاط بأعداء ذوي بأس وأنه لا بد له من تقديم خدمة كبرى إلى ملك ذي قوة وسلطان ليضمن حمايته له . وكانت لديه القدرة الكافية على تقديم هذه الخدمة من كافة الوجوه ، إلا أن الألم كان يحز في نفسه ويشعر بعذاب وجداني حينما كان يفكر في عاقبة الاقدام على القضاء على أسرة نبيلة كانت سبب

سلطانه واتساع نفوذه (١).

وما أن بعد « لطف على خان » عن (شيراز) بيضعة مراحل حتى بادر « حاجي ابراهيم » إلى الاستيلاء على القلعة الداخلية وأسر محافظ المدينة وقائد الحامية بكل سهولة وذلك بفضل بسالة الجيش الذي أعده من أهالي البلدة وقاده ابن أخيه الصغير (محمد حسين خان).

ثم طير هذا النبأ إلى أخيه الذي كان مع جيش (لطف على خان) المعسكر على مسافة خمسة فراسخ في قرية (كومه ريشا)، وكان جيش القجارين بقيادة (بابا خان) ابن أخت (أقا محمد خان) يتقدم وقتذاك صوب

(١) كان (حاجي ابراهيم) ابنا لحاجي هاشم الذي كان من أشرف شيراز والذي مات وهو متقدم في السن، تاركا من ورائه أسرة في شدة من العوز والفاقة، إلا أنه لم يمض طويل وقت حتى تلاأ نجم ابنه في الهيئة الاجتماعية وأصبح ذا مكانة رفيعة بين الأشراف بفضل ذكائه المتوقد وسجاياه النادرة، فأحله « كرمخان » - كما سبق - محل أبيه، كما أسند إليه (على مرادخان) الرياسة العامة لجميع أعيان الحيدري الذي يؤلف نصف أهالي شيراز. وحينما خرج جعفر خان من أصفهان وزحف إلى شيراز سلم (حاجي ابراهيم) المدينة له بكل سهولة، ولهذا عينه جعفر خان واليا عاما على فارس، وبفضل هذا المنصب الكبير اكتسب مكانة سامية وسلطانا عظيما، فما كان منه إلا أن قابل عطف جعفر خان عليه بتقديم المساعدة لابنه وإيصاله إلى الحكم.

ويقول السر مالكولم « إنني تكلمت مع حاجي ابراهيم بنفسى بخصوص تسليمه البلد إلى (أقا محمد خان) فقال إنه ما أقدم على هذا الصنيع إلا ورائده خير البلاد وحدثها السياسية، وأنه رأى أن القلاقل والاضطرابات حول الوصول إلى الحكم لا تنتهى. وأن الأمر سواء أتم للزنديين أم انتقل إلى غيرهم فليس هنالك من يمنع الجيش من السلب والنهب والتعدي على الرعية، فإثارا للوحدة السياسية وتوفيرا للهدوء والسكينة في البلاد أقدم على عمله هذا ». المؤلف

هذه الجهات حتى أضحى على مسافة عشرين ميلاً من معسكر (لطف على خان) وفي هذا الوقت أيضاً كان أخو (حاجى ابراهيم) ومن معه من القواد والضباط يستعدون للخيانة، واستقر رأيهم على أن يقوموا فى جنح الظلام بحركة مفتعلة وضجة هائلة يهاجمون خلالها مقر «لطف على خان» بإطلاق الرصاص وشهر السيوف وذلك للدلالة على اجتماع أنصار (حاجى ابراهيم) فى صعيد واحد. وفعلاً نفذوا قرارهم ذات مساء، وفوجئ «لطف على خان» بهذه الحركة فأخذته الدهشة وتملكته الحيرة وأرسل بعض رجاله يستجلون الحقيقة وما لبثوا أن رجعوا إليه يقولون (عليك بالركوب فإن جيشك قد انقلب عليك وصار من ألد أعدائك). فاستمع لقولهم وركب فما تبعه من رجاله وجنده سوى (طهماسب قلى خان القبلى) ومعه سبعون فارساً وتخلف الباقون عن هذا الحاكم المنكود الحظ. فتوجه نحو عاصمة ملكه سنة (١٧٩١م) على زعم أن قواده وعساكره فيها ما زالوا محتفظين بها، ولكنه سرعان ما اصطدم بالحقيقة المرة بعد يومين من تركه لمعسكره؛ حيث علم بما جرى فى (شيراز)؛ وكان قد انضم إليه ثلاثمائة فارس، ومع ذلك فقد أرسل بمجرد وصوله إلى أبواب (شيراز) فى طلب (حاجى ابراهيم خان) كي يسأله عن سبب انتفاضه وانقلابه عليه. فقبل للرسول الموفد من قبله ما يأتى: (إنى عالم بما يضمرك لى لطف على خان، فلكى أضمن المحافظة على حياتى لا بد لى من أن أتخذ التدابير لتجريدك من القوة العسكرية وإبعاده عن البلد، فاذهب إليه وانصحه بأن يصرف النظر عن الاستيلاء على شيراز، وأن ليس أمامه سبيل للنجاة بنفسه سوى الهروب والابتعاد عن هذه المدينة (١)).

ولكن هذا الحاكم الغر الجسور الذى لم يكن له قوة عسكرية يؤبه لها أو

يعتد بها ، قد قابل هذه النصيحة بالرفض قائلاً (ومهما يكن من أمر فهذا الخائن إن هو إلا رجل مدنى لا يجيد الحرب ولا يحسن الطعان ، كما أن جنوده الذين جمعهم من أهالى البلدة من أرباب الحرف والصناعات لن يمكنهم قط الثبات أمام جنودى المدرين) وعلى هذا الاعتبار تقدم نحو المدينة وعسكر بجنوده أمامها ، وأخذ فى إعداد وسائل القتال وكنه ثقة فى نفسه وفى جنده .

ولما رأى (حاجى ابراهيم) جحافل خصمه عمد إلى حيلة جهنمية قلبت فكرة خصمه رأساً على عقب إذ أرسل إلى جنود (لطف على خان) ينذرهم ويتوعدهم بأن كل من له منهم أسرة أو صلة قرابة فى داخل البلدة سوف يعدم أفراد أسرته وذوى قرباه رمياً بالرصاص إذا لم يفارق (لطف على خان) ويعود إلى البلدة على الفور . وكان لهذا التهديد أكبر الأثر فى نفوس الجند الذين انسلوا من الجيش وتركوه زرافات ووحدانا حتى أنه لم يتبق مع (لطف على خان) المسكين سوى نفر قليل سار على رأسهم إلى بلدة (أبى شهر) ولكن آماله تحطمت حين وصلها ، إذ لم يجد من شيخها وقتذاك مثل ما كان يلقاه من شيخها السابق من ضروب العطف والتعزيد والتأييد ، وذلك لأن هذا الشيخ كان مثل سائر الزعماء والرؤساء من أنصار (حاجى ابراهيم) ولهذا اضطر إلى التوجه صوب (بندرريك) ، فقابلته حاكمها بالترحاب والاحلال وأكرم وفادته ، وقدم له كل ما فى مكنته من مساعدة وتعزيد ، وبهذا تمكن من حشد قوة تمكنه من استرداد (شيراز) عند ما تسنح له الفرصة . ومن عجب أنه لم يكن هناك من أثر ظاهر لقلّة أنصار (لطف على خان) وضعف شأنهم وذلك بفضل شجاعته وإخلاص جنده الجدد له وثقتهم به .

وكان أول نصر أحرزه بهذه القوة الضئيلة انتصاره على قوات

(أبي شهر (١) ثم أحرز نصراً آخر على حاكم (كازرون) وأسره وسمل عينيه (٢) الأمر الذي أدى إلى انعدام الثقة به ونفور انصاره منه وانفضاضهم من حوله والانضمام الى أعدائه من جراء عمله الطائش هذا .

ولقد شجعت هذه الانتصارات (لطف على خان) فأعاد الكرة على (شيراز) وألقى الحصار عليها ، ولكنه لم يكن حصاراً شديداً ولا منيعاً نظراً لقلة جنده من المشاة والمدفعية ومع ذلك كان يلتف حوله أنصار الثورة ضد الحكم القائم؛ أولئك الذين كانوا كلهم أملاً في أنه سيوفق في انتزاع الحكم من أيدي خصومه والاستيلاء على (شيراز) ، ولكن الشجاعة التي أبداهما والجهود الجبارة التي بذلها هذا الأمير الشاب الطائش قد قوبلت بأعمال وتدابير رجل متزن على جانب عظيم من الذكاء ورجاحة العقل قد لبس للحالة لبوسها وشعر بخطورتها . فأعد العدة للحادثات قبل وقوعها ، وما كانت تفارقه قط رباطة جأشه في أدق المواقف وأخرج الظروف ، هذا فضلاً عن قوة انتباهه ويقظته ومراقبته الدقيقة عن كسب لأحوال أنصاره ومريديه ، فكان لهذه الصفات الفريدة والخصال الحميدة أكبر الأثر في تاريخ حياة هذا الرجل العجيب . وبعد انفصال (لطف على خان) عن رجال جيشه العصاة في واقعة (أصفهان) ، عاد ذلك الجيش النائر إلى (شيراز) في حالة يرثى لها من

(١) حدث هذا القتال في قرية (تنكستان) حيث فارقت الخيالة التي كانت مع (رضا قولي خان) قائد (أبي شهر) المعسكر وانضمت إلى (لطف على خان) مما أدى إلى اندحار المشاة وهروبهم . المؤلف

(٢) هذا الحاكم هو (حاجي على خان) الذي كان لطف علي خان قد منحه عفوهُ ، ولكنه لم يثق فيه فذهب إلى (أقا محمد خان) . كما أن أخاه الذي كان حاكم كازرون قد تعرض في يوم ما لجيش (لطف على خان) حين عودته من شيراز فنهبه وأخذ الكثير من الغنائم . المؤلف

الاضطراب والتناوب . ومع ذلك فإن عودة هذه القوة قد زاد من بأس عشائر فارس المسلحة ومن خطرهما حيث ارتفع عددها إلى اثني عشرة ألف مقاتل كلهم فرسان . أما المشاة فكانوا خمس الفرسان عدداً ، وكانوا مجندين من بين سكان المدينة ، وكان (حاجي ابراهيم) يعتمد عليهم ويعتز بهم دون الفرسان ، لأن الفرسان — وهم أبناء العشائر — كان مستقبلهم ودوام سعادتهم متوقفاً على بقاء حكومة الزند ، فلم يكن من المعقول إذن أن يوافقوا على رأى (حاجي ابراهيم) ، ويؤيدوا خطته التي تهدف إلى نقل الحكم والنفوذ إلى رؤساء القجر ، في حين أن (حاجي ابراهيم) كان مقتنعا تماماً بأن هذه القوة العشيرية تحول دون تنفيذ خطته المبيتة . ولهذا عمد إلى حيلة جهنمية . ألا وهي تجريد تلك القوة من سلاحها ثم تشتيت شملها ، وقد نفذها بكل حيطة وحذر وعلى عجل ، فبعث إليهم يدعوهم إلى دخول المدينة في ساعة حددها لهم ليوزع عليهم الخلع والنياشين ، فلبوا دعوته ، ولما اكتمل عقدتهم تمكن من إنفاذ غرضه حيث جردهم من سلاحهم دون إراقة قطرة دم واحدة ، وشتتهم في القرى ، فانضم بعضهم فيما بعد إلى جانب أنصار (لطف علي خان) في حين انتظر الباقون مصيرهم المحتوم .

وكان (حاجي ابراهيم) قد حدد لأقا محمد خان موعداً لتسليمه (شیراز) فبادر رئيس القجر بإرسال قوة عسكرية يقودها (مصطفى خان) لنجده ، وفي هذه الأثناء كان (لطف علي خان) قد أعد العدة لمهاجمة خصومه ، فانتهاز فرصة قدوم النجدة القجرية فانقض عليها كالصاعقة ، وبعد قتال عنيف ألحق بها الفشل الذريع وتمكن من تشتيتها شذراً . ولما تراءى نبأ ذلك إلى مسامع (أقا محمد خان) أعلن الحرب وحشد قوة كبيرة أسند قيادتها إلى كل من (جان محمد خان) و (رضا قولي خان) ، وكانت هذه القوة الضخمة تبدو كافية لتقرير المصير بالقضاء على البقية الباقية من فلول الزنديين . وبمجرد أن اتصلت هذه القوة الهائلة بالقوة التي كانت في شیراز توجهت

نحو معسكر (لطف على خان) الذى كانت قواته لا تعدو عشر القوات المهاجمة له ، ومع ذلك رأى هذا الأمير الجسور والقائد الباسل أنه ليس من اللائق الفرار من الميدان خوفاً من عدوه ، فقرر قراره على مقاومة العدو مهما كانت النتيجة ، ثم سبق العدو وأسرع فى احتلال بعض الغابات والأحراش القريبة منه واعتصم بها بعد تحصينها .

ثم اشتبك الجمعان وحمل وطيس القتال وانتصر العدو فى بادىء الأمر بسبب تفهقر فريق من جنود (لطف على خان) وتركهم مراكزهم . ثم انصرف جيش العدو إلى النهب والسلب وانغمس فى جمع الغنائم . فانهز (لطف على خان) الفرصة حين رأى معسكر العدو خالياً من الحراس وانقض بمن معه من الفرسان القلائل كالصاعقة على المعسكر ، وما أن رأى جنوده العصاة ذلك حتى ثابوا إلى رشدهم وتأثروا من شجاعة قائدهم الفائقة وجرأته النادرة ، فجمعوا أشقتهم وطوقوا العدو من جميع الجهات وشنوها عليه حرباً لا هوادة فيها حتى انقلبت هزيمتهم نصراً . وهكذا كسب (لطف على خان) الجولة الثانية وربح هذه المعركة أيضاً حيث أسر وقتل الكثيرين ، وكان من بين الأسرى (رضا قوليخان) أحد قائدى الجيش القجرى .

ولما كان (حاجى ابراهيم) يعلم علم اليقين أن هذا النصر المبين الذى أحرزه (لطف على خان) للمرة الثانية سيعلى شأنه ويدفع بالآهالى والعشائر إلى الالتفاف حوله ، الأمر الذى سيكون وبالاً عليه — بادر على الفور إلى إرسال الوفود إلى (آقا محمد خان) يدعوه للقدوم إلى (شيراز) كي يتولى الأمور بنفسه ، ولما علم هذا العاهل أن الموقف جد خطير زحف سريعاً إلى (شيراز) بقوة تتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألفاً من الجنود المدربين . وكانت نسبة هذه القوة إلى قوة (لطف على خان) كنسبة المائة للواحد . وهذا دليل أيما دليل على أن (آقا محمد خان) كان قد اتخذ تدابير هائلة واضعاً

نصب عينيه شجاعة خصمه وجرأته النادرة. وكان محققاً في ذلك ولا شك ... ولما وصل (أقا محمد خان) بطليعة جيشه الى قرية (ميان) على مقربة من اصطخر (برسبوليس) وأقام معسكره هناك — باغته (لطف علي خان) بهجوم رائع لا يقوى على القيام به إلا الأبطال الذين عركهم الدهر وأصبح ميدان الحرب والنزال أمامهم بمثابة مجلس الشرب واللهو ؛ هذا فضلاً عن أن هذا النضال كان فضلاً في سبيل الاستيلاء على عرش إيران والانفراد بالحكم وأسفر هذا الهجوم عن خذلان مابين لطليعة جيش (أقا محمد خان) واندحار جنودها حيث ولوا الأدبار لا يلوون على شيء . وحمل (لطف علي خان) ببضع مئات من الفرسان حملة شعواء دون خوف أو وجل على جيش يتراوح عدده بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألف مقاتل ، ولكن جدت بضعة عوامل أفضت إلى هزيمة هذا الجيش العرمرم شر هزيمة ، وهذه العوامل لم تكن سوى ظلام الليل الخالك ، وانتشار الذعر والخوف بين صفوف الجيش بسبب فرار وهزيمة الطليعة ، أضف إلى ذلك ما أحدثته جرأة لطف علي خان الخارقة من الدهشة والذعر في قلوب أعدائه .

كل هذه العوامل مجتمعة أفضت إلى تشتيت شمل جنود جيش القجر والفت في عضدهم ، وكان هذا بشيراً بانتصار (لطف علي خان) انتصاراً باهراً (١) ، إذ كان جيش (أقا محمد خان) قد تفرق شمله ووصل سيل المهاجمين إلى معسكر (أقا محمد خان) وفي هذه اللحظة أشار أحد قواد (لطف علي خان) عليه بأن يأمر بوقف القتال على اعتقاد بأن (أقا محمد خان) ترك معسكره ولاذ بالفرار مع فلوله المهزومة ، وأن من المصلحة الحيلولة دون نهب الجيش

(١) ولقد قتل (لطف علي خان) بيده ابراهيم خان رئيس القجر وأتباعه الذين كانوا متربصين للأمير الباسل في مضيق جبلي بين (ميانه) و (ابرز) . المؤلف

للاموال الشاهانية وخزائن الدولة التي جمعت بكل مشقة من عرق جبين الأمة (١) .

ومما يؤسف له أن الأمير قد آمن بصدق هذه النصيحة ، فأمر على الفور بوقف القتال والامتناع عن دخول المعسكر ونهبه ، فصدع الجيش لأمره وكف عن المطاردة ، وانهماك في جمع الغنائم والأسلاب التي خلفها المنهزمون . وفي اليوم التالي وقبيل الفجر حدثت مفاجأة للأمير المنتصر إذ طرق أذنيه صوت المؤذن يجلجل في معسكر العدو فعلم من ذلك هو والباقون في معسكر العدو من الجنود أن أقا محمد خان لا يزال موجوداً في المعسكر (٢) ولم يبرحه قط . ولقد دهش (لطف علي خان) لذلك أشد الدهشة . والواقع أن (أقا محمد خان) حين رأى سوء حال جيشه واختلال نظامه واضطرابه وخذلانه ، وأنه يتعذر عليه معالجة هذه الحالة — فقد لبث في معسكره محاطاً بحرسه الخاص يشاهد عن كثب حركات خصومه وفائق شجاعتهم وبسالتهم النادرة ودقة نظامهم العسكري .

هنا لك علم (لطف علي خان) بأن الزمام قد أفلت من يديه ، وأيقن أن الظفر النهائي قد أصبح منه بعيداً ، وأنه لا محالة واقع في الأسر إذا تريت طويلاً ، ولهذا استقر رأيه على النجاة بنفسه والانسحاب من الميدان بأقصى سرعة .

وفي هذا الصدد نقول أنه لا يجوز اعتبار هذه المحاولة الجريئة لاسترداد الحكم

-
- (١) هذا القائد الناصح هو (ميرزا فتح الله الأردلاني) ، ويقول بعض المؤرخين ان هذه النصيحة قد أبديت بحسن نية بينما يقول آخرون أن الرجل كان جاسوساً لأقا محمد خان وكانت نصيحته بسوء نية متعمدة . المؤلف
- (٢) كانت العادة الاعلان عن وجود الشاه في المعسكر بالأذان . المؤلف

والاستحواذ على النفوذ حركة يائسة لا طائل من ورائها . لأن (لطف على خان) كان قد ثبت له من تجاريه الخاصة أن جيشا كالجيش الذي كان يناضله وقد دبّت فيه روح التذمر والتخاذل ، وسرت في شرايينه عوامل الاضطراب وسوء النظام -- لا يمكنه أن يعود إلى تماسكه وانسجامه ، يضاف إلى ذلك أنه كان يعلم تمام العلم أن كثيرين من رؤساء العشائر والزعماء ما يزالون مترددين بينه وبين خصمه (أقا محمد خان) ، ولا يصدرون في حركاتهم وفي أعمالهم إلا ما تملّيه عليهم ظروفهم الخاصة حسب الزمان والمكان ، وما كان من شك في أن أحدهم إذا اختار الانصياع لأحد الطرفين تبعه أنصاره وأتباعه كذلك . أضف إلى ذلك أن (لطف على خان) كان على حق في أن يأمل الخير كل الخير من وراء هذا الانتصار المنقطع النظير ، لأنه كان قد دنا كافة الوسائل ، ومهد كل السبل لهزيمة العدو النهائية بوساطة وبمساعدة هؤلاء الرؤساء والزعماء .

يتضح من هذا الوصف أن خطة الأمير الباسل كانت خطة سليمة حيث أدت لأول وهلة إلى انتصاره انتصارا أوليا ، وإلى اندحار طليعة العدو وتشيت شملها . ولا شك أن هذا كان أوضح دليل على استعداد الأمير الخارق للعادة ، وعلى جرأته النادرة .

ولكن الظفر النهائي الحاسم لم يحالفه بل أفلت من يده لسبب من تلك الأسباب التي تحدث غالبا في أدق الظروف وأخرج الساعات في الحروب التي من شأنها عادة إسقاط الدول وقيامها .

وكما أن (لطف على خان) كان جديراً بالانتصار والظفر النهائي ، كان (أقا محمد خان) هو الآخر حرياً بأن يضع على رأسه التاج الشاهاني الذي صار خالصاً له منذ ذلك اليوم . إذ لم تخن هذا العاهل رباطة جأشه قط حينما هزم جيشه وولى عنه واضطرب الأمر ، مما يدل على شجاعته النادرة ، وكان لا يفتأ يفكر في هذا الحادث الفذ الذي كان دائماً عالقا بذهنه .

والواقع أن تاريخ إيران الأخير يحتوى على ثلاثة أشياء جديدة بأن
تلقش للأجيال التالية ألا وهى :

(١) قوة (حاجى ابراهيم) (١) ومقدرته الفائقة التى مكنته من المحافظة
على (شیراز) بضعة أشهر بشرذمة من الأهالى المدنيين من بقالين إلى تجار
إلى أصحاب المهن إلى غير ذلك ؛ ويدفع عنها إشراف المعتمدين من جنود العشائر
المحاربين الذين طبعوا وجبلوا على حب القتال .

(٢) بسالة (لطف على خان) وبطولته الرائعة التى حدثت به إلى أن يحمل
يبضع مئات من جنوده على جيش قوامه ثلاثون ألفا أو يزيدون .

(٣) رباطة جأش (أقا محمد خان) حين أدلهم الخطب ، وعظم الأمر ،
وهرب كل من معه ما عداه هو وأتباعه ، فلبث فى معسكره ، وما غادره قط ،
محتفظا بوقاره وثبات جنانه . وأشعر أصدقاءه وأعداءه بوجوده فى مستقره
ومقامه وأنه لم يفر كما زعموا - بأن طلب إلى المؤذن أن يؤذن فى المعسكر .
وبهذا أثبت أن تلك الهزائم والاضطرابات لم تنل منه ولم يتأثر لها ولا بها .

* * *

سبق أن ذكرنا أن (لطف على خان) حين شعر بالخطر المحدق به غادر
ساحة الوغى على عجل وسار لایلوى على شىء حتى وصل (کرمان) ، وهناك
شرع فى حشد القوى وتجهيز الجيوش ... أما (أقا محمد خان) فقد توجه
بجيشه نحو (شیراز) وجيز جيشا آخر (١) لمطاردة (لطف على خان) ، فلما ترمى
نبا ذلك إلى مسامع هؤلاء الجنود القلائل الذين كانوا قد انضموا للأمير
الباسل ، تفرقوا أيدى سبا ، مما اضطر الأمير إلى التوجه نحو خراسان فى

(١) كان قائد الفرسان فى هذه القوة (ولى محمد خان) ، وقائد المشاة
(عبد الرحيم خان) أخى حاجى ابراهيم .
المؤلف

عام ١٢٠٧ للهجرة ، وكان يحكم هذه البلاد حكام محليون مستقلون منذ وفاة (نادرشاه) حتى ذلك الحين . وكان (ميرحسن) وهو أحد زعماء هذه المنطقة يحكم منطقة (توبوس) ومدينتها فعرض خدماته على الأمير وزوده بقوة عسكرية من مائة فارس توجه بها الأمير وبمن كان معه من رجاله المخلصين الذين لازموه ولم ينفضوا من حوله ، إلى ناحية (يزد) ، فأرسل حاكمها قوة لتقطع الطريق على الأمير ورجاله ، ولكن الأمير الباسل بادر بالهجوم على تلك القوة فسكر شوكتها وشتت شملها ، ثم واصل السير إلى بلدة (أبركوه) الواقعة عند الحدود الفارسية فخضعت له هذه المدينة وقدمت له فروض الطاعة فاتخذها قاعدة لأعماله ومستقرا له وأخذ يرسل منها أنصاره المنبئين في الجهات بأن يستعدوا للنضال ، وكان له أنصار غير قليلين ولكنهم مختلفون في جهات عدة فلما سمعوا بانتصاره الأخير خرجوا على الفور من مكانهم وأظهروا تأييدهم له ، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى بلغ عدد الملتفين حوله من الجنود ألفا وخمسمائة كلهم من الفرسان .

وفي عام ١٢٠٨ للهجرة سار على رأس هذه القوة وحاصر مدينة (دارابجرد) التي كانت محتفظة بأهميتها وعامرة بسكانها البالغ عددهم خمسة عشر ألف نسمة أو يزيدون .

ولهذا كان من الضروري ، بل ومن الأهمية بمكان أن يستولى عليها (لطف على خان) ، فلا عجب إذن أن رأيناه سيميدل في سبيل ذلك بمجهودات جبارة . ولما سرى نبأ تحرك (لطف على خان) من جديد في أنحاء المملكة الإيرانية أعد جيش عرمرم في (طهران) لينحرف عليه ، كما بعث (حاجي إبراهيم ، خان) بقوة من المشاة بقيادة أخيه الصغير إلى (دارابجرد) لتعزيز حاميتيها ، فاضطر الأمير إلى رفع الحصار والابتعاد عن تلك المدينة ، ثم حاول الصمود في قرية (رونيز) المحصنة ، وبعد قتال دام بضعة أيام اضطر للقيام بهجوم جرىء

لعل حسن الطالع يلزمه ويواتيه ، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة والجسارة
وتتمكن هو من النجاة والوصول إلى (توبوس) مرة أخرى فقابلته حاكمها
بالاجلال والاكبار وأكرم وفادته ولكنه اعتذر عن مساعدته في هذه المرة
خوفا على مركزه ، وأشار عليه بأن يلجأ إلى (تيمورشاه) حاكم الأفغان
بقندهار ويطلب منه المساعدة حيث أنه هو الشخص الوحيد الذي يمكنه
إرجاعه إلى عرش آبائه وأجداده ، فاقنع (لطف علي خان) بفكرة مضيفه
وعمل بنصيحته وتوجه إلى البلاط الأفغاني ، ولكنه سمع وهو ما يزال في
طريقه إليه نبأ وفاة (تيمورشاه) فاستقر رأيه على البقاء في إيران ووقف
عن السير إلى الأفغان ، وفي الذي كان فيه مترددا بين الاحجام والاقدام وصله
خطاب من زعيمين لمنطقة (نرمانشير = شرقي كرمان) وهما (محمود خان)
و (جهانكير خان) يشيران عليه فيه بعدم مبارحة البلاد ويتعهدان له بتقديم
كل مساعدة ممكنة له إذا ما أقبل عن التفسكير في مغادرة البلاد .

ويقول مؤلف إيراني بحق (ان بريقا ولو ضئيلا من الأمل قد ينقلب
في قلب المحارب الصنديد إلى شعلة موقدة كبيرة) وهكذا كان حال الأمير
الذي تجدد لديه الأمل وقويت روحه المعنوية فقام لفوره وتوجه في الحال
نحو (نرمانشير) وذلك لمجرد حصوله على هذه الوعود والتأكدات .

ولما رأى أن بضعة مئات من الجنود يجتمعون تحت رايته قوى أمله واستقر
رأيه على الاستيلاء على (كرمان) . فاقترب منها بحركة خاطفة كالبرق ،
وشرط قواته شطرين أرسل بأحدهما إلى ضواحي المدينة تحت قيادة عمه الجسور
(عبد الله خان) الذي حاز شهرة في كافة المعارك التي خاض غمارها (لطف
علي خان) - وذلك لمناوشة العدو ومشاغلتة : وأبقى الشطر الثاني تحت قيادته
لمراقبة الحالة عن كثب . ولما رأى أن العدو قد حصر كل جهوده لصد قوة
(عبد الله خان) وأنه منهمك معه بكل قواه في حرب ضروس ، تقدم إلى

الامام وهاجم المدينة من إحدى جهاتها الأخرى . وهكذا وقع العدو بين نارين وأخذت الحيرة قائده ، وقبل أن تشعر حامية القلعة بالخطر المحدث بها تمكن الأمير بقوته المهاجمة من تسلق أسوار المدينة والاشتباك بحامية القلعة التي اضطربت لأنها أخذت على غرة ، ورغم ذلك فقد استماتت في المقاومة واستبسلت في القتال ولكن ذلك لم يجدها نفعا ، ففقدت كل أمل وتخلت عن جميع مراكزها للمهاجمين . ثم اضطرت رجالها للاعتصام بحصون القلعة وأبراجها الداخلية ... وبعد فترة وجيزة تمكن قائدا قلعة (كرمان) من الفرار من القلعة إلا أن أكثر جنودها قد أيّدوا عن آخرهم ، ووقعت كل أثقالهم وذخائرهم وأموالهم غنيمة باردة في قبضة قوات الأمير المنتصر .

وقد أصبح (للطف على خان) بعد هذا النصر المبين مركز الحكام وسلطان الملوك فسك العملة باسمه نخليدا لذكرى هذا الانتصار الحاسم .

ويقول مؤرخو هذا العهد ان طالع هذا الأمير كان يشبه البرق الساطع الذي يشتمد نوره ويقوى لمعانه وقت انطفائه .

هذا ، ولما علم (أقا محمد خان) بسقوط (كرمان) في يد خصمه وكان ذلك في عام (١٢١٠ هـ) بادر إلى الزحف بجميع قواته لمنازلة خصمه فيها . وكان (لطف على خان) لا يكثرث لكثرة جنود عدوه لسبيين ، أولهما أن جنوده قد مروا على أساليب القتال وبرعوا فيها لكثرة ما خاضوا من حروب طاحنة وثانيهما اعتماده على صدق عزيمته وشجاعته النادرة وبطولته الرائعة . ولهذا أمكنه مقاومة عدوه القوى العتيد طويلا ودام الحصار شهرا قاسيا خلاله المحاصرون الكثير من الولايات وصنوف العذاب ، وأخيرا سادت الفوضى وسرت روح التذمر بين بعض الوحدات ، وزاد الطين بلة أن أقدم بعض المشاة الذين كانوا يقومون بالدفاع عن بعض حصون القلعة - إلى تسليمها للعدو سرا .

وقبل أن يتعرف (لطف على خان) جليلة الأمر تمكن بضعة آلاف من جنود العدو من دخول هذه الحصون التي سلمت لهم . وما أن علم بهذا النبأ المفجع حتى بادر بالهجوم على تلك الحصون . وهنا دارت رحى معركة عنيفة بين الفريقين اضطر العدو في نهايتها إلى الانسحاب من الحصون التي دخلها . وكان هذا آخر نصر أحرزه هذا الأمير المنكود الحظ ، إذ حدث بعد ذلك أن أقدم قائد من قواده الذين كان يأتمنهم ويثق فيهم تمام الثقة ، على خيانه سيده ، فقد كان هذا الضابط قائدا عاما لحامية القلعة الداخلية ، هذا فضلا عن أنه كان مشتركاً في الدفاع عن بعض أبراج القلعة الخارجية ، فانهز الفرصة ذات ليلة وفتح الباب المقابل للعدو ، فاقتحمه (أقا محمد خان) وتسرب منه إلى المدينة بسهولة ومعه إثنا عشر ألفاً من الجنود ، وأبقى ما تبقى من قواته لتقديم المساعدة في الوقت المناسب .

ولما علم (لطف على خان) بهذه الخيانة الثانية القاصمة انقض كالصاعقة على العدو ولسكن دون جدوى لأن الموقف كان حرجا وجد خطيرا ، إذ فضلا عن كثرة العدد في داخل المدينة كان خصمه يحتفظ بقوات أخرى كبيرة في خارجها تحميها من كافة نواحيها .

فلما تبين هذه الحقيقة المرة للطف على خان ورأى أن صفوة جنوده قد أيدوا عن آخرهم رجوع القهقري .

وكان كل اهتمام (أقا محمد خان) منصبا على عدم تمكين الأمير من الخروج من القلعة فتكتب له النجاة مرة أخرى ، ولهذا بادر إلى تشديد الحصار على مدينة (كرمان) والاحاطة بها من كافة الجهات بوضع قوات كبيرة حول كل باب من أبوابها . ورغم كل هذه الاحتياطات التي اتخذت ، دافع الأمير الباسل عن نفسه دفاع الأبطال زهاء ثلاث ساعات داخل المدينة ، ولما جن الليل خرج من مكمنه سرا وعمد إلى جمع أنقاض جسر خشبي من مخلفات العدو

واستخدمها في الخروج من القلعة . ثم بقيت أمامه بعد ذلك عقبة كأداء ألا وهي اقتحام صفوف الأعداء المحيطين بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، ولكنه استطاع بشجاعته الفائقة أن يتخطى هذه العقبة ويقتحم هذه الصفوف المترامية كالبنيان واخترقها ومعه ثلاثة من رجاله كالبرق الخاطف ، ونجس من هذا المأزق الحرج ، واستطاع الوصول إلى منطقة (زمانشير) بسلام .

أما (أقا محمد خان) فقد أباح في المدينة بعد أن تسلمها القتل ثلاثة أيام كاملة ، فحصد الأهل حصدا ولم ينبج من مقصلاته سوى النساء والأطفال الذين سلمهم هم الآخرين لعساكره القساة القلوب والغلاظ الأكباد . وكان يهدف من وراء هذه الأعمال الوحشية إلى إرهاب المدن الإيرانية الأخرى حتى لا تقدم على مساعدة الأمير الباسل مرة أخرى .

وقد قوبل (لطف علي خان) بكل حفاوة وإجلال من حاكم (نرمانشير) في بادئ الأمر ، ولكن الحال ما لبث أن تغير ، إذ حدث ذات يوم أن أسر أخو الحاكم — الذي كان قد اصطحب في وقت ما (لطف علي خان) إلى كرمان — إلى أخيه بأن هذه الحماية التي يتمتع بها هذا الأمير اللاجئ ستجر عليه أضرارا بليغة في المستقبل القريب ، إذ أنها ستعرضه لغضب (أقا محمد خان) . وما أن فسكر الحاكم في العواقب ورأى أنها ستكون وخيمة ، حتى نسي أو تناسى العهد الذي قطعه على نفسه بحماية الأمير بل سولت له نفسه أمرا أنكي وأشد . ألا وهو إلقاء القبض عليه وتسليمه لخصمه (أقا محمد خان) اكتسابا لعطفه عليه وتأمينا لمستقبله لديه .

وعلى الرغم من أن أصدقاء (لطف علي خان) ورفاقه قد شعروا بهذا الغدر قبل أن يصير حقيقة واقعة ، ونهبوا الأمير إلى الخطر المحدق به ، فقد أصم أذنيه ولم يستمع لقولهم ، بل تهادى في الغفلة حتى أنه لم يعد يعبا بانفضاض رجاله الذين لازموه في جميع حركاته ، من حوله الواحد تلو الآخر .

ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى فوجيء بجمع غفير من الجنود المدججين بالسلاح يحيطون به. عندئذ وعندئذ فقط أدركته اليقظة ورجع إلى نفسه وأيقن أن ما تنبأ به صحابته كان عين الحقيقة والصواب ، ولكنه لم يقف مكتوف اليدين بل سارع إلى سيفه البتار وهاجم بلا هوادة أولئك الذين كانوا يرومون القبض عليه ، وبعد قتال عنيف تمكن الأمير من الوصول إلى فرسه (١) فامتطى صهوتها ، وفي تلك اللحظة أدركه أحد المهاجمين فضرب ذيل فرسه فبتره ، وسقط الأمير هو وفرسه أرضا ، فتألب عليه المهاجمون ولكنه تمكن من النهوض ، ونشب القتال من جديد بينه وبينهم وكان أعنف من ذي قبل ، وقد أسفر هذا القتال عن إصابة الأمير بجرحين بالغين في رأسه وذراعه ، نفارت قواه وسقط على الأرض مغشيا عليه ، فحملوه بحالته تلك ، وذهبوا به إلى (أقا محمد خان) الذي نهض على الفور -- حين رآه -- ووفقاً بعينه يديه ، ثم أرسله إلى طهران ، حيث ألحقوا به هنا لك من ضروب الاهانة ألوانا ، وعمدوا إلى التشهير به في شوارعها .

ولم يكتف (أقا محمد خان) بذلك بل أمر بالقضاء على الأمير الشاب (٢) الذي كان يتنص مضاجع عدوه القوي البأس البصير بالعواقب وهو منكوب

(١) كان هذا الفرس واسمه (كوررند) من الخيول العربية الاصلية ومولود بايران ، ولهذا كان يضرب به المثل في أنحاء إيران بسرعة الركض والجري ، وكم أتقذ الأمير من ورطات ، بسرعته الخارقة للعادة ولهذا كان الأمير يحبه حبا جما .
المؤلف

(٢) يقول السرجون مال كولم ، ان لطف على خان حينما أحضر بين يدي أقا محمد خان ، عومل من الأخير معاملة وحشية لا يتصورها عقل بشري . وكل من يقرأ هذه الصفحات من الكتاب المذكور يشهد امتعاضه من هذه الأعمال الوحشية .
المؤلف

وفي حالة يرثى لها ، وكان ذلك في عام ١٧٩٤ م (١) . اختفى إذن (لطف على خان) من مسرح الحياة وأسدل عليه الستار قبل أن يكتمل الخامسة بعد العشرين من عمره ، بعد حياة حافلة بأمور جسيمة وحوادث خارقة للعادة . ويقول السر مالسكولم : « ان جانباً من سجل حياة هذا الأمير وسيرته يستحق الرثاء بل والاشفاق ، في حين أن الجانب الآخر منها جدير بكل ثناء وإعجاب ؛ فاذا نظرت إلى أعماله وحركاته الحربية فلن تجد سوى المهارة العسكرية والشجاعة الشخصية النادرة أما إذا نظرت إلى الظروف والأحوال التي كانت سائدة في عهده فستجد أن جميع صفاته وميزاته — إذا استثنينا منها الشجاعة الشخصية -- كانت كلها عليه لا له على خط مستقيم . وكان الأمير قد ولد وشب وترعرع في عهد كانت فيه إطاعة الحاكم إطاعة عمياء فضيلة من الفضائل يتقدسها الجميع ؛ وربما كانت مزايا هذا الأمير لا تقل عن مزايا وسجايا (جنكينز) و (تيمورلنك) ؛ غير أن ظروفه والحالة الاجتماعية التي كانت سائدة حينذاك ولا سيما حين اعتلى أريكة الحكم كانت لا تتفق ولا تتواءم صفاته وآرائه كحاكم يعتمد على شعبه بغض النظر عن صفاته الشخصية ومزاياه الخاصة ؛ إذ لم يكن على شيء من حسن التبصر في العواقب والتروى في الأمور ، ولم يكن لذكائه الخارق أثر فعال في فعاله وحركاته وذلك لظموحه الشديد وأمانيه السياسية الواسعة ، وكان يتملكه الغرور وشدة الاعتزاز بنفسه

(١) كان (أقا محمد خان) يكن لجميع أفراد الأسرة الزندية الحقد والبغضاء ، ولا سيما لهذا الأمير المنكود الحظ الذي كان ينفر منه أشد النفر ، ولكنه كان رغم ذلك يقدر صفاته الشخصية حق قدرها . ويحكى أنه حين بلغه أن ابن أخته وولى عهده (فتح على خان) قد ولد له عدة أولاد في ليلة واحدة — وكان ذلك قبل استيلائه على (كرمان) قال ليت أحد هؤلاء المواليد يكون مثل (لطف على خان) في البسالة والبطولة .

المؤلف

حتى انه أثناء توليه الحكم لم يكن يتنزل ويتفاهم مع ذوى القوة والنفوذ في البلد ، وكاد حان المزاج ، صلب الرأى ، وما توجه لغزو أو لفتح إلا وقد استعمل أقصى ضروب الشدة والغلظة . وكان الظفر يمشى في ركابه أينما توجه ، ولهذا كان يستعمل الشدة بشكل لا يصح أن يقدم عليه إلا حاكم استقرت أموره لا من كان مثله في حاجة إلى اصطناع المعروف لكسب رجال وأنصار بالتغاضى عن الهفوات والتجمل بالأناة والصبر والتسامح في أعماله وأقواله . ولكنه على العكس من ذلك كان بعمله هذا يكثّر من أعدائه من بين رجال أقوياء يصارعون مثله الحوادث الجسام وتصارعهم حوادث الدهر وتقلباته الصارمة .

ومع ذلك فانه لمن الخطأ البين والنقص المعيب أن يهمل مؤرخو العصر الصفات العالية والمزايا الفذة والفريدة التي كان يتمتع بها آخر أمراء الأسرة الزندية . ولقد حكم ملوك الأسرة الزندية في قسم كبير من إيران قرابة نصف قرن ، ولكن حكم هؤلاء الملوك لم يتوطد تماما في البلاد بعد وفاة مؤسس الأسرة وذلك لسببين : أولهما الخلافات الداخلية بين أعضاء الأسرة ، وثانيهما ذكاء خصمه (أقا محمد خان) ودهائه ، فقد كان هذا العاهل منذ اليوم الذى تمكن فيه من إخراج الأمير من (شیراز) ، يسعى سعيا حثيثا آناء الليل وأطراف النهار للقضاء عليه أينما كان ، فما نامت عيناه عنه قط وما استخف مطلقا به . وهكذا حقق أغراضه لا بقواته العسكرية ومعاركة الحرية ولكن بثباته ورباطة جأشه وإصراره على التخلص منه .

ولقد قام (أقا محمد خان) بواجبه كما ينبغى بقضائه على جميع (١) الذين

(١) يقول السر مالكو لم : إنه لم ينج وقتذاك من التنكيل - على ما أعرف - إلا عبد الله خان عم لطف على خان ذاك كان صهر الحاجبى على خان الكازرونى ، فتوسط له لدى « أقا محمد خان » الذى كان يحله كل الاجلال . المؤلف

يظن مقاومتهم لسلطان الحكومة إما بالقتل أو بسمل عيونهم ، ولم يكن الأمر قاصرا على رؤساء العشيرة الزندية بل تعدى ذلك إلى كل عشيرة ساعدت أو آذرت الأسرة الزندية ، إذ أجلاهم عن فارس إلى الأقاليم النائية ، وأسكن مكانهم القبائل الفارسية الأصل (١) .

وقد تمت معظم هذه الاضطهادات والمظالم على يدى (حاجى ابراهيم خان) الخائن . وفى هذا يقر صاحب كتاب (المآثر السلطانية) أعنى تاريخ القجارين ان (حاجى ابراهيم خان) قد ارتكب هذه الأعمال الشنيعة وأقدم على هذه الخيانة أملا فى الاستقلال بشيراز ، ولكنه لم يكن ليبوح بذلك أو يظهره خوفا من (أقا محمد خان) ، بدليل أنه سلم إليه قلعة (شيراز) متظاهرا بالاخلاص ، فنصبه (أقا محمد خان) واليا على فارس ، غير أن أحدا لم يكن ليشك فى خيانة (حاجى ابراهيم) فى الوقت الذى كان يتفنن فيه هذا الخائن الدنى وذوو قرباه فى إزال أنوع المظالم وصنوف العذاب بالزنديين ، فكانوا يجمعون شباب الزنديين ويذيقونهم العذاب ألوانا بوخزهم بالأبر والمسلات فى أكبادهم ، وظلت هذه المأساة تتكرر فصولها إلى أن انتقم الله بعدله المطلق من هؤلاء الشياطين ، حيث سلط عليهم بعد وفاة (أقا محمد خان) بقليل ، الشاه (فتح على خان) الذى أمر بسمل عيني (حاجى ابراهيم خان) وعيون أبنائه ونسائه ، وأصدر أمرا آخر بالقضاء نهائيا على إخوته وسائر

(١) بحث (الحكومة الزندية) هذا مأخوذ معظمه من تاريخ الميجور جنرال (مرجون مال كولم) الذى جاء إلى فارس بنفسه واجتمع فى (شيراز) بحاجى ابراهيم وبأشخاص آخرين اشتركوا فى وقائع الزنديين وذلك بعد انقراض الدولة المذكورة .
المؤلف

أقاربه ، ثم نفاه وأسرته إلى (قزوين) حيث قضى هنالك أخريات أيامه مع أفراد أسرته المحرومين جميعا من نعمة الابصار .

وفي عهد (فتح علي خان) هذا ، انتقض عليه (محمد خان) نجل (زكي خان) مطالباً بالاستقلال بالحكم والسلطة ، واستولى على بعض البلاد الإيرانية حتى (أصفهان) ، غير أنه لم يتمكن من المحافظة عليها ففر هارباً ولجأ إلى الحكومة العثمانية .

ولم تحدث - بعد هذا الحادث - أية محاولة أخرى لاسترداد الحكم ، وهكذا تم الأمر للقجاريين ودالت دولة الزنديين نهائياً .

نظرة عامة في أحوال هذه الحكومة

يقولون إن التاريخ يعيد نفسه ، فما أصدق هذا القول ، إذ كثيراً ما رأينا حكومات تأسست وقامت في البداية في ظل ظروف ملائمة ومشابهة ، ثم ذهبت وتلاشت في ظروف سيئة... ولنلق هنا نظرة عابرة على الحكومات التيمورية والجلالرية والقره قوينلية ، والاق قوينلية ، والصفوية ، والأفغانية ، والنادرية ، لنرى كيف أنها قامت في ظروف مشابهة وحسنة في بادئ الأمر ، وكيف أنها انتهت في ظروف سيئة إلى خاتمة أليمة .

ولأريب في أن مؤسسي هذه الحكومات ، علاوة على مزاياهم الشخصية كان الحظ السعيد يلازمهم وحسن الطالع يسير في ركبهم ، في حين أن أحفادهم كانوا إما يفتقرون إلى تلك المزايا الشخصية العالية ، وإما أن الحظ كان يتنكر لهم والظروف تتجههم لهم .

وهكذا خضعت الحكومة الزندية لهذه القاعدة الأزلية ولم تشذ عنها ، فمثلاً نرى أن (كريمخان) قد تمكن بفضل مزاياه الشخصية العالية من حزم وبسالة فائقة وظروف مواتية ، من إنشاء دولة من العدم ، ولكن خلفاءه لم يبرز

من بينهم من يصلح للحكم والادارة ، اللهم إلا (علي مراد خان) و (لطف علي خان) ، غير أن الأجل المحتوم لم يمهل أولهما كي يقوم بعمل حاسم ينقذ به إيران كلها من الوهدة التي تردت فيها نتيجة لفوضى المنافسين ويضمن لأسرته البقاء طويلا ، إذ أصيب بداء الاستسقاء وسرعان ما برحت به العلة فقضى نحبه وهو ما يزال في ربيع حياته .

أما (لطف علي خان) فهو كما يقول سرما السكولم كان حائزا لجميع الصفات التي كان ينحلي بها كل من (جنسكين خان) و (تيمور لتك) وكانت مبعث شهرتهما . وليس أدل على ذلك من أن ألد أعدائه وهو (أقا محمد خان) كان يعترف له بالبطولة والبسالة . ولكنه وبالإسفاف كان مبتلى بوزير خائن دفي الطبع مثل (حاجي ابراهيم خان) الذي حاول كثيرا أمام (سرما السكولم) تبرئة نفسه من الفعال الشنيعة والتصرفات الظالمة التي بدرت منه نحو ولي نعمته وأحفاده ، لأن كريمخان كان قد قرب والده منه وأغدق عليه من سابغ نعمه كما أن (جعفر خان) كان قد أسند إليه منصبا ساميا وهو حكومة فارس . وهكذا أصبح في مصاف رجالات الدولة الزندية . ولكن ولد هذا الذئب قد غلبت عليه خسة طبعه ودناءة أصله ، فاقترف ما اقترف دون تخرج ضد أولياء نعمته ، وصدق عليه قول الحكيم والشاعر الفارسي المرحوم سعدى (عاقبت كرك زاده كرك شود) أعنى أن الولد سرأيه ، فإن الذئب يكون ذئبا لا محالة .

ويقول مؤلف تاريخ القجار وهو (عبد الرزاق بن نجف قلى) - بكل تزاهة وصراحة - أن (حاجي ابراهيم خان) كان يدبر المكائد ويحيك الدسائس منذ سنوات عدة وأنه ولا شك في أن الذئب الصغير إذا كبر أول ما يبطش يبطش بمريه ، ولو كان لدى (لطف علي خان) بعد نظر جده (كريمخان) وأناته لأمكنه استمالة قلوب أهل شیراز اليه ولسهل عليه حينذاك البطش

بحاجي ابراهيم والقضاء عليه قبل أن يتمكن من تدبير مكائده ، ولكن هكذا شاء القدر فكان ما كان .

نعم ! إن أعمال (أقا محمد خان) الوحشية مع (لطف علي خان) تستحق لعنة التاريخ إلى الأبد ، وتنفر النفوس الحية منها أشد النفور ، لان هذا الزعيم الجبار في الوقت الذي كان يظهر فيه إعجابه بجرأة خصمه وشهامته في الحروب والمعارك - تقدم منه بنفسه ، حين أحضر بين يديه مجروحا ومقيدا . ومد أظافره القذرة إلى هاتين العينين الشهاوين فسملهما ، ثم عامله معاملة يندى لها جبين الانسان على مدى الدهر ويخجل التاريخ من تسجيلها وترديد أسطورتها على صفحاته الخالدة ، كما يقول سرجون مالسكولم .

الفصل الرابع عشر

١٤ - حكومة الامارة البراخوتية (١١٧٢ هـ - ١٣٠٠ هـ)

ذكرنا في المجلد الأول من هذا الكتاب نبذة عن هذه العشيرة البراخوتية ولكننا لم نعط تفصيلات وافية عن أصل هذه العشيرة ونسبها وعن إدارتها قديما . فيؤخذ من بحوث (دائرة المعارف الاسلامية) عن البراخوتية ، أن هنالك بعض عشائر كردية اتجهت من الغرب إلى شرقي إيران وإلى كرمان عقب زوال سلطان المغول عن البلاد ، والظاهر أن عشائر الكوج (١) أى الكرد كانت من بين هذه العشائر حيث استقر بها المقام مع العشائر البلوجية في جبال كرمان .

يتضح من هذا أن (دائرة المعارف الاسلامية) لا تعرف متى وكيف جاءت هذه العشائر الكردية الى بلاد كرمان ... ولعل بحوث المؤرخين التي ستظهر فيما بعد تلقى قبسا من النور على هذا الموضوع الغامض . ويقول المستر كورزن في كتابه (٢) انه كان يقيم بأقليم (سيدستان = سجستان) عشيرة كردية من العشائر النازحة من كردستان ، في وقت نجهله لأسباب غير معروفة وتدعى الآن هذه العشيرة باسم (كردكلى) ، وقد وفقت في تأسيس حكومة مستقلة في بلاد

(١) في كتب الجغرافيا العربية والتاريخ الاسلامى هم القفص والبلوج...

(٢) أنظر حاشية المترجم في آخر الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب .

الغور باسم (ملك كرد (١) = مملكة الكرد) . وقد عمرت هذه الحكومة

من ١٢٤٥ حتى سنة ١٣٨٣ للميلاد أي ثمانية وثلاثين عاما بعد المائة

ولما كانت لغة عشيرة البراخوى مشهورة باسم (كردكه ل = كردكلى) فليس يبعد أن تكون عشيرة (سجستان) هي الأخرى فرعاً من تلك العشيرة البراخوية لاسيما وأن أقليمى سجستان وبلوچستان متجاوران ومتداخلان. ثم تسهب (دائرة المعارف الإسلامية) في سرد التفاصيل فتقول إنه ما دامت عشائر البراخوى ليست من قبيلة الدراويده الهندية فهي على ما يظهر من تلك العشائر السكوجية = القفصية أى السكردية التى نزحت إلى كرمان ثم إلى مكران بعد إغارة المغول ، ثم اختلطت بها بعض العشائر البلوجية والأفغانية ، ونشأت منها (عشائر براخوى) ببلوچستان الحالية . وقد تم هذا الاختلاط وذلك الاندماج - على ما يظهر - رويدا رويدا ، بدليل أنهم أدخلوا فى لهجاتهم بعض الألفاظ الدراويدية ، مما يدل على أن هؤلاء البراخويين عاشوا فترة من الزمن مع الدراويدين حتى أخرجوهم من بلادهم إلى الشرق مثلما دفعوا بأكثر العشائر البلوجية إلى النزوح إلى الهند فراراً من وجه (البراخويين) . ويظهر أن البراخويين قد ساعدوا (نادرشاه) حين دخل الهند مجتاحاً ، وقدموا له جليل الخدمات ، فكافأهم على ذلك باقطاعهم أرض (كهورا) الهندية . وقد حارب (عبد الله خان (٢) زعيم العشيرة البراخوية ومعه نجله (مجت خان)

(١) هم ملوك كرت المشهورون فى التاريخ . التبت عليهم الكلمة . المترجم
(٢) الظاهر أنه حفيد قنبرخان وكان رئيس عشيرة البراخوية أثناء انقراض الدولة الصفوية الايرانية فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى وقد بسط حمايته على راجا من راجوات الهند ضد الجيش الأفغانى ويظهر أنه أخذ زمام الأمور بيده فى مقاطعة ذلك الأمير الهندى ، ولانعلم شيئاً آخر عن مصير هذا الأمير البراخوى . أهمن (كتاب عشرة آلاف ميل أو ثمان سنوات فى إيران) لمؤلفه الميجر برمى مولسورث Sykes لندن ١٩٠٢ م المؤلف

بلوج (داراجات) واستوليا على اراضيهم . وبعد قليل حارب (عبد الله خان) عشائر البكهورا ولكنه قتل في إحدى المعارك ، وكان (مجت خان) ونجله (ناصر خان) رهينين لدى (نادرشاه) . ولقد وقع (مجت خان) في النهاية أسيرا في قبضة (أحمد شاه الدوراني) حاكم الأفغان ومات في سجنه ؛ فأخذ (ناصر خان) في تصريف شئون البراخوي في شكل حكومة تابعة للأفغان ؛ فأنشأ إدارة منظمة للبراخوي في (مكران) و (كهج) ؛ وكان (أحمد شاه) قد أضاف منطقة (شال) و (موستانك) إلى (لأس بيللا) وامتد نفوذه إلى (كراچی) حيث انتزع بضعة بلدان هندية أخرى حتى شمل نفوذه من الغرب . مدينة (بامبور) الواقعة على مسافة مائة وعشرين ميلا من جنوب شرقي كرمان ، كما في كتاب (عشرة آلاف ميل من السياحة في إيران) يتضح من كل ذلك أن أعظم عمل قام به (ناصر خان) هو تنظيم أمور البراخوي وإدارة دفة شئونهم بحكمة وحزم . وكانت هذه العشيرة تنقسم إلى قسمين : سراوان وجاهلاوان ، فعين رئيس عشيرة (رايزاني) زعيما للقسم الأول ، وعين رئيس عشيرة (زهري) زعيما للقسم الثاني . وكانت الاعتبارات العسكرية وحدها هي التي أملت هذا التقسيم ، لأنه كان يهدف من ورائه إلى الحصول على جيش مجهز من طرف كل من الزعيمين . إذا جدد الجدودق ناقوس الخطر . ولما توافرت القوة لناصر خان وتحقق له السلطان والنفوذ على هذا الوجه ، لم يعد يعترف لأحمدشاه بالتبعية ؛ مما أدى إلى غضب أحمدشاه وتجريده حملة عنيفة عليه في سنة (١١٧٢هـ) وألحق به هزيمة منكرة في بلدة (موستانك) وظل يطارده حتى قلعة (كلات) وحاصره فيها أربعين يوما ولكنه لم يتمكن منه فاضطر إلى الصلح على شريطة أن يعترف له (ناصر خان) بالسيادة . وقد استمر (ناصر خان) مستقلا بشئون إمارته يديرها حسبما تشاء وكيفما يريد ، ولكنه كان يلبى النداء ويسارع إلى النجدة متى طالب إليه أحمد شاه

وذلك إذا اشتبك مع غيره في حروب . وهكذا أصبح (ناصر خان) له اليد الطولى في انتصارات أحمد شاه الكثيرة . ولا شك في أن (ناصر خان) أعظم الأمراء البراخوئين حزمًا وعزمًا وشجاعة وحسن تدبير وتدبر في ميسادين الحرب والسياسة .

وقد توفي ناصر خان في عام ١٢١٠ هـ (١٧٩٥ م) ، وكان ابنه (محمود خان) ما يزال طفلاً ولكنه خلف والده ، فركب (بهرام خان بن محبت خان) متن الشطط وأخذ يثير الفتن ويشن الثورات ضد هذا الأمير الطفل ولكن عبثاً حاول ومن غير طائل ، ورغم ذلك لم يستطع الأمير (محمود خان) المحافظة على كل البلاد . إذ خرج من يده قسم منها مثل (كراچی) وغيرها . ثم انقضت أيامه ودالت دولته في سنة ١٨٢١ م ، فخلفه ابنه (مهربان خان) الذي أظهر استعداداً في إدارة دفة شئون الحكم أكثر من والده . وذات يوم التقى به خصمه (أحمد يار خان بن بهرام خان) واشتبك في قتال أسفر عن القبض عليه وإعدامه في قلعة (كلات) . وهكذا ولت أيام هذا الأمير نتيجة للثورات والقلاقل . ولقد فقدت الدولة منطقة (هارانه) و (داحيلي) بسبب انفصال بعض عشائر (جاهاوان) البراخوئية عن بعضها من جراء (داود محمد الكزائي) . كما أن حماية (الشاه شجاع الملك) أدت إلى تعكير صفو العلاقات مع الحكومة الدورانية الأفغانية في عام ١٢٥٠ للهجرة ، كما أفضى سوء إدارة (داود محمد السردار) ومن بعده خلفه (محمد حسين) وقلة تبصرهما بعواقب الأمور إلى توتر العلاقات أيضاً مع الانجليز الذين جردوا قوة عسكرية على (محراب خان) فحاصرت قلعة (كلات) واستولت عليها . وبعد أن قتل (محراب خان) في هذه المعارك ضمت بعض أملاك البراخوى إلى الحكام الدورانيين ؛ وعين (شاهنواز خان) حفيد (محبت خان) أميراً للبراخوئين ، وعلى أثر ذلك استنجد ابن محراب خان بعشائر (نوشيرواني)

ضد أعدائه ، فأقبلت تلك العشائر وبصجتها بضع من السروانية وهاجموا جميعا قلعة (كلات) واستردوها ، وظلت الأمور تتطورر حتى أدت إلى عزل (شاهنواز خان) وتنصيب ابن محراب خان أميرا على البلاد باسم (ناصر خان الثاني) ، وكان قائد الحملة الانجليزية قد وقع أسيرا ، فأحسنوا معاملته ثم أعادوه إلى بلاده عام ١٨٤٠ للميلاد وبعد عام من هذا التاريخ اعترفت الحكومة الانجليزية رسميا بامارة (ناصر خان الثاني) . وفي سنة ١٨٤٣ قطع الأمير علاقته بحكومة الأفغان وأعلن تبعيته للحكومة الهندية ولاتزال هذه التبعية مستمرة إلى يومنا هذا .

وقد توفي ناصر خان الثاني عام ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) ، وخلفه في منصبه أخوه (خداداد خان) الذي اعتزل الحكم في سنة ١٨٩٣ وخلفه (مير محمد خان) في الامارة وهو الآن قائم بإدارة دفة شئون البلاد . (دائرة المعارف الاسلامية جزء أول) .

الباب الثاني

في «الامارات الكردية في العهد الاسلامي»^(١)

كل من أمعن النظر في أحوال الشعب الكردي وظروفه الغابرة، يعرف على وجه التحقيق أن هذا الشعب قديما وحديثا، أولا وآخرآ، كان متمتعا بحريته الداخلية، وحريصا على التشبث باستقلاله في كافة شئونه. فحافظ على هذا الحق الطبيعي حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري بفوارق بسيطة في مدى هذا الاستقلال. وقد حالفه الحظ أحيانا في القرون الوسطى فتيسر له الحصول على قسط وافر من استقلاله الخارجي ولو في بضع أنحاء من وطنه الخالد. ولكن هذه الحالة لم تدم طويلا نتيجة لعوامل داخلية وخارجية، وأسباب اجتماعية وسياسية، إلى غير ذلك من الأحوال العامة التي سلبته الاستقلال الخارجي في كثير من الأوقات، وأرغمته على الاكتفاء بحريته الداخلية والتفرغ لشئون الدفاع عن هذا الحق الطبيعي طيلة العصور الغابرة ضد القوات المحتلة لبلاده العزيزة. ومن دواعي الأسف أننا نفتقر إلى معلومات عن مدى استقلاله في شئونه الداخلية في العصور العريقة في القدم اللهم إلا بعض وقائع تاريخيه قديمة قد تلقى قبسا من الضوء على هذا الموضوع وتعطينا فكرة ما عن مدى ذلك. مثال ذلك أن النضال الذي نراه بين ملوك آشور مع الشعب اللولوى والجوتى والنايرى، وحروب (فرهاد الرابع) ملك البارث مع ميديا الصغرى، وكذا الثورات والحروب التي خاض غمارها الوطن الكردي في مختلف عصور التاريخ الإسلامى ضد المغيرين والحكام الأجانب، لأسطع برهان على تفان الأمة الكردية في الدفاع عن حريتها والتمسك

(١) وهي خمس وثلاثون إمارة أو شبهها في سبع مجموعات. المترجم

بكيانها واستقلالها الداخلي منتهزة بكل فرصة تواترها وكل انقلاب ينتاب البلاد فتدلى فيه بدلوها فتنال من الغاصبين وهم ينالون منها ... ولما كانت هذه الحوادث التاريخية التفصيلية ليس لها تاريخ مستقل أفرده لها المؤلفون . فليس إذن في متناول أيدينا معلومات مسهبة عن مجريات الحوادث في تلك الامارات الوطنية المجاهدة في سبيل الوطن الأكبر ، اللهم إلا نتف من الأخبار والمعلومات الاستطراذية المبعثرة هنا وهناك .. نعم ! إن الأمير شرف الدين البديلي صاحب تاريخ (شرفنامه) قد كتب الكثير عن تلك الامارات الوطنية ولكن كتابته قد وقعت عند القرن السابع ^(١) الهجري وبعضها مقتبس من روايات وأقوال أخذت من أفواه البعيدين عن مواطن الحوادث ولذلك لا يعول عليها كثيراً ، وفي الوقت نفسه ليس في مكننتنا أن نستغنى عنها وعن آراء بعض مؤرخين آخرين مادام الحصول على معلومات أدق وأصدق من أية جهة أخرى متعذرا . وقد قسم المستشرق الكبير والمؤرخ الجليل المسيو (مينورسكي) هذه الامارات الى مجموعات عدة وأفرد لكل منها خلاصة موجزة شافية وسنحذو هنا حذوه ونتهج نهجه . إلا أننا سنغني باعطاء معلومات أكثر تفصيلا عن إمارات البهادينان والسهران والبابان .

﴿ ١ ﴾ - « إمارات ما بين الجزيرة ودرسم » (١ - ٩)

١ - امارة الجزيرة :

جاء في تاريخ (شرفنامه) أن نسب أمراء هذه الإمارة يرجع إلى الاسرة الاموية ^(٢) ، إذ أن هؤلاء الأمراء من ذرية سيدنا (خالد بن الوليد) . ولكن التاريخ الإسلامي العام لم يذكر شيئا عن وجود (خالد) أو عن وجود ابن

(١) كذا في الأصل والصحيح القرن السابع عشر الميلادي أو القرن الحادي عشر الهجري .

المترجم

(٢) ليس في شرفنامه نص على ذلك

له يدعى (سليمان) في كردستان ، كما أنه من المعروف على وجه التحقيق أن ذرية هذا البطل العربي والقائد الاسلامي قد انقرضت في صدر الاسلام ، ولهذا كان من العسير الاخذ بمثل هذه الرواية (١) .

وقصارى القول ان (شرفنامه) يجعل من (سليمان بن خالد) جدا لامراء الجزيرة ، ويقول ان هذه الامارة قامت وأُسست في عهد الامويين . والظاهر أن الدكتور (فريج) قد اتخذ من هذه الرواية أساسا لتقولاته دون أن يفطن

(١) وعلى حسب الروايات الشائعة في جهات (سعرد) و (جزره) أن خالد ابن الوليد مدفون في (سعرد) . في حين أن أخبار التاريخ الصحيح تقول : إنه توفي في (حمص) ودفن فيها . وأعتقد أن انتشار هذه الرواية في كردستان يرجع إلى محبة الشعب الكردي لخالد بن الوليد وإعجابه ببسالة الأبطال وشجاعة الشجعان ، لأن التاريخ ينص على انقطاع ذرية (خالد) في صدر الاسلام . والمتواتر أن له أنجالا ثلاثة سليمان وعبد الرحمن ومهاجر وكان أولهم مع علي رضي الله عنه وقتل في حرب صفين ، وكان الثاني واليا على حمص ففسد له السم في دواء بأمر من معاوية (تاريخ خالد بن الوليد لأبي يزيد شبلي ص ٢٠٨) ويقول مؤلف (أسد الغابة ج - ٢ ص ١٠٤) انه لم يبق أحد من ذرية خالد إذ قضى الطاعون في الشام على أكثر من أربعين من ذريته فورث (أيوب بن سلمة بن عبدالله) أملاكه في المدينة . ويؤيد صاحب (نهاية الأرب) هذه الرواية حيث يقول (فلم يبق منهم أحد شرقا ولا غربا وأن من انتمى إليهم فهو مبطل في اتهمائه ، وكل من ادعى ذلك فقد كذب) ج - ٢ ص ٣٥٦ . هذا ومن المحتمل جداً أن تكون عشائر الجزيرة وحواليها منحدرة من الشعب (الخلدی = السكدي) التاريخي القديم الذي سيطر على (أورارتو) مدة طويلة ثم تشقت نتيجة لاستيلاء السكديين على البلاد ولاسيما أن بعض المستشرقين يعتبر اسم الخلدی أو السكدي من بين الأسماء المشتركة التي تطلق على الشعب السكدي تبعاً للظروف والأحوال ، فكانت هذه الحالة الاجتماعية والتاريخية سبباً في ادعاء الخالدية في تلك الجهات . المؤلف

إلى أنها في حاجة ماسة إلى التمهيد والتحقيق والرجوع إلى مصادر ومراجع أخرى في هذا الصدد، ولهذا أورد أحكاماً خاطئة وبعيدة عن الصواب، لأن رواية (شرفنامه) وحكم الدكتور (فريج) الشاذ الذي بناه عليها لا يتفق كلاهما قطعاً وما أجمع عليه علماء التاريخ والباحثون من عدم صحة الرواية من أساسها . ثم يوغل (شرفنامه) في سرد روايته تلك فيقول إنه بعد وفاة (سليمان ابن خالد) تولى الحكم من بعده أولاده الثلاثة (مير عبد العزيز) و (مير حاجي بدر) و (مير عبدال) وقسموا البلاد بينهم فتكونت من ذلك أسر ثلاث هي العزيزية والبدرية والعبدالية . وتولت (العزيزية) شؤون بلاد الجزيرة وأطرافها بعد انقراض السلجوقيين وقيام دويلات محلية في البلاد. وليس لدينا معلومات تذكرها عن (مير عبد العزيز) وأولاده وأحفاده حتى البطن الرابع وقد كان «تيمور لنك» الفاتح العالمي يعاصر (مير عز الدين بن بدر الدين ابن عيسى بن مجد الدين بن مير عبد العزيز) ؛ وكان مير عز الدين يخشى غزوه لبلاده ولهذا فقد ذهب لمقابلته في (ماردين) إذ ذاك وعرض عليه فروض الطاعة وبذلك جنب بلاده ويلات الحرب .

ولكنه لم يلبث بعد رده من الزمن أن شق عصا الطاعة على ابن تيمور فنشب القتال بينهما وأسفر هذا القتال عن احتلال التيموريين للبلاد، ولم ينج (مير عز الدين) من القتل إلا بشق الأنفس . ولما زال عهد التيموريين من البلاد استعاد أبناء الأمير عزيز مجدهم وأحيوا إمارتهم الموروثة التي عمرت منذ ذاك الوقت حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي ، ثم اختفت من عالم الوجود إثر ثورة (بدرخان بك العزيزي) (١) في عام ١٨٤٧ للميلاد . أما الأسرة (البدرية) فقد نشأت في منطقة (گوركيل = جردقيل) وبقيت

(١) هو المشهور ببدرخان باشا جد البدرخانين ، الأسرة الكردية المتنفذة الشهيرة في الشام وكردستان وتركيا .
المترجم

حتى عهد (شرفخان البدليسي) أي إلى عام ١٠٠٥ للهجرة . وكان أميرها هو أحمد ابن الأمير محمد . والمصادر التاريخية خلو من أخبارهم بعد ذلك . وكانت الأسرة (العبدالية) قائمة في منطقة (فنيك) وظلت معمرة حتى عهد السلطان سليمان القانوني ثم ضمت إلى إمارة الجزيرة .

٢ - إمارة خمزان :

يقول (شرفنامه) ان نسب حكام هذه الامارة إنما يرجع إلى أسرة من (خنس) حيث كان أخوة ثلاثة وهم (دل بك ، بل بك ، بليج بك) أمراء في (خمزان = هزان) (١) و (مكس) و (اسبارد) . ويظهر أن هذه الامارات الثلاث نشأت في أواخر عهد السلاجقة ، وكانت (نيران) أقوى العشائر في تلك البلاد . وعمرت هذه الامارات مدة طويلة حتى عهد العثمانيين . وفي الوقت الذي كان يجري فيه تأليف (شرفنامه) في عام (١٠٠٥ هـ ١٥٩٧ م) كان (مير حسن) هو أمير (خمزان) وكان (مير أحمد) أمير (مكس) في حين كان قسم من (اسبارد) مخصصا لآبناء الأمير شرف .

٣ - إمارة شيروان :

يقول (شرفنامه) انه حين انقرضت حكومة الايوبيين في سوريا وزال حكمهم منها في عام (٦٦٢ هـ) ، جاء أمير من أمراء تلك الأسرة الملكية الكردية إلى بلدة (حصن كيفا) وأسس على مدى الأيام إمارة (ملكان = الملوك) ، وأن آباء أمراء (شيروان) (٢) وأجدادهم كانوا وزراء في إمارة هؤلاء الملكانيين الايوبيين بحصن كيفا ومن أسرهم ، ويقال إن إخوة ثلاثا من هؤلاء النبلاء أبناء الوزراء وهم (عز الدين ، بدر الدين ، عماد الدين) جاءوا في وقت ما إلى بلدة (كفرا - شيروان) ، ووضعوا أساس إمارة محلية في تلك

(١) كان قضاء في لواء بدليس بتركيا .

(٢) اسم منطقة في ولاية (وان) القديمة مركزها مدينة كفرنج المؤلف

المنطقة بتعصيدها من أهلها ومؤازرة حكومتها القائمة بالأمر فيها. وكان (مير حسن ابن إبراهيم) أول أمراء هذه الأسرة ، وقد قسم بلاد إمارته بين أبنائه في حياته وقبل مماته ، على أن يكونوا جميعهم تابعين لأمير (كفري) . . . وكانت هذه الامارة وفروعها (شبهستان ، ايرون ، آويل ، كفرا) قائمة في أوائل العهد العثماني وظلت قائمة خلال هذا العهد مدة طويلة .

٤ - اماره برليس (بيتليس) :

كان مؤلف (شرفنامه) من أمراء هذه الامارة ومن سلالتهم التي توارثت الملك كبرا عن كابر بيد ليس . ولهذا تمكن من جمع الكثير من المعلومات الشيقة والحقائق التاريخية عن هذه الامارة ، سطرها وسجلها على صفحات كتابه القيم .

ولقد أرجع نسب هذه الأسرة إلى الساسانيين ملوك إيران القدماء ، ولكن الدكتور (فريج) لا يعترف بهذا القول ويظهر أنه على حق في عدم اعترافه به ، لأن (شرفنامه) يذكر في هذا الصدد تفاصيل محشوة بأسماء ووقائع لا تتفق مع التاريخ الصحيح . ثم يقول الدكتور (فريج) : « ان أول أمير لبد ليس حسب المعلومات التاريخية الصحيحة هو الملك الأشرف الذي كان قبل ذلك قائدا من قواد الأيوبيين في سوريا ، وأنه حين وصول جلال الدين خوارزمشاه إلى هذه الأنحاء بسط حمايته للخوارزميين ، وقام بأجل الخدمات لتوفير الراحة للسلطان جلال الدين ، ولكنه أضطر أخيرا لإخراجه من بلاده تحت ضغط المغول الذين كانوا يتعقبون السلطان ويطاردونه من بلد إلى بلد ... » ولكني أرى أن رأى الدكتور (فريج) هذا أيضا رأى ناقص إذ أن ظهور جلال الدين خوارزمشاه يصادف عهد الملك الأشرف ابن الملك العادل الأيوبي حاكم سوريا وقتذاك . وأن هذا الملك هو الذي تحالف مع السلطان علاء الدين كيقباد من سلاجقة الروم ضد جلال الدين

خوارزمشاه ، فأرسل جيشا يقوده الأمير (عز الدين عمر الحكارى) نازل به جلال الدين وألحق به هزيمة منكرة على مقربة من (أرزنجان) ، وكان ذلك فى عام ٦٢٧ هـ ، فيؤخذ من هذا أن الأمير عز الدين عمر الحكارى الذى كان قائدا من قواد الأيوبيين بسوريا هو أول حاكم على بدليس . هذا وكان أمير (بدليس) فى عهد تيمورلنك هو (حاجى شرف بك) فقدم له فروض الطاعة ، فأقطعه تيمورلنك إقطاعات واسعة مثل (پاسين) و (ملازكرد) فضمها إلى أملاكه الموروثة . بيد أن هذا المجد لم يدم طويلا إذ مالبت أن قلب له الدهر ظهر المجن وسلط عليه (آيق صوفى) وكيل تيمورلنك وعامله فى تلك الجهات فقبض عليه وألقى به فى غياهب السجن ثم قضى عليه ، فلجأ ابنه الأمير (شمس الدين) مع زعماء العشيرة الروجكية إلى إيران . ويقول (شرفنامه) أن أمير شمس الدين تولى الامارة بعد والده (حاجى شرف بك) ، وفى عهده لجأ (قره يوسف) القره قوينلى إلى (بدليس) فأكرم أميرها وفادته ، ثم مالبت أن زوج ابنته من هذا الأمير ، فتوثقت بهذه الزيجة الروابط بينهما وعلا شأن (قره يوسف) بفضل المساعدات التى كان الأمير يقدمها له وتمكن من إحياء الدولة القره قوينلية مرة أخرى وعمرت هذه الامارة حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى تتخللها فترات متقطعة حيث انتزعتها الحكومة العثمانية سنة (١٨٣٦ م) من يد (شرف بك) الذى كان آخر أمرائها .

ومن أبرز حوادث هذه الامارة إلتهاء والد (شرف خان المؤلف) إلى إيران ثم عودته إلى بدليس واعتراف الحكومة العثمانية بامارته عليها حسب الاصول والعادات الموروثة . وفى عام ١٠٦٦ للهجرة تذرع (ملك أحمد باشا) والى (وان) العثمانى ببعض الاسباب وزحف على (عبد الخان) أمير بدليس حينذاك بجيش لجب ، الكثرة فيه من الاكراد المجاورين لهذه الامارة ، وظل يقاتله حتى اضطره إلى الفرار ، وأعمل يد النهب والسلب فى البلاد حتى قضى على الامارة .

٥ - اماره صاصونه :

كانت الأسرة الحاكمة في هذه الامارة من سلالة (مير عز الدين) أخى (مير ضياء الدين) أمير (بدليس) أعنى كانوا أبناء عمومة ، وكانت تعرف باسم (عزى) نسبة إلى (عز الدين) . وتأق هذه العشيرة الصاصونية في المرتبة الثانية بالنسبة لعشيرة (روزيكى = روزكى) (١) البدليسية ، وكانت تتألف من فرق أربع وهى (شيراوى ، بابوسى ، سوسانى ، طاموقى) ، وبعد أن ضمت منطقة (أرزن — غرزان) لامارة (صاصون) خضعت العشائر الخالدية والدير مغانية والعزيزية أيضا لأمرأ صاصون . ويقول مؤلف (شرفنامه) ان مؤسس هذه الامارة هو الأمير (أبو بكر) الذى وضع أساس إمارته فى عهد حكومة الآق قوينلية . ثم خضع أمرأ (صاصون) لسلطان الشاه (اسماعيل) الصفوى حتى حدثت معركة (جالديران) الشهيرة بين الايرانيين والعثمانيين فانضم (محمود بك) الصاصونى للعثمانيين ، وضمت إليه قلعة (أرزن) التى جرت حولها فيما بعد معارك دامية بينه وبين الملك (خليل) حاكم (حصن كيفا) . وعمرت هذه الاماره مثل الامارات الأخرى فترة كبيرة من الزمن فى عهد العثمانيين . (حيث كانت مشهورة باسم حزو = حظو . المترجم)

٦ - اماره السوبيريه :

يقول مؤلف (شرفنامه) ان أمرأ هذه الامارة هم أحفاد البرامكة .

(١) كانت هذه العشيرة تتألف من أربع وعشرين فرقة فى قسمين (عباسى وكواليسى) ، فكانت فرق أربع منها تسكن منذ البداية فى أطراف بدليس ثم انضمت إليها عشرون فرقة أخرى . وفى رواية أخرى انها تمكنت من انتزاع قلعة بدليس من ملك الكرج (داويد) فيما بعد . المؤلف

وجاء في رواية أخرى له، أن العشيرة السويدية جاءت إلى كردستان من بلدة تدعى (سويد) (١) على بعد فرسخين من المدينة المنورة من ناحية الشمال. وذكرت الروايات المختلفة أن هذه الإمارة قد أسست قبل الآق قوينلية بزمان طويل حيث أن خامس أمراء هذه الأسرة كان يدعى (مير نغر الدين) فالتجأ أخوه إلى (حسن الطويل) سلطان الآق قوينلية فأقطعاه السلطان قلعتي (خان چوك) و (جباقجور). وكانت بلدة (كنج) مركزا للإمارة أصلا. وفي عهد (شرخان) كان سليمان بك أمير السويدي وكانت الدولة العثمانية تجلها جلالا تاما. وقد دامت هذه الإمارة أيضا كالامارات الأخرى في عهد العثمانيين مدة طويلة.

٧ - إمارة البازوكيين :

جاء في رواية أن عشيرة البازوكي إيرانية (٢)، وجاء في أخرى أن أمراء هذه الإمارة كانوا من العشيرة السويدية. وتنقسم العشيرة البازوكية إلى قسمين هما (خالد بكو) و (شكر بكو)، وكان القسم الأول حاكما ومستوطنا بمنطقة (خنس وملاز كرد وقسم من موش)، أما القسم الثاني فكان خاضعا لحكم أمير بدليس.

وليس لدينا معلومات عن التاريخ القديم لهذه الإمارة، اللهم إلا اسم مؤسس القسم الأول وهو (حسين علي بك)، وكان (خالد بن شمسوار بك بن حسين علي بك) في محبة الشاه اسماعيل، وقد نال شهرة بحروبه العديدة

(١) الأقرب إلى الصحة والعقل، أنها قدمت من قلعة السويدياء الواقعة بين آمدو الرها والمعروفة الآن بين السكرد ب (سوراك) وفي لغة الترك (سيوهرك) ولا معنى لسويد المدينة المنورة ولا غير هاهنا. المترجم

(٢) أي من أكراد إيران بدليل ذكر (شرفنامه) لهذه الإمارة ضمن الامارات التي أسستها الأكراد في إيران وليسكن المؤلف راعي الموقع الجغرافي للإمارة فذكرها في البلاد العثمانية (تركيا) الحالية. المترجم

وبطولته الرائعة حتى أنه فقد إحدى ذراعيه في إحدى المعارك فاشتهر بخالد ذى اليد الواحدة وأعطاه الشاه لقاء أعماله الباسلة بلدتي (خنس) و (ملاز كرد) وناحية (أو خكان (١))، ولكنه شق عصا الطاعة على الشاه فيما بعد، وأعلن استقلاله عنه، ثم التجأ إلى السلطان (سليم ياوز) ولكنه ما لبث أن شق عليه الطاعة أيضاً، فأمر السلطان بالقبض عليه وقتله. وقد عمرت إمارة هذه الأسيرة مدة طويلة. وفي عهد إمارة (قالبج بك) هاجر قسم من هذه العشيرة إلى مناطق عشيرة الدنبلية (دوملي) واندجحت فيها، وهكذا خضعت لسلطان الدولة العثمانية.

٨ - إمارة مردهسى (مرداسى = مرديسى)

يقول (شرفنامه) أن نسب هذه الأسيرة يرجع إلى العباسيين، وأن مؤسسى هذه الإمارة شيخ يدعى (بير منصور) قدم من حكارى إلى قلعة (أكيل) وأقام بها حتى علا شأنه. ولما مات، خلفه ابنه (بير موسى)؛ ولما مات (بير موسى) خلفه ابنه (بدر) الذى ما لبث أن ازداد نفوذه وقويت شوكمته فاحتل قلعة (أكيل) نهائياً، وقد سميت هذه الإمارة بالمرداسية نتيجة تعصيد العشيرة المرداسية لهذا الشيخ في تأسيسها. وبعد فترة من الزمن استولى السلاجوقيون على قلعة (أكيل) فاجأ (بير بدر) مضطراً إلى (ميفارقين) حيث لقي حتفه في ساحة الوغى أثناء هجوم (آلب أرسلان) على هذه المدينة وبعد رده من الزمن، وضع (بولدق) ابن (بير بدر) أساس أسرة (أكيل) التى تشعبت منها فيما بعد أسرتا (بالو) و (جرموك = جرميك = جرموق) وظلت هذه الأسرة تتوارث الإمارة حتى ضمت في عهد الشاه اسماعيل الصفوى إلى العثمانيين.

(١) كذا فى الأصل وفى (شرفنامه) طبعة روسيا (أو حكان موش) وطبعة القاهرة (أو جكان موش) فليحرره المترجم

٩ - اماره جمشكزك :

جاء في رواية أن الأسرة التي أسست هذه الامارة هي من أحفاد العباسيين . وفي رواية أخرى أنها من سلاله السلجوقيين . والمعروف لنا أن تأسيس هذه الامارة إنما يرجع إلى (ملك محمد) ووالده ؛ فقد حارب ملك شاه ابن ملك محمد ، السلاجقة في عام (٥٩٦) ليستقل عنهم . ولكنه قتل في المعركة وسقطت البلاد غنيمة باردة في قبضة السلاجقة . وبعد فترة من الزمن قام ابنه ، ملك محمد ، باحياء الامارة من جديد ، فاستولى على اثنتين وثلاثين قلعة وست عشرة ناحية من أمهات بلاد الامارة . وقد اشتهرت عشيرته باسم (ملكشاهي) ، وفي اللهجة الكردية باسم (ملكيشي) ؛ وقد علا شأن هذه العشيرة وامتد سلطانها على سائر البلاد ، وأصبحت كلمة (جمشكزك) علما على كردستان بأكمله . وحافظت هذه الامارة على نفوذها وسلطانها في عهود المغول والتموريين والقره قوينلية ، ولكن نفوذها أخذت تضائل في عهد الآق قوينلية وبدأت تفقد سلطانها بسبب عشيرة تركية قوية قد زجت بنفسها وتداخلت بين عشيرة (ملكيشي) على الرغم من مقاومة (بير حسين) للعشيرة الدخيلة وإخراجها من البلاد مرارا ، ورغم إطاغته أيضا للشاه اسماعيل وخضوعه له . ولكن كل ذلك لم يحده فتىلا فسقطت البلاد في أيدي القزل باش من رجال الشاه اسماعيل الصفوي الذين كانوا من التركان المتعصبين للشيعة . وبعد فترة من الزمن أعاد السلطان سليم إماره جمشكزك إلى الأمير (بير حسين) الذي أثارت بسالته وبطولته إعجاب السلطان سليم وتقديره له . وقد هاجم هذا الأمير الهمام ، (نور علي) حاكم جمشكزك الإيراني وقتله واسترد إمارته ، وبعد وفاة الأمير (بير حسين) تشعبت إمارته إلى ثلاث شعب (مجنكرد وپرتك وسقمان) واستمرت تلك الشعب حتى أواسط عهد العثمانيين . وكان للأمير (بير حسين) عدا زعماء الثلاث المقاطعات من الأنجال . تسعة أنجال كانوا حكاما بالمقاطعات المختلفة من البلاد العثمانية على سبيل التملك .

بـ «الامارات الكردية فيما بين الجزيرة وكاس» (١٠ - ١٣)

١٠ - اماره مصن بيف :

يقول (شرفنامه) ان ملوك هذه الامارة من أحفاد السلالة الايوية ، وان أول حاكم من هذه الأسرة هو الملك (سليمان) الذى كان ملكا في عهد الجنسكيزيين . وعلى هذا يكون عام (٧٣٦) للهجرة ، هو العام الذى قامت خلاله هذه الامارة . وكانت العلاقات ودية وطيبة للغاية بين الملك محمد بن الملك سليمان وبين المغول والايرائيين . وفى عهد التيموريين كان يحكم الامارة حفيد الملك محمد المدعو الملك الأشرف فقابل (تيمورلنك) فى (ماردين) وقدم له فروض الطاعة . ثم سلك ابنه الملك خليل مسلكه فى تقديم فروض الطاعة للتيموريين . ولقد كان الملك خلف (أبو سيفين) ابن الملك خليل ، على جانب عظيم من البسالة والجرأة . فاستمات فى الدفاع عن (حصن كيف = حسنكيف) ضد هجوم الآق قوينلية ، ولكن أحد قواده قدخانه ، فادت خيائته إلى سقوط القلعة وزوال سلطان هذه الأسرة إلى حين .

وقد لجأ أمير من أمراء هذه الأسرة ويدعى (الملك خليل) إلى مدينة (حماه) فى الوقت الذى كان يتطاحن فيه رجال الآق قوينلية ويتقاتلون جريا وراء السلطان والنفوذ ، فانتهاز فرصة تطاحنهم وعاد إلى كردستان ، وهناك أزرته العشائر الكردية ومدت إليه يد المساعدة . وبهذا تمكن من الاستيلاء على (سمرد) وعلا شأنه وما لبث أن استرد (حصن كيف) وأعاد بناء إمارته من جديد .

وعلى الرغم من أن الملك خليل قد حسن علاقاته بالصفويين وصاهرهم حين استيلائهم على البلاد ، إلا أن ذلك لم يحل دون غدر الشاه اسماعيل به

إذ ألقى القبض عليه وسجنه في سجون (تبريز) الرهيبة ، ولبت فيها حتى نشبت معركة (جالديران) الشهيرة بين الشاه اسماعيل وبين السلطان سليم ، فنجوا السجين وعاد إلى إمارته . ورضى عنه السلطان سليم وحماه ، وقد ظلت هذه الحماية قائمة فترة من الزمن في عهد أحفاده وخلفائه أيام العثمانيين الذين قضوا على هذه الامارة فيما بعد .

١١ - اماره سلیمان = سليمانى .

يرجع (شرفنامه) نسب أمراء هذه الأسرة إلى إخوة ثلاثة كانوا أبناء (مروان بن محمد) آخر خلفاء بني أمية ، ويقول إن هؤلاء الاخوة قد وفدوا إلى منطقة (قراب (١)) بعد زوال السلطان عن بني أمية ، وقد علا شأنهم وقويت شكيمتهم بفضل المساعدة التي قدمت إليهم من عشيرة (بانوكى = بانه كى) السكردية ، وما لبثوا أن امتد سلطانهم حتى البلاد الواقعة على نهر دجلة حيث انتزعوا بضعة قلاع ومدن من الأرمن والكرج الذين كانوا مستولين عليها وضموها إلى تلك المنطقة التي وفدوا إليها وبهذا وضعوا أساس حكمومه قوية .

وكانت غالبية الثمانية عشائر الكبرى التي كانت سكان هذه الامارة ، من الرحل السنين واليزيديين . وكانت عشيرة (سليمانى (١)) من بين هذه العشائر . ويرى (شرفنامه) أيضا أن مؤسس هذه الامارة كان يدعى (مروان) وأنه في عهد (ديادين بن ابراهيم بن عز الدين بن بهاء الدين بن مروان) خامس أمير بعد هذا الأمير الأول ، ظهر الشاه اسماعيل الصفوى ، وقد أحسن الأمير (ديادين) علاقاته مع والى (ديار بكر) من قبل الصفويين

(١) قضاء في ولاية بدليس القديمة ولواء كنج بتركيا الحالية المؤلف
(٢) هي (سليمانى = سليوانى) الحالى القاطنة في اطراف ميافارقين . المترجم

ووفق إلى مصاهرته . وبعد وفاة هذا الأمير انتقلت شئون الحكم إلى أيدي
أبناء أخيه فنشأ من ذلك أسرتان .

(١) - أسرة كيب = كلاب (قولب) وبطمان . (٢) - أسرة ميفارقين .
وقد دامتا حتى أوائل القرن العشرين الميلادي محتفظتين بالسلطان والنفوذ
إلى حد ما .

(دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ١٦١)

١٢ - إمارة زراكي (زربكي = زرقى)

يقول (شرفخان البدليسي) ان لفظ (أزرقى) هو أصل هذه التسمية
وان مؤسس هذه الإمارة (الشيخ حسن) قدم من سوريا إلى ماردين ، وهناك
اشتهر بالصلاح والتقوى والورع ، وكان يرتدى ثوبا أزرق باستمرار ومن
هنا سمي بالأزرقى ثم خفف هذا اللفظ إلى زرقى . زركى ، زراكي زيريكى .
هذا وبعد قليل ، قبض حاكم (ماردين) الذى يحتمل جدا أن يكون من الآق
قورينية ، على هذا الشيخ وألقى به فى غياهب السجن ، ولسكن الشيخ أظهر
كرامة بخروجه من السجن بعد فترة قصيرة ومصاهرته لحاكم (ماردين) ، وبذلك
عاد للشيخ سلطانه ونفوذه . وبعد وفاة هذا الحاكم انفرد الشيخ بالسلطان
والحكم فى (ماردين) . ثم ظهر من سلالته أسر أربع مالبكة (١) درزني
(٢) كردكان . (٣) عتاق . (٤) ترجيل . وقد أسس الأولى (هابل بن الشيخ) فى
قلعه (ديرزير) . . . وأسس الثانية حفيد هابل فى قلعة (كردكان) بين ديار بكر
وميفارقين . . . وأسس الثالثة أمير زرقى فى قلعة (عتاق) . . . أما الفرع الرابع
فقد قام فى قلعة (ترجيل) على مقربة من ديار بكر . . . وعمرت هذه الأسرات
الأربع ، وقتا ليس بقصير فى عهد العثمانيين .

١٣ — اماره كلسى وأعزاز :

تقول (دائرة المعارف الإسلامية) انه لاشك في أن نسب أمراء هذه الإمارة إنما ينحدر من أسرقى إمارتى حكارى والعمادية .

ويقول (شرفنامه) ان أصل هذه الأسر الثلاث ينحدر من العباسيين حيث كان هنالك اخوة ثلاثة أحدهم (شمس الدين) وكان جدا للأمراء الحكاريين ، ثانيهما يدعى (بهاء الدين) وكان جدا للأمراء البهدينانيين ، وكان ثالثهم وهو (منتشا) جدا لأمراء كلس ، ثم حدث تحريف فى أسمائهم تبعاً للجهة السكرمانج فصاروا (شمدين ، بهدين ، مند) . وقد أعد أحدهم وهو (منتشا = مند) قوة كردية واصطحبها معه إلى الشام حيث دخل فى خدمة الأيوبيين . وقد أقطعه أحد السلاطين الأيوبيين ناحية (القصير) على مقربة من أنطاكية بسوريا ، مما أدى إلى علو شأنه فى تلك الجهات حيث التفت حوله أيضا أكراد (جوم) و (كليس) من السنين واليزيدية على السواء . وقد جد فى خدمة الأيوبيين وأخلص لهم حتى كافأوه أخيراً باسناد منصب أمير أمراء أكراد الشام وحلب إليه عن جدارة واستحقاق . وفى عهد السلاطين المماليك خلفاء الأيوبيين انشغل (مند) كثيراً باليزيديين ، كما دخل الأمير قاسم فى عراك شديد مع (شيخ عز الدين) رئيس اليزيدية فى عهد العثمانيين الذين بسطوا حمايتهم لليزيديين بفضل سياسة (قرهجه أحمد باشا) والى حلب الذى قبض على (قاسم بك) وقتله ، وبعث بابنه الصغير (جانبولاد = جانبلاط) بك إلى أستانبول وهناك أدخلوه السراى السلطانى ليتلقى تربيته العسكرية فيه مع أبناء الملوك وهكذا آل منصب أمير أمراء السكرد بحلب والشام إلى (شيخ عز الدين) .

وفى عهد السلطان (سليمان) عادت الأمور سيرتها الأولى ، فاستند منصب الإمارة إلى (جانبلاط) ، وظل الحكم يتوارثه أحفاده حتى عهد السلطان أحمد العثمانى .

وأخيراً رفع الأمير (علي) راية العصيان على الدولة العثمانية وأعلن استقلاله عنها في (حلب) ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ جردت عليه الدولة العثمانية جيشاً لجبا بقيادة الصدر الأعظم (قويوچى مراد باشا) هزمه هزيمة شنعاء. وبذلك أسدل الستار على هذه الإمارة هي الأخرى وكان ذلك في عام ١٠١٦ للهجرة

« وما يذكر بهذه المناسبة أنه بعد التجاء الأمير علي (علي باشا) إلى استانبول سنة (١٦٠٧ م) قد تمكن بعض من أعضاء أسرته الجانبلاطية من النجاة من شر (قويوچى مراد باشا) والاختفاء في جهات حلب وكلس. ففي سنة (١٦٣٠ م) أتى لسعيد بك جنبلاط زاده مع ابنه (رباح) الذهاب إلى بيروت والالتحاق بأسرة المعننين (آل معن) أمراء لبنان ، لما كان بين الأسرتين من الود والصلات القديمة فأقبل عليه رجال لبنان وعظماؤه وأكرموا وفادته ودعوه إلى الإقامة في الجبل . وفعلاً أقام سعيد بك في (مزرعة الشوف) وسرايمير الجبل حينئذ وهو الأمير (فخر الدين) من لقائه فأدخله ضمن رجاله الأخصاء . وفي سنة (١٦٤٠) أرسل الأمير سعيد بك ، إلى قلعة (شقيف أرنون) محافظاً لها ومعه خمسون رجلاً من جنوده . غير أن سعيد بك توفي إلى رحمة الله في نفس السنة ؛ كما أن ابنه (رباح) لم يعيش بعده إلا بضعة سنين معدودة تاركاً وراءه ثلاثة من الأمراء (علي ، فارس ، شرف الدين) فتزوج علي ابنة الشيخ قبلان من كبار شيوخ الشوف حيث صار فيما بعد شيخاً ورئيساً للشوف بدل حميه الذي توفي سنة (١٧١٢) وهكذا أتيت له الفرصة لأن يظهر مواهبه في حسن الإدارة والعدل في المعاملة والحزم في الأمور ، بما أكسبه محبة الأهالي وتقدير الشهابيين له لإخلاصه وتفانيه في الخدمة . وقد توفي إلى رحمة الله في سنة ١٧٧٨ في بلدة (بعذران) تاركاً على صفحة الوجود ستة من الأبناء ، تولى منهم (قاسم) مكان أبيه الأمر ، فأحسن السيرة في عهد أحمد باشا الجزار الذي كان راضياً

عنه ، غير أن ابنا له يدعى (بشير) قد شق عصا الطاعة على سلطة أحمد باشا
الجزار لظلم عساكره الأهالي وعيشتهم في البلاد الفساد ، مما حمل الأهالي على
أن يلتفوا حول هذا الشاب الذي لم يكن قد بلغ أكثر من أربعة عشر عاما
من عمره ، فقد هزم جنود أحمد باشا الجزار مراراً ، وساقهم حتى مدينة صيدا
منهزمين واستولى على كثير من الغنائم والأسلاب . ولما توفي والده في الشام
انتقلت الرئاسة إليه رسمياً ، وتوترت العلاقات بينه وبين الشهابيين فترة من
الزمن فاضطر من جرأها إلى اللجوء إلى منطقة الحوران بالشام . وفي سنة (١٧٩٥)
تمكن الجزار من إلقاء القبض عليه وعلى اثنين من الشهابيين في بيروت وارساهم
إلى عكا وزجهم في أعماق السجون . وقد أطلق سراحه بعد أن أمضى أربع
سنين في غياهب السجن . ثم تلقى كتاب شكر من قداسة البابا لمعاونته للمارونيين
في بعض الملمات . ومن آثاره في جبل لبنان فتحه قناة من (الباروك) إلى (المختارة)
في سنة (١٨٠٠) وتكبدته في سبيل ذلك نفقات كبيرة . وفي سنة ١٨١٠ م اشترك
في الحملة التي تألفت بأمر من (سليمان باشا) وإلى عكا للزحف إلى الشام
لضرب (يوسف باشا الكردي) وإلى الشام ، حيث اجتمع هو والأمير بشير
بسليمان باشا المذكور في طبرية وزحفوا جميعاً إلى الشام ف وقعت معركة حامية
في (قطنية) بينهم وبين وإلى الشام المذكور الذي اندحر وهرب إلى مصر ودخل
سليمان باشا مع الشيخ بشير دمشق الشام . وزاد قدر الشيخ بشير جانبلاط
في نظر الناس وعلا شأنه في جبل لبنان علواً كبيراً . وفي سنة (١٨١١)
بسط حمايته على الدروز في جبل لبنان ضد وإلى حلب الذي كان يريد السوء بهم
فنقلهم بموافقة رأي الأمير بشير إلى (زحلة) وأسكنهم في مقاطعات تلك المنطقة .
وفي سنة (١٨١٨) أنشأ جامعاً فخماً في المختارة كما أنه وهب أراضي كثيرة وتبرعات
كبيرة إلى المارونيين في البلدة المذكورة لإنشاء كنائس لهم . وفي سنة ١٨٤٠ حل
الوثام والوفاف بينه وبين الأمراء العماديين حيث اتحد معهم في جميع الشؤون
التي جدت في الجبل .

وأخيراً تمكن والى الشام من جلب الشيخ بشير هذا، مع رجاله وقواده الى الشام بحملة غريبة وحبسهم جميعاً بها . وبعد مدة أطلق سراحه إلا أنه بناء على طلب والى عكا قد أعدمه مع الشيخ أمين العمادى وهو يبلغ من العمر خمسين سنة . وكان رحمه الله عادلاً شجاعاً كريماً يحب الخير للجميع حتى أطلق عليه لقب « عمود السخاء » وأنشأ كثيراً من الطرق والجسور والجوامع وساد الأمن والرفاهية أنحاء الجبل والتجأ اليه كثير من المضطهدين والفقراء .

ومن دواعى الأسف أن الأمير بشير الشهابى أخذ يضطهد أسرة جانبلاط بعد وفاة هذا الرجل العظيم على الموال السابق ، فهدم كثيراً من بيوتهم ومنازلهم حتى الجامع الذى كان بناه فى المختارة ، ونهب أموالهم وممتلكات عشيرتهم . الأمر الذى أثار حمية والى عكا وتدخل فى الأمر بان نقلهم إلى صفد وأسكنهم بها وأجرى عليهم المرتبات والمخصصات .

وفى سنة (١٨٣٢) حينما أغار ابراهيم باشا على رأس جيش مصرى على البلاد الشامية التزم أمراء أسرة جانبلاط هذه ، جانب الدولة العثمانية والتحقوا جميعاً بوالى الشام حتى وقعت معركة حمص بين الجيشين المصرى والعثمانى التى أسفرت عن اندحار العثمانيين فالتجأ من الجانبلاطين الأمير سعيد والأمير اسماعيل إلى الجبل . وأما الباقيون منهم فذهبوا مع الجيش العثمانى المتقهقر إلى حلب فقدرهم الصدر الأعظم (محمدر شيد باشا) حق قدرهم ، وبالرغم من انكسار جيش الصدر الأعظم وأسره هو أخيراً ، فان الجانبلاطين لم يتخلوا عن العثمانيين الذين كافأوهم دائماً . وبعد انتهاء المسئلة المصرية والتركية جاء إلى الجبل من الجانبلاطين الأميران حسن وحسين . إلا أن الأمير بشير كان مترصدا لهم فتمكن من إلقاء القبض على الأمير حسن وقتله واختفى الأمير حسين عن الأعين .

وأما الأميران سعيد واسماعيل أبناء الشيخ بشير من الجانبلاطين اللذان كانا قد اعتصما بالجبل ، فقد لجأ إلى الأمير بشير بضرورة الحال ، ف أرسلهما الأمير إلى

ابراهيم باشا الذى بادر إلى نفيهم إلى مصر، غير أن سعيداً تمكن من اظهار اخلاصه فدخل فى الجيش المصرى ضابطاً. وفى سنة (١٨٣٨) رقاہ ابراهيم باشا إلى رتبة اليوزباشى وبعد ذلك إلى رتبة البكباشى. كما أن أخاه يدعى (نعمان) كان فى استانبول تمكن من الذهاب إلى مصر ودخل الجيش المصرى برتبة أمير آلاى.

ولقد تمكن (سعيد بك) أخيراً من الفرار مع الشوام من مصر إلى الجبل حيث كان أخوه (اسماعيل بك) قد عين من قبل الدولة حاكماً على الجبل (شيخ المشايخ) بدلاً من والده الشيخ بشير. وكان نعمان بك أيضاً قد تمكن من الانفصال من الجيش المصرى والعودة إلى الجبل وصار حاكماً عليه بدل أبيه. ملخص من كتاب (أخبار الاعيان فى جبل لبنان)

﴿ج﴾ — إمارات ما بين الجزيرة وخوى (١٤ - ٢٠)

١٤ - إمارة الحـطـرية = والـطـرية :

ليست هنالك معلومات صحيحة غير تتف مشوشة عن أصل هذه الأسرة. وإن كان (شرفنامه) يقول إن جد هذه الأسرة كان يدعى شمس الدين (١)، ثم يعود فيقول إن إحياء هذه الإمارة للمرة الثانية كان على يد (أسد الدين كلابى) الذى اشتهر فيما بعد باسم (زرين جنك) أى ذو الذراع الذهبى، وذلك بفضل التماس الآشوريين الذين كانوا حسب عادتهم بمصر ومؤازرتهم له بها ثم يأتى الدكتور (فريج) فيصب كل اعتماده على هذه الأقوال، وعلى اسم (شمو = شه مبو) ويقول بما أن (شنبه) اسم ليوم من أيام الأسبوع لدى الآشوريين. فلا بد وأن يكون هذا الأمير من الآشوريين. الخ ولا شك فى عدم صحة هذا الرأى

(١) أنظر مبحث أمراء كلس فى هذا الكتاب وفى شرفنامه . المؤلف

الخاطئ لأن اسم (شمو) كردى ، وإذا كان لنا أن نجارى تشابه الألفاظ
فتحن فى حل من أن نقول ان (شمبو) كان كرديا ولا ريب .

فيستخلص من هذا أن (شمس الدين) لا بد وأن يكون جدا لهذه الأسرة
التي اشتهرت فيما بعد باسم (شه مير) وهذا هو ما قال به (شرفنامه) فى مبحث
أمراء كليس . وبعد وفاة (أسد الدين) قام بأعباء الامارة من بعده (الملك
عز الدين شير = يزدان شير) الذى دام حكمه ستين سنة كاملة . وقد خلفه
ابنه (زاهد بك) الذى قبل حماية الشاه إسماعيل لامارته ، ويظهر أن ولديه
(ملك بك) و (سيد محمد بك) قد حكما من بعده فى قسم من أقسام (حكارى = هكارى)
و (شمدينان) . وقد بقيت ذرية هذه الأسرة تحكم البلاد حتى القرن التاسع
عشر الميلادى ، إذ كانت هذه الامارة من أكبر إمارات كردستان الأوسط؛
وكان زكريا بك و ابراهيم بك حاكمين فى (جوله مرك) و (ألباق) فى عهد شرنخان
البديسى فى عام (١٠٠٥ هـ)

هذا وقد أثنى (أوليا جلبي) الرحالة التركى الشهير على هذه الامارة ثناء مستطابا حيث
يقول : « إن أميرها كان يحتفظ دائما بعشرة آلاف من الجنود حاملي البنادق فى
السلم ، وأما فى الحرب فكان فى مكتبته حشد جيش قوامه خمسون ألف مقاتل » ،
وكان « نور الله بك حاكم البختان » آخر حكام هذه الأسرة . وقد فقد إمارته إثر
ثورة بدرخان بك الشهير ، كما أن (حليمه خانم) سلمت باش قلعة (١) للترك
سنة ١٨٤٥ م ، وبذلك ولت أيام هذه الامارة . ويذكر المؤرخ الكبير هامر
فى المجلد التاسع من تاريخه للدولة العثمانية اسم أمير من أمراء الحكارى كان
يدعى (مير عماد الدين) قتله الصدا الأعظم فى الديوان سنة (١٠٤٩ هـ) .

(١) قلعة (الباق) القديمة فى ولاية وان الحالية بتركيا . المترجم

١٥ - إمارة الحمودي:

هناك روايات شتى عن أصل أمراء الحمودي . ولكن الدكتور (فريج) يقول إن مؤسس هذه الإمارة إن هو إلا (بهلول بك) السليمانى = السليمانى من سلالة (مروان بن محمد) آخر خلفاء بني أمية .

ويقول (شرفنامه) أن مؤسسها يدعى (شيخ محمود) الذى قدم من الشام فى رواية ، وفى رواية أخرى من مدينة الجزيرة ، قدم مع عشيرته ورجال قومه إلى بلاط (قره يوسف) مؤسس القردقونلييه ، فأقطعه هذا السلطان منطقة (آشوت = آشيت) موطناً لرجال وعشيرته وألقاه هو بمعيتة الخاصة . ولما توسم فيه مخايل الشجاعة وعلام البسالة فى الحروب التى خاض غمارها، أُنشد إليه إمارة (آشوت) و(خوشاب) . وسميت عشيرته باسم هذا الأمير «حمودي» .

ولقد رفع الأمير «حسن» ابن الشيخ محمود هذا من شأن الإمارة ووسع حدودها بعد أن حارب «عز الدين شير الحكارى» وهزمه وانتزع منه ناحية (١) (تنبو) . ولكن أمير بدليس قد آزر أخيراً (عز الدين شير) فاستؤنف القتال بين الفريقين على نهر (مير أحمد) (٢) وأسفر عن مقتل الأمير حسن . ثم انقسمت هذه الإمارة إلى فرعين، وفى أواخر القرن العاشر الهجرى قد تفرع منهما فرع ثالث ، ودام عهد هذه الإمارة بفروعها الثلاثة حتى أواسط عهد العثمانيين .

ولقد أطيّب (أوليا جلبي) الرحالة العثمانى الشهير فى الاشادة بقوة هذه

(١) لعله تصحيف من كلمة (شنبو) حيث وردت فى عبارة شرفنامه هكذا ،

انتزع منه ولاية شنبو ... المترجم

(٢) هو (نهر خوشاب) كما فى شرفنامه . المترجم

الامارة وعلو شأنها ، ويقول إنها تقع في الجانب الشرقي من ولاية (وان) .
وأنها كانت تتألف من نحو مائة عشيرة قوية الشكيمة ، وأنها كانت تحتفظ
في وقت السلم بستة آلاف من الفرسان . ويقول هامر في المجلد السادس من
تاريخه ان الصدر الأعظم قره مصطفى باشا اغتال على باشا حاكم (أشيت =
آشوت) سنة ١٠٤٩ .

١٦ - اماره بنجانبش

لا تذكر (دائرة المعارف الإسلامية) شيئاً عن هذه الامارة . في حين أنها
كانت مشهورة بين الامارات الكردية الكبيرة في العهد العثماني . كما أنها كانت
جارة لامارة المحمودي . ويقول (أوليا جلبي) ان قواتها العسكرية كانت تبلغ
على الدوام ستة آلاف مقاتل .

١٧ - اماره الدنبلي = الدنابله

لم يذكر الدكتور (فريج) في كتابه (كردلر) إلا القليل عن هذه
الامارة ، في حين أن كتاب (آثار الشيعة الامامية) قد افرد بحثاً مسهباً واهتم
بالتفاصيل التي حامت في (شرفنامه) (١) عن هذه الحكومة ثم نقل عن تاريخ
الدنابله (٢) وقد جاء فيه أن أول حاكم من هذه الأسرة هو (طاهر بن
الأمير عيسى بن الأمير موسى) حاكم الشام الذي كان - كما تقول الروايات -

(١) يرى (شرفنامه) أن أصح الروايات في هذا الصدد هي أن العشائر
الدنبلية قد نزلت من (حكارى) إلى أذربيجان ، وأما الأمير عيسى والد
الملك طاهر فقد هاجر من بلدة الجزيرة

(٢) ألف هذا الكتاب (عبد الرزاق بن نجفقلی الدنبلي) باسم (رياض
الجنة) باللغة الفارسية . وتوجد نسخة منه في المكتبة الشاهانية بطهران .
وفضلاً عن هذا فإن هنالك كتاباً آخر باسم (هفت اقليم) ألفه بالفارسية
أيضاً (أمين احمد الرازي) في تاريخ امراء الدنابله .
المؤلف

نجلا ليحي البرمكي وزير الخليفة هرون الرشيد. أما كتاب (أنساب الأكراد)^(١) فيرى أن أصل هذه الأسرة إنما يرجع إلى البرامكة

وقد تفرعت عن هذه العشيرة شعب عديدة أهمها وأشهرها (دنبلية يحي) أحفاد الأمير يحي، و (شمسكي) أحفاد شمس الملك جعفر، و عيسى بكلو» أحفاد الأمير عيسى، و «بكرزاده» أحفاد الأمير (فريدون) وأيوبخاني ... إلى غير ذلك. وقد جاءت هذه الشعب وليدة إبعاد هذه العشيرة ونفيها بأمر من الخلفاء والملوك أمثال الخليفة المأمون وتيمورلنك والسلطان سليم إلى بلاد كشان، خراسان، خبوشان، شيروان، كنج، قره باغ، قره جه داغ. وقد وفق أمراء هذه الأسرة والعشائر في تأسيس إدارة مستقلة في كردستان وأذربيجان ابتداء من القرن الرابع الهجري حتى نشوء دولة الشيخ حيدر الصفوي، حيث قدم آخر أمراء المدعو (بهلولي دنبلي) فروض الطاعة للشيخ حيدر، وهكذا صارت إمارته تابعة للحكومة الصفوية.

ولنأخذ فيما يلي أحوال حكام هذه الإمارة السكردية وأسماءهم تاركين التفاصيل لكتابنا (كورداني به ناوبانك — مشاهير الأكراد):

مير محمد: هو رابع أمراء هذه الأسرة، وكان حاكما في الشام، وقد استولى على بعض القلاع في بلاد الحكارية، وله مؤلفات في العلوم والفنون وآثار عمرانية. من بينها قلعة (باي) الشهيرة التي دفن فيها عام ٣٨٧ للهجرة. مير سليمان: كان له بعض السلطان والنفوذ على بلاد كردستان وأذربيجان والشام ومن مآثره العظيمة، القصر الذي أنشأه في (سنجار) وأسماه (سراي سليمان) والذي جلب العمال ومهرة الصنائع من إيران لأنشائه

(١) مؤلفه العالم الشهير والمؤرخ الكبير أبي حنيفة الدينوري صاحب كتاب «الأخبار الطوال» المؤلف

وتزيينه ، كما أنشأ المدارس والخوانق لتعليم أبناء الكرد العلوم والفنون ، وكان الشيخ رجب الپرسى صاحب (مشارق الأنوار) من خاصة رجال هذا الأمير النابه وقد توفى سنة ٤١٠ هـ .

مير جعفر الثانى : لقد اكتشف فى عهد هذا الأمير معدن الذهب وقد اشتهر باسم الذهب الجعفرى فى جبل (سنجران) الذى يقع على مقربة من قلعة (دنبل) ، وقد توفى عام ٤٤١ هـ .

مير يحيى : يقول (شرفنامه) ان ثلاثين ألف أسرة من الرعايا المسيحيين كانت تتبع هذا الأمير وكان له مآثر كثيرة حيث بلغ عدد التكايا التى أنشأها فى جبال كردستان و آذربيجان والشام ألفا ومائتين وقد أدركته المنية فى عام ٤٧٧ هـ .

مير عيسى الشهير بصلاح الدين الكردى : نقل هذا الأمير نحو مائة ألف أسرة من الأكراد من فرع اليزدانية إلى آذربيجان وإلى (كوهستان = قهستان) وكان يمضى أغلب أيامه فى تبريز .

مير جعفر الشهير بشمس الملك : كان معاصرا المنوچهر من ملوك شيروان توفى إلى رحمة الله عام ٥٣٥ للهجرة ، وقد أطنب الشاعر البليغ (خاقانى) الشيروانى فى مدحه

أمير بك : كانت العلاقات وطيدة بينه وبين السلطان سنجر السلجوقى ، وقد خلف أثارا عمرانية عظيمة فى مدينة (خوى) ، وتوفى عام (٥٩٠) .

مير أحمد : كان هذا الأمير يقدر العلم ويمجد العلماء ، وكان مولانا جلال الدين الرومى صاحب المشوى الشهير من أخص رجال هذا الأمير .

مير ابراهيم : كان يقيم فى (تبريز) فوطد علاقته مع (جنكيز خان) وبهذا أنقذ بلاده مما عسى أن يحيق بها من تدمير المغول وتخريبهم ، وقد توفى عام (٦٩٢ هـ) .

مير جمشيد : اشتبك في القتال مع المغول فبعث إليه (غازان خان)
عام (٧٢٥ هـ) بجيش لجب ألحق به هزيمة منكرة ، بل إنه ما لبث أن وقع
صريعا في المعركة في جبل (جله خانه)

أمير بهلول : هو ابن الأمير جمشيد ، وقد توفي عام (٧٦٠ هـ)

شاه منصور : هو ابن الأمير بهلول ، توفي عام (٧٩٥ هـ)

مير محمود : كان ابنا للأمير شاه منصور ، وقد احتل مكانة سامية وحظوة
لدى السلطان بايزيد العثماني ، وهو الذي أنشأ مدينة (محمودي) بکردستان
وتوفي ودفن بها عام (٨٢٠ هـ)

أمير ولي : كان يقيم بمدينة (خوى) .

حاجي بك : هو ابن الأمير ولي ، وتوفي عام (٨٢٢ هـ)

سلطان علي : هو نجل حاجي بك . وتوفي عام (٨٢٥ هـ)

أمير نظر : هو ابن سلطان علي .

أمير فريدون : كان يعرف باسم (أمير قليج) . وجاء في كتاب (جهاتما)
التركي أنه كان حاكما على جميع بلاد كردستان وأذربيجان وأرمينية ؛ وكان
مركز إمارته مدينة (خوى) ، وتوفي عام (٨٦٠ هـ)

أمير بهلول : صادف عهده ظهور الشيخ حيدر الصفوي ، وكان يحكم
علاوة على ما كان تحت سيطرته قديما - مقاطعتي طبرستان وداغستان وقد
قدم فروض الطاعة للشيخ حيدر طواعية ، ولكنه قتل في المعارك التي نشبت
في عام (٨٨٠ هـ) بين الصفويين وبين الشاه خليل الآق قونلي .

أمير رستم : كان معروفا باسم (شاه ويردي بك) وتوفي عام (٨٩٨ هـ)

أمير بهروز : كان يلقب بسليمان خليفة وظل أميرا حتى بلغ الخامسة

بعد التسعين من عمره ، وكان في معية الشاه طهماسب حين اشتبك في القتال مع العثمانيين ؛ وتوفي عام (٩٨٥ هـ)

أيوب خان : هو حفيد الأمير بهروز أنعم عليه برتبة بكربكي . وتولى منصب السبهدار (القيادة العليا) وتوفي عام ٩٩٤ هـ .

شاهبند خان :

بهروز خان : كان من أخص رجال الشاه (عباس) وقد أثنى عليه (شرفنامه)

ثناء مستطابا ووصفه بالشجاعة والروية . وتوفي سنة ١٠١٤ هـ

علي خان : هو ابن (بهروز خان) وشهرته (صفي قلي خان) وقد كان في معية الشاه (صفي) حين قدم السلطان مراد إلى آذربيجان . ولما هاجم فرهاد باشا بلاد كردستان تصدى له (علي خان) في جبال حكارى ودافع عن البلاد دفاع الأبطال ثم عقد صلحا مع أحمد باشا والى بغداد وانفض النزاع ، وكان يحكم آذربيجان وأرمينية .

مرتضى قلى خان : هو ابن (علي خان) أيضا وكان ملازما لبلاط الشاه عباس الثانى فى أصفهان .

غياث بك : هو ابن (علي خان) ، وكان من بين قواد الشاه عباس ولم يلازمه الفوز فى حروب (قندهار) ولهذا لم يحسر على العودة إلى خدمة الشاه وبقى هنالك مع بعض من عشائره . ومن بين أحفاد هذا الأمير الطائفة المعروفة الآن فى تلك الجهات باسم (خرابى) التى من ذريتها فتحلى خان ملك الشعراء فى الدولة القجرية وابنه (محمود خاى) .

شبهاز : هو ابن (مرتضى قلى خان) وقد حاصره عبد الله باشا فى قلعة (خوى) فاضطر إلى التسليم وتوفى فى عام (١١٤٤ هـ)

أمير أحمد خان : كان يعاصر (نادرشاه) وظل يحكم بلاد آبائه وأجداده بمهارة وحزم ، خمسين عاما وستة أشهر ، وقد قتله أولاد شبهاز خان حين

وجوده لدى كريمخان الزند .

نجفقلی خان : هو ابن (شهبازخان) ومن قوادنا درشاه وأمیر أمراء تبريز في

عده وكان شاعرا وأديبا وتوفي عام (١١٩٦) هـ .

أمیر خداداد خان : هو ابن نجفقلی خان .

أقا محمد خان : ابن نجفقلی خان

فتحعلی بك : هو ابن خداداد خان .

عبد الرزاق بك : ابن نجفقلی خان . وكان من فطاحل شعراء الأمیر

(عباس میزرا) ومن رجاله البارزين ، وله مؤلفات أدبية أشهرها كتابه عن

تاریخ أسرته ، توجد منه نسخة في المكتبة الشاهانية بطهران . وتوفي عام

١٥٤٣ للهجرة .

بهاء الدين محمد آقا : هو ابن عبد الرزاق بك ، وكان عالما فاضلا وشاعرا

مبدعا وله ديوان شعر رقيق .

كوجوك خان : هو ابن بهاء الدين آقا .

شهبازخان : هو ابن مرتضى قلی خان الثاني ، وقد وقع أسيرا في يد

كريمخان الزند بشيراز .

محمود خان : وهو ابن شهباز خان ، وكان أمیر أمراء أصفهان .

شهبازخان : هو ابن محمود خان ، وكان يعاصر عهد ناصر الدين شاه

الأمیر حسين قلی خان : هو ابن أحمد خان .

محمد صادق خان : هو ابن حسين قلی خان ، وكان أمیر أمراء آذربيجان

١٨ - اماره برادرست :

تنحدر هذه الأسرة من الأسرة الحسنوية القديمة حيث جاء أولاد هلال

ابن ناصر الدولة بدر ، الثلاثة بعد مقتله إلى (برادوست) . وتولى أحدهم ويدعى (طاهر) حكم (شهرزور) خلفا لأبيه . وكان الآخر رئيسا لعشيرة (آكور) ، أما ثالثهم فقد دخل (سلماس) وأخضعها لحكمه . يقول (شرفنامه) إن (غازي قران بن سلطان أحمد) كان أشهر أمراء هذه الأسرة . وقد ناصب الشاه اسماعيل العداء في بادىء الأمر ثم عادت العلاقات فتحسنت بينهما فمنحه الشاه لقب (غازي قران) ، وأقطعته نواحى (تركور = ترجفور) و (صوماى) و (دول) ، وظل هذا الأمير الشجاع مستقلا في شتونه الداخلية حتى حدثت معركة (جالديران) الشهيرة التى خضع بعدها مع سائر الأمراء السكندر السلطان العثمانيين ، وكان السلطان العثماني يقدره حق قدره فأقطعته نواحى كثيرة في آيالات (أربل) و (بغداد) و (دياربكر) .

(١) أسرة صوماى :

أسس هذه الامارة (شاه محمد بك بن غازي قران) وظل أحفاده يتوارثونها حتى انقرضت . وفي عام ١٠٠٥ هـ كان أمير (صوماى) من يدعى أوليا بك .

(ب) أسرة تركه ور (تركور) :

كان أمراء هذه الأسرة من نفس عشيرة (برادوست) . ويقول (شرفخان) إن (ناصر بك بن شيرين بك بن شيخ حسن) كان أميرا للبلاد في عهده . هذا وكان (أمير خان يكديس) أشهر أمراء هذه الأسرة ، وقد دافع عن قلعة (دمدم) الشهيرة وكان أميرا في أوائل عهد الشاه (عباس الأول) وما لبث أن شق عليه عصا الطاعة واعتصم بالقلعة وجرت وقائع دموية حولها في عام ١٠١٧ هـ .

١٩ - اماره مكري^(١):

يقول (شرفنامه) ان مؤسس هذه الامارة أمير صومائي يدعى (سيف الدين) فقد استولى هذا الأمير في عهد حكومة التراكمة (القرن التاسع الهجري) على ناحية (درباس) وانتزعها من عشيرة تركانية ثم بسط سلطانه على بلاد (دولي باريك) واحتاجي وايلتمور وسلدوز) فعلا شأنه وقويت شوكته وأطلق اسم (مكري) وهو صفته البارزة على إمارته وعشيرته . وقد خاض غمار حروب دامية مع الحكومات المجاورة أظهر فيها كثيرا من ضروب المكر والدهاء والبسالة وقوة الشكيمة . وقد خلفه بعد وفاته ابنه (صارم بك) الذي استولى (الشاه اسماعيل) في عهده على جميع بلاد (كردستان) ، وقد دحر في بادئ الأمر جيوش الشاه ، ثم الحق الهزيمة بجيش كبير آخر أغار عليه في عام (٩١٢ هـ) ولكنه أضطر أخيرا كسائر الأمراء الأكراد إلى طلب حماية العثمانيين فسافر إلى استانبول وتشرف بالزيارة السلطانية .

وقد انتقل الحكم بعد (صارم بك) إلى أبناء عمومته وهم (شيخ حيدر) و (مير نظر) و (مير خضر) أولئك الذين تخلوا عن العثمانيين وانحازوا إلى الإيرانيين في عام (٩٤٨ هـ) ، الأمر الذي أدى إلى اصدار السلطان سليمان أمرا إلى (سلطان حسين) أمير العماديه و (زينل بك) أمير الحكارى ورجال عشيرة البرادوست بالزحف على هؤلاء الأمراء المكريين الثلاثة وبعد أن تم القضاء عليهم بعد معارك حامية الوطيس أسند السلطان (سليمان) إمارة هذه العشيرة إلى (أميره بك بن حاجي عمر بك بن صارم بك) الذي

(١) في رواية ان هذه الأسرة يمت نسبها الى أمرة البابانيين وانها فرع من فروعها .
المؤلف

عمر في الحكم ثلاثين عاما ، ثم انتقل منه الحكم الى (أميره بك بن شيخ حيدر) الذي فضل حماية الصفويين له على العثمانيين وبهذا خضعت البلاد مرة أخرى لحكم الايرانيين .

وفي عهد الشاه (محمد خدا بنده) دخلت إمارة (مكرى) مرة أخرى مع امارتى لرستان وأردلان تحت حكم العثمانيين ، فانتهمز (أميره بك) هذه الفرصة واستعاد ملك آباءه وأجداده مع ايالة (شهرزور) ولواء (الموصل) وذلك كله بموافقة السلطان مراد الذي أقطع (أربل) و (مراغه) أيضا لابن (أميره بك) .

وبعد قليل أنعم السلطان على (أميره بك) برتبة الميرميران ولقب الباشا مكافأة له على جليل خدماته وبسالته النادرة ، ، وهكذا حكم (أميره باشا) البلاد ردحا من الزمن بجدارة وحزم بلا منازع ، الى أن دب ديب الخلاف بينه وبين (جعفر باشا) والى تبريز العثماني الذي انتزع منه بعض البلاد . ومع ذلك فقد ظلت هذه الامارة مستقلة مدة أخرى محافظة على كيائها ، وان كانت قد تعرضت مرتين للذباح والقتل أيام (قباد بك) و (شير بك) في عهد الشاه عباس الأول . وليس لدينا معلومات عن نهاية هذه الاماره وعما آل اليه أمرها .

٢٠ - إمارة استونی (١)

لم يذكر (شرفنامه) شيئا عن هذه الامارة ، ولكن يؤخذ مما جاء في (دائرة المعارف الاسلاميه) بهذا الصدد أن أسرة (شمدينان) القديمة انما تنحدر من سلالة العباسيين ، وقد خلفها في الحكم أشراف وأسياد (نهري = نيرى)

(١) - تتعرض (دائرة المعارف الاسلاميه) لذكر إمارة (زرزا) و (ترزا) ايضا ولكنها لا تذكر تفصيل الاحوال الادارية والجغرافية قط المؤلف

فيما بعد . إذ كان سيد من هؤلاء الأسياد هو (الشيخ أبو بكر بن الشيخ عبد العزيز) يقيم بقرية (أستوفى) ويقوم بوظيفة الوعظ والارشاد فعظم نفوذه بين الأهالي القاطنين تلك الجهات ، وقد استغل حفيده الشهير (الشيخ عبدالله النهري) هذه المكانة السامية وهذا النفوذ العريض خيرا استغلالا ، فعمل على إذكاء نار الوطنية والاستقلال الوطني للوصول إلى إنشاء حكومة كردية في (شمدينان) و (مكرى) في (١٨٨٠ — ١٨٨٣) ولكن جهوده في هذا السبيل قد أخفقت وقبض عليه ونفي إلى استانبول ثم أبعده إلى الحجاز وهناك توفي إلى رحمة الله .

﴿ د ﴾ « المجموعة الحكارية الجنوبية » (٢١ — ٢٧)

٢١ — إمارة البادينان (بهادينان) :

يطلق على هذه الإمارة اسم (بهاء الدينان) أيضا . ويقول (شرفنامه) إنها تأسست في أواخر عهد العباسيين وأن مؤسسها كان من نسل العباسيين كما يزعمون وكان يدعى (بهاء الدين) فأطلق اسمه على أسرته ثم حدث تحريف في الاسم تحت تأثير اللهجة السكرمانجية فصار (بهاء الدينان = بهادينان = بادينان) ويقول (شرفنامه ^(١)) أيضا أن العمادية كان يحكمها (تيمورلنك) وابنه (شاهرخ) من بعده ، وأن (شاهرخ) قد أمضى أيامه الأخيرة في تلك البلدة وأنه أقطعها لابنه الأمير سيف الدين .

(١) راجع (شرفنامه) طبعة القاهرة تجدد العبارة خلاف هذا . حيث يقول انه في عهد تيمور وابنه شاهر في كان امير العمادية من يدعي (زين الدين) فحكم البلاد بالعدل والحزم ثم تولى ابنه الأمير سيف الدين وبعده ابنه الأمير حسن
المترجم

وقد تولى الأمير حسن بن الأمير سيف الدين شئون الإمارة بعد والده وقضى كل أيامه في حروب وقاتل مع الآق قوينلية ثم خضع في النهاية للشاه اسماعيل الصفوى .

ثم تولى الإمارة بعد الأمير حسن ، ابنه الكبير (سلطان حسين) الذى خضع أخيرا للعثمانيين وصار واليا من ولايتهم لمدة ثلاثين عاما ، وقد سبق أنه أسدى خدمات جلى للدولة العثمانية بتجريد حملة على إمارة (مكرى) ومطاردة (القاص ميرزا) وحكم سنجق (الموصل) أيضا أربع سنوات علاوة على تدبير شئون إمارته .

وقد تولى (قباد بك) شئون الإمارة بعد والده (سلطان حسين) ، وبعد قليل استغل أخوه (بارام بك = بهرام بك) ضعفه ودروشته فأثار عليه عشائر (بادينان) وانحاز هو بعد ذلك إلى الشاه اسماعيل الثانى . ولكن (قباد بك) قد تمكن من إخماد فتنة العشائر أخيرا ثم عاد وفوجئ بعد قليل بقيام عشيرة (المزورى) القوية ضده وتنصيبها (سليمان بك) أحد الأمراء البادينانيين أميرا على البلاد فاضطر إزاء ذلك إلى الالتجاء إلى الموصل ثم إلى (سنجار) حيث كتب إلى استانبول بما حدث له .

وفى خلال هذه الحوادث عاد (بهرام بك) إلى العمادية وأعلن إمارته على البلاد . وقد أقام (قباد بك) فترة من الزمن فى (زاخو) ثم سافر إلى استانبول وهناك قابل الصدر الأعظم (سياوش باشا) الذى منحه فرمان إمارته على العمادية وبعث به ليتسلم زمام أمرها ، فوصل (قباد بك) إلى (دهوك) وأراد أن يقوم بعمل حاسم للقضاء على مثيرى الفتنة والعصاة ولكنه فوجئ بهجوم كل من (سليمان بك) و (مير ملك) رئيس المزورى على (دهوك) وتطويقها لها وانحياز أهالى البلدة اليهما وفتحهم أبواب المدينة لهما الأمر الذى أدى إلى سقوطها فى قبضة (سليمان بك) ، وقتل (قباد بك)

في المعركة سنة ٩٨٤ هـ ، ولما ترامت تلك الأنباء إلى مسامع (بهرام بك) حمل
عشيرة المزوري على الاعتراف بإمارته عليها .

ولجأ (سيدى خان) و (أبو سعيد) ابني (قباد بك) إلى الدولة العثمانية وطلبوا
إليها الحصول على الامارة فأصدرت الدولة الأوامر والتعليمات إلى السردار
(فرهاد باشا) بالقاء القبض على (بهرام بك) ، وكان السردار حينئذ متجها
لفتح كرجستان فدعا إليه (بهرام بك) ووعدته باسناد من نصب الاماره إليه بعد
عودته غازيا من كرجستان ، إذا ما انضم إلى صفوفه ورافقه في المسير فاقنع
(بهرام بك) بهذا الوعد واستند وكالة الامارة في غيبته إلى ابن أخيه (سيدى
خان) ومشى في معية السردار . ولشد ما كانت دهشته حين عمده السردار بعد
العودة إلى إلقاء القبض عليه ثم إصاقة تهمة ملفقة به . ألا وهي أنه سبق وقتل
أخاه ظلما وعدوانا^(١) فخمت محكمة أرضروم بالاعدام ونفذ فيه الحكم على
الفور . وبذلك انفرد (سيدى خان) بحكم الامارة في سنة ٩٩٤ هـ ، وكان هذا
الأمير معاصرا لصاحب (شرفنامه) وعمر في الحكم طويلا .

والظاهر أن الذى تولى الحكم في بلاد العمادية بعد (سيدى خان) هو
(يوسف خان) الذى هاجمه (ملك أحمد باشا) والى ديار بكر في عام ١٠٤٨
للهجرة وألقى القبض عليه وزج به في سجون (ديار بكر) وبقي في غيابةها

(١) يقول صاحب (الأربعة العصور الأخيرة للعراق) انه بعد وصول
(سيدى خان) وأخيه إلى استانبول اصدر السلطان مراد الثالث امره باسناد
منصب إمارة العمادية إلى (سيدى خان) وأمر السردار (فرهاد باشا) بمعاونة
هذا الأمير بجيوش بغداد وكركوك وجنود الامارات الكردية ، فنفذ فرهاد
باشا امر السلطان واستولى على العمادية واقام سيدى خان اميرا عليها سنة ١٥٨٥ م
المؤلف (ص ٤٢) .

حتى أطلق سراحه بعد وفاة السلطان مراد وبعد أن دفع غرامات مالية فادحة لرجال الحكومة .

وانتقل الحكم من بعد (يوسف خان) إلى ابنه الذي علا في عهده شأن الامارة وازداد نفوذها حتى بلغ عدد جنودها في عام ١٠٧١ للهجرة قرابة عشرة آلاف من الفرسان ومثل هذا العدد أو أكثر من المشاة .

يذكر التاريخ العام أن (قباد باشا) كان أميراً للعمادية في عام ١١١٢ هـ (١٧٠١ م) وأنه رافق جيش الموصل وديار بكر وقنزاك في حملته على جنوبي العراق لآخماد ثورة المنتفكين بها .

وفي عام (١١٣٨) ولي الامارة (بارام باشا) الذي اشتهر بهرام باشا الكبير (والظاهر أنه ابن قباد باشا) وقد عمت البلاد في عهده موجة من التقدم في شتى الميادين ، وحكم البلاد زهاء أربعين عاماً ثم توفي إلى رحمة الله عام ١١٨١ هـ (١٧٦٧ م) وقد خلفه ابنه (اسماعيل باشا) الذي حكم الامارة فترة طويلة . وفي سنة ١٢٠١ هـ دب الخلاف بين الأمير اسماعيل باشا وأخوته فأخرجهم اسماعيل باشا من العمادية فذهبوا إلى قلعة (زاخو) واستولوا عليها عنوة . واضطر اسماعيل باشا إلى ارسال حملة عسكرية بقيادة اخيه (علي بك) إلى (زاخو) تمكنت من الاستيلاء عليها وطرد من فيها من أخوته المناهين له وبعد سنة مضت تصالح اسماعيل باشا مع أخوته هؤلاء وأقطعهم قلعة (عقرا) والظاهر أنهم لم يخلدوا إلى السكنى أيضاً مما اضطر اسماعيل باشا إلى أن يزحف عليهم مرة أخرى ويضطرهم إلى التسليم والخضوع .

(١) ٥١ - (اوليا جاي) :

(٢) (كتاب اربعة العصور الأخير للعراق ص ٩٨) المؤلف

وفي سنة (١٢٠٣ هـ) اتفق اسماعيل باشا مع ابن أخيه (قباد بك) وزحفا معا إلى قلعة (عقرا) التي كان بها أخوته طيفور بك ولطف الله بك وحاجي خان بك وضربا نطاق الحصار على المدينة بعد أن تمكنوا من القبض على طائفة من سكانها وترحيلها إلى الموصل . وبعد فترة من الزمن انخسمت مادة النزاع ومالوا إلى التفاهم والوفاق فأعطاهم اسماعيل باشا ناحية (كندير) بدلا من قلعة عقرا التي أعطاها لقباد بك جزاء عمله . ولكنه بعد سنة من ذلك أخذها منه وعين نجله (مراد خان) حاكما عليها . وما كان من قباد بك إلا أن ذهب إلى السليمانية لاجئا لأميرها عبد الرحمن باشا .

وفي سنة (١٢٠٥) زحف اسماعيل باشا إلى قرى الشيخان واشتبك مع اليزيديين في القتال وقتل أميرهم (تيمور آغا) ورجاله وعين خنجر بك أميرا عليهم ثم عزله وسجنه في سنة ٥٢٠٦ هـ وعين بدله (حسن بك جولو) .

وفي سنة (١٢٠٩) ساد الوثام بين اسماعيل باشا وبين أخوته . وفي سنة (١٢١٣) اشتبك قباد بك أمير زاخو في القتال مع الأمير محمد أمير البوتان = البختان من جراء نهب عدة قرى من بلاد البوتان . راحت ضحيتها كثير من الأنفس والأرواح . وفي هذه السنة نفسها توفي اسماعيل باشا إلى رحمة الله بعد حكم دام ثلاثين سنة وتولى الإمارة ابنه (مراد خان بك) ولكن أخاه محمد طيار بك وكذا قباد بك لم يخضعوا له وتقاتلوا مدة من الزمن إلى أن توسط بينهم محمد باشا الجليلي وإلى الموصل فاصطلحوا . وفي سنة (١٢١٤) اشتبك قباد بك أمير زاخو مع حسن بك أمير اليزيدية بشيخان في القتال ذهب ضحيته كثير من الناس .

وفي سنة (١٢١٥) أرسلت حملة عسكرية قوية إلى العمادية بقيادة إبراهيم باشا أمير السليمانية وبعد قتال شديد قصير أسفرت المعارك عن احتفاظ (على مراد خان) بإمارته في العمادية وأعطيت قلعة (عقرا) لقباد بك وفي سنة (١٢١٨)

تولى قباد بك إمارة العمادية و صار لقبه (قباد باشا) . وكان على باشا والى بغداد قد أرسل محمد باشا حاكم كويسنجق بقوة عسكرية لمعاونة قباد باشا وتعضيده في بسط نفوذه على بلاد الإماره التي خضعت كلها ما عدا العمادية وعقرا وقلعة القمر التي لم تستسلم له قط .

وفي سنة (١٢١٩) أغارت عشيرة المزوري القديمة على (قباد باشا) وألقت القبض عليه وزجته في أعماق سجن العمادية ثم أطلقت يد النهب والسلب في أمواله وممتلكاته وكذا ممتلكات وأموال (لطف الله بك) و (طيفور بك) و (حاجي بك) أنجال اسماعيل باشا المرحوم ولبث قباد باشا في سجن عمه عادل باشا أمير العمادية إلى ما شاء الله .

وفي نفس هذه السنة نزلت ويلات ومصائب كثيرة على بلاد الإمارة البادية من جراء ظلم الأمراء والحكام وفساد الادارة ، حيث كان (أحمد بك) أخو قباد بك قد التف حوله كثير من الأشرار يغيرون على القرى والديساكر ينهبون ويسلبون الناس أموالهم ، حتى أنهم حاصروا العمادية مدة من الزمن . وفي سنة (١٢٢٠) أرسل على باشا والى بغداد إلى العمادية قوة عسكرية هائلة مكونة من قوات خالد باشا وعبد الرحمن باشا البابين ومحمد باشا السوراني حاكم كويسنجق ، غير أن الخلاف دب بين هذين الأخيرين ، فجر إلى احتدام القتال بين عبد الرحمن باشا وبين على باشا والى بغداد . حيث كسر عبد الرحمن باشا جيش الموصل الذي كان بقيادة أخيه خالد باشا في نواحي (آلتون كوبري) ونهب هذه البلدة نهبا كاملا . ولما وصل جيش على باشا والى بغداد إلى ساحة القتال ، قامت معركة حامية بين الطرفين على مقربة من (كر كوك) حيث لحقت هزيمة منكرة بجيش عبد الرحمن باشا الذي انسحب إلى مضيق بازيان الشهير .

وبعد هذا الانتصار أعطى (على باشا) إمارة العمادية لمحمد باشا الجليلي
والى الموصل الذى أرسل الخلع والأنعامات الى (عادل باشا) أمير العمادية
وأبقاه فى منصبه .

وفى سنة (١٢٣٣ هـ) توفى إلى رحمة الله (عادل باشا) وتولى مكانه أخوه
(زبير باشا) بموافقة والى بغداد فأطلق سراح قباد باشا الذى كان سجيناً فى
العمادية ومنحه قلعة (زاخو) ولكنه لم يغادر العمادية وأقام فيها .

وأخيراً دب الخلاف والشقاق بين زبير باشا وبين نعمان باشا والى
الموصل مدة من الزمن، مما أدى الى تفاقم الحالة ونزول كوارث شديدة على أهالى
الطرفين ورعاياهما. وهكذا تجددت تلك العداوة والبغضاء اللتان كانتا موجودتين
من عهد بيارام باشا بين رجال ورؤساء الأسرة الجليلية فى الموصل (١)

وهذا وكان (سعيد باشا) أميراً للعمادية حين هاجمها (محمد باشا كوره) أمير
السوران . ورغم استماتته فى الدفاع عنها تمكن (محمد باشا) من الاستيلاء
عليها ونصب أخاه (رسول باشا) حاكماً عليها .

وبعد انقضاء أيام محمد باشا كوره (٢) ظهر (اسماعيل باشا البادينانى) حاكم
العقره السابق ، على المسرح واسترد زمام الامارة، وتمكن من فرض سلطانه
على جيرانه وأمعن فى مضايقة (اينجه بيرق دار محمد باشا) متصرف الموصل
ولم يتيح له فرصة التدخل فى شؤونه، ولكنه لم يمتنع على ذلك طويلاً وقت حتى
دهمه الصدر الأعظم (محمد رشيد باشا) بجيش عرمرم وحاصره فى العمادية
وتمكن من إلقاء القبض عليه وأرساله الى بغداد وهناك ألقى به فى

(١) ملخص من كتاب (غرائب الآثار فى حوادث ربع القرن الثالث عشر)

لياسين العمرى ، مطبوع فى الموصل سنة ١٩٤٠ المؤلف

المترجم

(٢) اى الأعمى :

غياهب السجن حتى أدركته المنية في عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) وهكذا أسدل الستار على هذه الامارة الوطنية أيضا .

٢٢ — اماره داسنى :

ترى (دائرة المعارف الاسلاميه أن عشيرة (داسنى) هذه كانت قاطنة في منطقة (دهوك) وأن المدينة الى تحمل هذا الاسم كانت تخضع لها وأخيرا انتزع أمير الباديثان هذه المدينة من لواء (داسنى) وضمها الى الباديثان ، وبعد ذلك لما توجه السلطان سليمان القانونى لفتح بغداد انتزع اماره (أربل) من الأمير (عز الدين السوراني) وأعطاهها (حسين بك) رئيس العشيرة الداسنية ثم قتل الأمير عز الدين . وبعد فترة مات سليمان بك السوراني أخو عز الدين فانتقلت بوفاته جميع البلاد السورانية الى حوزة (حسين بك) الداسنى . وفي تلك الاثناء كان الأمير (سيف الدين بن مير حسين) وهو من أحفاد وسلالة السورانيين مقيما في جهة تدعى (صوما قلق) ، ولما جاءته الأبناء بانتقال الحكم في السوران إلى أيد أجنبية بادر الى قتال (حسين بك) الداسنى ، وبعد مصادمات عنيفة بينهما انهزم حسين بك الداسنى شر هزيمة . ثم استدعى الى استانبول فذهب اليها وهناك أعدم لعدم محافظته على ما أقطعه اليه السلطان من البلاد .

امارة — (السوران = السهران)

يقول (شرفنامه) ان نسب أمراء هذه الأسرة السورانية يرجع الى

بغدادى يدعى (كولوس)^(١) الذى كان ابنا لرجل من رجالات بغداد البارزين ثم ألفت به الظروف الى هذه الجهات النائية فدخل منطقة (أوان) وأقام بقرية (هوديان) محترفا الرعى .

ويقول الدكتور (فريج) ان لفظ (كه ولوس = كولوس) لا يشبه اسما من الأسماء العربية، بل هو لفظ كردى يطلقه أكراد تلك الجهة على الذى سقطت أنيابه أو يطلقه على الأحوال .

وفى الواقع ان ما ذهب اليه الدكتور (فريج) أقرب الى الصواب والعقل . هذا وكان لسكوس ثلاثة أبناء هم (عيسى و ابراهيم وشيخ ادريس) وكان عيسى كبيرهم وعلى جانب عظيم من البسالة والحزم وفصاحة اللسان وجودة الطبع فلا غرو أنه كان محبوبا لدى المتصلين به . وصادف أن أشاع بعض المفسدين القلاق فى تلك الجهات فاضطر أهلها الى اتخاذ (عيسى) هذا زعيما لهم للدفاع عنهم فحشد (عيسى) قوة يعتمد بها فى فترة وجيزة تمكن بها من القاء الحصار على قلعة (آوان)^(١) ، وأقام معسكره مع رجاله على صخرة حمراء تشرف على القلعة المذكورة ، وأخذ فى اعداد العدة للقتال والحرب حتى ألقى الرعب فى قلوب المعتصمين بالقلعة فأطلقوا عليه وعلى أنصاره لقب (أصحاب الصخرة الحمراء) ثم تطور اللفظ الكردي الى (سوران) أى الحمر ، واشتهر سليل (عيسى)

(١) وفى شرفنامه (كلوس) ولعله محرف من (كه ولوس) بمعنى الذى سقطت باعيته العليا أو سنة منها . وذلك بلغة الاكراد فى تلك الجهات كما حققته بنفسى في زيارتى لها فى خريف سنة ١٩٤٧ م. واما (اوان) فلا شك فى انها محرفة عن كلمة (روان) القلعة والمدينة الشهيرة الآن بـ (رواندز) بمعنى قلعة روان لأن (دز) بمعنى القلعة فى لهجة من اللهجات الكردية .
المرحوم

بالسوران (١) . وأخيرا تم لعيسى الاستيلاء على القلعة ووضع بها أساس إمارة كردية، أدار دقة شؤنها طويلا مستقلا تمام الاستقلال . وقد خلقه بعد وفاته ابنه (شاه علي بك) الذي حكم مدة من الزمن . ثم قسم الإمارة بين أولاده (مير عيسى) و (مير بوداق) و (مير حسين) و (مير علي) ، وانسحب هو إلى قلعة (حرير) التي كانت من نصيب (مير عيسى) . وقد تعرض الأمير عيسى أخيرا لهجوم أخيه (مير بوداق) فقضى عليه وتم الأمر لمير بوداق . فعلا شأنه وامتد سلطانه حتى شمل الأراضي الإيرانية حيث انتزع منهم ناحية (صوما قلق) .

وكان (شاه علي بك (٢)) - أخو الأمير عيسى وحاكم (شق آباد = شقا آباد)

(١) يقول كتاب (الأربعة العصور الأخيرة للعراق) ان مرخاب بك حاكم اردلان أرسل ابنه بهرام بك إلى رواندز واستولى عليها وصار حاكما . فنشوء حكومة السوران يرجع إلى (بهرام بك) وقد عاشت ثلاثه قرون إلخ . ويذكر الدكتور فريج كذلك ولدا (لمرخاب بك) يدعى « بهرام بك » ويقول ان مرخاب بك كان امير اردلان في عهد الشاه طهماسب . ويقول المؤرخ الشهير هاجر في مبحث زحف خسرو باشا إلى همدان ان أمير اردلان والسوران في هذه الاثناء كان (خان أحمد خان) . فيفهم من هذا ان إمارة السوران كانت في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري في حماه الامارة الاردلانية . (ج - ٩) .

(٢) يقول الدكتور فريج في كتابه (كوردك ص ٢٦٠) : ان الأمير السوراني الذي قتل بير بوداق ، هو الأمير سيدي بن شاه علي بك ، في حين أن هذا المؤرخ نفسه يقول في ص ٢٥٠ من كتابه « إنه كان لشاه علي بك السوراني أربعة أبناء هم مير عيسى ومير بوداق ومير حسين ومير علي . ويقول في الصفحة التي تليها ان الأمير علي قتل (بير بوداق بك) فاذا كان الأمر كذلك يكون اسم مير سيدي خطأ . ولا شك في ان هذه الحادثة وقعت في عهد السلطان مراد الثالث (٩٨٢ - ٩٩٠ هـ) والظاهر أن شاه علي هو ابن (مير عيسى) الذي كان له اخوان فقط وهما ابراهيم وشيخ ادريس .

المؤلف

أميرا على جانب كبير من الحزم والعزم والشجاعة والروية ، فوطن النفس على أن ينتقم لأخيه من (بير بوداق) فجأهره بالعداء واشتد الخلف ونشب النزاع بينهما إلى أن قتل (بير بوداق) وأخذ هو يستولى على البلاد شيئا فشيئا فانتزع (أربل) و (الموصل) و (كركوك) من القزلباشية (الإيرانيين) ووضع بذلك أساس إمارة كبيرة قامت في تلك المناطق وكانت مستقلة في شئونها تمام الاستقلال . ولما أدركته الوفاة ترك ثلاثة أبناء هم الأمير (سيف الدين) والأمير (عز الدين شير) و (سليمان بك) .

وبعد وفاة الأمير (سيف الدين) من غير عقب انتقل الحكم إلى أخيه الأمير (عز الدين شير) الذي اتخذ مدينة (أربل = هولير) مركزا لإمارته وحكم فيها ردحا من الزمن حتى مر بتلك الجهات ، السلطان سليمان القانوني وهو في طريقه إلى بغداد لغزوها فألصق رجال السلطان به تهمة ملفقة أدت إلى إصدار السلطان أمرا بالقبض عليه وقتله في عام ٩٤١ هـ (١٥٣٢ م) . وقد أقطع السلطان بعد ذلك (أربل) لحسين بك الداسني (١) الذي نجح في بسط سلطانه على كافة أجزاء الإمارة السورانية ، بعد وفاة الأمير سليمان بن شاه علي بك . وبعد فترة قصيرة تمكن الأمير سيف الدين ابن الأمير حسين بن مير بوداق بن شاه علي بك من انتزاع إمارة أجداده من هذا الأمير الداسني الدخيل بعد حروب نشبت بينهما .

وقد أفضى هذا العمل من جانب الأمير (سيف الدين) إلى غضب الدولة العثمانية عليه واستيائها منه ، فأصدرت أوامرها إلى (سلطان حسين) أمير العمادية وإلى أمراء آخرين من الأكراد بالزحف على الأمير (سيف الدين) فنفذوا أوامرها ولسكنهم لم ينالوا منه شيئا . بيد أنه خدع أخيرا بنصيحة أحدا الأمراء

(١) نسبة إلى العشيرة الداسنية = الطاسنية اليزيدية . المترجم

الأكراد وهو (غازي قران يوسف) أمير البرادوست. فذهب إلى استانبول ولجأ إلى بلاط السلطان سليمان ، راجيا عفوه ولكن السلطان أبى عليه ذلك وأمر بقتله .

وبعد وفاة (مير سليمان بن شاه علي بك) لجأ ابنه (قلى بك) إلى الشاه (ظهماسب) بسبب استيلاء حسين الداسنى على إمارة السوران ، كما سبق تفصيل ذلك ؛ ونجح أخيرا (قلى بك) فى توطيد العلاقات مع استانبول فعينه حاكما على بلدة (السماوة) . ولما رأى أهالى منطقة السوران أن الأمير سيف الدين قد أعدم فى استانبول التمسوا من السلطان تعيين (قلى بك) حاكم السماوة أميرا للسوران لأحققيه بذلك . وما لبث أن صدر المرسوم فعلا باسمادها إليه فقام بأعباء الحكم فيها إلى جانب إدارة دفعة شئون جهة الحرير وقد عمر حكمه عشرين عاما كان خلالها مثال الحزم والعزم .

وقد خلفه فى الحكم ابنه (بورداق بك) فحكم سنتين دون ظهور قلاقل أو حدوث فتن . ثم قام فى وجهه أخوه (سليمان بك) ونازعه السلطان . فلم يقو (بورداق بك) على الصمود أمامه ولجأ إلى (سلطان حسين بك) أمير البادينان ، طالبا مساعدته فأمدّه بنجدة . وفى عودته مع تلك النجدة إلى العقر أدركته الوفاة .

وهكذا تم الأمر لسليمان بك بلا منازع ، وكان هذا الأمير عاقلا وحازما ومحبوا من الأهالى ، وقد جرد جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف فارس على عشيرة (الزرزا) وألحق بها هزيمة منكرة وأعمل فيها يد النهب والسلب فرفعت العشيرة شكايتهما إلى استانبول ؛ وأراد السلطان مراد أن يجرّد حملة تأديبية على (سليمان بك) فى نفس الوقت الذى كان (سليمان بك) مغيرا فيه على الأراضى الإيرانية وغنم منها مغانم كثيرة ، فقدم منها هدايا جزيلة لرجال السلطان ، مما حمل السلطان على العدول عن تجريد الحملة التى كان قد فكر فى

تجربتها . وكان ذلك عام ٩٩٤ للهجرة ، حيث ذاعت شهرة (سليمان بك) في شتى الأنحاء .

وبعد وفاة (سليمان بك) تولى الامارة من بعده ابنه (على بك) الذى كان معاصرا لشرفخان البدليسى صاحب كتاب (شرفنامه) الذى يذكر أمراء السوران حتى عهد هذا الأمير . وأما حالة أمراء هذه الأسرة بعد ذلك فلم تدرس بعد دراسة مستوفية .

ويقول صاحب كتاب (تاريخ نعيم) التركى انه فى عام (١٠٢٩هـ) حين قدم السردار خسرو باشا إلى الموصل ، بادر كل من (ميره بك السوراني) و (سيد خان العمادى) إلى معسكر السردار بصحبة جنودهما عارضين خدماتهما عليه فيؤخذ من هذا أن الذى تولى الامارة فى السوران بعد (على بك) هو (ميره بك) الذى يجمل التاريخ أحواله ومدة حكمه .

وقد ورد فى التقرير الإدارى الإنجليزى عن راوندز (١) أن مركز إمارة السوران هذه كان تارة فى (دوين) وتارة أخرى فى (حرير) أو فى (كاليغان) أو فى (راوندز) .

والظاهر أن قلعة (دوين) كانت مركزا لإمارة السوران فى القرن العاشر ودام ذلك حتى عام ١١٤٣هـ (١٧٣٠م) حيث ضيقت الخناق عليها بعد ذلك ، الحكومة البابانية بالسليمانية واضطرت (شكلى بك) أمير السوران

(١) هنالك تقرير انجليزى عن أحوال (راوندز) الاداريه وضع فى سنة ١٩٠٩ وطبع سنة ١٩٢٠ فى بغداد وهو يشتمل على خلاصة تاريخية عن السوران من عام (١٠٤٠ هـ ١٦٣٠ م) حتى العهد الأخيرة ، ويؤخذ من تلقب أمراء السوران بلفظ (ميران بك) أو اسم ميره بك - وهو على ما يظهر ابن سليمان بك - أصبح لقباً لأمراء هذه الأسرة ، ورغم عدم معرفتنا بمصدر هذا التقرير ، إلا أننا مضطرون للأخذ بما جاء فيه عن أحوال أمراء السوران . المؤلف

إلى نقل مركز حكومته إلى (حرير) . ثم جاء ابنه (سليمان بك) فبنى قلعة حصينة في (كلاسو) جبل (حرير) ، وله آثار أخرى عليّة وعمرانية ، وكان الشيخ (حيدر ماوراني) شيخا للعلماء في عهده . ومع كل ذلك لم ينبج (سليمان بك) هذا من مضايقة البابانيين له ، وهو منزو في قلعته بـ (حرير) . إذ كثيرا ما أقضوا مضاجعه وظلوا ممعنين في مضايقته حتى توفى إلى رحمه الله عن سبعين عاما ودفن بقلعة (حرير) .

ويؤخذ من الروايات المحلية أن العلاقات قد ساءت بين هذا الأمير وبين حكومة بغداد ، فترة من الزمن وقبض عليه لهذا السبب وسجن في بغداد وظل بها سجينا حتى أدركته الوفاة .

وفي خلال ذلك كانت أخته (خانزاد) (١) تقوم بأعباء الإمارة نيابة عن أخيها ، وقد خلفت آثارا خيرية عظيمة في البلاد .

ولم يقو (علي بك بن سليمان بك) على الصمود أمام البابانيين وهجماتهم المتواصلة ، فنقل مركز حكومته من (حرير) إلى قرية (كاليفان) في وادي (آلانا) عند مدخل مضيق (راوندز) وذلك في عام ١١٩٢ للهجرة (١٧٧٨ م) وقد اشتهر هذا المضيق فيما بعد باسم (كلي علي بك) أي (مضيق علي بك) نسبة إلى اسم هذا الأمير الذي حصن المضيق ببناء قلعتي (سردريا وسره شمه) في الناحيتين المتقابلتين ، وقلعة أخرى فيما بين نهري (راوندز) و (بالكيان) باليكي .

وقد خلف علي بك هذا ابنه (أوغوز بك الكبير) فنقل مركز الحكومة إلى (راوندز) في عام ١٢٠١ هـ ١٧٨٧ م وأخذ سلطانه يمتد حتى وصل إلى (سيدكان) و (هوديان = هه وديان) وسهل

(١) يوجد الآن فندق من الطراز الحديث باسم هذه الأمير الكردية في مصيف شقلاوه الشهير في شمال العراق بنته الحكومة العراقية . المترجم

(ديانا) وإلى العشائر النصرانية التي أخضعها لحكمه نهائياً .

كما وسع ابنه (أحمد بك) حدود البلاد ، وسلك ابنه (أوغوز بك الصغير) مسلك أبيه في إنهاض البلاد وتوسيع حدودها . وقد نشبت الحروب والقتال مرة أخرى بين البابانيين والصورانيين في عهد (مصطفى بك بن أوغور بك الصغير) وأخذ المغيرون يهددون مركز الأمانة ردحا من الزمن ، بيد أن مصطفى بك انتصر أخيراً على خصومه وألحق بهم هزيمة منكرة وأمعن في مطاردتهم حتى قتل الكثيرين منهم .

وبعد فترة عمد (مصطفى بك) إلى مصاهرة خصومه حسماً للنزاع وقطعاً لدابر الخلافات المستمرة فزوج ابنته (فاطمة هانم) لحسين بك بن محمود باشا الباباني . ثم شرع في إصلاح شئون البلاد وتعميرها منتزهاً فرصة هذا الصلح الذي حققته المصاهرة ، فعين أخاه (تيمور بك) حاكماً على (هفديان = هوديان) ، وعين (يحيى بك) على منطقة (سيدكان) و (برادوست) وأصاب عنه ابنه (محمد بك) وتوفي هو في سنة ١٢٤٧ هـ .

حكومة (محمد باشا كوره = الباشا الأعمى) !

ألقى (محمد بك) القبض على كل من عميه . بعد وفاة أبيه مباشرة ، ثم أخذ في توسيع حدود الإمارة فأخضع عشائر (شيروان) و (برادوست) مع عشائر (سورجي) لحكمه وطرده البابانيين من حرير واستولى على مدينة (هولير = أربل) وأخضع عشيرة الدزئي واستولى على بلاد (آلتون كوبري) و (كوي) و (رانیه) واتخذ الزاب الصغير (زى كويه) حداً فاصلاً بينه وبين البابانيين . يقول المستر (بيللي فرزر) الذي قام بسياحة (١٨٣٤) إلى (اشنو) ودرس عهد (محمد باشا) واستفاد من التقرير الذي وضعه الدكتور روس = ross الذي كان قدم من بغداد لمعالجة مصطفى بك والد محمد باشا ، يقول ما ملخصه - كان محمد باشا أميراً وندز يسيطر سلطانه قبل هذا على منطقة صغيرة من كردستان مثل سائر الزعماء الكرد وكان ذكياً حاد الذكاء ، يقال إنه ذات يوم سمع أن أحد إخوته

الحبيب اليه قد دخل حديقة من غير اذن صاحبها وقطع تفاحة منها ، فما كان من
الباشا إلا أن طلب إليه أخاه وقال له بأية يد قطعت التفاحة؟ فرد عليه أخوه :
بيدي هذه ثم سأله بأى اصبع من أصابعك قبضت على التفاحة فقال : بأصبعي
هذا وعند ذلك يقول الأمير يجب أن يقطع اصبعك هذا وينفذه حالا . وفي
الواقع أن حكاية مثل هذه تؤثر أيضا من (نادر شاه) شاه إيران العظيم .
هذا ويمكننا أن نذكر شيئا من المعلومات التاريخية عن عهد هذا الأمير ،
نقلا عن الدكتور (روس) طبيب السفارة الانجليزية الذي كان في بغداد حينذاك
وطالبه الأمير محمد باشا اليه في بلاد السوران . فيقول له إن محمد باشا كان قد جلب
هذا الدكتور اليه لمعالجة عين والده (مصطفى بك) الذي كان قد أضر : ولم يكن
قد ساح أحد من الأجانب في تلك الربوع سوى هذا الدكتور والميرالاي
(تايلور) . ولقد قام (روس) مع بايزيد بك عم محمد باشا من بغداد متوجهين
إلى أربل في (١٥ مايو سنة ١٨٣٣) حيث شاهد الحدود بين بلاد الامارة وبين
عمال الترك في غاية من الغرابة . إذ رأى بعيني رأسه وتحقق أن أهالي القرى
الخاضعة لحكم رضا باشا والى بغداد في حالة يرثى لها ، فقسم منهم هجروا قراهم
وقسم اضطر للبقاء فيها تحت الضنك والإرهاب يضجون بالشكوى كلما رأوا
إلى ذلك سييلا . فاذا رأوا أحدا من عمال الحكومة قادما هربوا منه واختفوا
عن الأعين ، في حين أنهم قابلوا (بايزيد بك) من أول ما وصلا إلى بلدة
(آلتون كوبري) ، التي كان بينها وبين (اربل) قرى عامرة وسهول خصبة مكللة
بالورود والزهور ولقد قوبلا في أربل خاصة بحفاوة عظيمة ، وفي (١٩ مايو
سنة ١٨٣٣) غادر روس أربل إلى (رواندز) التي كان على مقربة منها (مصطفى
بك المسن) وبعد رحلة دامت بضع ساعات بين جبال مكسوة بالأشجار
والغابات وعامرة بالقرى والبلاد وصل إلى قلعة (دمدم) مسكن ومقر
(مصطفى بك) حيث كان ظاهرا منه (وادي رواندز) واستحكما مائة الشهيرة التي كانت
على مسافة ساعة منه . و (مد) هذه قلعة صغيرة مبنية على صخرة عالية

بناء محكما مطلة على قرية ذات مائة بيت ، واقعة وراء تلك الصخرة العسائية ومستورة بالبساتين والحدائق الغناء ، حيث كانت تظهر هنا مناظر مدينة (رواندر) التي كان يقدر عدد سكانها الفى بيت وأسرة ، وتحيط بها من كل الجهات طوابى واستحكامات وتقع على نهر ؟ (فما ذهب اليه (روس) من أنه الزاب الكبير غلط) وما سمح لروس الذهاب فيما بعد إلى رواندر والتجوال فى بلاد السوران ، وفى النهاية يذكر الأزياء والقيافات . فيقول إن الأهالى كانوا فقراء وجهلاء يلبسون ملابس محلية بسيطة عبارة عن سروال وقيص من جوخ ولكن الأغنياء منهم كانوا يلبسون مثل أهالى بغداد وكان كل يوم يأكل فى منزل الأمير ، أكثر من عشرة أنفار من القرويين .

هذا وكان (مصطفى بك) قد أصيب بالعمى الذى لا دواء له ، وكان سبب عماءه هو أنه ذات يوم قانظ صعد جبلا فشعر حرا شديدا وبادر إلى وضع الثلج على رأسه ونام عليه أيضا .

كان لمحمد باشا أربعة اخوة هم تمورخان وسليمان بك اللذان كانا مقيدى بالسلاسل فى قلعة ، على مسافة خمس ساعات من رواندر وأحمد بك الذى كان حاكم أربل . ورسول بك كان فى الجيش مثله كمثل ولى العهد للأمير .

وظاهر من كلام الدكتور (روس) أنه لم يكن راضيا عن هذه الرحلة إذ يشكو من قلة العناية والاحتفاء به ، حيث يقول إن السكرد أشداء شرسون لا يعجبهم ولا ينال رضاهم ، غير الحرب والطعان . ويظهر أن هذا هو مقتضى حياتهم القاسية فى هذه البلاد حتى أن أطفالهم أيضا يعدون انفسهم للحرب والقتال ويقال إن جيش بغداد لا يمكنه الصمود أمامهم وأنهم استولوا على بلدة (آلتون كوبرى) فى ظرف ساعة ، ويقولون إن الغرض من أستيلائهم على هذه المدينة ومدينة (أربل) هو تأمينهم الحصول على الغلال اللازمة لتكوين قراهم وإلا فليس لهم طمع فى بلاد الغير ولا سيما أن بلادهم من المناعة بمكان يستحيل معها على العدو اقتحامها .

ثم يقول ان الباشا قد خصص أطراف (أربل) لمعيشة مشايخ بلاده ، كما أن عشيرة (طى) العربية خاضعة لحكم الباشا ، ولهذا العشيرة قوة عسكرية في خدمة الباشا معسكرة حول العقرة .

ويحترم الناس كثيرا الباشا إما رغبة في عدله أو رهبة منه لأن له إدارة حازمة وعدلا في تنفيذ الأوامر ، مما قطع دابر الفساد والصوصية في أنحاء البلد واستتب الأمن فيها ، لدرجة أن الأهالي حتى في القرى النائية ينامون ويوتهم أبوابها غير مغلقة طول الليل . ومن النوادر وقوع حوادث تستوجب حكم الإعدام . وحكم السارق قطع اليد ، كما أن حكم قطع الطريق قطع الرجل وعقوبة بعض الذنوب الأخرى سمل عين أو عينين اثنتين .

وحدث أن شيخا من شيوخ « طى » كان مع عشيرته قد لجأ إلى الباشا ، حدثته نفسه أن يقدم على ضرب قافلة تمر من البلاد وسلب أهوالها ، فما كان من الباشا إلا أن أرسل عشرة من رجاله الأكراد إلى هذا الشيخ غداة الحادثة لتقطع رأسه من غير ضجة ولا قتال .

كان الدكتور في (أربل) ضيفا على حاكمها (أحمد بك) فيقول انه ورد عليه وهو هناك شخص من قواد الباشا يقال له (سلطان بك) فقال له أنه قد اتصل بجيش الباشا الذي يتراوح عدده بين ٢٠ ألفا و ١٠ ألف وكان معسكرا بالعقرة التي كان قد استولى عليها منذ مدة قليلة . حيث كان الباشا نفسه يقود الجيش المهاجم الذي تمكن من الاستيلاء في مدة ثلاث ساعات ، الأمر الذي كان قد أثر في نفوس أهالي العمادية وزعزع ثقتهم بأنفسهم وحملهم على أن يقرروا تسليم القلعة من غير قتال . ويقول الدكتور انه في (٣٠ مايو) ورد خطاب من الباشا إلى حاكم أربل يأمره فيه انتظارى بها مع تقديم الاحترام اللازم .

وفي (٦ مايو) جاءت الأنباء بأن العمادية تم الاستيلاء عليها وأن سيد باشا (سعيد)

حرم من إمارة البهادينان وعين (موسى إشا) بدله حاكما على العمادية، كما أن سليم باشا عين حاكما على العقرة وهكذا خضعت جميع بلاد البادينان لحكومة (رواندز) .

وأخيرا في (٣ يونيو)، ورد أمر من الباشا بإرسال الدكتور (روس) إلى معسكره بالعقرة فيذهب الدكتور إليه ويجتمع به هنالك ثم يصفه ويقول ، أنه يناهز الخمس والأربعين من عمره بهي الطلعة حلو الحديث أسمر اللون طويل اللحية أعور العين مربوط لإحدى الساقين، لأن دابته كانت رفسته وخدشته وكان يتكلم بصوت خفيف بطيء . وسأل عن أصول التدريس، والتعليم في انجلترا وغيرها من المسائل العامة. ثم عطف على العلاقات بين الانجليز والروس وإيران وأظهر اهتمامه بها. وبعد ذلك استوضحني عن الأعمال الطبية وأثرها حتى ذكر الطاعون والسكوليرا فسألني عن طريقة مكافحتها ومعالجتهما ثم وقف في مسألة البحث عن الأسلحة والبنادق . وكان ينام في الليل متأخرا فلذا ما كان يصحو من النوم قبل الساعة التاسعة والعاشرية قبل الظهر .

ثم يقول الدكتور إن عدد جيش الباشا لم يكن أزيد عن عشرة آلاف لأن نصفه الثاني كان قد أرسله إلى الخارج بالسوران ، على أن نخبة عساكره المنظمة كانوا ثلاثة آلاف من الجنود الحرس الأشداء، ضاربين خيامهم حول خيمة الباشا وكان الجنود المشاة منهم مسلحا بالبنادق والقربينات والخيالة بالرمح والقربينات، وكان هذا الجيش مرتبا بطريقة خاصة يمكنه في الوقت المناسب زيادة عدده إلى خمسة آلاف . ولقد كان الجيش في غاية النظام والدربة يسوده السكون والانتظام التام. لا يسمع لأحد صوت ولا جلبة في المعسكر الكبير، بحيث كان الباشا في مدة خمس دقائق يحرك هذا الجيش إلى الجهة التي يريد بها. وكان يجتمع كل ليلة في خيمة الباشا أكثر من مائة ومايتين من رجال العشار المختلفة ويأكلون الطعام بها . وكان الباشا قد أمر بشراء ما يلزم للجيش أثناء

الحرب من الذخائر والعتاد بضعف قيمته ، وهذا كان منتهى العدل والإنصاف .
ولقد غادر الدكتور ، المعسكر بعد بضعة أيام إلى الموصل فأصبحه الباشا
قوة محافظة مؤلفة من العرب برئاسة (أبي سليمان) فأوصلته هذه القوة حتى
الحدود العثمانية على مقربة من الموصل . ويذكر الدكتور ، هنا ما كان عليه
الإدارة السورانية من الانتظام والحزم وما كان عليه الحال في البلاد العثمانية
من الفوضى وسوء الإدارة ، حيث يقول إننا ما كدنا ندخل الحد العثماني إلا
وفوجئنا بطلب البخشيش من كل ناحية مهددين أيانا بالقتل إن لم نعطه بالسهولة ؛
في حين أن هذه العادة القبيحة لم تكن موجودة في أراضى (حكومة رواندز)
وخلاصة القول أن الإدارة العامة في حكومة رواندز كانت أرقى وأقرب
إلى الإنصاف من الإدارة في حكم والى بغداد المسمى (على باشا) من كل الوجوه
يقول (فرازر) أن دراستي الخاصة أثبتت لى أن الباشا كان على جانب
عظيم من الحرص والحيلة والخذر مع بعد النظر ودقة الشعور ، وكان مع
عدله المفرط لا يتردد في إراقة الدماء عند اللزوم . ومن ذلك أنى سمعت أن
بعضاً من العشائر الكردية كانت قد أبدت شيئاً كثيراً من الشدة والقسوة ضد
جيوشه حين محاصرته لقلعة العمادية ولم يكتفوا بذلك بل استمروا في قتالهم
وفظايعهم حتى بعد تسليم العمادية ، مما اضطره إلى سوق قوة خاصة إلى هؤلاء
العتاة القساة فأدبتهم تأديباً صارماً حتى أبادتهم عن آخرهم .

لم يكن (محمد باشا) ثقة بالسياحين الأجانب ، فما كان يسمح لهم بالطواف
في أنحاء بلاده . وهذا لا يمنع أنه كان يبيع للتجار والمسيبيين من أهالى البلاد
المجاورة ، دخول بلاده ومزاولة التجارة فيها . ولسكنه ما كان يقبل أحداً من
بلاد خصومه أن يدخل بلده ، مهما كانت الظروف وإذا قبض على أحد منهم
عد أسيراً .

ثم يقول (فرازر) أنه كان من الخطأ بمكان أن أدخل بلاد السوران حسب

الأحوال والأصول السائدة هناك. ومع ذلك فقد ثبت لى بعد التحقيق أن الباشا لم يكن فى (رواندز) وأنه منذ عشرة أيام بعيد عنها فى جهة قريبة من الموصل يحوط غمار معركة من معاركه. فيلزم للحصول على إذن منه بالدخول والسياحة وقت طويل وأنا فى غنى عنه ولذلك عدلت عنه .

وقد أثبتت لى دراستى أنه كان هناك رواية شائعة بأن (محمد باشا) قد اغتصب الإمارة من والده بالقوة، ولبكن الصحيح هو أن والده فى أواخر أيامه قد تنحى عن الحكم وعكف على الزهد والتقوى سالكاً طريقه الصوفية. ورأى من المصلحة أن يترك أمور الإدارة فى البلاد لابنه الأمير محمد الذى ما كاد يتسلم زمام الأمور فى يده، إلا وبادر إلى تنظيم الأمور وإصلاح الشؤون وإخضاع الثائرين والمنشقين ثم بادر إلى إنشاء جيش قوى مدرب، عدة للمستقبل. ولقد صادف تولى محمد باشا الإمارة أن قامت الحرب الضروس بين إيران وبين الروس فأراد ولى عهد إيران وهو عادة يكون حاكماً لولاية تبريز أيضاً أن يضرب الأمير محمد ويتخلص منه، غير أنه بدأ أولاً بضرب بعض العشائر الكردية والإمارات القومية الأخرى، حيث ضررها عليه أكثر وأثبت. فانتهر الأمير محمد الفرصة السانحة فاسترد البلاد السورانية التى كانت قد استولوا عليها سابقاً ثم عطف عنان همته، نحو بلاد (أربل) و (العمادية) فأخضعها لحكمه، وهكذا وصلت حدود سلطانه إلى (كر كوك) ونهر (دجلة) وأصبح لديه جيش قوامه خمسون ألفاً من الجنود نصفهم مدرب تمام التدريب ذو راتب دائم، والنصف الآخر كان مؤلفاً من رجال القبائل والعشائر .

هذا وكان (على رضا باشا) والى بغداد يقف إزاء هذه الحالة مكتوف الأيدى لا يدري ما العمل لمقاومة بطش هذا الأمير الكبير وشدة بأسه. وأخيراً وجد نفسه مضطراً إلى اصطناع الملاينة وتفضيل السلام على إشعال نيران الحرب وبادر إلى الاعتراف بحكومته مستصداً رتبة (الميرميران) له من استانبول .

وفي عام (١٢٤٩هـ) - (١٨٣٣م) جهز محمد باشا هذا جيشا كبيرا على أتم
درية وأكمل نظام، وبعث به إلى بادينان بتحريك من (موسى باشا الباديناني)
الذي كان ينازع أميرها السلطة، فنشب القتال بين الفريقين ودارت رحى معارك
عديدة مع اسماعيل باشا الباديناني أسفرت عن سقوط قلعه العقرة، في قبضة
(محمد باشا) الذي توجه من هنالك إلى العمادية وحاصرها. ثم أسر حاكمها
(سعيد باشا) بعد أن سلمت إليه المدينة. ثم شد رحاله وهاجم اليزيديين في
(بعشيقة) فقتل منهم الكثيرين، وألقى القبض على رئيسهم (علي بك) وأرسله
إلى (رواندز) وأبقاه هنالك سجيناً طيلة عامين ثم قتله وجاء في رواية أخرى أن
(محمد باشا) توجه بعد ذلك إلى (جزيرة ابن عمر) وانتزع مدينتي (ماردين)
(نصيبين) من حاكمها (بدر خان بك) العزيزي.

وصفوة القول إن (محمد باشا) الشهير بالباشا الأعشى (باشا كوره) قد فتح
الكثير من البلدان في فترة وجيزة وامتدت حدود بلاده من (رانية) وهضبة
(بشدر) حتى (نصيبين) و(ماردين) ومن (كلاشين) إلى (مخمور).

ولا شك في أن ازدياد نفوذ (محمد باشا) وعلو شأنه في تلك الجهات قد
أقلق بال الدولة العثمانية وأقض مضاجع رجالها فجرد السلطان (محمود) عليه
جيشا كبيرا بقيادة (محمد رشيد باشا) (١) وأمر بأن يرافق كل من (علي
رضا باشا) وإلى بغداد و(محمود باشا) وإلى الموصل، الصدر الأعظم في
أداء مهمته.

ولما علم الأمير محمد باشا بتلك الأنباء اعتصم بقلعة (رواندز) واستعد
للمقاومة والنضال. وبعد أن استولى جيش الصدر الأعظم على منطقة بادينان

(١) في الاصل (مصطفى رشيد باشا) وهذا غير صحيح انظر الحاشية في
ص ٢٤٦ من كتاب (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) تعريب المترجم سنة ١٩٣٩.

توجه صوب (رواندز) في الوقت الذي كان فيه جيشا بغداد والموصل متجهين نحو (اربيل) . وقد كانت الأغلبية العظمى في جيش الصدر الأعظم و(علي رضا باشا) من العشائر الكردية ، فعسكر هذان الجيشان في سهل (ديانا) و(حرير) وكان الأمير محمد باشا محتلا مضيق على بك (كهلى على بك) فبدأ الصدر الأعظم في مفاوضة (محمد باشا) حقنا لدماء المسلمين وقد حذره من مخالفة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، قاطعا على نفسه العهود والمواثيق ألا يحقيق به ضرر ما ، إذا استسلم للدولة العثمانية، وقد نجح الصدر الأعظم في مسعاه وانتهت المفاوضات بتسليم (محمد باشا) نفسه إلى الصدر الأعظم فأرسل إلى الآستانة وهناك صدر عنه عفو سلطاني . وبينما هو عائد إلى بلاده عن طريق (طرابزن) صدر الأمر بالقاء القبض عليه وقتله كطلب (علي رضا باشا) وإلى بغداد الذي خشي عاقبة عودته إلى بلاده سالما (١)

(١) لما زاد الميجر ميلنغ ، مدينة (وان) سائحا كان (رسول باشا) واليا عليها . وذلك في سنة ١٨٧٠ م تقريبا ، فسأله الميجر عن قضية أخيه (محمد باشا) وما آل إليه أمره بعد التسليم فأجابه (رسول باشا) بما ملخصه؛ «أراد محمد باشا حوالى سنة (١٨٣٤) أن يعمل على إنقاذ بلاده من برائن الحكم العثماني ليستقل بها وينشئ إمارة من أستره فيها . حيث كان إلى جانب صفاته العسكرية الممتازة، إداريا حازما وعادلا، ولهذا كان في مكننه بحيشه الكردي المدرب أن يبسط سلطانه على الولايات المجاورة مثل كركوك والموصل ، وكان (رسول باشا) نفسه قائدا للجيش ووليا للعهد ، فأرسل الباب العالي جيشا بقيادة (رشيد باشا) الذي كان صديقا شخصية لمحمد باشا لا تتراع (رواندز) منه، ولكن الحكومة كانت راغبة في إنها هذه المسألة دون قتال فاستغلت هذه الصداقة الشخصية ستار الخيانة (محمد باشا) الذي خدع ووقع في المكيذة التي دبرها له . لأنه أجاب طلب (رشيد باشا) وذهب إلى معسكره لأجراء المفاوضات حيث =

وقد تولى إمارة السوران بعد الامير (محمد باشا) أخوه (أحمد بك) وأصبح رسول باشا حاكما للعمادية . وبعد سنتين قتل (أحمد بك) إثر مكيدة دبرها له أبناء عمومته خلفه أخوه (سليمان بك) الذي لم يدم عهده أكثر من ستة أشهر . ثم أبعد عن أريكة الحكم لضعفه . وقد جاء رسول باشا إلى العمادية وتولى منصب الإمارة فيها تحقيقا لرغبة الاهالي وتعضيد الحكومة له ، وعمر عهده سبع سنوات دون حدوث قلاقل أو إثارة فتن ، ثم حدث ان امتنع بعد ذلك عن أداء الاموال الاميرية للحكومة المركزية فجردت عليه قوة تأديبية اشتبكت معه في معركتين دامت في (ديره) و (خليفان) انسحب عقبهما إلى (رواندز) ، ولما ضاق به الامر هنالك اضطر إلى الالتجاء إلى (اشنو) ولبت هنالك خمس سنين متوالية ، وألحقت إمارة السوران خلال ذلك بالادارة العثمانية المباشرة . وبعد فترة من الزمن توسط ولي عهد إيران لدى الباب العالي بشأن (رسول باشا) فصدر عنه عفو سلطاني وعاد إلى (بغداد) وأقام فيها حيث خصصت الحكومة له راتبا شهريا قدره (٧٥) جنيا عثمانيا . ولما قامت حرب القرم بين الدولة العثمانية والروس ساهم فيها (رسول باشا) كقائد

قبض عليه وأرسل مخفورا إلى الآستانة ، وأظهر السلطان نحوه الكثير من ضروب العطف ، وقر قرار الباب العالي على تعيين (محمد باشا) واليا عاما على كردستان ومنحه سلطات واسعة ، فأركبوه سفينة حربية وأعادوه إلى بلاده ولكن مضى (٣٥ عاما) ولم يصل إليها بعد .

وقد سلم (رسول باشا) نفسه أيضا بعد تسليم أخيه وأقام فترة في بغداد ثم اشترك في حرب القرم قائدا لجيش كردي وأسدى خدمات جليلة في هذه الحرب ومعاركها الطاحنة فعينه الحكومة متصرفا للواء (قارص) مكافاة له ، ثم انتقل لتصرفية (وان) اه كتاب (حياة ابقدائية في كردستان ص ٨٥) المؤلف

للقوات الكردية والمتطوعين من العثمانيين في (أرضروم = أرزن الروم) ثم عاد الى بغداد عام ١٢٧٥ للهجرة . ثم سافر بعد ذلك إلى الحجاز ثم إلى الآستانة وبعدئذ عين متصرفا لمقاطعة (وان) وامضى فيها ثلاث سنوات اختار بعدها الإقامة بأرضروم ، وظل بها مقيما حتى توفي إلى رحمة الله سنة (١٣٠١ هـ) .

٢٤- اشارة البابان :

يقول صاحب (شرفنامه) ان بلاد إيران هي موطن البابان القديم وأن (بير بوداق بك) مؤسس هذه الأسرة قد وضع أساس حكومة قوية بانتزاعه إيالة (لارجان) (١) من العشيرة الزرزائية ، وبلاد السوران من عشائر شيوى (٢) ، وباستيلايه على منطقتي (مشيا كرد) و (سلدوز) من القزلباشية . وكان لقب هذا الأمير (به به = بابا) ولذا سميت الأسرة كلها بالبابان أو البابانية ، وبعد فترة قتله الأمير (سيدى) - الظاهر انه ابن (شاه على) حاكم السوران - في إحدى رحلات القنص والطراد .

ولما كان (بير بوداق) عقيما لم يعقب أولادا قط ، فقد تولى الإمارة من بعده ابن أخيه (بوداق بك بن رستم) الذى حكم سنتين فقط ثم اغتصب الإمارة منه أحد رجالهم المدعو (بير نظر) .

وبعد وفاة (بير نظر) انتقلت البلاد الأصلية من الإمارة إلى حكم الأمير

(١) كان مركزا لمنطقة بين الرى وطبرستان القديمتين (المؤاف) . والظاهر انه لا علاقة لهذا المركز المتطرف البعيد ، بالموضوع بل الصحيح إن الكلمة محرفة عن (لاهيجان) الواقعة بمنطقة صاو جبالاق التى فيها أيضا موطن الزرزائية . المترجم (٢) كذافي الاصل ، وعبارة شرفنامه هكذا ، انه اخذ سيوى ومشيا كرد من السوران وولاية سلدوز من القزلباشية . . . الخ المترجم

(سليمان) ، وحكم (مير ابراهيم) ما تبقى من البلاد .
وقد سلك هذان الأميران في بادئ الأمر سبيل الصلح والوئام وكلاهما قانع وراض بما في حوزته من البلاد ، ودام ذلك فترة؛ بيد أنهما اختلفا أخيراً فيما بينهما فتنازعا وظلا يتقاتلان حتى قتل الأمير (سليمان) خصمه الأمير (ابراهيم) وضم بلاده إلى حكمه الذي عمر بعد ذلك خمسة عشر عاماً . وقد ترك الأمير سليمان من بعده أربعة أبناء ، ومات الأمير ابراهيم عن ثلاثة أبناء ، وبذلك تكونت أسرتان ظلتا تتنازعا على الإمارة وتتقاتلان بغية الانفراد بها إلى أن جاء عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ — ١٠٧٤ هـ) وما كان قد تبقى في حوزة أبناء هذه الأسرة سوى سنجق (مركه = مرجه) الذي كان يحكمه طفل يدعى (خضر بك) ابن الأمير (حسين بن سليمان بك) وبعد وفاة (خضر بك) هذا ، انقرضت أسرة (سليمان بك) نهائياً (١) .

إمارة البابان الأخيرة :

يقولون إن رجلاً يدعى (فقيه أحمد) هو الذي وضع أساس هذه الأسرة ، وأنه كان سليلاً لأمراء السوران ومن عشيرة (نور الدين) إحدى بطون قبائل (بشدر = بزدر) الشهيرة . وهناك بعض روويات محلية أخرى عن حياة هذا الرجل تلو كها الألسنة في محيط البشدرين . خلاصتها أن الفقيه أحمد تمكن من حشد أناس كثيرين حوله واتخذ لنفسه لقب (به به — بابا = أب) فعلا شأنه وزادت شوكته . ثم خلفه ابنه (سليمان بابا) وسلك مسلك أبيه في نشر لواء النهضة والتقدم حتى اعتبر بحق المؤسس البارز للإمارة ، وكان يتمتع

(١) يؤخذ من رواية (شرفنامه) هذه أن الامرد البابانية الثانية قد انقرضت في أوائل القرن الحادي عشر الهجري . وأن الأسرة الثالثة قد وضع أمرها في أواخر القرن الحادي عشر الهجري على يد (فقيه أحمد) . فينتج من هذا أن الفترة التي بين أسرة الأمير (سليمان) وبين أسرة (فقيه أحمد) تتراوح بين الستين والسبعين عاماً .

المؤلف

بقسط وافر من الذكاء والبسالة والحزم ، وقد انتهز فرصة ضعف الإدارة في حكومة (أردلان) فانتزع منها بعض البلاد في عام ١١٠٦ للهجرة (١٦٩٤ م) ولما لم يرض على ذلك عام واحد حتى دهمه جيش قوى من الأتراك والبرانيين وهزمه شر هزيمة، مما اضطره إلى الالتجاء إلى استانبول ، وبعد أن أقام بها فترة، عينه الباب العالي متصرفاً لـ (أدرنه) وقد توفي بها عام (١١١٥ هـ) وقد سقطت بعض البلاد البابانية بعد (سليمان بك) في قبضة عشيرة الزنكنة وبقي بعض الآخر في حوزة أبناء سليمان بك ، بيد أن (بكر بك) أحد هؤلاء الأبناء قد تغلب على الجميع وانفرد بالامارة فوسع حدودها حتى امتدت من نهر سيروان (ديالى) إلى نهر الزاب الصغير، والظاهر أن (بكر بك) كان يرمع الاستيلاء على (كر كوك) أيضاً ولهذا السبب ساءت العلاقات بينه وبين الحكومة العثمانية التي جردت عليه جيش بغداد، الذي ظل يحاربه حتى قتل في المعركة وكان ذلك عام (١١٢٩ هـ) ودخلت البلاد البابانية في حكم الدولة المباشرة خمس سنوات كاملة، تمكن خلالها (خانه باشا) ابن أخى (بكر بك) من توطيد العلاقات مع الدولة ورجاها في بغداد واستعادة حكم أسرته إلى البلاد البابانية وتولى إدارة دفة شئونها عام (١١٣٤ هـ)

وقد صحب (خانه باشا)، حسن باشا والى بغداد في الزحف إلى إيران وضم في مقابل ذلك إمارة أردلان إلى إمارته ، وقد انحاز إلى (أشرف خان) الأفغانى في الحروب التي نشبت بينه وبين الجيش العثمانى عام (١١٣٩ هـ) وكان سبباً في إلحاق الهزيمة بالجيش العثمانى ، وهكذا ضمن بقاء إمارة أردلان في حوزته وتحت حكمه حتى أوائل عهد (نادر شاه) . وكان أخوه (خالد باشا) يحكم إمارة البابان وقت ذاك . وقد صادف قيام النزاع ونشوب الحروب والقتال بين البابان والسوران ، عهد (خالد باشا) الذى تمكن من اغتصاب (كويه = كويسنجق) من السورانيين .

وفي عام (١١٤٣ هـ) استرد (نادر شاه) إمارة (أردلان) من البابان. وفي عام (١١٥٦ هـ) عين (سليم باشا بن بكر بك) أميراً للبابان فى الوقت الذى كانت

حكومة بغداد تحاول فيه إسناد إمارة البابان لسليمان باشا بن خالد باشا ، وقد أدى كل هذا إلى إمتشاق الحسام بين الفريقين مدة كبيرة من الزمن .

وقد توجه (سليمان باشا) والى بغداد فى عام (١١٦٤ هـ) لمحاربة سليم باشا البابانى والتقى على مقربة من شمالى بغداد ودارت بينهما رحى معارك دامية أسفرت عن انكسار (سليم باشا) . وعين (سليمان باشا البابانى) حاكما للإمارة فحكمها أربعة عشر عاما فى جو مليء بالقلاقل والفتن كان يديرها (محمد باشا بن خانة باشا) تارة ، و (سليم بك بن بكر بك) تارة أخرى . وقد استمرت تلك القلاقل وتلك الفترات الصاخبة حتى تمكن والى بغداد فى عام (١١٧٤ هـ) من هزيمة جيش (محمد باشا) على نهر (نارين) والقضاء عليه نهائيا . أما (سليم باشا بن بكر بك) فإنه لم يوفق قط فى إغاراته المتواصلة على بلاد البابان .

هذا ، وبعد وفاة والى بغداد (سليمان باشا) اختلف (سليمان باشا) أمير البابان مع والى بغداد الجديد بسبب عدم سداد الأموال الأميرية المطلوبة ، فزحف البابانى فى عام (١١٧٤ هـ) بجيشه العرمرم إلى بغداد ، فأنبرى له جيش بغداد على مقربة من بلدة (كبرى) ونشب قتال بين الفريقين أسفر غند اندحار (سليمان باشا البابانى) فولى الأدبار إلى إيران وهناك أسندت إليه حكومة الشاه منصب إمارة (أردلان) ، وبعد ذلك بغامين استدعاه (عمر باشا) والى بغداد وأعادته إلى إمارة البابان فأحسن إدارتها وأوصل حدودها إلى (زهاو) و (رانية) و (كويه) ، وكان ابنه (خالد بك) أو (على بك) حاكما لأردلان . ثم انتهى أمره بقتله بقلعة (قره جوالان) فى عام (١١٧٨ هـ) وبعد زوال عهد (سليمان باشا البابانى) تولى أخوه (محمد بك) منصب الإمارة ، وبعد فترة من حكمه اختلف مع أخيه (أحمد باشا) وفقد الثقة فى حكومة بغداد فأنشق عليها وحاربها ولكن جيش بغداد تغلب عليه وانتزع منه الإمارة التى أسندت إلى أخيه (أحمد باشا) ، ولكن (محمد باشا) كان قد لجأ إلى إيران . ومالبث أن عاد منها بجيش إيراني قوى واستولى على قلعه (جوالان) واتخذها قاعدة له . وفى عام (١١٩٢)

للهجرة استرد (أحمد باشا) إمارة البابان بمساعدة الجيش الإيراني له ، وحكمها فترة من الزمن وتوفي إلى رحمة الله عام ١١٩٣ هـ وهو في طريقه إلى بغداد مع جيشه فانتقل الحكم من بعده إلى أخيه (محمود باشا) الذي اندلع لهيب القلاقل والفتن في عهده ، وقد انحاز إلى الإيرانيين وكان مصيره القضاء عليه في إيران وأسندت الإمارة من بعده إلى (إبراهيم باشا بن أحمد باشا) الذي تولى إدارتها بحزم وعزم . وأنشأ مدينة (السليمانية) ونقل إليها مركز الإمارة من قلعة (قرة جوالان) وكان ذلك في عام ١١٩٩ هـ (١٧٨٤) . وفي عام ١٢٠٢ للهجرة تولى الإمارة (عثمان بك بن محمود باشا) واشترك بجيشه في الحركات التأديبية لعشائر المنتفك بجنوبي العراق ، ولكن حكومة بغداد خاجها الشك في أمره وألقت القبض عليه وزجت به في أعماق السجن ، وعينت مكانه (إبراهيم باشا بن محمود باشا) للمرة الثانية ، ولكنه لم يحكم في هذه المرة أكثر من عام واحد ، أسندت بعده الإمارة إلى (عبد الرحمن باشا بن محمود باشا) الذي كان جديرا بمنصب الإمارة . قد عمر حكمه أربعة وعشرين عاما انقطع خلالها عن الحكم فترة وجيزة . وقد اصطدم مع جيش بغداد مرة في مضيق (بازيان) ومرة أخرى على مقربة من (كفرى) ، ثم اشترك مع (حالت أفندي) وجيش الموصل في الزحف إلى بغداد وتأديب واليها (سليمان باشا) تنفيذاً لأوامر الباب العالي فدحروا (سليمان باشا) على مقربة من بغداد واستولوا عليها . وسعى (عبد الرحمن باشا) سعيًا حثيثًا لتولى الأمور في (بغداد) ولكنه أخفق في مسعاه . وقد انقضت أيام (عبد الرحمن باشا) في قلاقل وفتن وحروب كنتيجة حتمية للعداء والبغضاء الشديدين بين أفراد العائلة الواحدة ، ولا سيما فيما بينه وبين ابن عمه (خالد باشا) الأمر الذي أفضى إلى خراب الدار والديار . ويؤخذ مما ورد في كتاب (غرائب الاثر) انه في عصر هذا الأمير كان هجوم عشيرتين كرديتين من أكراد شهر زور وهما (زرارى) و (لك) على عشائر ضفاف نهر (الخازر) وبطشهما بهما ثم رجوعهما إلى (شهر زور) في سنة ١٢٠٩ هـ .

هذا وتولى الامارة من بعد (عبدالرحمن باشا) ابنه (محمود باشا) في عام (١٢٢٨هـ) وقد عزل بعد أربع سنوات من توليه الحكم من غير ماسبب ظاهر ، وخلفه (عبدالله باشا) الا أن محمود باشا الذي كان قد لجأ الى الإيرانيين قد أتى بجيش إيراني وكسر عبدالله باشا ودحر جيشه ولم يمكنه من الاستحواذ على الامارة ، وكان الدفتر داود افندي الشهير بداود باشا بداود باشا السكولامان - وقد لجأ في عهد هذا الأمير الى البابانيين هارباً من بطش والى بغداد وطالباً المساعدة للاستيلاء على (بغداد) فساعده الأمير بجيش من البابان تمكن به من استرداد (بغداد) من (سعيد باشا) وصار والياً عليها . وقد استمرت العلاقات حسنة بين (محمود باشا الباباني) وبين (داود باشا) والى بغداد فترة من الزمن ثم عادت فسات بعد ذلك فأنحاز (محمود باشا) الى الإيرانيين واستعان بهم على والى بغداد وبذلك حافظ على مركزه ، ولما لجأ منافسه (عبدالله باشا) الى الأمير (محمد علي ميرزا) حاكم (كرمانشاه) تحسنت العلاقات بين (محمود باشا) وبين العثمانيين مرة أخرى . إذ أرسل (داود باشا) جيشاً من بغداد لنجدة (محمود باشا) حينما زحف جيش إيراني الى ولاية (شهر زور) ، بيد أن الجيش العثماني قد انكسر أمام الجيش الإيراني وسقطت مدينة السليمانية في قبضة (عبدالله باشا) الذي صار أمير البابان المستقل بفضل تعضيد إيران له .

وبعد وفاة الأمير (محمد علي ميرزا) وعودة الجيش الإيراني الى إيران . حشد (محمود باشا) قوة عسكرية هاجم بها (عبدالله باشا) وطرده من أرض البابان وبعد فترة وجيزة جردت بغداد جيشاً على (محمود باشا) بالسليمانية اضطره الى مغادرتها ، ولكن الاتفاق بين الدولتين العثمانية والإيرانية وتفاهما بشأن إدارة اماره (البابان) أدى الى اقرار تعيين (محمود باشا) أميراً للسليمانية والبابان . وعين (عبدالله باشا) حاكماً لبلدة (كويه = كويسنجق) عام (١٢٣٩هـ) . وقد تولى الحكم من بعد (محمود باشا) أخوه (سليمان باشا) الذي دام عهده ثمانى سنوات ، وقد كان ممعث قلق لـ (محمود باشا) في الكثير من الأحيان . وبعد وفاة (سليمان باشا) تولى إمارة البابان ابنه (أحمد باشا) الذي كان حازماً فعمل

بجد ونشاط على انهاض البلاد وتقدمها في مضمار العلم والعمران ، فعمد أولا وقبل كل شيء إلى وضع الأسس لتكوين جيش منظم يتولى الدفاع عن مصالح البلاد ، ولولا تهديد عمه (محمود باشا) الدائم له ، فضلا عن استعانته بالقوة الإيرانية لمناوشته واشغاله - لنجح في إتمام مشروعه كل النجاح ، ومع ذلك فقد تمكن من تنفيذه مشروعه ووضع أساس جيش البابان في عام (١٢٥٦ هـ) وليس لدينا معلومات عن آخر عهد (أحمد باشا) تبين لنا عن أعماله في تلك الحقبة. وإن كان يقال ان هذا الأمير كان مستقلا عن والي بغداد وأنه حين حاصر بجيشه (كويستنجق) هاجمه كل من (كوز لكلي نجيب باشا) والي بغداد و(عبد الله باشا) أخو (أحمد باشا) وضييقا عليه الخناق ولكنه كان مستميتا في مقاومتهما لولا ما حدث أخيرا من انتشار روح التذمر واليأس بين جنوده واضطراره إلى العودة إلى السلطانية والتوجه منها إلى (شهر زور) لاعداد جيش جديد بها من الجاف^(١) لمنازلة خصمه : وقبل أن يعود إلى السلطانية كان (نجيب باشا) قد استولى عليها فاضطر إزاء ذلك إلى اللجوء إلى إيران وهناك توسط له السفير العثماني فصدر عنه عفو سلطاني ، وبذلك تمكن من السفر إلى استانبول . وقد تولى الحكم في السلطانية بعد (أحمد باشا) هذا أخوه (عبد الله) متخذا لنفسه لقب قائم مقام ، ثم خلفه في الحكم بنفس اللقب اللواء (اسماعيل باشا) ومنذ ذلك اليوم انتهت أيام الامارة المستقلة وأصبحت تخضع للإدارة التركية المباشرة وكان ذلك في عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥١ م)

(١) يتعرض تاريخ (هامر) في المجلد التاسع من الترجمة التركية في مبحث الصلح بين العثمانيين وإيران في عهد السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ هـ ، لذكر هذه العشيرة الكردية الكبيرة وقسمتها بين إيران والعثمانيين . فيقول ان قبيلتي (ضباء الدين) و (وهاروني) من هذه العشيرة كانتا من حصة العثمانيين كما ان كتاب (منشآت صاري عبدالله) يتعرض لهذا الموضوع ويذكر (جاق) بدل كلمة (جاف) ؟ ..
المؤلف

٢٥ — اماره بانه

يقول صاحب (شرفنامه) ان هذه الامارة كانت موجودة قبل الفتح الاسلامي وانها قبلت الاسلام ديناً لها طوعاً لا كرهاً ، ولهذا لقب أمراؤها بلقب (اختيار الدين) ، وكل ما لدينا من معلومات عن هذه الامارة لا يعدو عهد (ميرزا بك بن مير محمد بك) الذي كان يحكم قلعتي (بيروني) (١) و (شوبوه) ومكانهما قضاء (بانه) الحالية بآيران — . وقد كان صهراً له (بيكه بك) أمير أردلان على كريمته . وكان هذا الزواج سبباً في وقوع الشقاق والعداء بينه وبين (سلطان علي) رئيس عشيرة (تتليج) ؟ الكردي الذي تغلب (٢) على (ميرزا بك) أخيراً وطرده من الامارة وعين مكانه أخاه (قائمش) . فاستعان (ميرزا بك) بجميعه (نسيبه) على خصمه واسترد إمارته منه وظل يحكمها بعد ذلك فترة من الزمن دون منازع .

ولما توفي (ميرزا بك) تولى الامارة من بعده ابنه (بوداق بك) الذي كان له أخوان آخرون من غير أمه يدعيان (محمد) و (أوغورلو) فنازعا في الحكم واشتبكا معه في القتال حتى هزماه وأخرجاه من الامارة . فذهب (بوداق بك) إلى الشاه طمأنينة مستنجداً . فمد له الشاه يد المساعدة لاسترداد إمارته . إلا أنه توفي إلى رحمة الله بعد فترة قليلة في (قزوين) ، فعين

(١) هكذا في الاصل الكردي ولكن عبارة (شرفنامه) تخالف هذا وتقول ان ولاية (بانه) هذه تتألف من قلعتين وناحية فقط . فاحداها (بيروز) والاخرى (شيوه) وانها تقع بين ولايات أردلان ومكري وبابان . واما الناحية فتدعى (بانه) ، كما ان عبارته لا تفيد ان (سلطان علي بك) رئيس لعشيرة تدعى (تتليج) بل انه موصوف بالفظ هو (غزليج) فليحذر . المترجم .
(٢) تذكر دائرة المعارف الاسلامية هذا المبحث بصورة اخرى . ولكن رواية (شرفنامه) اقرب الى الصحة .
المؤلف

الشاه (سليمان بك) أخا (بوداق بك) أميرا على البلاد وليكن الأمير (محمد) وأخاه (أوغورلو) عملا على إثارة العشائر ضد (سليمان). فأدى ذلك إلى قدوم جيش ايراني لنجدة الأمير وتوطيد أقدامه في البلاد ، وقد عمر في الحكم عشرين عاما تقدمت البلاد خلالها تقدما محسوسا ، إذ كان الأمير على جانب عظيم من الدراية والعلم وحب المساواة والعدل يخاف الله ويتقيه في كافة تصرفاته وأعماله

وقد زوج ابنته في أواخر أيامه من ابن أخيه (بدر بك) ، ثم تنازل له عن الامارة أيضا وسافر هو إلى المدينة المنورة ولبث هناك يتعبد إلى جوار رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى أن توفاه الله إلى رحمة . وكان (سليمان بك) هذا معاصرا (١) لـ (شرفخان) البديلي صاحب كتاب (شرفنامه) في تاريخ الكرد وكردستان .

هذا ويذكر تاريخ عالم آرا (ص ٥٧٤) في وقائع سنة (١٠٢٧هـ) أن أميرا يدعى اسكندر سلطان كان حاكما (بانه) وكان في خدمة الشاه عباس الأول ثم عصاه أخيرا . وقد لحقت هذه الامارة في عهد الأمير (بدر بك) بحكومة (أردلان) . ولقد مر المستشرق (ريج) في عام ١٢٣٦ للهجرة ببدة (بانه) وقابل حاكمها (نور الله خان) . هذا وكان آخر أمير في (بانه) من أسرة (اختيار الدين) هو (كريم خان) الذي قتله خادمه (يونس خان) وحل محله في حكم (بانه) . وليكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى قتل (يونس خان) هذا ، على يد ابن أخيه (فتاح بك) فانتقلت إمارة (بانه) إلى (حمه خان) ابن (يونس خان) .

وقد لبث (حمه خان) هذا حاكما على (بانه) حتى قبيل الحرب العالمية الأولى حيث اغتاله (ابراهيم البيتليسي) رئيس القوة الحربية العثمانية بآيران

عام (١٣٣٣ هـ) . وهكذا انتهت أيام أسرة (يونس خان) أيضا . وأصبحت (بانه) قضاء من أقضية لواء (سابلاخ = صاو جبلاق)

٢٦ — اماره كلباخي

أسس هذه الامارة (عباس أغاي استاجلو) بحصوله أولا على بلدة (سرجاوه) بمنطقة (مريوان = مېروان) من (بيكه بك) حاكم (أردلان) ثم استيلائه بعد مدة على (بيلهور) من العشائر الكهرية . ثم تمكن من جمع عشائر أخرى (١) حوله فقوى نفوذه وعلا شأنه فاعترف له الشاه طهماسب بامارة (بيلهور) .

وقد قبلت هذه الامارة أخيرا الحماية العثمانية، فأضافت الدولة العثمانية إليها بلاد (شيخان) و (جاكاران) و (خورخورا) و (نيره زند) و (قلعه تبه) وبضعة بلاد أخرى . حيث جعل هذا الأمير كلها سنجقا مستقلا وأسنده إلى (علي خان) الكلباخي . ولما تولى (ياز الله خان) شئون هذه الامارة عمل على توسيع حدودها وليس هنالك معلومات أخرى عن هذه الامارة .

٢٧ — اماره كهر (٢) :

يقول (شرفنامه) ان الحكام الكهريين هم أحفاد (كيو بن كودرز) ؛

(١) مثل عشائر لك وسليمانى و (مادكى = بادكى) و ورمزيار . المترجم
(٢) يقول الميجر (راولفسون) الذى زار زهاب سنة (١٨٣٦ م) فى صدد الكلام عن الكهر ما يلى : « يقول الكهريون عن أنفسهم أن أصلهم يرجع إلى العصور العريقة فى القدم وأنهم من نسل (رحام) الذى هو بختنصر الشهير الذى اجتاحت فلسطين ونقل يهودا يبلغ عددهم ٤٠ - ٥٠ ألفا تقريبا إلى جبال (زاغروس) وأسكنهم فيها ، والظاهر أن أفراد هذه العشيرة هم

وتنقسم هذه الأسرة الحاكمة إلى ثلاثة فروع :

- (١) نبلاء بلنكان .
- (٢) نبلاء درتنك .
- (٣) نبلاء ما هي دشت .

١ - نبلاء بلنكان

كان الأمير الشهير (غيب الله بك) من فرع (بلنكان) . وكان يحكم بعض القلاع في (شهرزور) والبلاد القريبة منها . وعين بعده ابنه (محمد بك) من قبل الشاه طهماسب أميراً على البلاد ، وقد نهض هذا الأمير بالبلاد نهضة علمية أفادت منها البلاد كثيراً . ولما صاهره الشاه طهماسب على ابنته ، علا شأن البلاد وقويت شوكتها . وقد قسم الأمير (محمد بك) البلاد في حياته بين أولاده الأربعة ، وبعد وفاته خلفه ابنه الأمير (اسكندر) وحكم البلاد عشرين عاماً

أحفاد هؤلاء المهاجرين المنفيين . لأن كثيراً من أسماء الاعلام فيهم تشبه أسماء اليهود ، ولأنهم من جهة أخرى يعتقدون أن (داود) عليه السلام هو النبي المختص بهم مع كونهم مسلمين من (العلي إكهيين) .

وأرى أن هذا غير صحيح لأنه إذا كان هنالك بعض دلائل على هجرة اليهود ونفيهم إلى تلك الجهات ، فذلك يدل على أن هؤلاء الكاهريين أي أجدادهم اقتبسوا من عادات وتقاليد اليهود بحكم الجوار والاختلاط ، ولكن ليسوا أحفاد هؤلاء الدخلاء على البلاد . ومع ذلك فإن التاريخ يقول أن (كيروس - كيكسرو) بعد أن فتح (بابل) وضعها إلى إمبراطوريته أعاد اليهود المبعدين إلى بلادهم فلسطين . وليس من البعيد أن يكون الكاهريون أحفاد (رحام بن كودرز) الذي أشارت إليه الشاهنامة أو (كودرز) أحد ملوك الاشكان الذي حارب (مهرداد) حاكم (أرمينية) .

المؤلف

وبعد (اسكندر بك) سقطت قلعة (بلنكان) في قبضة أمير (الدينور) (١)
ثم صارت مقاطعة عثمانية .

٢ - نهر، درتک

قامت هذه الامارة بمنطقة (حلوان) القديمة، وكان مركزها قلعة (درتک)،
والمعروف من أمرائها كما يأتي : وأولهم هو (زوراب = سهراب بك) الذي
اكتسب شهرة في البسالة والسخاء والكرم، واتسعت في عهده حدود الامارة .
ثم خلفه ابنه (عمر بك) الذي خضع للسلطان (سليمان القانوني) وقبل
حمايته . ثم جاء من بعده ابنه (قباد بك) الذي تولى الحكم وعمل بجد ونشاط
على إنهاض البلاد وتقدمها حتى اتسعت حدودها وامتد سلطانها حتى (الدينور)
(بغداد) . وكان على جانب عظيم من الذكاء والقوة ورفعته الشأن ، وكان
معاصرا للأمير (شرفخان البدليسي) صاحب (شرفنامه) (٢)

٣ - نهر، ماهی دشت (مايرشت)

قامت هذه الامارة في بلدة (بيله ور) (٢) ، وكان المدعو (منصور بك)
هو أميرها في عهد (شرفخان) الشهير .

(ملحوظة) كان هنا في الأصل بحث الحكومة العنانية فنقل الى باب
الحكومات كما سبق ذكرها .
المترجم

- (١) هو (سولاغ حسين تكلو) حاكم الدينور من قبل الشاه إسماعيل .
- (٢) حيث يقول انه كان يحكم قلاع (باوه ، باسكه ، آلائي ، زنجير ،
روانسر ، دوان ، زرمانيكبي) .
- (٣) وفي مكان آخر في شرفنامه (تيله رو) بالتاء .
المترجم

﴿٥﴾ - امارات ايران الشرقية (٢٨ - ٣٠)

تقول (دائرة المعارف الاسلامية) إن العشائر الكردية الايرانية الأساسية كانت تتألف من ثلاثة أقسام : (سياه منصور) و (جكنى) و (زنكنه) نسبة إلى أجدادهم الذين كانوا ثلاثة إخوة قدموا من لرستان . فضلا عن هذا ، فإن هذا المصدر يضيف إلى ذلك بحثه في المجلد الرابع عن عشيرة (شبانكاره) وإمارتها الشهيرة التي قامت في فارس وكرمان . وفيما يلي موجز لهذه الامارات :

٢٨ - اماره سياه منصور :

يقول صاحب (شرفنامه) إن هذه الامارة تم تأسيسها في عهد الشاه طهماسب ، حيث استدعا إلى بلاطه أميرا من فرع (سياه منصور) يدعى (خليل بك) ومنحه لقب (خان) سنة (٩٦٠ هـ) ، وأسند إليه منصب أمير أمراء جميع أكراد إيران . فنفذ حكمه في أربع وعشرين عشيرة كردية ، علاوة على عشيرته (سياه منصور) ، كما أقطعه الكثير من البلاد والأراضي فيما بين العراق وأذربيجان ، وكان يعسكر بمعية هذا الأمير بصفة دائمة ، حوالى ثلاثة آلاف فارس وهو مقيم بين (قزوین) و (تبریز) للمحافظة على الثغور والحدود في تلك الجهات ، وبعد ثلاث سنوات أخذ نفوذ (خليل بك) يتضاءل رويدا رويدا وبدأت تتحرك علامم الفتن والقلاقل ، مما حمل الشاه و (سلطان محمد) على إبعاد (خليل بك) إلى (خراسان) . حيث انحصرت سلطته في عشيرته (سياه منصور) فقط ، وأخيرا عين محافظا لحدود (خراسان) . وقد خلف (خليل بك) في منصبه ابنه (دولتیار خان) الذى عينه الشاه فيما بعد محافظا لحدود (آذربيجان) ، فقام بتنفيذ إصلاحات عظيمة في تلك النواحي ، ثم شق عصا الطاعة على الحكومة فدهمه جيش إیرانى بقيادة (مرشد قولیخان شاملو)

وحاصره في قلعة (شبستان) ، ولكن (دولتيار خان) خرج من القلعة ذات يوم فجأة وباغت الجيش الايراني بهجوم عنيف فألحق به هزيمة منكرة وشنت شمله شذر مذر، بعد أن قتل الكثيرين من القزلباش ونهب أموالهم وأثقالهم وقد طمع (دولتيار خان) بعد هذا النصر المؤزر في ولاية العراق^(١) ، ولكن الشاه (عباس) قابله بجيش عرمرم بقيادة (مهدي قلي سلطان) فما كان من (دولتيار خان) إلا أن استسلم للشاه دون قتال فأخذه الشاه وسجنه مع أتباعه ثم ما لبث أن قضى عليهم جميعا القضاء المبرم . ويلوح أنه لم يبق بعد ذلك أحد من هذه العائلة في الوجود ، وانتهت أيام هذه الامارة أيضا كسائر الامارات الكردية الأخرى .

٢٩ - إمارة جكني

يقول (شرفنامه) ان عشيرة (جكني) هذه كانت وما زالت ذائعة الصيت بالاقدام والبسالة بين العشائر الكردية الايرانية ، ولكن حرمانها من رئيس فعلي لزعامتها قد أدى إلى تشتتها فيما بين (العراق) و (آذربيجان) وإمعانها في النهب والسلب ، فضج أهالي تلك البلاد بالشكوى والتذمر من تصرفات هذه العشيرة ورفعوا شكايتهم إلى الشاه (طهماسب) الذي أصدر أمره بمطاردتهم في جميع الأنحاء والقضاء عليهم أينما كانوا ، وقد تمكنت خمسمائة أسرة من اللجوء إلى (خراسان) والاستيطان بها ... وكان يحكم (هرات) وقتذاك (قزاق خان تكلو) الذي كان يهاب الشاه (طهماسب) ويخشاه ، فانتهاز الفرصة وبسط حمايته على هذه العشيرة المنكوبة وأسكنها في (غرجستان) بين هرات وكابل .

(١) احدي ولايات ايران الادارية ولعلها (العراق المعجمي = الجبل) . المترجم

(٢) في شرفنامه ، خمسمائة نفر من الأعيان والرؤساء وغير ذلك من

ولما علم الشاه (طهماسب) بذلك غير رأيه في هذه العشيرة وشملها بعطفه وأسند
أمرها إلى أمير جكني يدعى (بوادق بك) ، فسعى هذا الأمير وأعاد هذه
العشيرة إلى (خراسان) وأسكنها فيها تحت إمرة الشاه وسلطانة .
• ولقد أسدى (برادق بك) وعشيرته خدمات جلى للشاه (عباس) في حربه
مع (عبد المؤمن خان) حاكم (أزبك) في سنة (١٠٠١ هـ) وكافأه الشاه - نظير ذلك -
مكافأة مجزية ، بأن عينه هو وخمسة من أبنائه قوادا في الجيش الايرانى مع اسناد
منصب أمير الأمراء إلى (برادق بك) نفسه . ويقول (شرفنامه) ان هذا الأمير
كان معاصرا لشرفخان البديسى نفسه حيث كان في مقدمة رجال الشاه (عباس) .
ومن دواعى الأسف أنه ليس لدينا معلومات عن نهاية هذه الامارة
الكردية وعشيرتها .

٣٠ - امارة زنكند

يروى لنا (شرفنامه) أن هذه الامارة كانت معروفة ومشهورة حتى عهد
الشاه (اسماعيل الاول) ، ثم انقرضت الأسرة الحاكمة ، مما اضطر أفراد العشيرة
وبعض رجالها البارزين إلى الانخراط في سلك الحرس الشاهانى وسائر رجال
الدولة الصفوية .

(ملحوظة) كان فى الأصل هنا مبحث حكومة الشبانكاره فنقل فى
الترتيب الجديد الى الباب الاول فى مبحث الحكومات . المترجم

﴿ و ﴾ - « امارتا خراسان » (١ - ٢)

١ - إمارة قوجان

قلنا في المجلد الأول من هذا الكتاب في مبحث جغرافية كردستان ان عشائر كردية تقيم في خراسان أيضا . ويذكر (Hon. george N. Curzan) في رحلته (إيران) بصدد البحث عن هذه العشائر الكردية مايلي : نقل الشاه (عباس الكبير) بعض العشائر الكردية القاطنة في شمال غربي إيران إلى خراسان للاعتماد عليهم في المحافظة على حدود إيران الشمالية الشرقية ضد إغارات التركان ، وهذه العشائر هي (شاهدلو) و (زعفرانلو) و (كيروانلو) و (أمانلو) ويقول صاحب رسالة (غربي إيران وعشائره ورجاله) أن تعداد عشيرة الزعفرانلو فقط كان يبلغ ٤ ألف أسرة، وفرع من هؤلاء كان يبلغ عددهم ثمانمائة أسرة مقيمون في قضاء (جناران) كما ان عشيرة شادانلو بحسب تعداد سنة ١٩٠٨ كان عددها (٢٨٠٠) أسرة (ص ١٣٠ - ١٣٢) ، وأقامت غالبية هذه العشائر في منطقة (قوجان) . أما فرقة (شادانلو) فأقامت في جهة (بوجنورد) وكانت لعشائر (قوجان) إمارة شبه مستقلة إذ كانت تتمتع بالحرية الكاملة في أمور الداخلية ، وكان لها قانونها الخاص ومحاكمها الخاصة ولم يكن لها أدنى ارتباط إداري بالحكومة المركزية اللهم إلا دفع ما سنوي مقرر لها . وقد أراد (نادرشاه) في وقت ما أن يخضع هذه الإمارة لسلطة الحكومة الإيرانية المباشرة . وتمهيدا لذلك تزوج بكريمة أمير العشيرة (إيلخان) ولكن لم يجده ذلك نفعا .

وأخيرا اضطر في أواخر عهده إلى الزحف بجيش لجب نحو (خراسان) لاختضاع هذه الإمارة لسلطانه ، ولكنه ما كاد يصل إلى واجهة قلعة (قوجان) ويعسكر بجنده حتى سطا عليه ليلا أحد الفدائيين وقطع رأسه في فراشه في

سنة (١٧٤٧ م) . وفي عهد القاجاريين أيضاً زحف الشاه (قتمعلي خان) إليهم ونازلهم في بلادهم ولم يتمكن منهم فاضطر لابرار الصلح معهم .
وفي سنة (١٨٣٢ م) زحف عباس ميرزا (الأمير عباس) إلى قوجان واستولى عليها عنوة ، بفضل مساعدة ضباط إنجليز كانوا يقودون المدفعية .
وقد أسر (عباس ميرزا) أمير العشيرة (رضا قليخان) وأصبحه معه إلى (طهران) ثم أرسل منها إلى (تبريز) وهناك أعدم وعين بدله ابنه (سام خان) إيلخانا .
وفي سنة (١٨٨٦) وهي السنة التي قام فيها المستر (كرزون) برحلته إلى إيران كان الإيلخان هو أمير الأمراء (شجاع الدولة الأمير حسين خان) الذي ثار على الحكومة في وقت ما وعزل من منصبه ثم عاد أخيراً واتفق معها وتوطدت العلاقات بينهما ، وكان على جانب كبير من الحزم والعزم وقوة النفوذ ، هذا وكانت إمارة (قوجان) هذه غنية وقوية على العكس من إمارة (بخباورد = بجنورد)

٢ - إمارة بجنورد

كانت هذه الإمارة ضعيفة ، وكان يخضع لها بعض العشائر التركمانية ، وكان لفظ (إيلخان) لقب أمرائها الرسمي ، وتقدر (دائرة المعارف البريطانية) عدد الأكراد في تلك الإمارة وقتذاك بمائتين وخمسين ألف نسمة .

﴿ ز ﴾ - امارات جبل لبنان (١ - ٣)

يؤخذ من كتاب (أخبار الأعيان في جبل لبنان) (١) أن هناك عدة إمارات صغيرة أسسها الكرد في أنحاء جبل لبنان نذكر منها مايلي :

١- مشايخ العماديين الدرزيين:

هاجر جد هؤلاء العماديين وكان يدعى (عماد) من العمادية التي بولاية الموصل ، إلى الجبل الأعلى وسكن قرية (مرطحون) ثم انتقل منها إلى قرية (تالينا) وبعد مدة رحل إلى منطقة (العرقوب) وأقام بقرية (الزنبقية) وأخيراً اشتبك هو وأتباعه مع أسرة (جانبلاط) الشهيرة في النزاع ، قتل من رجال هذه الأسرة الأخيرة عدد غير قليل فاضطر العماديون بعد ذلك إلى الهجرة إلى عين (وزيه) ثم إلى (الباروك) حيث توفي (عماد) فيها إلى رحمة الله عن أربعة أولاد ذكور . ولكن رئاسة العائلة انتقلت إلى أخيه (سرحال) وقد قتل أخيراً (غضبان) الابن الصغير لعماد مع الأمير علي فخر الدين المعني في المعركة التي قام بها أحمد باشا الصغير في حان (حاصبيا) ضد الجبل ، كما أن أخوانه الآخرين قضوا بينهم أخيراً إما في ساحة الوغى وإما حتف أنفهم .

وفي سنة (١٦١٠) م نصب أحمد باشا الكوريلي الشيخ (سرحال) حفيد عماد حاكماً للشوف بدل الامراء المعنيز ، الامر الذي أفضى الى قتله مع هؤلاء العماديين واستئصالهم من جبل المعنيز وأنصارهم وعلى رأسهم الأمير أحمد المعني ، ولكن واحداً منهم تمكن من الاختفاء مدة تحت اسم مستعار حيث حافظ على تسلسل الأسرة ودوامها مدة غير قليلة . ومن اشتهر من هذه الأسرة بعد هذه الحوادث (فاسم بن الشيخ عبد السلام العماد) الذي كان في غاية من الذكاء والنشاط

(١) مؤلفه الشيخ طنوس بن يوسف الشديق طبع بيروت سنة ١٨٥٩ .

فاشتبك مع الشيخ على الجانبلاطى سنة ١٧٨٨ فى النضال والمشاحنات التى أدت
اخيرا إلى انقسام أهالى تلك النواحي إلى معسكرين يرأس أحدهما (اليزبكيون)
الذين كانوا مؤلفين من جماعات بنى عماد و بنى تلحوق و بنى عبد الملك . ويرأس
الثانى (الجانبلاطيون). وفى سنة (١٧٩٢) أمر الأمير قعدان الشهابى مشايخ العماديين
والمكديين بالزحف إلى الجانبلاطيين فقاموا بالمهمة خير قيام وهكذا اشتركوا فى
أغلب حوادث لبنان البارزة حينذاك ، كما أن الشيخ (خطار) من أحفاد العماديين
أراد الذهاب بمعيته البالغة ثلاثمائة جندي ، مع الأمير أمين أرسلان إلى أرضروم
للاشتراك فى جهاد الروس و حربهم سنة (١٨٥٤) ولكن شيوخ الأمير إلى
استانبول حينئذ ، حمل الشيخ خطار إلى العودة إلى الجبل (ص ١٦١ فصل ١٦)

٢ - أمراء بنى سيف الدين

هؤلاء الأمراء من أحفاد المقدم جمال الدين سيف ، كانوا متوطنين فى جهات
طرابلس والعكار و حصن الكراد وكانوا حكاما على المنطقة الواقعة بين
نهرى الكلب و ابراهيم . ولما قام نزاع فى سنة (١٥٢٨) م بين بنى شعيب حكام
طرابلس و بين بنى سيف الذين اضطروا نتيجة لهذا ، إلى الرحيل إلى الباروك ونالوا
تعضيدا من آل العساف والمعنين فهاجموا الشعيبيين وانتزعوا منهم العكار
وأقاموا بها . وقد تولى رئيسهم (يوسف باشا) ردحا من الزمن منصب حاكم
طرابلس ، بيد أن علاقاته مع الدولة العثمانية قد ساءت أخيرا فاضطر لترك
المنصب والرحيل إلى برية الشام . وفى سنة (١٥٩٠ م) ظهر فجأة على رأس
قوة باغت بها العسافيين وقتل أميرهم محمدا . وفى سنة (١٦٠٢ م) استولى على
بعلبك ونهبها وأخربها ثم عاد إلى طرابلس . وفى سنة (١٦٠٥) تفاهم مع حاكم
حلب (على باشا جانبلاط) ولم يمض على ذلك سنتان إلا وتفاقم الشر بينهما
فاقتتلا وقامت معركة بينهما فى (حماء) غلب فيها (يوسف باشا) على أمره
ولجأ إلى دمشق ، غير أن خصمه على باشا قد ضيق عليه هنالك أيضا بواسطة
حليفه الأمير نجر الدين المعنى . وأخيرا تفاهم مع خصمه على أن يعود إلى

حصن الاكراد والاكتفاء بها . ولما شق (على باشا جانبلاط) عصا الطاعة على الدولة ، بادر (يوسف باشا) بأمر منها بالزحف على خصمه الثائر واشترك في تأديبه حتى سقطت حلب في أيدي رجال القوة التأديبية وعاد يوسف باشا بعد ذلك الى العكار .

وفي سنة (١٦١٨) اتفق كل من عمر باشا والى طرابلس والامير فخر الدين المعني في الزحف الى يوسف باشا . وحاصراه في قلعة الحصن ولم يمض على ذلك وقت طويل إلا وعفت الدولة عن يوسف باشا واسندت اليه منصب حاكم طرابلس ، كما أن عمر بك من بني سيفاً أيضاً تعين حاكماً لخص . وفي سنة (١٦٢٤) توفي يوسف باشا بطرابلس . وكان رحمه الله في غاية من البسالة والصبر على القتال وهو أول باشا تعين لولاية طرابلس متصرفاً . وقد تولى بعده من أبنائه السبعة . (قاسم) منصب طرابلس بدل أبيه والامير (محمود) كان حاكماً لخصن الأكراد والامير (بلك) كان حاكم العكار . ولما عين والى طرابلس أخيراً ، الامير سليمان ابن أخى يوسف باشا المرحوم حاكماً للعكار لم يسع أبناء عمومته الا الرحيل الى الحصن .

وفي سنة (١٦٢٥) استولى الامير قاسم بن يوسف باشا على قلعة (المرقب) ثم أخذوا الحصن حيث حصل التفاهم بينهم وبين الامير فخر الدين المعني على ذلك . واقد كوفي ، آل سيفاً باسناد منصب طرابلس اليهم نتيجة لاشتراكهم في الحملة التآديبية التي ساقها الدولة بقيادة أحمد باشا الصغير سنة (١٦٣٣) على الامير فخر الدين . وفي سنة (١٦٣٤) نال قاسم باشا رتبة الميرميران وتعين لمنصب حاكم طرابلس على أن يستعد للاشتراك في حرب ايران التي كانت اندلعت نازها حينذاك ، ولكنه لم يتمكن من ذلك .

وبعد مدة حل محله ابن أخيه الامير على الذي هاجمه أخيراً عمه الامير عساف واضطره الى اللجوء الى بيروت . ولقد دام النزاع بين العم وابن أخيه مدة . وفي سنة (١٦٣٥) تعين (نسايجي مصطفى باشا) متصرفاً لسنجق طرابلس فرأى من حسن السياسة أن يسند الحكم في بلاد الجبل والبترون والضنية الى

الأمير (علي) وفي بلاد العكار والحسن والصافيتا إلى أقربائه ، كما أنه سلم منصب الإيالة إلى الأمير (عساف) حينما كلف هو بقيادة الجيوش العثمانية في حرب إيران وقد ساد الوثام بين الأمير علي والأمير عساف حينما من الدهر ، غير أن الخلاف عاد كما كان سابقا على أشده ونشب القتال بينهما مدة من الزمان حتى ضج الناس والحكومة من جراء ذلك . ولما تعين شاهين باشا متصرفا لإيالة طرابلس بادر إلى قتل الأمير عساف وعمل على قطع دابر هذه الأسرة حيث عهد إلى الأمير اسماعيل الكردى والشيخ علي حمادة من رجاله بهذه المهمة فقاما بها بكل قوة وشدة ولم يتركا أحدا في طرابلس منهم . وكان ذلك سنة (١٦٤٠ م)

١ هـ من (ص ٣٤٩ - ٣٥٨)

٣ - أمراء رأس نحاس الكرد

هؤلاء الناس من الأكراد الذين أسكنهم السلطان سليم العثماني سنة (١٥٥٨ م) في مقاطعة الكوردية بجبل لبنان لحماية الجبل وحرسته من الأفرنج . ومن المعلوم أن شاهين باشا متصرف إيالة طرابلس قد ندب لابادة أسرة آل سيفاكلا من الأمير اسماعيل ابن الأمير موسى والشيخ علي حمادة في سنة (١٦٣٧)

وقد استخدم محمد باشا الكوبريلي الأمير اسماعيل هذا في سنة (١٦٥٤) غير أنه غضب عليه وساق عليه جيشا لتأديبه في السنة التالية فلم يتمكن الأمير اسماعيل من الصمود ولجأ إلى الأمير (أحمد المعنى) الذي بادر إلى تعيينه حاكما لمدينة (صور) ، وفي سنة (١٦٦٠) تظاهرت الحكومة بالرضا عنه فأعطته الموائيق بالأمان حتى حضر إلى طرابلس وقضى عليه هناك بأمر من محمد باشا .

هذا وفي عهد الصدر الأعظم (علي باشا) كان قد نصب الأمير صعب ابن حسين من هذه الأسرة ، حاكما لقضاء الجبيل إلا أن أيامه لم تدم كثيرا حيث قتل هو وأقرباؤه عن آخرهم في هجمة مباغطة قام بها العماديون .

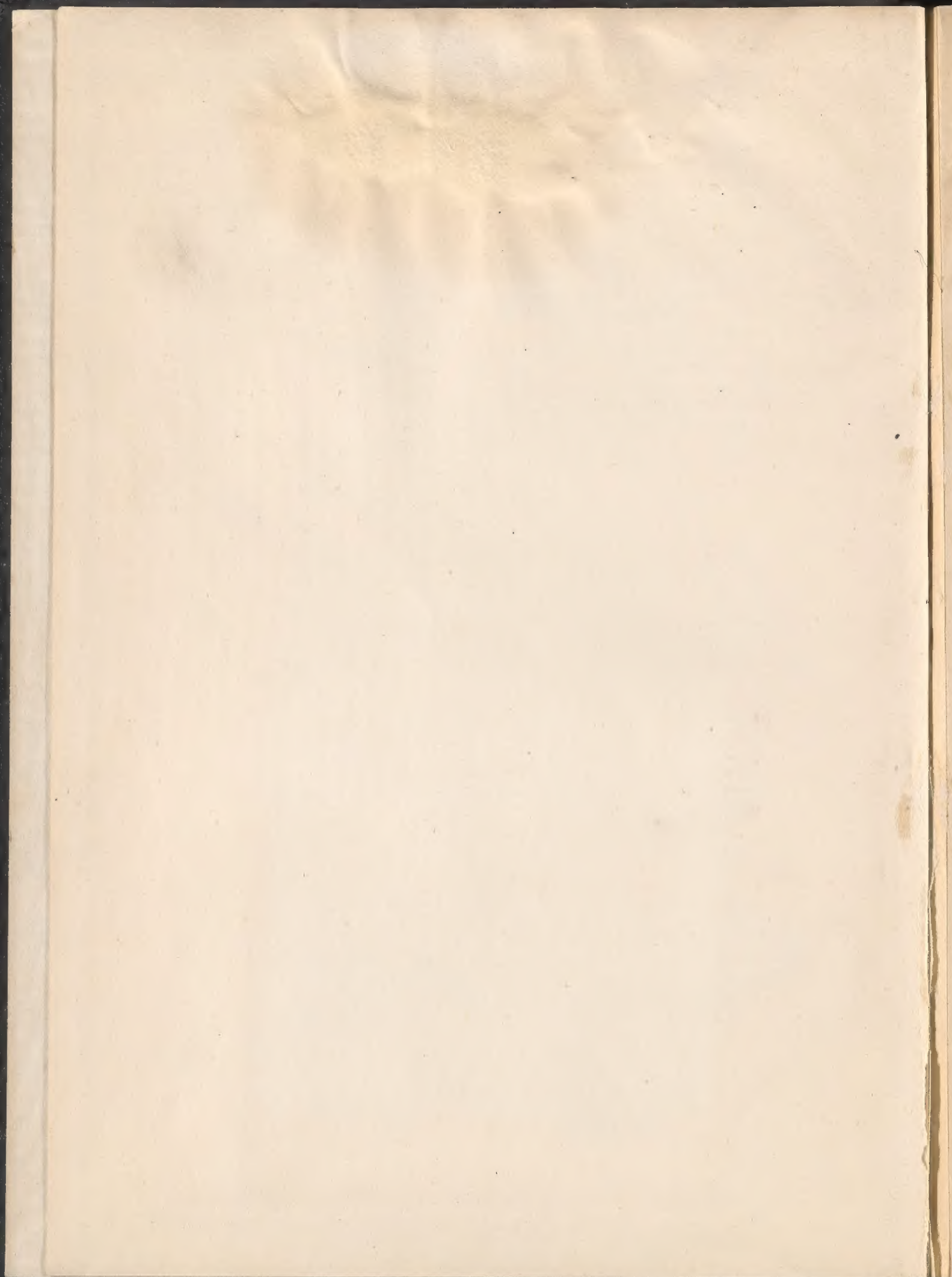
١ هـ من (ص ١٦٤ - ١٦٥)

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١	مقدمة في الحكومات القديمة	٢٩	(٣) - الحكومة الحسنة بهمدان
٢ : ١	حكومات لوللو = لولي	٧٤	حسنويه
٣ : ٢	حكومة السكوتى = الجودى	٨٤	أبو النجم ناصر الدولة (بدر)
٤ : ٣	حكومة الكاسين (كوش)	٨٥	سياسته المالية
١٢ : ٤	حكومة الميثانى		مميزاته الشخصية
— : ٥	الحكومة الخلدية		
١٤ : ٦	الحكومات السوبارية		
— : ٧	الحكومات النابرية		
١٥ : ٨	الحكومة الميدي		
١٩ : —	أعمال كى أخسار الحرية		
	الباب الاول		
٢٨ : —	في الحكومات الكردية	٩٥	(٥) - الحكومة الدوستكية المروانية
	في العهد الاسلامى		بديار بكر
	الفصل الاول	—	(أ) الأسرة الدوستكية
٢٩ (١) -	الحكومة الروادية بأذربيجان	١٠٢	(ب) الأسرة المروانية
٣٥	أسر السالار مرزبان	١٠٦	أبو سعيد المنصور محمد الدولة
٤٤	ابراهيم السالار	١٠٨	الملك العادل نصر الدولة احمد
٤٥	واهسوذان الثانى	١٢٣	أبو القاسم نظام الدين نصر
٤٨	الأمير أحمدى	١٢٤	منصور أبو المظفر
٥٠	آقسنقر الأحمديلى		
٥٢	آقسنقر الثانى		
	الفصل الثانى		
٥٧ (٢) -	الحكومة السالارية بأذربيجان	١٣١ (٧) -	حكومة الشبانكاره بفارس

ص	ص
	الفصل الثامن
١٥٠: ١ - شجاع الدين خورشيد	١٢٥ (٨) - حكومة أتابكية اللرا الكبير
١٥٢: ٢ - أتابك سيف الدين رستم	(الحكومة الفضلوية)
٣ - شرف الدين أبو بكر	١٣٦: ١ - أبو طاهر محمد
٤ - عز الدين كرشاسب	١٣٧: ٢ - أتابك هزاراسب
١٥٢: ٥ - حسام الدين خليل	١٣٨: ٣ - أتابك تكاه
١٥٤: ٦ - بدر الدين مسعود	١٤٠: ٤ - أتابك شمس الدين ألب آرغون
٧ - تاج الدين شاه	١٤١: ٥ - أتابك يوسف شاه
٨ - فلك الدين وعز الدين	١٤٢: ٦ - أتابك أفراسياب
١٥٥: ٩ - جمال الدين خضر	١٤٤: ٧ - أتابك نصرة الدين احمد
١٥٦: ١٠ - حسام الدين عمر	١٤٥: ٨ - أتابك ركن الدين يوسف شاه
١١ - صمصام الدين محمود	الناني
١٢ - عز الدين أحمد	٩ - مظفر الدين افراسياب الثاني
١٥٧: ١٣ - دولت خاتون	١٤٦: ١٠ - نور الودود
١٤ - عز الدين حسين	١١ - شمس الدين بشنك
١٥ - شجاع الدين محمود	١٢ - بير أحمد
١٥٨: ١٦ - الملك عز الدين بن شجاع الدين	١٤٧: ١٣ - أبو سعيد
١٥٩: ١٧ - الملك سيد احمد	١٤ - الشاه حسين
١٨ - شاه حسين	١٥ - غياث الدين
١٩ - شاه رستم	١٤٨ - ملحوظة على كتاب (كوردلر)
١٦٠: ٢٠ - أوغوز خان	الفصل التاسع
٢١ - جهانكير	١٤٩ (٩) - حكومة اللرا الصغير
١٦١: ٢٢ - شاه رستم الثاني	(الأسرة الخورشيدية)
١٦٣: ٢٣ - شاه ويردي	
١٦٦: ٢٤ - (ملحوظة)	

ص	الفصل العاشر	ص
٢٤٨	الملك العادل الثانى	
٢٥١ : ١	الملك الصالح نجم الدين أيوب	
٢٥٧ : ٢	أهدافه وآثاره	
٢٥٩	عهد سلطنة تورانشاه	
٢٦٢	نهاية الايوبيين بمصر	
٢٦٤ : ٢	الحكومة الايوبية بحلب	
٢٦٧ : ٣	الحكومة الايوبية بالشام	
٢٦٩ : ٤	الحكومة الايوبية بحماه	
٢٧٠ : ٥	الامارة الايوبية فى حمص	
٢٧١ : ٦	الحكومة الايوبية باليمن	
٢٧٣	نظرة عامة فى السلطنة الايوبية	
	الفصل الحادى عشر	
٢٧٦ (١١) -	حكومة بنى أردلان	
	الفصل الثانى عشر	
٢٩٢ (١٢) -	حكومة ملوك الكرد = الكرت	
	الفصل الثالث عشر	
٢٩٥ (١٣) -	الحكومة الزندية	
٢٩٨ : ١	عهد كريمخان	
٣١٠ (١) -	أخلاقه وسجاياه	
٣١٤ (ب) -	الحالة بعد وفاة كريمخان	
٢ -	عهد لطف على خان	
٣٥٤	نظرة عامة الى هذه الحكومة	
	١٦٧ (١٠) -	الحكومات الايوبية
	١ -	من مؤسس هذه الحكومات
	١٦٩ : ٢ -	كيف تقدموا
	١٧٢ : ٣ -	نشأة الامير صلاح الدين
	١٧٣ : ٤ -	سفره الاول الى مصر
	١٧٥ : ٥ -	صلاح الدين يسافر لمرثية ثانية
	١٧٧ : ٦ -	سفره الثالث
	١٧٩ : ٧ -	وزارة الامير صلاح الدين
	١٨٦ : ٨ -	بعد وفاة السلطان نور الدين
	١٩٣ : ٩ -	عهد السلطنة
	٢٠٣ : ١٠ -	السلطان صلاح الدين
	والصليبيون	
	٢١٨ : ١١ -	اتصال السلطان بالجيش
	الانجليزى	
	٢٢٦ : ١٢ -	وفاة السلطان صلاح الدين
	٢٢٨ : ١٣ -	صفاته وخصاله
	٢٣٤ : ١٤ -	آثاره العمرانية والمدنية
	٢٣٧ : ١٥ -	أنجال السلطان صلاح الدين
	الملك الافضل والعزير والعدل	
	٢٤١ : ١ -	سلطنة الملك العادل
	٢٤٣ : ٢ -	صفاته ومزاياه
	١ -	سلطنة الملك الكامل
	٢٤٧ : ٢ -	صفاته ومزاياه

ص	ص
٣٨٩ (ب) أسرة تركه ور	الفصل الرابع عشر
٣٩٠ : ١٩ - اماره مكري	٣٥٧ : (١٤) - حكومة الامارة البراخويه
٣٩١ : ٢٠ - اماره استوني	الباب الثاني
(د) - المجموعة الحكارية الجنوبية	٣٦٢ - في الامارات الكردية في
٣٩٢ : ٢١ - اماره البادينان (بهادينان)	العهد الاسلامي
٣٩٩ : ٢٢ - اماره داسني = طاسني	(١) - امارات بين الجزيرة ودرسم
٢٣ : - « السوران = السهران	٣٦٣ : ١ - اماره الجزيرة
٤٠٦ : - حكومة محمد باشا الكور	٣٦٦ : ٢ - « خيزان
٤١٦ : ٢٤ - اماره البابان	٣ : - « شيروان
٤١٧ : - « البابان الأخيرة	٣٦٧ : ٤ - « بدليس
٤٢٠ : ٢٥ - اماره بانه	٣٦٩ : ٥ - « صاصون
٣٢٥ : ٢٦ - « كلباغني	٦ : - « السويديه
٢٧ : ٠٠٠ - « كاهر	٣٧٠ : ٧ - « البازوكين
٣٠٦ : ١ - نبلاء بلنكان	٣٧١ : ٨ - « المرديسي (مرداسي)
٤٢٧ : ٢ - « درتنك	٣٧٢ : ٩ - « جمشكزك
٠٠٠ : ٣ - « ماهي دشت	(ب) - امارات بين الجزيرة وكلس
٤٢٨ : (هـ) - امارات ايران الشرقية	٣٧٣ : ١٠ - اماره حصن كيف = حسنكيف
٠٠٠ : ٢٨ - اماره سياه منصور	٣٧٤ : ١١ - « سليمان = سليفاني
٢٩ : ٠٠٠ - « جكني	٣٧٥ : ١٢ - « زوقى = زريكي
٤٣٠ : ٣٠ - « زنكنه	٣٧٦ : ١٣ - « كلس واعزاز
٤٣١ : (و) - امارتا خراسان (١ : ٢)	(ج) - امارات ما بين الجزيرة وخوي
٠٠٠ : ١ - « قوجان	٣٨٠ : ١٤ - اماره الحكارية = الهكاريه
٤٣٢ : ٢ - « بجنورد (باجنورد)	٣٨٢ : ١٥ - « المحمودي
٤٣٩ : (ز) - امارات جبل لبنان	٣٨٣ : ١٦ - « بنياناش
٠٠٠ : ١ - مشايخ العماديين الدروز	١٧ : - « الدنبلي
٤٣٤ : ٢ - امراء بني سيفا الاكراد	٣٨٨ : ١٨ - « برادوست
٤٣٦ : ٣ - امراء رأس نحاش الاكراد	٣٨٩ (١) أسرة صوماي
٤٣٧ : - فهرس الموضوعات	



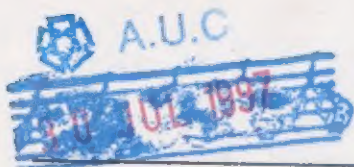
AUC - LIBRARY



DATE DUE

MAR

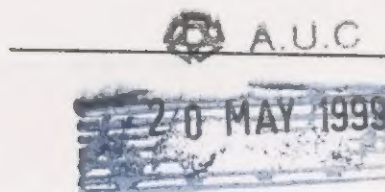
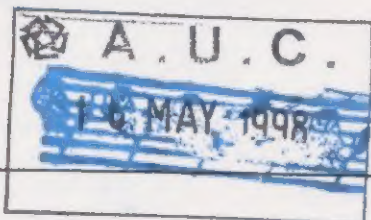
1975



$\frac{C \cdot V}{X} = 10 + \frac{C \cdot V}{X}$

$\frac{V}{C}$

$\frac{C \cdot V}{X} = 10 + \frac{C \cdot V}{X}$



DS
51
K7
Z29x
1945



1 0 0 0 0 1 2 8 6 0 3

